د. عمرو عبد العزيز منير

الحضارة المصرية القديمة

بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية



مكتبة النافذة

الحضارة المصرية القديمة

بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية

تأليف: د. عمرو عبد العزيز منير

الناشر

مكتبة النافذة

الحضارة المصرية القديمة

د. عمرو عبد العزيز منير

الطبعة الأولى 2009

رقم الإيداع: 21253 / 2008

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى (ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787

Mob: 012 3595973

Email: alnafezah@hotmail.com

إهداء

إلى روح جدي محمد المعلم «

الذي أغراني عشقه للكتاب » عرفانًا وتقديرًا.

إلى أستاذي الدكتور قاسم عبده قاسم

معلمي الذي تتلمذت على يديه السخيتين

إلى الصديق الإنسان الدكتور/حاتم الطحاوي

الذي يعلمني كل يوم أنني لا أعلم شيئاً

اعترافاً، يشوبه الخجل لضعف القوة وقلة الحيلة، ببعض بعض فضله.

إلى اهرامات مصر والوطن العربي

في الدراسات الفولكلورية والأثرية

الرائدة سهير القلماوي (رحمها الله)

الدكتور محمد رجب النجار (رحمه الله)

الفنان المبدع سعد الخادم (رحمه الله)

الدكتور احمد علي مرسي

الدكتور حسين عبد الرحيم عليوة

الأستاذ صفوت كمال

الذين تتلمذت على مؤلفاتهم الخصبة

نبت بحثي أخضر، أقدمه عرفاناً بالفضل.

عمرو

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدمة

(... وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل، وَهَمُوا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المُضْعَفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثارَ الكثيرُ ممن بعدهم واتبعوها. وأدَّوْها إلينا كمَا سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا تُرَّهات الأحاديث ،ولا دفعوها. فالتحقيق قليل، وطرْف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين سليل ، والتطفل على الفنون عريض وطويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل ، والحق لا يقاوم سلطانُهُ والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانُهُ، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقّل، والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل....).

ابن خلدون

(العبر وديوان المبتدأ والخبر) 3/1

(المقدمة) 282/1

ظاهرة السحر، أو علم السحر، أو فن السحر ـ كما يحلو لبعض الباحثين، والعلماء أن يسموه ـ يرجع إلى العصور الموغلة في القدم، وهي ظاهرة ثقافية متشابهة توجد في مختلف أنحاء العالم، فكل الشعوب تعرف الحجاب، والطلسم، والبخور، وطقوس الأعمال السحرية المختلفة كالصمت، والصوم، وخلو المعدة من الطعام. .الخ. أما

ظاهرة السحر في المجتمع المصري، فجذورها ضاربة إلى عهد المصريين القدماء، وهي موجودة في كثير من تفصيلاتها كما كانت تماماً في مصر القديمة (كالعروسة الورقية التي تثقب بالإبرة لاتقاء شر العين، والحسد، والرقي المتعددة الأغراض).

فالمعتقد الشعبي السحري يحتل مكانة هامة في المعتقدات الشعبية، ويظهر في استخدامات مختلفة في وسائلها وغاياتها، ومن العسير وجود شئ في العالم، سواء أكان إنساناً أو حيواناً أو طيراً، صخراً أو شجراً أو ماء جارياً، لا يعزى إليه قدر من الغموض، وبرغم ذلك يظل المعتقد السحري من أكثر عناصر التراث الشعبي مقاومة للتغير وأعصاها استجابة للتجديدات، وأميلها إلى الاستمرار والثبات وهذا ليس صفة سحرية غامضة، ولكنه أمر مفهوم يمكن تبريره، فهي أمور خبيئة في صدور الناس، ولا تكون في العادة محلاً لكثير من الحوار والجدل بين المرء ومن يعيش معهم، ولكنها تتجمع في صدر من يؤمن بها، حتى تتركز، ثم تنطلق في صورة سلوك، وتؤدى بشكل خاص أو سريع متعجل، تحيطه في أكثر الأحيان إمارات رهبة وعلامات حرص زائد. لذلك خضعت - أكثر من غيرها من عناصر التراث الشعبي - لنظريات الاستمرار ومقولات الثبات.

والسحر من أول الأمور التي اهتم بها الإنسان واعتقد في وجودها وحقيقتها، فقد نقش معتقداته وطقوسه وتعاليمه ومعرفته على هذه الصخور أو صنع لها التماثيل. ولما ارتقى به أمر القراءة والكتابة عمد إلى الكتابة فيه، وترك مخلفات كثيرة بين مخطوط ومكتوب ومنقوش تدلنا جميعها على مبلغ اهتمامه بالسحر ومازال على هذا المنوال حتى يومنا هذا. فالسحر هو الذي أنشأ لنا الطبيب والصيدلي، وعالم المعادن ، عالم الفلك كما أثرى الوجدان الشعبي في سياق تأويلاته للكون والأحداث ورأيته لذاته في مرآة الزمان وأحداث التاريخ. ولعل عودة عجلى إلى معاجم البلدان وخاصة معجم ياقوت الحموي، وإلى مصادر التراث الجغرافي الأخرى مثل مسالك الأبصار للعمري أو الموسوعات العربية القديمة، ولا سيما مروج الذهب وصبح الأعشى ونهاية الأرب أو كتب فضائل البلدان مثل: كتاب فضائل مصر المحروسة لعمر محمد بن يوسف الكندي، وأخبار مصر لابن الميسر، خطط المقريزي، والكثير من كتابات الرحالة وبعض كتب التفسير تؤكد حقيقة مؤداها أن المخيلة الشعبية - في العصور الإسلامية

الوسيطة - لم تكن تختلف كثيراً عن مخيلة المتعلمين أو المخيلة العلمية آنذاك حيث تتداخل الأساطير التعليلية والشعبية مع المعتقدات السحرية وتلتقي في كتابات المؤرخين والرحالة الذين كان الكثير منهم على إطلاع بالمصنفات التي تناولت السحر الشعبي، بل إن البعض منهم تناولوا هذا الحقل المعرفي بنوع أو بآخر في كتاباتهم.

وجاءت تلك الكتابات بمثابة وعاء ثري للمادة التاريخية والفولكلورية التي تحمل نبض الناس وآمالهم وعاداتهم ومعتقداتهم، بل تفسر في أحيان كثيرة سبب وجود ظاهرة أو عادة في منطقة وعدم وجودها في منطقة مجاورة ولا يقلل من جديته اختلاطه بخيال الراوي.

من هنا لم يكن عسيراً أن نجد ثمة علاقة جدلية بين الموروث الشعبي والتاريخ. فالموروث الشعبي مادة من مواد التدوين التاريخي، التي تساعد على تفسير الظواهر التاريخية وفهمها، والتاريخ بدوره يشترك معه في دعامات ثلاث: الإنسان، الزمان، المكان.

وهكذا؛ فإن مادة المؤرخ ومصادره تشمل فيما تشمل، الموروث الشعبي بكافة أجناسه وإبداعاته التراثية للشعوب.سواء كانت بدائية أو متحضرة، أي كل ما تم إنجازه عن طريق استخدام الأصوات والكلمات، في أشكال غنائية شعرية، أو نثرية متضمنة الاعتقادات الشعبية أو الخرافات والأساطير والعادات والتقاليد والرقصات والتمثيليات وغيرها. مما تنم به عن أساسيات التفكير وما تفصح عنه النظرة إلى علاقة الإنسان مقترناً ببيئته في إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد والتي تحمل رؤية العصر الذي يصوره. كما تكشف عن وجدان الإنسان الذي يحيا فيه، كما يصور هذا الإنسان بقضاياه التي يتعامل معها في سياق فني محكم وببساطة وعمق آسرين، وفوق هذا كله فهو يأتي في مواجهة ما يكتبه المؤرخون المحترفون، سواء في العصور السابقة أو في عصرنا الحالي، من مؤلفات تعكس آراء أولئك المؤرخين وتفسيراتهم.

فقد مكث المؤرخون ردحاً من الزمن، يتجاهلون نتاج العامة الثقافي بروح من التعالي والغطرسة، التي جعلتهم يضربون عرض الحائط بما ظنوه ضرباً من العبث

والخرافة[1]، التي تناسب عقول العامة وإدراكهم. بيد أن التطورات التي ألمت بمجال الدراسات التاريخية دفعت بالمؤرخين إلى الاعتراف المتزايد بما طال السكوت عنه في (الموروث الشعبي) الذي يقدم لنا رؤية جمعية للحقيقة التاريخية. إذ أن الجماعة في رؤيتها للحدث التاريخي تقفز فوق التفاصيل ،وعلاقات الزمان والمكان ،ولا تهتم سوى برسم صورة كلية حُبلى بكل الرموز الاجتماعية والثقافية، كما تحرص على بلورة موقفها التاريخي إزاء الحدث، وهذه الصورة الشعبية غالبا ما تحمل وعي الجماعة بذاتها، وتختزن في طيات أحداثها الخيالية كثيراً من المضامين التاريخية ولهذا تبرز أهمية اعتماد المؤرخ على (الموروث الشعبي). إلى جانب مصادره التقليدية، ذلك أن المزاوجة بين هذين النوعين من المصادر يساعد المؤرخ على استيعاب الظاهرة التاريخية ورسم صورة كلية لها.

من هنا تأتي مشروعية هذا الكتاب. الذي يحاول أن يملأ فجوات في بنية (المسكوت عنه تاريخياً عمداً أو بدون قصد) في المصادر التاريخية التقليدية، والتي لا تستطيع وحدها أن تقدم لنا الحقيقة التاريخية ،إذ أنه لا يمكن للشهادات الجزئية أن تقدم لنا الحقيقة التاريخية، وإنما غاية ما يمكنها أن تقدم لنا، جانباً جزئياً من تلك الحقيقة التاريخية. فالتاريخ وحده لا يمكن أن يطلعنا على وجدان الشعب ،لأنه يصنف الحوادث ،ويحتفل بالأسباب والنتائج، ويتسم بالتعميم.وقد أخذ هذا التاريخ في صورته

[1] – لم يحظَ الأدب الشعبي العربي بالقيمة الفنية الاعتبارية اللائقة به على المستوى الرسمي، وظلّ، بعد معرفته الطويلة، مهمشاً ومنبوذاً، وبعيداً عن التناول والدرس، والبحث والتقصي لأسباب عديدة، في طالعها: عدم اهتمام أولي الأمر، الولاة والأمراء، والملوك، وأصحاب الأدب.. به لأنهم جميعاً عدّوه أدباً للعامة، يحتفي بالصعاليك، والشذاذ، والجواري والقينات، والمعارك الوهمية، وطقوس السحر والشعوذة، وفنون الاحتيال والمداورة، والتشاطر الكاذب (من الشطارة)، وبالحكايات التي لا تؤهلها خرافاتها أن تدوّن وتسجل في القراطيس، ومن ثم لأن منشئي الأدب الشعبي كانوا يحتفون بالسجع، والترادف، والتوازن، والإطناب، والتطويل، والالتفات، وبصياغات بعيدة عن نهج البلاغة العربية، ومن بعد هذا كله لأن مصنفي الأدب العربي وناسخيه عدّوا الأدب الشعبي بلا قيمة أحياناً لما فيه من سلوكيات وأساليب بعيدة عن الأخلاق وتوجهاتها، وأحياناً لأنه يدور في عوالم الخيال والإضافات كالغولة، والعفاريت، والبحور السبعة،.. الخ. وإضافة إلى ما سلف اقتنع مصنفو الأدب العربي أن الكثير من الأدب الشعبي أدبٌ وظيفي- شفهي، حاضنته الأساسية، بل موزعته الأساسية هي الجدات اللواتي ابتدعن الخرافات، والحكايات من أجل السمر في الليالي، وهدهدة الأطفال وتخويفهم حصراً من الليل والعتمة.

الرسمية إلى سنوات قليلة خلت، يقص سيرة مصر وبلدان المشرق العربي عامة من قمة الكيان الاجتماعي ويرتب مراحل هذه السيرة بالدول الحاكمة أى تاريخ (القمم) بحيث إنها نادراً ما تطرقت إلي تاريخ الناس العاديين الذين يقبعون في (سفوح المجتمعات) إن صح التعبيرمما جعلنا نستقرأ تراثا ناقصاً،ولا نلتفت إلى ما أنشاه الشعب لنفسه عن نفسه.

وتراثنا العربي الذي وصلنا من عصور التألق الفكري في رحاب الحضارة العربية الإسلامية، قد ضم الكثير من الموروث الشعبي بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية وكتب الرحلات، فضلاً عن الموسوعات ودوائر المعارف، المتخمة بالأساطير والمعتقدات السحرية والحكايات الشعبية،والأحاجي والألغاز والمحاورات الفكاهية والسِّير والملاحم الشعبية والطرائف وما إلى ذلك، كلها فنون تنطوي على قيمة إنسانية ليس من الصواب الاستعلاء عليها.

خاصة وقد دونها لنا أعلام الثقافة العربية ربما لأنهم كانوا من اتساع الأفق ورحابة الصدر بمكان، فلم يقيموا الحدود أو السدود بين ثقافة الخاصة وثقافة العامة، أو بين أدب الصفوة وأدب العامة، في مؤلفاتهم ومدوناتهم. التي تتطلب – في حقيقة الأمر – دراسة مستقلة ومستفيضة لا تقتصر على جمع النصوص وتحقيقها فحسب. وإنما عليها أن تستخلص أيضاً ما قد تنم عليه من دلالات، وأساسيات في التفكير العربي والإسلامي، وما تفصح عنه النظرة إلى علاقة الإنسان بالكون وأن نفتح ما نسميه بالنافذة الفولكلورية (العلمية / المنهجية) على تراثنا المدون، الممتد طويلاً في المكان والزمان العربيين، فتتجدّد الرؤى المعرفية، وتتعدّد القراءات، فتتجذّر المناهج، وتتواصل الدراسات الشعبية العربية، اكتشافاً وتأويلاً، دراسة وتأصيلاً، فتتجدّد الإفادة من هذا التراث بقدر ما يتنامى الوعي التاريخي والمعرفي والثقافي به ويضيق بنا المقام لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر ذلك الموروث الشعبي في كتب التراث العربي.

لذا يأتي هذا الكتاب - الذي فوق راحة اليد الآن - والموسوم بـ (الحضارة المصرية القديمة بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية) في محاولة لإثارة الوعي أو قل (عودة الوعي) بتراثنا الحضاري، وهو يصدر عن رؤية تلتمس في الماضي التفسير

الشعبي للتاريخ. أو ما يمكن أن نسميه بـ (البعد الثالث) للدراسات التاريخية ؛ أي التفسير النفسي والوجداني ورؤية الجماعة الإنسانية لذاتها وللكون والظواهر والأحداث من حولها.

والمتأمل في موضوعات الكتاب يلمس خيطاً أو عقداً فريداً يربط فصولها. إذ أنه يعالج فكرة محددة فحواها أن التاريخ والموروث الشعبي وجهان متوازيان يفهم أحدهما بواسطة الآخر مما يسر علينا أن نتخذ المنهج التاريخي والتحليلي في رصد الأساطير والحكايات الشعبية والخرافية في كتابات الرحالة والمؤرخين القدامى وما نفذ إلى النصوص المتعلقة بمصر من مضامين فكرية ذات محتوى أسطوري موروث من المرحلة الغيبية السابقة التي كانت تشكل أراء التاريخ وموضوعاته على الرغم من صياغتها صياغة تاريخية فنية على يد الرحالة والمؤرخين إلا أن أصولها لم تستغلق – في الأغلب الأعم – مستفيداً من أشتات المعلومات الدينية والتاريخية الممزوجة بالحكايات الشعبية والخرافات والأساطير المتناثرة عن مصر في بطون الكتابات التاريخية والجغرافيّة.

ولقد اتخذ الكتاب من (مصر) محوراً بوصفها نموذجاً طيباً يمثل العنصر الثابت – نسبياً – في أركان العملية التاريخية (المكان) فضلاً عن أنها اكتسبت في مخيلة الرحالة و المؤرخين والكتاب أبعاداً ودلالات اقتربت من الأسطورة والخيال، وأخذ هذا التصور يتمتع في تلك المخيلة بصفة تكاد تكون "نمطية " تنطوي على الصدق حيناً، وعلى الكثير من التصورات والأوهام الغامضة ذات المغزى السحري في أحيان أخرى، ولعل هذه التصورات التي راحت تتضخم عبر العصور هي التي اجتذبت باقة من أعلام الشرق والغرب ؛ أدباء ومؤرخين وفلاسفة ورحالة وشعراء وغيرهم. فأقبلوا بأقلامهم وريشاتهم مشوقين إلى روائع الماضي في مصر، بما تحمله من دلالات جغرافية وتاريخية تمثل نمطاً فريداً مفعماً بالعلوم والفنون والسياسة والحكم، ومحوراً للعلاقات القائمة بين أفريقيا وآسيا.. بين أوروبا والشرق بين ذاكرة الماضي والواقع الفعلي ومسرحاً لأهم الأحداث التاريخية العالمية.

هذه الدلالات كلها كانت الأرضية التي استندت إليها مبادئ هذا الكتاب والذي يضم عدداً من الدراسات في هذا المجال الذي يهتم بدراسة العلاقة بين الدراسة التاريخية

والموروثات الشعبية ومن خلال هذه الدراسات التطبيقية الستة أحاول أن ألقى الضوء على جوانب تلك العلاقة على أمل أن يكون ذلك مساهمة في تطوير مناهج البحث التاريخي. ، لاسيما في مجال دراسات التاريخ الاجتماعي، ومن ناحية أخرى أحاول استكمال الطريق الذي سبق وأن عبَّده لنا كل من الفنان العلامة. سعد الخادم (رحمه الله) والأستاذ الدكتور. محمد رجب النجار (رحمه الله) والأستاذ الدكتور. قاسم عبده قاسم. في مجال الدراسات الفولكلورية والتاريخية.

كما يأتي هذا الكتاب في محاولة لجذب انتباه الباحثين في مجال الدراسات الشعبية إلى أهمية الاهتمام بالخلفية التاريخية للفنون التي يهتمون بدراستها ورصدها، والتي يتحمس لها الكثيرون في الوقت الحاضر والتي نخشى أن نتحمس لها بالكيفية التي تجعلنا، نتحدث عن لسانها. أو نحاول شرحها وفقاً لأمزجتنا، فنرى أنفسنا نبتعد تدريجياً عنها ،فهذا النوع من الفنون لا يحتاج إلى عطف أو إنقاذ بقدر حاجته إلى تفهم، وخير ما يحميه من الاندثار هو المعرفة الحقيقية بأصوله.

وفي هذا الكتاب محاولة لكشف أواصره وتتبع خطاه وهو أيضاً خطوة لا تخلو من نقص ضروري، يدعوني إلى المزيد من الحرص على البحث، والتنقيب والتأمل والتسلح بطموح ورغبة في الفهم والتساؤل. والذي لا يمكن معه الظن بأن موضوع السحر والأساطير والحكايات الشعبية في كتابات المؤرخين والرحالة قد استكمل حقه بحثاً ونقداً وتحليلاً وذلك لضيق المقام بنا لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر الموروث الشعبي في كتب التراث العربي ومصادره ومع كل فإن هذا الكتاب إنما هو محاولة لدراستها يرجى أن تتبعه محاولات أكثر جدية ومنهجية لكشف جوانب هذه النوعية من التاريخ، واقتحام منطقة بحثية معرفية تحتاج إلى الكثير من جهود الباحثين العرب لاكتشاف الكثير من جوانبها الخفية كشفاً عربياً صرفاً لا نحتاج بعده إلا للتواصل مع الغرب في هذا المجال كأنداد لا متلقين تابعين

والحمد لله، في البداية والنهاية، له سبحانه الفضل، وهو من وراء كل توفيق.

دكتور. عمرو عبد العزيز منير

القاهرة إبريل 2008م

moneeraziz@hotmail.com

الفصل الأول

مشروعية العلاقة بين التاريخ والأسطورة

كلما بَعُدَ التاريخ عن القصص والخيال، ازداد بُعْد العامة عن تذوقه وتعلمه"

سَهير القلماوي

الف ليلة وليلة/207

"كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة "

محمد بن عبد الجبار المنفري

354 هـ/ 965م

بدأت رحلة العلاقة بين التاريخ والأسطورة منذ زمن مبكر في عمر الإنسان على سطح هذا الكوكب، كانت البداية مرتبطة برغبة الإنسان في معرفة أصول الأشياء والعلاقات داخل هذا الكون، ولما كانت التسجيلات "التاريخية" ناقصة وجزئية، وربما غائبة في كثير من الأحيان، لجأ الإنسان إلى الخيال لكي يعوض به النقص ويسد الثغرات في تاريخ نشاطه في الماضي، وهنا اختلطت حقائق التاريخ بموضوعات الأساطير، وجاءت "القراءة" الأولى لتاريخ الإنسانية قراءة أسطورية تمثلت في نواة تاريخية محملة بالكثير من الخيال والتصورات والإسقاطات والصياغات التعويضية، وفي هذه "القراءة" الأولى لم يكن "المنهج" بمعناه العلمي موجوداً وإنما وجد بشكل بدائي، إذ كان الهدف هو رسم صورة للماضي تروي ظمأ الإنسان وتعطشه إلى

المعرفة "التاريخية" فالإنسان مولع بمعرفة الماضي لكي يفهم أصول الحاضر، وهذه الرغبة الطبيعية في معرفة الماضي هي التي حفزته على هذا النوع من القراءة الأسطورية للتاريخ في محاولة للإجابة على السؤال المضني "لماذا "؟ لماذا جرت الأمور على هذا النحو؟ وما هي أصول الأشياء والظواهر والعلاقات داخل الكون؟.[1]

وفي طيات المحاولات الدائبة التي بذلها الإنسان للحصول على إجابة مرضية لهذا السؤال ظهر "علم التاريخ" باعتباره أحد الأدوات التي يستخدمها الإنسان لفهم حقيقة الوجود الإنساني في ماضيه وحاضره ومستقبله، وهكذا تحددت، منذ البداية، قيمة المعرفة التاريخية بوظيفتها الثقافية / الاجتماعية، ومن ثم كانت المعرفة التاريخية سواء في شكلها الأولي المثقل بالعناصر الأسطورية والدينية، أو في تطورها الحالي ليتمخض لدينا الرأي القائل بأن المعرفة التاريخية نشأت في رحم الأسطورة (التي هي نمط من التصور الشعبي للكون والعلاقات والأشياء داخل هذا الكون من ناحية، كما أنها تعبير شعبي عن رؤية الجماعة لذاتها، وأصولها وتطورها التاريخي من ناحية ثانية) ثم عادت في تطورها الأخير لتمد وشائج الصلة بكل أنماط الموروث الشعبي.[2]

وعلى الرغم من كثرة الشكوك التي أثيرت حول القيمة التاريخية للأساطير، فإن كثيراً من الباحثين عدّ الأسطورة مصدراً من مصادر التاريخ، وتمكن هؤلاء من التعامل مع المادة الواردة في الأساطير واستخلاص القيمة التاريخية منها، وذهبوا إلى أنه على كل حال ستبقى الأسطورة أحد مصادر الاستدلال في البحث التاريخي وإن لم تكن هي التاريخ.[3]

وزعم الباحثون وعلماء الميثولوجيا أن الأساطير تمثل طفولة العقل البشري ،وبدايات تعبيره عن الحقائق وتفسيره للظواهر الطبيعية برؤى خيالية توارثتها الأجيال، وهو زعم قائم على فرضية أن الأوائل اخترعوا أساطيرهم لأنهم اختلقوا

---

[1] – قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية (ط. أولى، دار عين للدراسات، القاهرة 2000م)، ص5، 6.

[2] – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور (الطبعة الثانية، دار عين للدراسات، القاهرة 1998م)، صـ6.

[3] – وديع بشور: الميثولوجيا السورية وأساطير آرام (الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع، دمشق 2001م)، صـ17.

دينهم تأثراً بجهلهم في تفسير قوى الطبيعة التي هي غيب وقوى خفية وأسرار وسحر بالنسبة لهم، فلما نضج العقل اعتمد العلم بدلاً من الأساطير".[1]

هذه الفرضية تبدو غير صحيحة، ولعل السبب الذي حذا بهم إلى ذلك؛ نظرتهم إلى أساطير كل العالم نظرة واحدة دون تفريق، فملاحظاتهم تبدو صحيحة وقد تنطبق على مدونات وأساطير بعض الشعوب، إذ جنحت أغلب أساطير الشعوب إلى الخيال واللامعقولية، إلا أن تعميم هذه الافتراضات على كل ما خلفه لنا التراث القديم يعد تعميماً مجحفاً في حق أولئك الذين سجلوا بأساطيرهم حقيقة وحفظوا تاريخاً.

واتفق المؤرخون على أن الأسطورة تعود إلى أزمان سحيقة للتاريخ الإنساني قبل معرفة الكتابة بزمن طويل[2]، أما متى بدأ عصر الكتابة الرمزية وأين فلا يعرف حتى الآن، وفي التراث نجد أن [آنوش هو أول من خدش الخدوش][3]، وآنوش من سلالة آدم الإنسان الأول، اهتدى إلى النقش على الطين بعد أن لاحظ طباعة أقدامه على الأرض.

والأسطورة في اللغة العربية من (سطر) الفعل الثلاثي، ففي "العين" نطالع ما نصه "سطر" يسطر، إذا كتب[4]، وفي التنزيل: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ [5]، وهي بمعنى تقسيم وتصفيف الأشياء، فالأسطورة تعني الكلام المسطور المصفوف، ولا يشترط فيها أن تكون مدونة أو مكتوبة، ولكن بالضرورة هي الكلام المنظوم سطراً

---

[1] – مجموعة باحثين: الأسطورة توثيق حضاري (سلسلة السراة، الطبعة الأولى، البحرين 2005)، صـ 29

[2] – فراس السواح: مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة السورية، وبلاد الرافدين (الطبعة العاشرة بدار علاء الدين، دمشق 1993)، صـ 14

[3] – (الخدش): في كلام أهل مصر يعني الجرح، يقولون : "خدشه" إذا جرحه قليلا، ويخدشه من باب ضربه وأدماه أو لم يدمه، خدشته خدشاً من باب جرحته في ظاهر الجلد، وسواء دمي الجلد، أو لا فهي أوضح. انظر الشافعي: (محمد بن أبي السرور) ت 1087هـ: القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب،(تحقيق: السيد إبراهيم سالم، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة 1962م)، ص 71، ويقال من المجاز: وقع في الأرض تخديش وهو القليل من المطر، وبقلبه خدشه وهي الشئ من الأذى. انظر: الزمخشري(جار الله أبي القاسم محمود)، أساس البلاغة، (الجزء الأول، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985م)، صـ 218.

[4] – الفراهيدي (الخليل بن أحمد) (ت 175 هـ): العين،(تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الحرية، بغداد 1984م)، صـ 210.

[5] – القلم: آية 1

وراء سطر، فتظهر مصفوفة كقصائد الشعر ما يسهل حفظها وتداولها ويحافظ على بنيانها وكلماتها[1]، وعلى ذلك يقول المعاندون للقرآن: "ما هذا إلا أساطير" ولم يروا الأساطير مكتوبة، وليس أغلبهم لهم علم بتدوينها بل هو علم بها تناقلوه شفوياً بسطورها المحفوظة.

وقد زعم بعض الباحثين أن الكلمة مقتبسة من اللغة اليونانية، يقول إبراهيم شعلان: "الأساطير: الأباطيل، الواحدة "أسطورة"، والأصل يوناني هُستريا: حكاية، تاريخ، ومنه **istoreya**، "إسطوريا" بالمعنى نفسه في السريانية. وفي الفارسية **ustur** "أسطور" بمعنى حكاية عن اليونانية هستريا[2]، وهي على حد قول وديع بشور: "مقتبسة من كلمة "أستوريا" **historia** اليونانية وتعني حكاية أو قصة"[3]. فهل الكلمة حديثة لم يعثر لها على أصل في معاجم اللغة العربية لكي يقال عنها أنها يونانية!!، رغم تسليمنا بأن حروفاً أعجمية سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية. ثم نزل القرآن فاختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال: إنها عربية فقد صدق، ومن قال: إنها أعجمية فقد صدق أيضاً.[4]

ونجد في المحيط: "سطر تسطيراً، ألف وعلينا أتانا بالأساطير"[5]، ومنها "السطر: الصف من الشئ كالكتاب والشجر والنخل وغيره"[6] والأساطير: جمع أسطورة نحو أرجوحة وأراجيح، وأثفية وأثافي، وأحدوثة وأحاديث، وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾، أي شئ كتبوه كذباً وميناً فيما زعموا، نحو قوله تعالى: ﴿أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾، ومن هذا الباب

---

[1] – مجموعة من الباحثين: **الأسطورة توثيق حضاري**، صـــ 15.

[2] – إبراهيم خليفة شعلان، **ثنائية الألفاظ في العربية أسبابها وأصولها**(ط الأولى، الزقازيق 1998م)، صـــ 14

[3] – وديع بشور: **الميثولوجيا السورية: أساطير آرام** (ط الأولى، دار الحوار للنشر، دمشق2001م)، صـــ 9

[4] – حسين مجيب المصري:**الأسطورة بين العرب والفرس والترك دراسة مقارنة**(الأنجلو المصرية، القاهرة 1991م)صـــ 13

[5] – الفيروز آبادي (أبو طاهر محمد بن يعقوب) (ت 817 هــ): **القاموس المحيط**(مطبعة السعادة بمصر، د.ت)، فصل السين باب الراء.

[6] – الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني) (ت 1205 هــ)، **تاج العروس من جواهر القاموس** (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت د.ت)، صـــ 302.

أيضا يقال: "هو يُسطّر ما لا أصل له، أي يؤلف وسطر يسطر إذا كتب".[1]

فالكلمة عربية الأصل وجذرها من الفعل الثلاثي "سطر" وباعتبار أن لكل كلمة مشتقة (في العربية) جانبان: الأول مادتها، والثاني صيغتها أو وزنها، فمادة كلمة "أسطورة" تقوم على جذور يدل على المعنى العام الذي يجمع بين سائر المشتقات منه كما ذكرنا، أما وزنها فوجدناه كما سبق عند الأزهري على وزن "أفعولة" كأحدوثة وألعوبة وغيرها" وجمعها "أساطير" على وزن "أفاعيل" كأحاديث، وهذا ما يؤكد أن كلمة أسطورة هي أحد اشتقاقات الجذر الثلاثي (س ط ر) على وزن أفعولة، ما يعني أن الرأي المذكور سابقاً قلب الحقيقة تماماً، وهو من آثار فرض آراء الغربيين وتفسيراتهم على تراثنا وتاريخنا.

إذن؛ الكلمة عربية في أصلها عبرت إلى شبه الجزيرة اليونانية مع حركة القدماء العرب وهجرتهم، هذه الكلمة كغيرها من الكلمات العربية شكلت جذور اللغة اليونانية التي نسب إليها واضعوا التاريخ في عصرنا الحديث الأصول الإغريقية للمصطلحات والألفاظ، وغضوا الطرف عن أصولها العربية، وهو ما أفقدهم في كثير من الأحيان الموضوعية.[2]

والحق أن الكلمة، حديثاً أصبحت تعني السطوْر أو الأخبار القديمة المدونة المسطورة، وهي بمثابة أول كتاب في التاريخ، وقد انتقلت الكلمة إلى اللغات الأجنبية، وتطورت لتصبح [هـ ـ ستوريا]، والهاء حرف تعريف في اللهجة العربية الفينيقية، ثم صارت تعني فيما بعد بـ "التاريخ" في عدة لغات، مع قليل من الاختلافات، فعند اليونان إستورا، وتعني حكاية أو قصة كما تعني "تاريخ"، وفي الإنجليزية نجد كلمة **history** بمعنى تاريخ، وهي كلمة مشتقة من الكلمة العربية أسطورة، التي تعني بكتابة التاريخ وتدوينه.

على جانب آخر؛ نجد أن الأسطورة لا تعني بالضرورة كل ما كتب وسُطر، وليس

---

[1] –الأزهري (أبو منصور محمد) (ت 370 هـ): تهذيب اللغة (تحقيق: عبد السلام هارون، الدار القومية للطباعة، القاهرة 1384 هـ)، ص 326

[2] – مجموعة من الباحثين: اللسان العربي بُعد فطري وارتباط كوني(جمعية التجديد، البحرين 2005م) صـ 170.

كل المسطور في التاريخ هو من الأساطير، ولا يقال عن المسطور أنه "أسطورة" إلا باعتبارات معينة أهمها مادتها العلمية ذات الطابع المقدس، وصياغتها في هيئة رمزية تضفي عليها طابعا سحرياً قادرا على تحفيز وقيادة المشاعر والاتجاهات، وعلينا البحث عن تلك الاعتبارات واستخلاصها من المدونات التي بين أيدينا فليست كلها نصوصاً مقدسة.[1] ويعد ذلك مرتكزاً أساسياً في تناولنا للأساطير واعتمادنا عليها في تفسير التاريخ والحقائق، خاصة في ضوء الكميات الكبيرة جداً من المدونات القديمة التي تناولت موضوعات متعددة في شئون التاريخ والحياة المختلفة.

أما إشكالية التعامل العربي مع الأسطورة ومفهومها بكل ما تستثيره من تحيزات أو إخفاقات أو صناعة للقوالب الذهنية تثير مفارقة واضحة، خاصة لدى من يحاولون استلهام الإدراك الحقيقي لماهية الأسطورة، أو حتى لوضع تعريف لها من خلال الغرب. ولا يمكن القول: أن مفهوم الأسطورة اصطلاحاً ينتمي إلى الغرب أو الشرق على حد سواء؛ مرجع هذا إلى اختلاف مفهومها في تراث كل منهما، فهي ليست ابناً شرعياً أو غير شرعي للغرب بشكل مطلق كما أنها لم تكن في أولويات تطبيقات الدرس العربي.

جاء في كتاب الميثولوجيا السورية، تعريف الأسطورة عن الباحث (ميرسيا إيلياد): "أن الميتوس (mythos) وهي عند الإغريق تعني حكاية، والأسطورة تروي قصة مقدسة وحادثاً وقع في زمن البدء سواء أكان ما أتى إلى الوجود هو الكون أو جزء منه، ولا يروي الميتوس إلا ما حدث فعلاً ويفسر ما هو كائن وموجود فعلاً، لذلك فهو قصة حقيقية" ويضيف: "أن الأساطير تنبعث من حاجة دينية عميقة وتوق أخلاقي وانضباطات وتحديات تظهر في صيغة اجتماعية ومتطلبات عملية. وفي الحضارات القديمة البدائية تلعب الأساطير دوراً ضرورياً إذ أنها تعبر عن المعتقدات، أنها تشريع حقيقي للديانة البدائية وللحكمة العملية كما يقول مالينوفسكي".[2]

ويضيف (مالينوفسكي) أن الأسطورة إذا درست وهي حية فعالة، فإنها لا تكون تفسيراً يتطلبه إشباع الولع بالعلم، وإنما هي بعث روائي لحقيقة أزلية، يروى لإشباع

---

[1] – مجموعة من الباحثين: الأسطورة توثيق حضاري، صـــ 24

[2] – وديع بشور: الميثولوجيا السورية، صـــ 11

رغبات دينية عميقة وحاجات أخلاقية ومتطلبات اجتماعية واحتياجات عملية".[1]

ويرى (يوهيمروس): "أن الأسطورة هي التاريخ في صورة متنكرة" كما يضيف (ماكس موللر): "أنها مرض من أمراض اللغة".[2]

أما "أرنست كاسيرر" فيؤكد:" أن الأسطورة لا تمثل قوة أساسية في تطور الحضارة الإنسانية، عبر الإنسان من خلال رموزها عن اهتماماته وتطلعاته، وقد وجد أنها تكون مع اللغة والفن والدين صوراً حضارية، تبدعها طاقة الإنسان الرمزية".[3]

هذا، في حين أن البعض رأى أن "الأساطير علم قديم، وهو أقدم مصدر لجميع المعارف الإنسانية، لذا فإن الكلمة ترتبط دائما ببداية الناس"[4]، لذا فهي "قصة تراثية تم قبولها باعتبارها قصة تاريخية تشتمل على معتقدات الناس فيما يتعلق بالخلق والآلهة والكون والحياة والموت".[5]، كما رآها البعض أنها: "روايات محرفة للأحداث التاريخية".[6]

ويقدم فراس السواح في كتابه "الأسطورة والمعنى " مقدمة مهمة قبل طرح تعريف الأسطورة عَيَّن فيها المعايير الدقيقة التي تميز النص الأسطوري عن غيره من النصوص، وهو يرى أن تحديد المعايير يعتبر أمراً بعيد التحقق في ضوء الوضعية الراهنة للبحث الميثولوجي[7]، حيث يخلص إلى عدة نقاط نجتزئ منها ما هو آت:-[8]

---

[1]– Malinowski, Bronislaw, Magic. **Science and Religion, and other Essays,** Doubleday, Company, Inc, New York, 1954, P. 101.

[2] – محمد عبد المعيد خان: **الأساطير والخرافات عند العرب** (الطبعة الثالثة، دار الحداثة، بيروت 1981م)، ص17.

[3] –عبد الباسط سيدا، **من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري، بلاد الرافدين تحديداً**(الطبعة الأولى، دار الحصاد للنشر، سوريا، 1995)، صـ 19.

[4] –أحمد كمال زكي: **الأساطير دراسة حضارية مقارنة**(ط1، مكتبة الشباب، مصر، 1975)، ص 44.

[5]– Montague, Ashley, Man: **his first million yers.** The New American Library, New York, 1957, P. 148.

[6]– Money – Kyrle, Roger. **Superstition and society Hogarth Press.** London, 1939, P. 18.

[7] –مجموعة من الباحثين، **الأسطورة توثيق حضاري**، صـ 20

[8] –فراس السواح: **الأسطورة والمعنى: دراسات في الميثولوجيا والديانات الشرقية**(ط2، دار علاء الدين، دمشق 2001م)، صـ 12 : 14.

1- من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة بما تحويه من حبكة وعقدة، وشخصيات مصاغة في قالب شعري يساعد على سرعة تداولها وحفظها.

2- يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة دون أن يعني ذلك الجمود أو التحجر، فالفكر الأسطوري قادر على خلق أساطير جديدة أو تجديد الأساطير نفسها أو تعديلها.

3- تتميز موضوعات الأساطير بالجدية والشمولية، مثل مواضيع التكوين والأصول والموت والعالم الآخر ومعنى الحياة وسر الوجود.

4- تبعث الأسطورة رسالة غير زمنية وغير مرتبطة بفترة ما، فهي تنطلق من وراء تقلبات الزمن الإنساني تجعلها أكثر صدقا وحقيقة عند المؤمن بها من أي مضامين تاريخية أو روائية أخرى.

5- ترتبط الأساطير ارتباطا وثيقا بنظام ديني معين وتعمل على توضيح معتقداته.

6- تتمتع الأساطير بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم، وليست نتائج خيال فردي، بل ظاهرة جمعية يخلقها الخيال المشترك للجماعة.

وبهذه المقدمة يخلص فراس السواح إلى التعريف التالي للأساطير فيقول: "إن الأسطورة هي حكاية مقدسة، ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان".[1]

من خلال التعريفات والأراء السالفة الذكر، وبالتحليل الدقيق للأساطير باعتبارها جزءاً من التراث القديم المعبر عن نتاجات الأولين وأفكارهم وانعكاس تعليم القوى الربانية لهم، يمكن القول: بأن الأسطورة هي القصة المصنوفة زجلا أو شعراً أو نثراً؛ بحيث تحوي موضوعاً يتعلق بالقوى العلوية والخفية، وتعبر عن معارف الإنسان الأول وأخلاقه ومستويات علومه وتأملاته، وهي موضوعة في قالب يتضمن الحدث المراد تأريخه سواء كان من صنع الإنسان أو الطبيعة أو الرب، لأجل أن يتلى ويُتداول ويؤدي دوره في تثقيف العقول وتحريك المشاعر.

[1] فراس السواح: الأسطورة والمعنى، صـ 14

ويمكن من خلال دراسة الأساطير اكتشاف المستوى المعرفي والعقائدي والعلمي والأخلاقي والثقافي للشعوب، والتعرف على أطوار التاريخ الإنساني، لأنها تمثل انعكاسا لمعارف الإنسان الأول وعلومه وحكمته، وهي تعبير عن منطقة وأسلوبه في المعرفة والتفكير، وسبيله لتفسير الأشياء وتعليل أسباب حدوثها.[1]

غير أنه ليس كل ما يكتبه الإنسان فيما يتعلق بحياته ونظامه ومعارفه بل وبتفاصيل سجلاته الحياتية اليومية وتندراته وفكاهاته وسجلات معاملاته التجارية، وأسماء المواليد، وعقود الزواج، وغيرها هي أساطير، بناءً على تعريف الأسطورة فهذه خارجة فليس كل مدون أسطورة، وهي وإن اشتركت مع غيرها من المدونات بل ومع الخرافات في صياغتها على هيئة نثرية أو شعرية عاطفية تكثر فيها المحسنات والزيادات إلا أن هذا التشابه ناتج من طبيعة ذلك الزمان ومستواه الثقافي والاجتماعي.[2]

وصف البعض الأسطورة؛ أنها "العلم البدائي"، ورغم ذلك؛ فإنه ينبغي القول: إن المعرفة التاريخية قد ولدت من رحم الأسطورة.[3]، بل أن التاريخ - عبر مراحله المختلفة - قد رافق الأسطورة طوال حقب زمنية عدة، ولا عجب - بعدئذ - أن أصبح التاريخ والأسطورة شيئاً واحداً خلال أحد أطوار حياتهما، قبل أن يحدث ذلك الانفصال غير التام بينهما - فيما بعد - إذ أن التاريخ بعد دخول أجواء المرحلة الواقعية المقترنة بنضجه المنهجي أيضاً، يرقد إلى أجواء الأساطير والحكايات الشعبية، في رحلة البحث المستميتة والصعبة عن العناصر المنسية والقلقة لمسيرته التي تفصح عنها الإشارات والإيحاءات والرموز والعلامات، التي كان قد اختزنها "اللاشعور الجمعي" لدى الجماعات بعامة، والمؤرخين بخاصة، ملتمسين انعكاساتها على الأحداث التاريخية، وتتيم القناعة بوجود "اللحمة" بين الأسطورة والتاريخ.

من هنا، يبدو منطقياً أن نحاول - بداية - أن نتعرف على المعنى اللغوي لكلمة "تاريخ" خاصة بعد أن شاع لدى الكثيرين، اقتران مصطلح التاريخ بالأحداث

[1] -مجموعة من الباحثين، الأسطورة توثيق حضاري، صـ 27

[2] - المرجع نفسه، ص 26.

[3] - قاسم عبده قاسم: تطور مهج البحث في الدراسات التاريخية، صـ 96

الماضية التي قام بها الإنسان؛ غير أن هذا المفهوم وإن شاع لا يعد بالضرورة حجة علينا؛ وعليه فمن الواجب البحث عن حقيقة هذا المصطلح.

في سياق تتبع التعاريف اللغوية لكلمة "تاريخ"، نجد أن تعريف الوقت هو المعنى الغالب لدى معاجمنا اللغوية.[1]، حيث أشارت إلى أن التاريخ: "تعريف الوقت، والتواريخ مثله، أرخ الكتاب ليوم كذا: وقته والواو فيه لغة، وزعم يعقوب أن الواو بدل من الهمزة.[2]، أما عن أصل الكلمة فقد اختلف فيه؛ فقد قيل أنه عربي، وقيل أنه غير ذلك.[3]، والراجح أن كلمة (تاريخ) لفظ عربي قديم، وأنها لفظ مشترك في اللغات السامية.[4]

جدير بالذكر، أن لفظة كلمة "تاريخ" قد استعملت في الاصطلاح على نحوين اثنين، فتارة تستعمل ويراد بها مضمون ومحتوى المادة التاريخية، وتارة أخرى تستعمل، ويراد بها طريقة التعامل مع هذه المادة، وهذه الازدواجية في الاستعمال أدت إلى خلط في فهم معنى اللفظ إذ يوجد تناقض لفظي في (موضوع التاريخ) كما هو الملاحظ في كل من اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، مفهومان مختلفان عن بعضهما يستخدمان للدلالة على كلمة واحدة، أما في التاريخ فالمفهومان (موضوع التاريخ) و(علم التاريخ) اشتركا بلفظة واحدة وهي (التاريخ) لبيان مدلولاتهما.[5]

يشير قاسم عبده قاسم: أن هناك تفريق شائع :" بين كلمة التاريخ كتعبير دال على مسيرة الإنسان الحضارية على مسطح كوكب الأرض منذ الأزل، وعبارة تدوين التاريخ كتعبير دال عن العملية الفكرية الإنشائية التي تحاول إعادة تسجيل وبناء

---

[1] -ابن منظور: لسان العرب (دار الجيل، بيروت 1988م) ج1، ص 44 ؛ الزبيدي: تاج العروس (دار صادر، بيروت، د.ت)، ج2، صـ4؛ الرازي: مختار الصحاح (مكتبة لبنان، بيروت 1986م)، صـ 5.

[2] -لسان العرب: مادة (أ ر خ).

[3] -قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، صـ 17

[4] -حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب(مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت)، صـ 3؛ نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي(النهضة العربية، ط ثانية، القاهرة 1996م)، صـ 170.

[5] -علي شريعتي: الإنسان والتاريخ(ترجمة: خليل علي، ط .أولى، دار الصحف للنشر، طهران، د.ت)، صـ 10

وتفسير مسيرة الإنسان على كوكبه".[1]

بيد أن عبارة تدوين التاريخ لا تعبر بالضرورة عن الطريقة العلمية للتعامل مع المادة التاريخية، حتى وإن قصد بها واضعوا المصطلح ذلك. فهذه العبارة توحي بالجمع والتقييد دون التحليل والتفسير، وهناك مصطلح آخر فرق بين المفهومين وهو: "تفسير التاريخ" ومصطلح آخر، هو: فلسفة التاريخ، ويرى البعض أنه لا يوجد أي اعتراض على مصطلح "فلسفة التاريخ" لأنها فلسفة في حقل معرفي علمي مفيد، ويمكن اعتباره مصطلحاً مكافئاً لمصطلح "تفسير التاريخ".[2]

وهكذا، يتضح لنا أنه حينما نتحدث عن مفهوم التاريخ فإننا نريد به معرفة المادة التي يمكن أن يطلق عليها مصطلح تاريخ، والتي نجد أنفسنا في النهاية، قد خرجنا دون تحديد "جامع مانع" للتاريخ، بسبب طبيعة التاريخ نفسه من ناحية، وبسبب عجز اللغة في التفريق الحاسم بين الاستخدامات المختلفة لمصطلح التاريخ من ناحية أخرى، ولكن يمكن القول: "أن ميدان علم التاريخ ومجال اهتمامه هو مسيرة البشر الحضارية في الماضي".[3]

وفيما يلي بعض الاطلاقات الاصطلاحية للتاريخ، ونعتمد في ذلك على تعريفين لعالمين؛ أحدهما حاول أن يضع تعريفاً جامعاً مانعاً للتاريخ وقواعد عامة، أو قوانين تفسير الحركة التاريخية، ومنهجاً لكتابة التاريخ ودراسته وتفسيره، على حين حاول الثاني أن يكتب تاريخاً للتاريخ.[4] والأول هو **(ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون)**، أما الثاني فهو **(شمس الدين عبد الرحمن السخاوي)** وباعتبارهما من أوائل المتحدثين عن التاريخ والمهتمين به.

يقول السخاوي: "... وفي الاصطلاح التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح،

---

[1] –قاسم عبده قاسم: **الرؤية الحضارية للتاريخ**، صـ 27.

[2] –عبد الحليم عويس: **تفسير التاريخ علم إسلامي**(دار الصحوة للنشر، د.ط، د ت)، صـ 15؛ حسين مؤنس: **التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ وماهيته وموضوعاته ومذاهبه ومدارسه**(ط أولى، دار المعارف، القاهرة 1984م)، ص 36، ص 38.

[3] –قاسم عبده قاسم: **المرجع السابق**، صـ 28.

[4] –نفسه : صـ19

وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة. .. وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية. .. والحاصل: أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم...[1]

نلحظ في التعريف أن السخاوي يربط التعريف الاصطلاحي بالتعريف اللغوي ربطا تاماً، ويتبين ذلك في قوله: "فمن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم"، ويبدو أن نظرة السخاوي للتاريخ توحي "بأن وظيفة التاريخ قاصرة على تحديد موقع الحادثة التاريخي زماناً ومكاناً؛ على الرغم من أنه يشي بشمولية علم التاريخ.[2]

أما ابن خلدون فيقرر أن التاريخ: ". .. في ظاهره لا يزيد على أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتُطرَفُ بها الأندية إذا غضها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال. وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق.".[3]

ويتضح لنا أن ابن خلدون قد فرق بين مفهوم التاريخ كمادة ومضمون، وبين التاريخ كطريقة تعامل مع تلك المادة، وقد استعمل في ذلك لفظي "في ظاهره.. في باطنه". كما يبدو أنه حصر المادة التاريخية في الأحداث الإنسانية الماضية، وعموما سنجد شبه توافق عام بين المهتمين بدراسة التاريخ على أن التاريخ هو معرض الأحداث الماضية وأن الماضي الإنساني وتطور المسيرة البشرية هو موضوع التاريخ

---

[1] -السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) (ت 902 هـ): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ(دراسة وتحقيق : محمد الخشت، الطبعة الأولى. مكتبة ابن سينا، القاهرة 1995م)، صـ-صـ 20-21.

[2] -قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ، صـ 21.

[3] -ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد)، مقدمة ابن خلدون (الجزء الأول، تحقيق: علي عبد الواحد، مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م)، صـ 282.

الذي يهتم بالإنسان والزمان معاً.[1]، ويلهث وراء الإنسان في محاولة لأن يَفهمه وأن يُفهمه حقيقة ذاته، عندئذ تم اللجوء إلى الأسطورة في بدايات رحلة تفسير نشأة الكون،وبدايات الإنسان وذاته وعلاقته بالكائنات، والظواهر الأخرى في الكون، وحاولت الأسطورة هنا أن تفسر كل غوامض الكون للإنسان في بداية رحلة الوجود الإنساني. بيد أن الأسطورة عجزت عن توضيح البعد الزمني والبعد المكاني في تجربة الإنسان التاريخية.[2]

وبرغم عجز علماء الميثولوجيا عن فهم أو تكوين الصورة الكاملة التي أراد الأولون تسجيلها والأخذ بالاعتبار عاملي الزمان والمكان، فمع كل ما تحمله الأسطورة من النزعات الخيالية إلا أن ذلك لا يعني أن ليس للأسطورة قيمة تاريخية، فهناك صلة كبيرة بين الأسطورة والتاريخ تحتم علينا ضرورة الاستفادة من المادة الأسطورية والاعتماد عليها كمصدر فريد من مصادر التاريخ الإنساني الواحد المتسلسل في فصوله ومراحله، فالأسطورة هي من أهم وصلات الاتصال بيننا وبين الإنسان الأول لكونها أحد الوسائل التي ابتكرها للتعبير عن فكره وعن أنشطته المختلفة وعلمه وعقيدته وإيمانه وميوله.[3]

أما ما ذكره البعض من تقسيم العهد الإنساني إلى عهد أسطوري وعهد تاريخي فما هو إلا محاولة لاعتبار الأسطورة فصلاً خارجاً عن التاريخ الإنساني الحقيقي، من خلال اتهامها بأنها نتاج صنف إنساني غير مكتمل العقل. بخلاف التاريخ الذي هو سجل للإنسان العاقل المنتج حيث جعلوا الكتابة الحد الفاصل بين العهدين، مع أن الأسطورة ما هي إلا طريقة لكتابة وتوثيق الأحداث التي مر بها الإنسان في مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني، وقد استخدمت الكتابة في شكلها المبدئي كالتصويرية أو المقطعية أو المسمارية[4]، فالتاريخ أكثر شمولية من الأسطورة وهي ليست إلا جزءاً

---

[1] -قاسم عبده قاسم: في تطور الفكر التاريخي(ط. أولى، دار عين، القاهرة، 2004م)، صـ 21.

[2] -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور(طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1997م)، صـ 16، 17.

[3] -محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي، صـ 24؛ مجموعة من الباحثين: الأسطورة توثيق حضاري، صـ 108.

[4] - <u>الكتابة التصويرية</u>: هي شكل من أشكال الكتابة البدائية التي تصور الفكرة لا الصوت يتم فيها

منه.

ورجوعاً إلى تعريف ابن خلدون للتاريخ في قوله: "إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتُطرَفُ بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال. وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق".[1] نجد أن الأساطير لا تخرج عن إطار هذا التعريف، فالتاريخ المكتوب هو انعكاس للفكر وتسجيل للأحداث تماماً كما الأسطورة التي عبرت عن الفكر والحدث.

فالتشابه بين وظيفة وطبيعة التاريخ والأسطورة أدى إلى خلق علاقة ثنائية بين الطرفين فبدا الأمر وكأنهما وجهان لعملة واحدة، ومرجع التشابه إلى عدة نواح؛ من الناحية الوظيفية: فإن كلاً من الأسطورة والتاريخ يهتمان بتسجيل النشاط الإنساني وتدوين النشاط الإلهي، فالأساطير القديمة ما هي إلا قصص عن الآلهة (حسب تعبير البعض) والإنسان، والتاريخ أيضا ما هو إلا حكاية عن الإنسان تضمنت في بعض فصولها حديثا عن التاريخ الإلهي أو التاريخ المقدس الذي عني بقصص الوحي والأنبياء والقديسين، ومن الناحية الطبيعية: فإن طبيعة كل من التاريخ والأسطورة نستمده من ذلك القطع بربط التاريخ بالواقع والأسطورة بالخيال، والحقيقة أن التاريخ ليس كله وصفا واقعيا للحقيقة أو للحادثة كما أن الأسطورة ليست كلها خيالاً، ولكن هناك علاقة ثنائية بين الأسطورة والتاريخ تسمح ببعض الخيال في الوصف التاريخي، كما تسمح ببعض الواقعية في الوصف الأسطوري.[2]، وعلى هذا فالتاريخ كما يعتقد

نقش الصور والرسومات للدلالة على المعنى، والكتابة المقطعية: هي الكتابة التي تصنع رموزاً وعلامات لمقاطع كثيرة يجري الاتفاق على معانيها فيما بين واضعيها، وتعدان المرحلتان الأوليان من مراحل اختراع الكتابة ما قبل الأبجدية، أما الكتابة المسمارية فهي طريقة للكتابة عن طريق النقش على ألواح الطين باستخدام مسمار خاص استخدم في كتابة اللغة الأكدية والبابلية؛ انظر : هاري إلمر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية (ترجمة : محمد عبد الرحمن، الجزء الأول، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1984م)، ص: ص 25-28.

[1] –ابن خلدون: المقدمة، صـ 282.

[2] –محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي، صـ 26-27.

البعض هو وليد الفكر الأسطوري، فمطالع التاريخ موصولة بأواخر عصور الأسطورة.[1]، ومن يبحث في الأساطير عن التاريخ سوف يجد إلى جانبه خيالاً كثيراً، كما أن من يبحث فيها عن الخيال سيجد تاريخاً كثيراً.[2] يصدق هذا على التراث الأسطوري للمنطقة العربية كما يصدق على الإلياذة والأوديسة وغيرهما من التراث الإغريقي القديم الذي من شأنه أن يجعل من هذا التراث الأسطوري يبدو بديلاً هزيلاً عن التاريخ وعن الوصف الانثروبولوجي للحياة الاجتماعية والثقافية ويقدم بعض المفاتيح الأساسية لفهم المجتمع والثقافة.[3]

وهكذا، فالأسطورة والتاريخ ينشآن عن التوق إلى معرفة أصل الحاضر، ولكنهما يفترقان في القيمة التي نسبغها على ذلك الأصل؛ فالأسطورة تنظر إلى التاريخ باعتباره تجلياً للمشيئة الإلهية، أما التاريخ فينظر إلى موضوعه باعتباره تجلياً للإرادة الإنسانية في جدليتها مع قوانين فاعلة في حياة الإنسان الاجتماعية[4]، أضف لذلك؛ أن الأسطورة كانت هي الوعاء الذي ضم خلاصة أفكار الإنسان، ولهذا نجد أن فترات تاريخية طويلة لا نجد مصادر لتاريخها سوى الأساطير، والتاريخ باعتباره علماً،ووسيلة حديثة نسبياً للتعبير عن نشاط الإنسان في الكون عبر الزمان وقد حلت (القراءة) الموضوعية للتاريخ -من خلال مناهج البحث التاريخي -محل القراءة الأسطورية، فلقد حفظت الأساطير وقائع وأحداث المدن القديمة كمدينة أور وبابل،وطيبا[5] وذكرت تفاصيل كثيرة عن حضارات الإنسان الأول كالحضارة السومرية والبابلية وحضارة وادي النيل، وروت حكايات عن ملوك أثبتت المكتشفات

---

[1] -محمد خليفة حسن، المرجع السابق؛ صـ 25؛ كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 66، القاهرة 2002م)، صـ 150.

[2] -قاسم عبده قاسم: تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية (مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الأول، الكويت 1989م)، ص 197.

[3] -لطفي عبد الوهاب: "عالم هوميروس(مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، الكويت 1981م)، صـ 13-15؛ أحمد أبو زيد:الملاحم كتاريخ وثقافة(مجلة عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الأول، الكويت 1985م)، صـ 15.

[4] -فراس السواح: الأسطورة والمعنى، صـ 91.

[5] - أور عاصمة السومريين ، وبابل عاصمة البابليين ، وطيبا هي ثيبا بلدة في اليونان بناها قدموس السوري حينما انتقل إلى اليونان . انظر/ الأسطورة توثيق حضاري ، ص125.

الأثرية أنهم صنعوا تاريخاً حافلاً كجلجامش(ملك سومري)، وسرجون(ملك أكادي)، وإيزيس وأوزوريس. وعلى ذلك يمكن القول أنّ مادة الأساطير هو الحدث التاريخي.[1]

وبالرغم من ذلك، فالاختلاف بينهما سرعان ما يبرز، وذلك حينما ننتقل إلى دراسة القوى الفاعلة التي كانت تسهم في تلك الأحداث الماضية التي تستحوذ على اهتمامهما المشترك.

فالتاريخ يتعامل مع البشر لأن مادة التاريخ نفسه هي الإنسان[2]، بينما مادة الأسطورة هي من الآلهة، وأنصاف الآلهة من البشر[3]، بيد أننا لا ينبغي أن ننسى أن كثيراً من آلهة العالم القديم جاءت أيضا من أصول بشرية ؛ بمعنى أنهم إما كانوا ملوكا أو أبطالاً أو أشخاصا بارزين وحولتهم شعوبهم إلى آلهة لسبب أو لآخر، كما أن فكرة إضفاء الإلوهية على الملوك، كانت عملية ذات أبعاد سياسية أحياناً يقصد بها تبرير السلطة المطلقة، ومثلها كانت مشكلة قدسية الحاكم ذات تأثير على القراءة الأسطورية للتاريخ، فإنها كانت ذات أثر عميق على فكرة التاريخ لدى شعوب العالم القديم[4]، وربما كان (أليكسي لوسيف) يشير إلى أمر من هذا القبيل عندما قال إن الأسطورة: "تاريخ شخص معطي في كلمات".[5]

ثمة تناقض يراه البعض بين الأسطورة والتاريخ؛ وهو أن الأحداث التاريخية تتميز بواقعيتها، أما أحداث الأسطورة فهي عرضة للتضخيم والغلو[6]، إلا أن هذا الرأي لا يبدو منسجماً مع حقائق الأمور فالقراءة الأسطورية تدور بالفعل حول "واقع تاريخي"، كما أن التاريخ في قراءته للأحداث لا يخلو من الخيال[7]، فالأحداث التي تناولتها الأسطورة تحمل "نواة تاريخية" ولكن نقص المعلومات المدونة، والبعد الزماني، جعل هذه النواة تختفي وراء تراكمات خيالية ورمزية هي في حقيقة أمرها

[1] – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكور، صـ 32.
[2] –حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، صـ 53.
[3] –عبد الباسط سيدا: من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي، صـ 21.
[4] –قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص 33.
[5] –أليكسي لوسيف: فلسفة الأسطورة(ترجمة : منذر حلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية 2000م)، صـ 220
[6] –عبد الباسط سيدا، المرجع السابق، ص 21
[7] –محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ، صـ 27

محاولات للشرح والتفسير والفهم، ومن ناحية أخرى، فإن الدراسة التاريخية بمعناها الحديث، لا تخلو من الخيال، كما أن الأساطير قد سربت بعض تفاصيلها إلى الكتابات التاريخية[1]، وبهذا؛ تتناغم متناقضات الأسطورة والتاريخ مثل امتزاج النور بالظلمة في الغسق، أو امتزاج الخيال بالعقل، بحيث ينصهر التاريخ مع الأسطورة، فيتبادلان الأماكن لنجد في الأسطورة تاريخاً، والتاريخ أسطورة، حيث ينفجر الخيال ساحقا المنطق العقلي، خالقاً لنفسه منطقاً مغايراً، يتجاوز فيه العقل نفسه، لأنه هنا يتجاوز حدوده الثابتة.[2]

يتبين لنا؛ أن قسمة التاريخ إلى عصر أسطوري وعصر تاريخي قسمة تعسفية خضعت لعوامل خارجية لا علاقة لها بالتاريخ الحقيقي للإنسانية، فالتاريخ الإنساني يمثل وحدة واحدة خاصة فيما يتعلق بالفكر، هذا مع الاحتفاظ بالخصوصية التاريخية لكل شعب من الشعوب، ويقرر البعض: "أن هناك بلا شك خط فكري عام يربط تاريخ الشعب الواحد، على الرغم من اختلاف عصور هذا التاريخ، واختلاف الظروف الفكرية لكل عصر من هذه العصور".[3] وعن الفصل إلى عصر أسطوري وعصر تاريخي يقول أحد الباحثين: "من الملاحظ أن الفصل هنا في الحقيقة فصل في وسيلة التعبير، وليس فصلاً حقيقياً لعصرين مستقلين استقلالاً كلياً، أو فصلاً لعصرين مختلفين اختلافاً جوهرياً في التفكير كما يبدو من الاستخدام العلمي الحديث لهذه المصطلحات عند المؤرخين وعلماء الحضارات في الوقت الحالي".[4] لذلك فإن قسمة التاريخ إلى عصرين أسطوري وتاريخي أدت إلى إحداث مشكلة في النظر إلى التاريخ الإنساني كحلقة واحدة متصلة، تبدأ فصولها الأولى بآدم الذي مر بعملية تخليق على يد القوى الربانية ليكون مهيأ للخلافة على هذه الأرض، ثم لتمتد فصولها بعد ذلك فصلا فصلاً لتحقيق الهدف الأسمى الذي ميز الإنسان عن سواه من المخلوقات آلا وهو حمل أمانة خلافة الله في الأرض، فلا بد لهذه الفصول من أن تمر في خط تطور تصاعدي،

---

[1] –قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، صـــ 34

[2] –مختار أبو غالي: الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر(مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م)، صـــ 31.

[3] –محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي، صـــ 28.

[4] – نفسه: صـــ 28

يكتسب الإنسان فيها العلوم والمعارف عن طريق الملائكة الموكلين بهذا الإنسان وعن طريق الأنبياء والمرسلين المعلمين، إضافة إلى جد الإنسان نفسه وسعيه الدأوب نحو الارتقاء بحياته وتحسين سبل عيشه على مر التاريخ، فمجموع ذلك كله أدى إلى حصول التطور الذي أوصل الإنسانية على ما هي عليه اليوم.[1]

مجمل القول: إن "القراءة الأسطورية للتاريخ" كانت المرحلة الأولى في تاريخ التاريخ؛ أو في تاريخ قراءة مسيرة البشر في الكون عبر الزمان، وهذه القراءة كانت النواة التي نبتت فيها شجرة المعرفة التاريخية بكل تجلياتها عبر العصور، وقد تميزت بكونها "نواة تاريخية" على الرغم من كل الرموز والدلالات والصياغات الخيالية التي أثقلت هذه "القراءة الأسطورية" للتاريخ.[2] ومن ناحية أخرى فإن "القراءة الشعبية " للتاريخ، أيضاً، ارتكزت على المفاهيم الرمزية التعويضية التي كانت أساساً للقراءة الأسطورية وبيد أن الفارق الأساسي بينهما تمثل ـ كما سبق القول ـ في أن الأساطير اهتمت بأنشطة البشر والآلهة على حين ركزت القراءة الشعبية على دور عامة الناس في صنع التاريخ.

من هنا فإن علينا أن ننظر للتاريخ نظرة شمولية وليس هناك أي مبرر لتقسيم التاريخ الإنساني إلى عصرين أسطوري وتاريخي، فالأسطورة كتاب التاريخ الأول ما هي إلا أحد نتاج العصر القديم، وهي وثائق مدونة استمدت مادتها وشخصياتها وأزمنتها وأمكنتها من التاريخ الذي ولدت فيه، كما أنها فوق ذلك كله حكاية مقدسة يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصحة وصدق أحداثها، وهي سجل لما حدث في الماضي ولها دور أساسي في البناء المعرفي والعلمي والتطور الحضاري للإنسانية، أي أنها أحد أسباب ما وصلنا إليه اليوم من تطور وعلوم، إنها إذن مصدر من مصادر التاريخ وهي جديرة بالدراسة والاهتمام، ويمكن الاعتماد عليها للحصول على معلومات تاريخية هامة. إلا أن الأسطورة هنا ليست رديفاً للتاريخ بمسلماته المختلفة وجيوبه السرية، ولكنها بحث مستميت وصعب في العناصر المنسية والقلقة؛ عمل حفري منتهاه النهائي الأسطورة ذاتها بأخيولتها وإيهامياتها وليس مطابقة التاريخ. بل

[1] ـالأسطورة توثيق حضاري، صـ 124
[2] ـقاسم عبده قاسم : بين التاريخ والفولكلور، صـ 34

تنوه الأسطورة فقط ببعض الحقائق العلمية أو الأحداث التاريخية في مزيج من الخرافة والواقع والخيال والمعاني الرمزية أو الكنايات، دون تحديد المكان أو الزمان.[1]

فالتاريخ ينسج مع الأسطورة علاقات كبيرة مرئية وغير مرئية، والغالب على الظن أنه ليس هناك تاريخ صافياً وعلمياً بالمعنى الموضوعي وبشكل مطلق، فالتاريخ كثيراً ما يمحو فواصله بين الحقيقة الموضوعية، والحقيقة المتخيلة، وقد يحتاج في بحثه المستميت عن الحقيقة إلى ترميمات لا يقربها منه إلا الأسطورة التي ترتكز على القرابة مع التاريخ.

---

[1] ـ سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية (مكتبة النهضة المصرية ، سلسلة الألف كتاب ، العدد488) ، صـ114.

الفصل الثاني

اسم مصر
وجذور المصريين في الأساطير العربية

"..السبب في تسمية مصر بأم الدنيا؛ أنها تحتوي على جميع أجناس الخلق، وأنواع الأمم، التي يبلغ عددها اثنين وسبعين أمة تتكلم بمائة وأربعين لغة. كما تشمل على أقوام من التابعين للمذاهب الأربعة، فبفضل مصر هذه يعيش كل هؤلاء الخلائق، فضلاً من الله ومنة..وما ذلك إلا أن كثرة أهالي مصر، وسكانها من الفلاحين. أعني أنهم من أهل الكد والعمل الشاق، ومعاناة الأهوال في سبيل إسعاد الغير. إذ إن هؤلاء المساكين بعملهم الدائب هذا يجعلون مصر في بحبوحة من الخيرات، والخصب وعلى جانب عظيم من النعم، ورغد العيش الذي يتمتع به الناس والحيوان. فلأجل هذا سميت مصر بحق (أم الدنيا) كالأم الرءوم تعنى بجميع أركان الدنيا، وتحدب عليها وتبذل لها من متاعها وسلعها، وهكذا تكون الأقاليم السبعة من الدنيا عالة عليها. ."

"أولياجلبي"

"سياحتنامه مصر/607"

يُبهر العرب الفاتحون بمصر وحضارتها، مثلما بُهرَ بها الغزاة السابقون من فرس وآشوريين ويونان ورومان، ويعكس ما يكتبه الرحالة و المؤرخون العرب والمصريون المسلمون منذ كتاب ابن عبد الحكم "فتوح مصر وأخبارها" ـ وهو أول كتاب يصلنا كاملاً عن فتح العرب لمصر ـ، وحتى ما كتبه الجبرتي في كتابه الشهير "عجائب الآثار، في التراجم والأخبار"؛ يعكس هذا الانبهار والإعجاب بمصر أرضاً وعمراناً وآثاراً وبشراً ونيلاً، ولم يجد هؤلاء المؤرخون والكتاب تفسيراً لعظمة الحضارة المصرية المبهرة غير الأساطير القديمة التّي نقلوها من الكتاب المقدس أو سمعوها من سكان مصر، وهي الأساطير التي تفسر نشأة الحضارات القديمة بعد طوفان نوح.



تصور خاطئ عن الشجرة التي نهي عنها الرب

وهكذا؛ ضم تراثنا العربي الذي وصلنا من عصور التألق الفكري في رحاب الحضارة الإسلامية؛ الكثير من الموروث الشعبي بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية فضلاً عن الموسوعات ودوائر المعارف.[1] ساعد على ذلك؛ أن المؤرخين والرحالة ـ حتى كبارهم ـ ظلوا رواة أساطير في نفس الوقت، وأكبر مثال لذلك؛الرحالة والمؤرخ أبو الحسن المسعودي فلا شك في أنه كان مؤرخاً جليلاً ولكن كتبه حافلة بالأقاصيص والأساطير[2]، والملاحظ أن تلك التفاصيل الأسطورية قد دخلت خاصة في أخبار الأمم الغابرة أو الأمم البعيدة الأوطان[3]، التي لا يتأتى للمؤرخ العربي التحقق

---

[1] –قاسم عبده قاسم: **بين التاريخ والفولكلور**، ص 45

[2] –حسين مؤنس : **الحضـارة دراسة في أصول وعوامل قيامها، وتطورها** (ط. الثانية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 237، الكويت 1998م)، صـ 69.

[3] – **أربعة عوامل أساسية** كانت وراء تغلغل الفكر الأسطوري في الوعي العربي– بحسب رأي محمد خليفة حسن– وهي ؛ الانفتاح العربي على الفكر الأسطوري القديم بعد الفتوحات الإسلامية والتعرف على فكر معظم الشعوب القديمة التي تم دخولها الإسلام

من أخبارها، مثل؛ كثير من الأمم في العصور الماضية[1]، وكذلك الأمر مع تاريخ مصر: "فكل ما يتعلق معرفته منذ بدء الخلق وأحوال القرون السالفة فإنه مختلط بتزويرات وأساطير لبعد العهد، وعجز المعتني به عن حفظه"[2]، على حد قول المؤرخ المقريزي، وهو ما دفع "أبو عثمان النابلسي أن يكتب كتاباً عن تاريخ الفيوم قال عنه: **"نزهته عن أكاذيب الأقاويل الماضية وتحريف المؤرخين بوصف الأمم الخالية وأخبر عنه خبراً يشهد العقل بصحته وتميل النفس الفاضلة إلى موافقته".**[3]

كانت مصر بتاريخها القديم في طليعة هذه الأمم التي لم تكن أسرار تاريخها قد تكشفت بعد، لذلك لعبت الأساطير والخرافات والحكايات الشعبية دوراً لا بأس به في محاولة كشف غوامض آثار مصر وعجائبها وأصولها ومدنها وحياتها وفضائلها، فضلاً عن قيام هؤلاء المؤرخين بسرد حكايات عديدة عن مصر، مصدرها الخيال الشعبي الذي كان متداولاً بين الناس، فالعديد منهم قد دخلوا إلى صميم التاريخ العربي لمصر من بوابات الأسطورة ووقف رهط كثير منهم أمام تاريخها، مشدوداً مشدوها، خاصة بعد أن فتحها العرب في ظروف - بدت في الكتابات التاريخية - كالأساطير".[4] عضد من أثر ذلك؛ غموض أرض مصر نفسها ورصيدها الأسطوري في مخيلة الناس، وقد أجمل ابن الوردي هذا المعنى في سياق وصفه لمصر بقوله:"هو إقليم

،حيث احتوى الفكر القديم لهذه الشعوب قبل إسلامها على معظم التراث الأسطوري في العالم القديم ، الاعتماد على الإسرائيليات في التفسير نشأة الفرق والمذاهب وابتداع الأساطير لتثبت به اعتقاداتها أو فيما ادعاه مؤسسوها من قوى خارقة للعادة كالمعجزات والكرامات والشطحات ، أو من ادعاء للنبوة والإلوهية أضف لذلك تطور الآداب الشعبية وانتشار الأساطير البطولية كتأكيد على صفتها القومية .للمزيد انظر،محمد خليفة حسن :رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته(ط .أولى، دار غريب، القاهرة 1998م)، ص 70-80.

[1] – حسين مؤنس:المرجع السابق، صـــ 71.

[2] –المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي عبد القادر)،(ت 845 هــ): **الخطط المقريزية، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**(الجزء الأول، مطبعة النيل، القاهرة 1325هــ)، صـــ 250

[3] –النابلسي (أبو عثمان النابلسي الصفدي الشافعي)،(ت 660 هــ): **تاريخ الفيوم وبلاده**،(الطبعة الأولى، المطبعة الأهلية، القاهرة 1898م)، صـــ 3

[4] –محمد عبد الله عنان: **مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري**(مكتبة الأسرة، القاهرة 1999م)، صـــ 11

العجائب ومعدن الغرائب وأهله كانوا أهل ملك عظيم وعز قديم".[1]

كل هذا ربما يساعدنا على استخلاص وإبراز الصورة التي رسمتها لها تلك المادة، والتي تمثل الوجه الآخر المكمل لذلك الوجه الذي أبرزته الأبحاث التي اعتمدت على المادة التاريخية والأدبية التقليدية، الأمر الذي يساعد على تكوين صورة واضحة الأبعاد لمصر: الأرض، الإنسان، والحضارة، كما بدت في طور من أطوار الكتابات التاريخية، وهو أمر على درجة من الأهمية؛ لأنه يمكن من التعرف على النظرة التي سادت في ذلك الطور إلى مصر ما قبل الإسلام، وما خلفته من مظاهر الحضارة، وعلى الآلية التي جرى بها التعامل والتواصل مع ذلك الموروث الشعبي الثري.

ولقد كان لهذه الأرض التي بدأت تسميتها في أحداث أسطورية غائرة في أعماق الزمن أهمية كبيرة في عصور مختلفة مما يفسر هيمنة اسمها منذ القدم على جميع أقاليم ومدن وادي النيل حتى غدا اسمها اسماً للوادي ويعد القرآن الكريم أقدم المصادر الإسلامية التي وردت فيها كلمة "مصر" أسماً علماً لهذه الأرض التي: "لها حد يأخذ من بحر الروم من الإسكندرية ـ وزعم قوم من برقة في البر ـ حتى ينتهي إلى ظهر الواحات، ويمتد إلى بلد النوبة، ثم يعطف على حدود النوبة في حد أسوان ـ على حد أرض السبخة "في قبلي أسوان ـ حتى ينتهي إلى بحر القلزم، ثم يمتد من بحر القلزم، ويجاوز القلزم إلى طور سينا ويعطف على تية بني إسرائيل ماراً إلى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورفح، ويرجع إلى الساحل ماراً على بحر الروم إلى الإسكندرية ويتصل بالحد الذي قدم ذكره في نواحي برقة".[2]

وعن ذكر مصر في القرآن الكريم يقول ابن زولاق: "فأول ما ابتدئ من ذلك؛ أن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ذكر مصر في ثمانية وعشرين موضعاً في القرآن"[3]

---

[1] ـابن الوردي(سراج الدين أبي حفص عمر): **خريدة العجائب وفريدة الغرائب** (الطبعة الأخيرة، مكتبة عبد السلام شقرون، القاهرة، د.ت)، صـ 32.

[2] ـ**المقريزي: الخطط**، ج1، صـ 15

[3] ـابن زولاق (الحسن بن إبراهيم بن الحسين الليثي) (306 – 387 هـ): **فضائل مصر وأخبارها وخواصها**(تحقيق: علي محمد عمر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1999م)، صـ 3؛ انظر:القرآن الكريم؛ **يونس 78/10، يوسف 21/12، يوسف 99/12، الزخرف 51/43، البقرة 61/2.**



ويعلق الإسحاقي المنوفي بقوله: "أما مصر حرسها الله تعالى فإن الله ـ عز وجل ـ ذكرها في كتابه العزيز؛ في ثمانية وعشرين موضعا منها ما هو صريح ومنها ما دلت عليه القرائن وكتب التفسير".[1]

وحفلت المصادر التاريخية بالقصص والأساطير التي دارت حول أصل هذا الاسم، وكان الدافع وراء تلك الأساطير؛ هو أن العديد من الرحالة والمؤرخين كانت تستهويهم منهجية الحبكة الكاملة، كولع بالحكايات التي اشتهر بها العرب قديماً، والتي لاقت قبولاً واسعاً، عند طلاب الأخبار من الناس، ثم أن حسهم التاريخي كان غامراً (حيث كانت الأساطير بالنسبة لهم آنذاك هي التاريخ)؛ خاصة فيما يتعلق بأخبار الأمم الغابرة، كما باتت الحاجة ملحة لمعرفة كل ما يتعلق بمصر في سياق تفسيرهم للقرآن الكريم، فلم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد في القرآن الكريم عن مصر وأهلها، فالتمسوا المادة فيما وصل إليهم من تفاصيل ما روي من أخبار مصر في الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى، وفي الحكايات التي كان يتناقلها الفرس، المصريون والإغريق وغيرهم ممن دخل الإسلام أو صار في ذمة دولته، وساعد على ذيوعها بينهم أن نفراً من أهل الكتاب هؤلاء دخلوا الإسلام حاملين معهم ما ورد في كتبهم الدينية من أخبار عن مصر وملوكها والأنبياء والرسل الذين عاشوا على أرض مصر، ومن تبعهم أو لم يتبعهم من الأقوام وما قام بينهم وبين خصومهم من صراع.[2]

وهناك من فصّل أكثر، وأتهم الرحالة والمؤرخين باللين والضعف بشكل قد أفسح

---

[1] –الإسحاقي المنوفي (محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح): **أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول**، (سلسلة الذخائر، العدد 35، القاهرة 1998م)، صـــ 3

[2] – حسين مؤنس: **الحضارة**، صـــ 70

المجال ومهد الطريق لدخول الأساطير والخرافات والمرويات إلى الحوامل الرئيسية التي يركن إليها أي باحث في التاريخ، أضف لذلك، تلك النزعة التقريرية التفصيلية والرغبة في معرفة كل شئ خصوصاً فيما يتعلق بالمجهولات التي سكت عنها القرآن لعدم ضرورتها وترك معرفتها أي أثر على مدى فهم القصة واكتساب الدروس والعبر منها، وقد أدت تلك الرغبة العارمة المحفوفة بالمحاذير والمخاطر إلى أن يبيح بعض المؤرخين لأنفسهم أن يستندوا إلى تلك المرويات دون نقد وفحص.

ولقد سبق لابن خلدون أن لمس عن قرب بفضل حسه النقدي، ضرورة هذا التمييز[1] بقوله: "... **وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير من بعدهم وابتدعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها...**".[2]

ورجوعا إلى مثل هذا النوع من الأساطير، التي دارت حول أصل "اسم مصر" نجد أن المصادر التاريخية وكتب الرحلات حفلت بالروايات التي حاولت أن تجد تفسيراً منطقياً له؛ فقد أورد بن عبد الحكم نقلا عن سلسلة من الرواة أنهم قالوا: "أول من سكن بمصر، بعد أن أغرق الله قوم نوح، بيصر ابن حام بن نوح، فسكن منف، وهي أول مدينة عمرت بعد الغرق هو وولده، وهم ثلاثون نفسا قد بلغوا وتزوجوا فبذلك سميت ماقة ـ وماقة بلسان القبط ثلاثون ـ قال: وكان بيصر بن حام قد كبر وضعف، وكان مصر أكبر ولده، وهو الذي ساق أباه وجميع أخوته إلى مصر فنزلوا بها، فمبصر بن بيصر سميت مصرُ مصرَ، فحاز له ولولده ما بين الشجرتين خلف العريش إلى أسوان طولا ومن برقة إلى أيلة عرضا. ".[3]

---

[1] – **يرغم هذا النقد العلمي عند ابن خلدون إلا أنه وقع في ذلك أيضاً في كتابه " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"!!.**

[2] – ابن خلدون: المقدمة، جـ1، صـ 282

[3] –ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب(تحقيق: علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة

وبناء على هذه القصة تكون مصر قد سميت بهذا الاسم نسبة إلى واحد من أحفاد نوح كان يعرف بـ "مصر" وإذا كان ابن عبد الحكم "قد اعتمد على الأساطير - باعتبار أن تلك الأساطير هى الحقيقة - للتخلص من شرح المظاهر التي تتعلق بتاريخ مصر القديم، فيبدو أنه نجح في إثارة حوافز المعاصرين له، إلى دراسة التاريخ المصري القديم، والبحث عن أصل مصر[1]، وقد جمع لنا المقريزي تلك الروايات تحت عنوان "ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعدد أسمائها"[2]، مشيراً في ذلك إلى أنه: "قد اختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله سميت هذه الأرض بمصر.."[3]، كما أشار إلى أن أسمها كان في الدهر الأول قبل الطوفان "جزلة"[4]، ثم سميت بمصر، وقد أورد عدة قصص تنسب كل منها اسم مصر إلى جنس من الأجناس التي كانت على صلة بالمصريين طوال تاريخهم الطويل[5]، ونجد لها نظائر في كتابات المؤرخين بداية من ابن عبد الحكم حتى ابن إياس.

فالرواية الأولى تقول إن اسم "مصر" نسبة إلى: "مصر بن حام وهو مصرايم[6]، وقيل أن بنصر بن هرمس بن هردوس جدّ الاسكندر. قال: ونلمح لوما بن حام بنت شاويل ابن يافث بن نوح فولدت له بوقير، وقبط أبا القبط. قبط مصر ومن هنا أن مصر بن حام وإنما هو بن هرمس ابن هردش بين بيطون بن روي بن ليطي بن يونان وبه سميت مصر فهي مقدونية".[7]، ونجد ابن خرداذبة يقول: "وكانت مصر دار

الدينية، القاهرة 2004م)، صـ 28-ص 29.

[1] -إبراهيم أحمد العدوي، **ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب**،(مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1963م)، صـ 69

[2] -المقريزي: **الخطط**، ج1، صـ 18 ص 23.

[3] -**نفسه**، صـ 18

[4] - **نفسه**،ص 18؛ ابن إياس: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**(الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة 1311هـ)،صـ 3؛ المسعودي: **أخبار الزمان** (الطبعة الأولى،، الرياض 1415 هـ)، ص 41-42.

[5] -قاسم عبده قاسم: **بين التاريخ والفولكلور**، صـ 51.

[6] ــ الملاحظ أنه لم تتفق المصادر على هذه الأسماء بل كل كتاب يخالف الأخر في شكل التسمية والنسب والنطق.

[7] -المقريزي: **الخطط**، ج1، صـ 18

القراعنة واسمها مقدونية.."[1]

هذه الرواية تحاول نسبة المصريين ومصر إلى اليونانيين عن طريق اختلاق أسطورة يختلط فيها نسب أولاد حام بن نوح بنسب الإغريق عن طريق هرمس الذي جعلوه جد الاسكندر، والواضح هنا اختلاط التيارات الثقافية والحضارية بين كل من مصر القديمة وبلاد الإغريق القديمة وربما كانت هذه الرواية صدى لتلك الأسطورة التي نسجها الكهنة بعد فتح الاسكندر المقدوني لمصر، عندما ذهب إلى معبد الإله آمون في واحة سيوة وأذاع الكهنة أنه ابن الإله آمون، ومن المهم أن نشير في هذا المقام على أن هرمس هو المعادل الإغريقي للإله "تحوت" "توت" رب الحكمة عند قدماء المصريين، وتوت كان يعتبر في الديانات المصرية القديمة ساحراً، ويقوم سحره على إلمامه بالأثر الذي تحدثه الأصوات على الأشياء، وعلى التحكيم في إصدار تلك الأصوات بطريقة خاصة تجعلها نافذة فتتحكم في من توجه إليه. وقد تمكن توت عن طرق النطق أو بالأحرى نطق الأقسام والتعاويذ أن يخلق العالم، وهكذا كان لصوت توت قدرة التشكيل والخلق في وقت واحد، وهكذا يصبح نفث توت عنواناً له، ذلك النفث الذي يخلق كل شئ بموجب إصداره .

وفي عصر الطالسة أصبح توت يدعى هرمس، وقيل عنه :إنه أرشد المصريين إلى علوم الملاحة، كما أرشدهم إلى طريقة عمل الروافع، ليتسنى لهم رفع الأثقال والأحجار، كما علمهم طريقة صناعة الأسلحة ومضخات المياه وآلات الحرب والفلسفة والخط[2].وقد ظهر لنا توت في كثير من الرسوم الفرعونية وهو يسجل وفي يده اللوح والقلم، وهذا الإله نفسه قد استمر في التقويم القبطي، فسمي باسمه أحد الأشهر القبطية التي ترتبط جميعها بالدورة الزراعية في مصر. وقد ربط الكتاب العرب بينه وبين النبي إدريس، وربما يكون ذلك ناتجاً عن صفات العلم والحكمة التي ارتبطت في التراث الشعبي بهذا الإله المصري القديم ونظيره الإغريقي، وعندما جاء الإسلام بالتوحيد حاول الكتاب والرواة أن ينسبوا هذه الصفات إلى النبي إدريس بأن

---

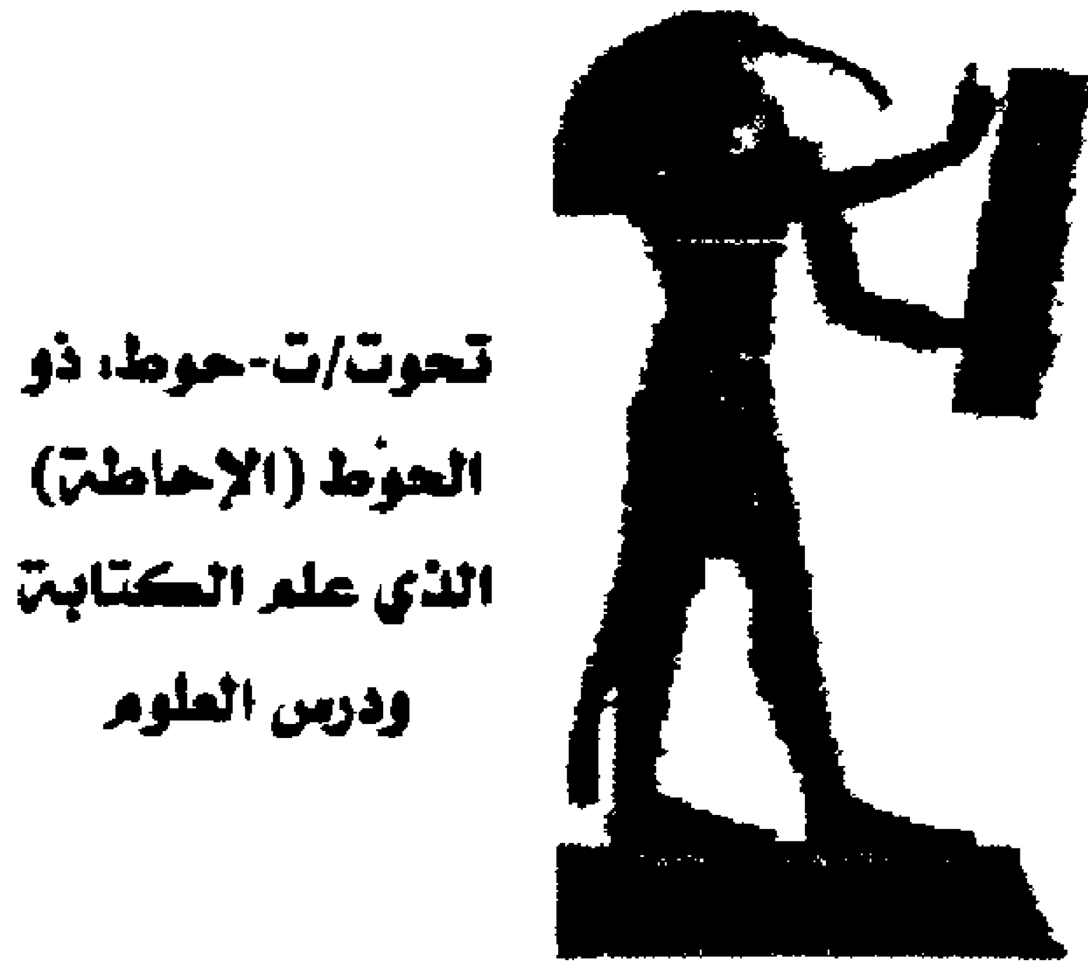
[1] -ابن خردانبة (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله)(ت 300هـ):المسالك والممالك(طبعة بريل 1889م)، صـ 80؛ المقريزي: المصدر السابق،ج1، صـ 18

2 – سعد الخادم :الفن الشعبي والمعتقدات السحرية (سلسلة الألف كتاب ، العدد 488، القاهرة)،ص90

جعلوه أحياناً هو هرمس.[1]

وربما كان اختلاف تلك الأساطير والحكايات المتعلقة بنسبة مصر إلى اليونانيين؛ إفرازاً لرغبة المختلفين من الرواة في إلقاء هذه الحكايات على مسامع الجاليات الإغريقية والرومانية التي كانت تجوب مصر أو تقيم بها، فقد كان الكثيرون يأتون لمصر طلباً للعلم والمعرفة، فضلاً عن وجود إشارات وشواهد عديدة في الأدب الإغريقي إلى زيارات قامت بها بعض الشخصيات الهامة في الحضارة الإغريقية لمصر، وقد أسهبت تلك المصادر في حديثها عن عجائب مصر[2] مثل هيرودوت الذي كان يتساهل في تصديق كل ما يروي له دون تمحيص يذكر، فاختلط في كتابه عن مصر، التاريخي الحقيقي بالحكايات الشعبية، والخرافات والأساطير الدينية في مزيج ممتع.[3]

وقد يرجع ذيوع تلك الروايات التي تنسب مصر إلى اليونانيين في كتابات المؤرخين؛ إلى تسربها من الجاليات الإغريقية نفسها، والتي استوطنت مصر منذ عهد مبكر، وتأسيسهم لمستوطنات إغريقية على أرض مصر، مثل "نقراطيس" التي قامت على ضفاف الفرع الغربي من النيل، وبالقرب من سايس (Sais) "صا الحجر" عاصمة الأسرة الصاوية[4]، فضلا عن تأثر الأدب اليوناني نفسه بالمصريات فلقد ورد اسم "إجبيوس" (Egyptous) كملك لبلاد وادي النيل في الأسطورة اليونانية "بنات



تحوت/ت-حوط، ذو الحوط (الإحاطة) الذي علم الكتابة ودرس العلوم

[1] –قاسم عبده قاسم: **بين التاريخ والفولكلور**، صـــ 51

[2] –أبو اليسر فرح: **النيل في المصادر الإغريقية** (دار عين للدراسات، القاهرة 2004م)، صـــ 27

[3] –بريان م. فاجان: **نهب آثار وادي النيل ودور لصوص المقابر**(ترجمة : أحمد زهير، مكتبة الأسرة، القاهرة 2003م)، صـــ 24

[4]– Pertie, W., M., Flinders, 1888, Naukraties; the Memory of the Egypt exploration fund, part II, P. 4. ؛

؛ سيد أحمد الناصري: **الإغريق تاريخهم وحضارتهم**(الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة 1977م)، صـــ159، صـــ 165

دانوس" أوردها "هومر" في الأوديسيا[1].

نجد أثر ذلك على كتابات المؤرخين المسلمين كقول المقريزي: "وقال ابن خالوية في كتابه ليس أحد فسر لنا لم سميت مصر مقدونية قديما: إلا في اللسان العبراني، قال مقدونية مغيث وإنما سميت مصر؛ لما سكنها بنصر بن حام، وتزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعاً وقف على الكنيسة العظمى التي بالقسطنطينية ويسمون بلاد مقدونية إلا وصنية وهي عندهم الإسكندرية وما يضاف إليها وهي مصر كلها بأسرها إلا الصعيد الأعلى، ويقال لمصر أم خنور وتفسيره "النعمة"[2]، أما السيوطي فيشير إلى ذلك المعنى بقوله: "ويسمى اليونان بلد مصر مقدونية"[3]، ويضيف أولياچلبي أن " بعد الطوفان سموها مصرايم ومن هنا صار أسمها الآن مصر ويقال لها باللسان اليوناني (مقدونية).[4]

أما الرواية الثانية، التي راجت في كتابات الرحالة والمؤرخين: فتقول: "أن بني آدم لما تحاسدوا وبغى عليهم بنو قابيل بن آدم ركب نقراوس الجبار بن مصرايم بن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام في نيف وسبعين راكبا، من بني عرياب جبابرة كلهم ،يطلبون موضعا من الأرض، يقتطون فيه فراراً من بني أبيهم، فلم يزالوا يمشون حتى وصولوا إلى النيل فأطالوا المشي عليه فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه، أعجبهم، وبني نقراوس مصر، وسماهم باسم أبيه مصرايم، وكان نقراوس جباراً له قوة، وكان مع ذلك عالما وله أنتمر الجن".[5]

وتمضي القصة لتقول إنه بفضل العلوم التي عرفها قهر الجبابرة الذين كانوا قبله وبني مدينة "أمسوس" وزرع أتباعه الأرض وبنوا المدائن ثم حفروا النيل حتى أجروا

---

[1] – مجموعة باحثين : **اختطاف جغرافيا الأنبياء**(سلسلة السراة، البحرين 2005م)، ص24

[2] – المقريزي: **الخطط**،ج1، ص22

[3] – السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي): **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة** (الجزء الأول، تحقيق، محمد أبو الفضل، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1997م)، صـــ25

[4] –أوليا چلبي : **سياحتنا مه مصر** ، ص 29

[5] –المقريزي: الخطط، جـ1، صـــ 18-19.

ماءه إليهم ". ..... ولم يكن قبل ذلك معتدل الجري إنما كان ينبطح ويتفرق في الأرض حتى يتوجه إلى النوبة فهندسوه وساقوا منه أنهاراً إلى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنوها وساقوا منه نهراً إلى مدينتهم أمسوس. .."[1].

وتمضي الرواية لتقول أن مصر سميت بعد الطوفان بمصريم بنصر بن حام نوح﷤ ، وقصة هذه التسمية نجدها شائعة أكثر من غيرها عند المؤرخين والرحالة المسلمين؛ فيذكر ابن محشرة: "يقال أن أول من نزل مصر بعد الطوفان؛ مصر بن بنصر بن حام بن نوح ﷤، بدعوة سبقت له من جده نوح ﷤، وقيل وكان السبب في نزول مصر أرض مصر وبه سميت، أن قليمون الكاهن صدق نوحاً عم وآمن بالله تعالى، وسأل نوحا أن يحمله بأهله وولده معه في السفينة فحمله، قال فلما أنجلى الطوفان، قال فليمون لنوح - ﷤- يا نبي الله اجعل لي رفعة وقدراً أذكر به بعدي، فزوج نوح [مصر بن] ينصر بن حام من بنت فليمون فولدت له ولدا فسماه فليمون على اسم جده لأمه، فلما أراد نوح قسمة الأرض بين بنيه قال له فليمون: يا بني الله إن بلدي خير البلاد، وأولى الناس به ابني مصر، فابعثه معي إليه أظهر على كنوزه وأوقفه على علومه ورموزه». . واطلع فليمون صهره مصر بن ينصر على كنوز مصر وعلومها، وعلمه خط البرابي، وأخرج له المعادن من الذهب والفضة والزبرجد والفيروز وغير ذلك من الجواهر، وأطلعه على عمل الصنعة في الجبل الشرقي فسمي به المقطم.."[2]،الرواية ذاتها نجدها عند "المقريزي" مع بعض الاختلافات الطفيفة مثل: "كانت ابنة فليمون قد ولدت لينصر ولدا سماه مصرايم".[3] ويضيف بن وصيف شاه قوله :"وقيل إن سبب تسميتها مصر ؛ لأن مصرام بن مصريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام سميت باسمه، غير أنهم أسقطوا من ذلك الاسم الميم لكثرة استعماله وهو اسم أعجمي لا ينصرف. وقد ورد مصروفاً في سورة البقرة "اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ"(الآية 61) [والله أعلم].[4]

---

1 - المقريزي: **الخطط**، جـ1، صـ 19؛ أوليا چلبي: سياحتنامه مصر، صـ 33.

2 -ابن محشرة : (كاتب مراكشي مجهول)،(ت 598 هـ): **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**(تحقيق : سعد زغلول عبد الحميد، الطبعة الأولى، الإسكندرية، 1958م)، صـ صـ 65 - 66.

3 -المقريزي : **الخطط**، جـ 1، ص 19

4 - بن وصيف شاه :**جواهر البحور ووقائع الأمور وعجايب الدهور في أخبار الديار**

وهذه الرواية تحاول أن تقول أن مصر والمصريين من أصل حامي مختلط بأصول مصرية قديمة، واللافت للنظر في هذه الحكاية أنها تتحدث عن وجود مصري مستقل قبل الطوفان ينحدر من نسل "مصرايم" (الأول) ثم تأكدت التسمية مرة أخرى من خلال زواج ابنة الكاهن لابن حام الذي أنجب "مصرايم" (الثاني). كما نجد في الرواية صدى لبعض الحقائق التاريخية وهي معرفة الكهنة بعلوم وأسرار مصر القديمة. إذ لم يكن كهنة مصر القديمة مجرد "اكليروس" ديني وإنما كانوا هم الفئة التي حفظت العلم وتناقلته كما كان دورهم غاية في الأهمية في العديد من جوانب الحياة في مصر القديمة.[1]

ويبدو أن إرجاع اسم مصر إلى أحد أحفاد نوح يدعى (مصرايم) هو الشائع بين الذين يأخذون الألفاظ على ظواهرها وراج بين العديد من المؤرخين مثل؛ ابن إياس الذي أشار إلى ذلك بقوله: "كان في زمن مصرام الذي سميت مصر به. ".[2]أما ابن الزيات فيشير بقوله: "أن مصر سميت على أسماء أبناء نوح عليه السلام. . وأن سبب تسميتها مصر؛ أن أول من سكن أرضها مصر بن بيصر بن حام بن نوح وهو أبو القبط".[3]

وينسب المقريزي إلى (مصرايم) أنه "كان أول من صنع السفن في النيل ويقال أنه نكح امرأة من بنات الكهنة فولدت له أربعة أولاد هم: قبطيم وأشمون وأتريب وصا، فكثروا وعمروا الأرض وبنوا مدينة (منف) ثم كشف أصحاب فليمون الكاهن عن كنوز مصر وعلومهم".[4]

وفي تلك الرواية والتي نجد لها مثيلاً عند الرحالة (أولياچلبي)[5] نلاحظ فيها تأثير فكرة الأنساب التي كانت لها أثر بالغ في حياة الناس خاصة ـ العرب ـ حيث كان

المصرية المعروف بـفضائل مصر وأخبارها (تحقيق محمد زينهم ،الطبعة الأولي ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة 2004م)،ص9

[1] –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـ 53
[2] –ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1 صـ 4
[3] –ابن الزيات (شمس الدين محمد) :الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، في القرافتين الكبرى والصغرى(المطبعة الأميرية بمصر، القاهرة، 1907م)، صـ 7
[4] –المقريزي: المصدر السابق،ج1، ص 19
[5] –أوليا چلبي: سياحتنامه مصر، صـ 34 : ص 35

اهتمام العرب بالنسب بمثابة اهتمامهم بحياتهم لأنه يعد بمثابة الاسم من الجسد، وأن أول ما يتعرف عليه الإنسان هو انتسابه إلى أبويه، ومن ثم تكبر دائرة النسب مع العائلة والعشيرة [1]، كما أن اعتناق العرب للإسلام لم يجعلهم يتخلون عن تراثهم في مجال المعرفة التاريخية إذ أنهم احتفظوا بالأيام والأنساب وقصص عرب الجنوب، ولكنهم طوعوها في خدمة الأغراض الثقافية الجديدة التي تلبي حاجاتهم الثقافية /الاجتماعية التي جدت بعد الإسلام.[2] تأثير فكرة الأنساب العربية طالت مصر وغيرها من الأمصار في نسبة كل شعب إلى جد أعلى أسطوري يفسرون به معنى الاسم إذ تذكر الرواية ـ السابقة ـ أن "مصرايم" أنجب أربعة أبناء هم قبطيم وأشمون، وأتريب، صا، والمعروف أن "الأسماء الثلاثة الأخيرة أسماء لمدن مصرية".[3]

أما الرواية الثالثة: "أن سبأ الأكبر أو حمير وكهلان ملك بعد أبيه يشجب بأرض اليمن وجمع بني قحطان وبني هود، ثم سار بهم إلى أرض بابل ففتحها، حتى بلغ أرض أرمينية وملك أرض بني يافث بن نوح عليه السلام وبني قنطرة على البحر عبر منها إلى بلاد الشام وأرض الجزيرة. . ثم نهض يريد بلاد العرب فنزل على النيل، وجمع أهل مشورته، وقال لهم: أني رأيت أن ابني مصراً إلى حد بين هذين البحرين؛ يعني بحر الروم وبحر القلزم.[4] فيكون فاصلا بين الشرق والغرب. .. فبنى مدينة سماها مصر، وولى عليها ابنه بابليون ومضى إلى بني حام بن نوح وهم نزول في البراي إلى يمونية. .. ثم مات عن خمسمائة سنة وقام من بعده ابنه حمير بن سبأ فعتا بنو حام

---

[1] ـــ ليس غريباً أن يهتم العرب ـــ وهم مجتمع قبائلي ـــ هذا الاهتمام بالأنساب، وليس غريباً أيضاً أن تكثر هذه الأنساب وتختلط في كتبهم اختلاطاً كبيراً ولكن الغريب حقاً أن نقبل هذا الذي قالوه في أصلهم وتفرعهم على أنه حقيقة واقعة. وكذلك الأمر مع انتساب مصر وأهل مصر إلى جد أسطوري أعلى، فنحن لا نستطيع أن نقبل ذلك، بل لعلنا نتوقف في هذه الأنساب على ما رأيت عندهم من اختلاط فيها . ولكن المنهج العلمي ـــ مع ذلك ـــ يتطلب التقييم والتصنيف، وعلينا إذن أن نقبل تقسيمهم أو نخلق لنا تقسيما جديداً، ولكننا لا نستطيع أن نقترح الآن هذا التقسيم الجديد لأن التاريخ القديم لهذه المنطقة غامض مختلط. للمزيد انظر: عبده الراجحي : **اللهجات العربية في القراءات القرآنية** (الطبعة الأولى ، مكتبة المعارف ، الرياض 1999م) ،ص26.

[2] -قاسم عبده قاسم: **الرؤية الحضارية للتاريخ**، صـ 90

[3] - قاسم عبده قاسم: **بين التاريخ والفولكلور**، ص 53

[4] -البحر المتوسط والبحر الأحمر.

على بابليون، وأرادوا تخريب مصر فاستدعى أخاه حمير لينجده، عليهم فتقوم عليه مصر ومضى إلى بلاد المغرب. فمات بابليون بن سبأ بمصر، وولي بعده ابنه امرئ القيس بن بابليون، ثم مات حمير بن سبأ. ..".[1]

ففي تلك الرواية، نلاحظ محاولة من جانب الرواة في نسبة مصر إلى أصول عربية يمنية، وهذا الاتجاه الأخير يعتمد أسلوب النسابة في نسبة كل قبيل أو شعب أو مدينة إلى جد أسطوري أعلى. ويلفت النظر هنا استخدام الرواية لاسم (بابليون) وهو(اسم الحصن الذي كانت تقيم به الحامية البيزنطية التي حاصرها جيش عمرو بن العاص في خضم أحداث فتح مصر) باعتباره اسماً لواحد من حكام مصر من نسل سبأ الأكبر، الأسلوب ذاته نجده عند المؤرخين في حديثهم عن مدينة الإسكندرية حيث يقول ابن محشرة: "فأتى موضع الإسكندرية فأصاب به أثر بنيان وعمد رخام منها عمود عظيم مكتوب عليه بالقلم المسند وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد: "أنا شداد بن عاد، سددت بساعدي الوادي وقطعت عظيم العماد من شوامخ الجبال والأوتاد، وبنيت إرم ذات العماد..".[2]

ويضيف الرحالة الدمشقي: "وقبط مصر منهم. من يزعم أنهم من ولد ربيعة ثم من تغلب وذكروا أن قوماً من تغلب انتجعوا بإبلهم أرض مصر لطلب الكلاء. .فتزوجوا القبطيات وتناسلوا هناك".[3]

روايات أخرى تأخذ وجهة لغوية في كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين، فتجعل الاسم "مصر" مشتقا من مصدر عربي إذ يروي عن الجاحظ أنه قال في كتاب "مدح مصر": "إنما سميت مصر بمصر، لمصير الناس إليها واجتماعهم بها، كما سمي مصير الجوف مصيرا ومصرانا لمعبر الطعام إليه".[4]

---

[1] -المقريزي، الخطط، ج1، ص 20

[2] -ابن محشرة: كتاب الاستبصار، ص 95

[3] - الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر(طبعة بطربورغ، المحروسة)، 1865، ص 266

[4] -ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة،(تحقيق: مصطفى السقا، كامل المهندس، دار الكتب، القاهرة، 1969م)، صـــ 7 ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج3 ، ص314.

وتضيف الرواية أن أهل "هجر" يقولون: اشتريت الدار بمصورها أي بحدودها"[1]، "والمصر؛ الفرق بين الشيئين"[2]، ويعلق المسعودي بقوله "مصر وأسمها كمعناها، وعلى اسمها سميت الأمصار"[3]، وأوضح المقريزي اشتقاق اللفظ في اللغة فقال: "مصر أخصب بلاد الله، وسماها الله بمصر وهي هذه دون غيرها بإجماع القراء. . وهي عندنا مشتقة من مصرت الشاة إذا أخذت من ضرعها اللبن فسميت مصر؛ لكثرة ما فيها من الخير، مما ليس في غيرها فلا يخلو ساكنها من خير يدر عليه منها، كالشاة التي ينتفع بلبنها وصوفها وولادتها. .



أخناتون يصلي للشمس مع زوجته نفرتيتي وابنتهما ميريت

وقال البكري: "أم خنور" بفتح أوله وتشديد ثانيه وبالراء المهملة ـ اسم لمصر. وسميت مصر "أم خنور" لكثرة خيرها"[4]. ويعلق ابن إياس أن: "مصر كان اسمها في قديم الزمان "درسان"؛ أي باب الجفاف.[5]

الملاحظ هنا أن الروايات السابقة تفسر اسم (مصر) وترجعه إلى أصل عربي ولكن لم تستخدم الأنساب هنا، غير أنها اتكأت على الاشتقاق في اللغة العربية؛ فتجعله مشتقاً من مصدر يعبر عن بعض أحوال هذا البلد في فترات من تاريخه، فهي مصر من مصير الناس إليها وتجمعهم فيها، كما أن دلالة الاسم هنا توحي أيضا بما عرف عن مصر من كثرة الخيرات ووفرة النعمة بها، وقد نسبها العرب كالناقة الحلوب، يحلبونها حتى آخر قطرة في ضرعها، وهو ما يستدعي في

---

[1] – ابن ظهيرة، صــ 7؛ القلقشندي : **صبح الأعشى** ، ج3 ، ص314.
[2] –المقريزي :**الخطط**، ج1، صــ 22؛ القلقشندي : **صبح الأعشى** ، ج3 ، ص315.
[3] –المسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين)(ت 346هــ): **مروج الذهب ومعادن الجوهر**(الجزء الأول، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، الرياض الحديثة، الرياض 1973م)، صــ 342.
[4] –**الخطط**، مصدر سابق، ص : ص 22-23.
[5] –ابن إياس: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ص 3.

المقام تلك الراية التي أوردها ابن عبد الحكم في فتوح مصر وتناقلها المؤرخون والرواة من بعده وفحواها: "أن عمراً جباها أثنى عشر ألف ألف، قال غير الليث: وجباها المقوقس قبله بسنة عشرين ألف ألف فعند ذلك كتب إليه عمر بما كتب به، قال الليث: وجباها عبد الله بن سعد حين استعمله عليها عثمان، أربعة عشر ألف ألف، فقال عثمان لعمرو: يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول، فقال عمرو: أضررتم بولدها..".[1]

ويبدو أن النزوع نحو نسبة مصر إلى العرب والإسلام هو الغالب في كتابات الرحالة و المؤرخين ربما تحت تأثير الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر ودخولها في الإسلام والذي معه حاول الخيال الشعبي النبش في ماضي وتاريخ مصر لإثبات إيمانها بالتوحيد والإسلام منذ عهود موغلة في الزمن من خلال مرجعية أسطورية تدعي موت "مصرايم بن بنصر ابن حام بن نوح بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان ولم يعبد الأصنام. ويؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعي إلى الإيمان آخر الزمان. . "[2]، وحصن مجلسه بأسماء الله تعالى العظام التي لا يصل إليها أحد من الأنام وكان يلين للملك الديَّان، ويؤمن بالمبعوث بالقرآن. " ولإكمال الحبكة القصصية تضيف الروايات "ثم دهموا ذلك بالصخور وذلك بين جبلين متقابلين وجعلوا فيها علامات "[3]، وبهذا تروّج تلك الرواية الأخيرة إلى أسبقية أهل مصر إلى التوحيد وبالتالي أحقيتهم في الانتساب إلى العرب.

هكذا، إذن، نجد في الروايات الثلاث ثلاثة اتجاهات في نسبة اسم مصر وأهلها:-

أولها: اتجاه ينسبهم إلى نسل حام بن نوحﷺ، **ثانيها**: اتجاه يوناني يعكس العلاقات الحضارية بين مصر القديمة وبلاد الإغريق ويحاول نسبة مصر والمصريين إلى أصول إغريقية.**وثالث**: هذه الاتجاهات عربي يحاول نسبة مصر إلى أصول عربية يمنية.[4]بيد أن الروايات التي تناولت أصل مصر والمصريين لم تخل

---

[1] -فتوح مصر والمغرب، صـ 188
[2] -الخطط، ج1، صـ 19
[3] -ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، صـ 66
[4] -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـ 54

بشكل أو بآخر من تأثير الإسرائيليات التي كانت تعكس التفسير التوراتي لأصول شعوب المنطقة والتي كانت بدورها نابعة من التراث الثقافي والأسطوري لهذه المنطقة ذاتها.[1]

فالمتداول بين المتخصصين في علوم آثار وادي النيل أن أقدم اسم كان أهل مصر يسمون بلادهم به كان بتصويت (كيمي) Keme أو (كيميت) Kemet أو (كمت) Kmt والذي يعني الأرض السوداء، ويعتقد أن هذا المسمى يرجع في معناه للتعبير عن خصوبة الأرض النيلية. وهناك من يصوتها (كام) Kam أو (خام) Kham لأغراض تخدم مصالح الطرح اليهودي.[2]*

وينعكس هذا الطرح في رواية أوردها المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الحكم ونقلها عنه العديد من المؤرخين والرحالة؛ وتحكي هذه الرواية التي نقلها لنا ابن عبد الحكم نقلاً عن سلسلة من الرواة أنهم قالوا: "كان لنوح ﷺ أربعة من الولد؛ سام بن نوح، وحام بن نوح، ويافث بن نوح، ويحطون بن نوح. فنادى نوح ولده وهم نيام عند السحر فنادى ساماً، فأجابه يسعى وصاح سام في ولده فلم يجبه أحد منهم إلا ابنه أرفخشد، فانطلق به معه حتى آتياه، فوضع نوح يمينه على سام وشماله على أرفخشد، وسأل الله عز وجل ـ أن يبارك في سام أفضل البركة، وأن يجعل الملك والنبوة في ولد أرفخشد، ثم نادى حاما فتلفت يميناً وشمالاً ولم يجبه، ولم يقم إليه هو ولا أحد من ولده، فدعا الله عز وجل أن يجعل ولده أذلاء وأن يجعلهم عبيداً لولد سام. قال: وكان مصر بن بيصر بن حام نائماً إلى جنب جده حام، فلما سمع دعاء نوح على جده وولده قام يسعى إلى نوح، فقال: يا جدي قد أجبتك إن لم يجبك أبي ولا أحد من ولده فاجعل لي دعوة من دعوتك، ففرح نوح عليه السلام، ووضع يده على رأسه وقال: اللهم إنه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته وأسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد، التي نهرها أفضل أنهار الدنيا، واجعل فيها أفضل البركات، وسخر له ولولده الأرض وذللها لهم وقوهم عليها. ثم دعا ابنه يافث فلم يجبه هو ولا أحد من

[1] -فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة(ط العاشرة، دار علاء الدين، دمشق 1993م)، ص:ص 21-23.

[2] -مجموعة من الباحثين: اختطاف جغرافيا الأنبياء(سلسلة السراة، البحرين، 2005م)، صـ 88.* لاحظ التقريب الصوتي بين كلمة (خام) و (حام).

ولده، فدعا الله عز وجل عليهم أن يجعلهم شرار الخلق. ."[1]

ويعلق (شمس الدين الدمشقي) على تلك الرواية مضيفا إليها: "ذكر أهل الآثار أن السبب في سواد أولاد حام أنه أصاب امرأة في السفينة فدعا عليه نوح أن يغير الله نطفه، فجاءت بالسودان، وقيل أنه أتاه فوجده نائما وكشفت الريح عورته، وذكر ذلك لأخويه سام و يافث فنهضا وستراه وهما مدبران وجوههما؛ حتى لا يريا سوءته، فلما علم نوح بذلك قال: ملعون حام ومبارك سام ويكثر الله يافث. . أما القبط: فيقال: أنه من ولد فقط بن مصر بن بنصر بن حام ولد له أشمون، وقفط ،وصا ،وأتريب، فلم يعقب منهم غير قفط وولده صيفان، فمن سكن منهما صعيد مصر يسمى المريس ومن سكن أسفلهما يسمى البيما، . ويقال: أن حاماً ولد له ثلاثة أولاد قفط وكنعان وكوش؛ فقفط أبو القبط".[2]

ما يهمنا في تلك الروايات؛ نزوعها العنصري، والتي تجعل أبناء سام أفضل الخلق بالقدر الذي يعكس فكرة الاختيار اليهودية التي تزعم أن اليهود هم شعب الله المختار، بيد أن الصيغة المصرية لهذه الرواية الخيالية استثنت المصريين من الذل الذي كتبه الله على أبناء حام بسبب إجابة مصر بن بنصر بن حام لدعوة جده نوح، هذا الجزء الخاص بأرض مصر ونيلها وخيراتها يعكس تأثير الرواة المحليين الذين استثنوا مصر والمصريين من الذل الذي كتب على أبناء حام وفقاً للقصة العبرانية.

هذه هي الخطوط العريضة للأساطير والحكايات الشعبية التي جمعها ودونها لنا الرحالة و المؤرخون عن أصل تسمية مصر والمصريين، وبغض النظر عن الجوانب التاريخية لهذا الموضوع فإن ما يهمنا هنا هو الدلالة التي تحملها هذه الحكايات الخيالية عن اعتزاز المصريين ببلادهم، وعن تنازع نسبة أصولهم إلى الحاميين، تأكيدا لتميزهم عن غيرهم من أهل البلاد المجاورة، أو اليونانيين تحت تأثير التراث الثقافي السائد بتأثيراته المختلفة، أو العرب بفعل الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر ودخولها في ظل الإسلام والعروبة، ومن الواضح هنا أن كلاً من هذه الاتجاهات

---

[1] -فتوح مصر والمغرب، ص 27؛ الخطط، ج1، صـ صـ 20-21؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص 34

[2] -الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، صـ 266.

الثلاثة في "الموروث الشعبي" كان يرضي حاجة ثقافية / اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك، فقد كانت مصر تضم العرب والمتعربين كما بقي بها الأقباط النصارى الذين يتفاخرون كثيراً بأصولهم المصرية القديمة فضلا عن البعض من ذوي الأصول اليونانية، وعلى الرغم من أن هؤلاء وأولئك ذابوا في شعب واحد له خصائصه الثقافية الواحدة، فإن هذه الروافد الثقافية كانت فعّالة للغاية في القرون الأولى بعد الفتح الإسلامي لمصر، وهو ما تعكسه الروايات التي نقلها المؤرخون اعتماداً على الموروث الشفوي والمكتوب الذي كان سائدا في أوساط المصريين آنذاك.[1]

حدود مصر الجغرافية لقيت العناية من جانب المؤرخين عامة والرحالة بصفة خاصة؛ إذ أن أحد الأغراض الرئيسية من تدوين مذكراتهم هو اطلاع مواطنيهم على طرق ومسالك الممالك والأمصار.. إلا أن تلك الحدود الجغرافية لمصر لم تسلم من الشطط والروايات الأسطورية خاصة تلك الحدود والمناطق المرتبطة بسير الأنبياء والرسل التي ورد ذكرها في الكتب السماوية، فبعد أن يحدد المقريزي - على سبيل المثال - موقع مصر وفقا للمفاهيم الجغرافية السائدة آنذاك تحت عنوان "ذكر محل مصر من الأرض وموضعها من الأقسام السبعة" ثم "ذكر حدود مصر وجهاتها".[2] تجعله يذكر بعض الأساطير حول البحر الأحمر والبحر المتوسط وعن البحر الأحمر الذي يسميه "بحر القلزم" يقول مؤرخنا: "وفي جانب هذا البحر الغربي الذي يخرج منه البحر الرومي [المتوسط] الآتي ذكره إن شاء الله، الجزائر الخالدات وهي فيما يقال: ست جزائر يسكنها قوم متوحشون. . وفيما بين مدينة القلزم ومدينة أيله، مكان يعرف بمدينة فاران وعندها جبل لا يكاد ينجو منه مركب لشدة اختلاف الريح، وقوة ممرها من بين شعبتي جبلين. . يقال أن فرعون غرق فيها فإذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة، ويقال أن الغُرُنْدُل: اسم صنم، كان في القديم هناك قد وضع ليحبس من خرج من أرض مصر مغاضباً للملك أو فاراً منه، وأن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر وسار بهم شرقا، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينزل

---

[1] – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـــ 55
[2] – الخطط، ج1، صـــ صـــ 21-24.

تجاه هذا الصنم فلما بلغ ذلك فرعون، ظن أن الصنم قد حبس موسى ومن معه ومنعهم من المسير...".[1]

وعلى الرغم من الأصل الديني لقصة خروج موسى عليه السلام وبني إسرائيل من مصر، وما أحاط بتلك الحادثة بعدد من المعجزات الربانية وقوة ظهور الفعل الإلهي في نجاة موسى وقومه، وهلاك فرعون موسى وبروز التدبير الربّاني والذي نجد صداه في الكتب السماوية ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ(39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(40)﴾ القصص.وهكذا، في اختصار حاسم أخذ شديد ونبذ في اليم ، نبذ كما تقذف الحصاة أو كما يرمي بالحجر بفعل الله [2] وتجسد في قول موسي :"لا تخافوا قفوا وانظروا خلاص الرب. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون"."خروج 13:14، 14"

بيد أن الخيال الشعبي كانت له رؤيته في قصة غرق موسي وأسباب هذا الحدث، فربط بين ظاهرة طبيعية، وهي صعوبة الملاحة في هذا الجزء من البحر الأحمر وبين خروج بني إسرائيل من مصر. واللافت للنظر هنا أن سبب هذه الظاهرة الطبيعية واضح ومعروف كما أشار إليه المقريزي وهو"شدة اختلاف الريح وقوة ممرها من بين شعبتي جبلين"ومع ذلك ترك الخيال بصمته على قصة هذه المنطقة التي ارتبطت بقصة دينية إعجازية [3] وألمح الخيال الشعبي إلي أن التفسير المقبول لديه أن فرعون قد :" غرق ببركة تعرف بـ"الغرندل" يقال أن فرعون غرق فيها فإذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة ".[4]

ويبدو أنه قد استمرت شغف الناس حول معرفة وتحديد المكان الذي غرق فيه فرعون موسي وذلك في سياق وصف الرحالة " جوزيف بتس" (سنة1680 م) لخط سير رحلته بقوله :" وبعد أن أبحرنا قليلا من الطور أردنا الموضع الذي عبر منه بنو

---

[1] -المقريزي :الخطط، ج1، صــ 25-26؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج3 ، ص311.
[2] -جمال عبد الهادي، وفاء رفعت: تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام وإيران وتركيا منذ أقدم العصور،(دار الشروق، جدة، د.ت)، ص205-206.
[3] – قاسم عبده قاسم : بين التاريخ والفولكلور،ص 50.
[4] -الخطط، ج1، صــ 17؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج3 ، ص311.

إسرائيل البحر الأحمر ويسمونه بئر فرعون، ويعني المكان الذي غرق فيه فرعون ومن معه بعد عبور بني إسرائيل، ويقولون أنه مكان خطر جداً، حتي إذا لم تهب عواصف هوجاء وذلك لوجود نوع من الدوامات البحرية تبتلع السفن"[1]

وقد حاكت المخلية الشعبية حول بحر القلزم وارتباطه بغرق(فرعون موسي) العديد من الأساطير والحكايات الخرافية والتي نلمس أثر لها عند الرحالة القزويني في قوله: " وهو البحر الذي أغرق الله تعالي فيه فرعون لعنه الله وجنوده" وقالوا: كان بين البحر وأرض اليمن جبل يحول الماء عنها وامتداده في أرض اليمن، وكان بين البحر واليمن مسافة، فقدّ بعض الملوك ذلك الجبل بالمعاول ليدخل منه خليجا يهلك بعض أعدائه فقطع من الجبل حاولي سهم وأطلق البحر في أرض اليمن فطفا الماء، وأهلك أمماً كثيرة، واستولي علي بلاد كثيرة، وصار بحراً عظيماً وصل إلي بلاد اليمن وجدة وجاوى وينبع ومدينة شعيب ﷺ وأيلة والقلزم".[2]

أما البحر الرومي (البحر المتوسط) والذي يمثل حدود مصر الشمالية، فقد دارت حوله العديد من الأساطير والخرافات والتي شقت طريقها إلي كتابات المؤرخين والرحالة. وقد ناقش الدمشقي المعروف (بشيخ الربوة) الآراء التي راجت في عصره حول ذلك البحر – الذي يمثل الحد الشمالي لمصر- فيقول " زعم المؤرخون أن الاسكندر حفر الزقاق وأجراه من المحيط عصبا علي أهل البلاد والأقاليم التي أغرقها به"[3]، وأضاف أنه قد " زعم قوم منهم أنه حفره ليكون فارزاً بين أهل الأندلس والبربر وأهل برّ العدوة الأشبان (الأسبان) يمنعهم من الغارات التي يغارونها بعضاً علي بعض وذلك بعد شكوى منهم إليه..."[4] كما أورد رواية تذهب إلي انه قد " زعم آخرون أنه لم يحفره. ولكنه أراد أن يعمر عليه جسرا علي قناطر ففعل. ذلك ثم إن البحر طما وزاد وغطاها واتسع واستمر، وأنه إلي الآن ينظر الراكب فيه إلي القناطر

---

[1] –جوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة (ترجمة : عبد الرحمن الشيخ، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 189، القاهرة 1995م)، صـــ 42.

[2] –القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) (ت 682 هـــ)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات(الطبعة الخامسة، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، 1980م)، صـــ 89

[3] –الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، صـــ 136

[4] –نفسه، صـــ 136

تحت الأرض عمد سكون الريح وهدوء الموج، ونقص مده وجزره"[1] ويبدو أن شيخ الربوة يرجح صحة الرواية الأخيرة، فوصف ذلك الجسر المزعوم الذي بناه الاسكندر وقدم شرحا تفصيليا لكيفية بناء هذا الجسر،مدعما قوله بخرائط ورسومات من وحي خياله ضمّنها كتابه المعروف بـ (نخبة الدهر).

وقد رفض المقريزي تلك الرواية التي تقول بحفر الاسكندر للبحر الرومي كي يفصل بين البربر والأسبان وقال " هذا الخبر أظنه غير صحيح، فإن أخبار هذا البحر وكونه بسواحل مصر لم يزل في الدهر الأول قبل الاسكندر بزمان طويل.."[2]

ابن الوردي خالف كلاً من المقريزي والدمشقي حول ماهية هذا البحر فقال: "ذُكر في كتاب أخبار مصر؛ أنه بعد هلاك الفراعنة كانت ملوك بني دلوكة في شق البحر المحيط الغرب، وهو البحر المظلم، فتغلب الماء على بلاد كثيرة وممالك عظيمة وجرى بها، وامتد إلى الشام وبلاد الروم وصار حاجزاً بين بلاد مصر وبلاد الروم على أحد ساحلية المسلمون وعلى الآخر النصارى...".[3]

وهنا، يتضح غياب المعلومات التي تتناول نشأة البحار والتي كانت سبباً في ذيوع مثل تلك الروايات الخرافية لدرجة أن مؤرخنا المقريزي لم يجد ما يعارض هذه الروايات سوى بقوله: "فإما أن يكون ذلك قد كان في أول الدهر مما عمله بعض الأوائل وأما أن يكون خبراً واهياً".[4]

ويحكي المقريزي قصة خرافية أخرى مؤداها؛ أن بعض أصحاب السّير من الفلاسفة ذكروا: ". .. أن ما بين الإسكندرية وبلادها وبين القسطنطينية كان في قديم الزمان أرضاً تنبتُ فيها الجميز، وكانت مسكونة وخمة وكان أهلها من اليونانية وأن الاسكندر خرق إليها البر فغلب على تلك الأرض، وكان بها فيما يزعمون الطائر الذي يقال له وقنس وهو طائر حسن الصوت، وإذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته مما

---

[1] -نفسه، صـ 137

[2] -المقريزي: **الخطط**، ج1، صـ 17

[3] -ابن الوردي: **فريدة العجائب**، صـ 127

[4] -**الخطط**، ج1، ص 17

يميت السامع، وأنه يدركه قبل موته طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح.."[1]، وتستمر الحكاية لتقول إن واحداً من الفلاسفة المهتمين بالموسيقى أراد أن يتوصل لسماع صوته بالحيلة، كما تحكي عن أن ماء البحر كان سببا في هلاك هذا الطائر الأسطوري.

وربما كانت شهرة الاسكندر الكبير وفتوحاته العريضة وراء ذلك العدد الكبير من الأساطير والحكايات الخرافية التي ذاعت حوله في عالم البحر المتوسط ومصر من بلدانه بطبيعة الحال.[2] حتى أن الإسحاقي قد نسبه إلى مصر وأهلها فقال: "مصر دار العلماء والحكماء، فمنهم الاسكندر ذو القرنين صاحب السد الذي ذكره الله تعالى في كتابه. .."[3] وكذلك فعل ابن الكندي في قوله :" ومنهم: الإسكندر ذو القرنين، من أهل قرية نحو الإسكندرية يقال لها لوبية، ملك الأرض بأسرها، وذكره الله في كتابه العزيز باسمه".[4]

---

1 -نفسه، ج1، ص 18

2 -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص 50

3 - الإسحاقي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص 6.

4 - ابن الكندي (عمر بن محمد بن يوسف) : فضائل مصر المحروسة ،(تحقيق : على محمد عمر ، سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة 1997م)، ص16.

الفصل الثالث

الآثار المصرية القديمة
بين غموض السحر وعجائب الأسطورة

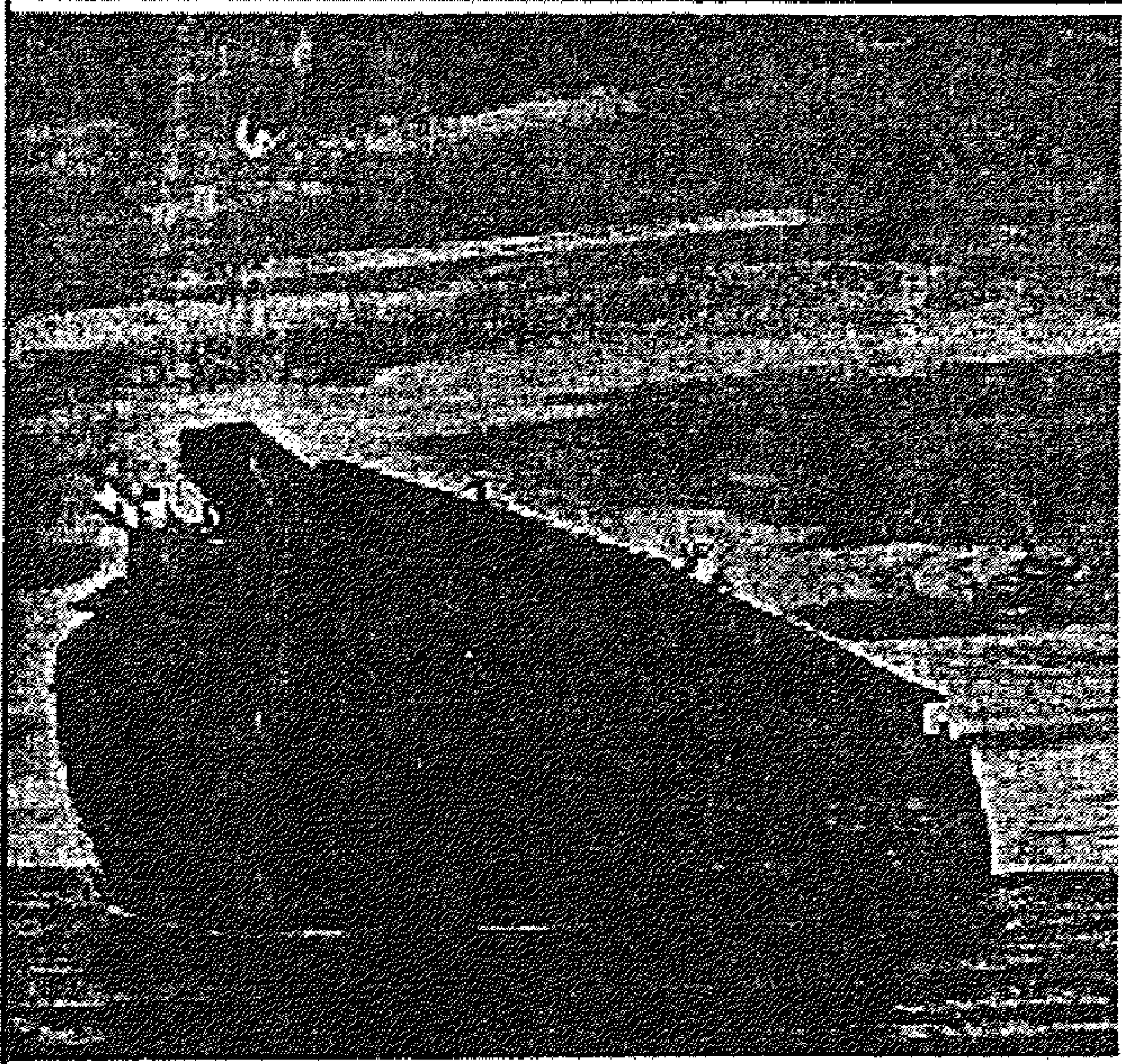
"....إقليم مصر هو الإقليم الذي افتخر به فرعون على الورى، وقام على يد يوسف بأهل الدنيا. فيه آثار الأنبياء ،والتيه وطور سيناء،ومشاهد يوسف، وعجائب موسى، وإليه هاجرت مريم بعيسى، وقد كرر الله في القرآن ذكره، واظهر للخلق فضله. أحد جناحي الدنيا، ومفاخره لا تحصى. مصر قبة الإسلام ونهره أجل الأنهار وبخيراته تعمر الحجاز، وبأهله يبهج موسم الحاج، وبره يعم الشرق والغرب. قد وضعه الله بين البحرين، وأعلى ذكره في الخافقين. حسبك أن الشام على جلالتها رستاقه، والحجاز مع أهلها عياله، وقيل أنه هو الربوة، ونهره يجري عسلاً في الجنة، قد عاد فيه حضرة أمير المؤمنين ونسخ بغداد إلى يوم الدين، وصار مصره أكبر مفاخر المسلمين. ..."

المقدسي

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/193

كان لحادثة الطوفان التي تصور الأقدمون وقوعها في عصور بعيدة دور هام في الفكر التاريخي، باعتبارها حادثة تاريخية عظيمة، تركت بصماتها على ذاكرة

الشعوب وتناقلتها جيلا بعد جيل، فأصبحت بحق آية للعالمين (لا سيما مع وجود محاكي لها في بيئاتهم). ،وبقيت حيّة في الأذهان وفي ثقافة الشعوب المختلفة باختلاف في التفاصيل يزداد شيئاً فشيئاً كلما ابتعد عن (المركز) موقع حدوث الطوفان، بل وحين قسّم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة فجعل مجرى العصور الستة مماثلة لمراحل عمر الإنسان وكانت غايته أن يوضح أن الوجود الإنساني سوف ينتهي بعودة المسيح وقيام القيامة في اليوم السابع وجاء التقسيم على النحو التالي: من آدم إلى الطوفان، من الطوفان إلى أبراهام، من أبراهام إلى داود، من داود إلى الأسر البابلي، من الأسر إلى ميلاد المسيح، العصر الحاضر



صورة متخيلة لسفينة نوح (ع) كما تصورها بعض الكتب

وجاء ذلك التقسيم في محاولة منه لتطويع الفكر التاريخي في إطار يخدم الفكرة المسيحية القائلة بعودة المسيح لخلاص البشرية، جعل من حادثة الطوفان محوراً هاماً في تقسيمه للتاريخ العالمي للبشرية.[1]، كما كان للطوفان بصمته على قراءة المؤرخين لتاريخ مصر من خلال ذكر تاريخها وملوكها قبل وبعد الطوفان، وحين تاهت عقول مؤرخي العالم الوسيط في تفسير أسباب بناء أهرام ومعابد وآثار مصر القديمة لم يكن في وسعهم سوى أن يتخذوا من (طوفان نوح) تكئة يستندون إليها في شروحاتهم ويتركوا لنا هذا القدر الهائل من الغموض ،والأساطير الذي يشهد بتفوق مصر ـ لسوء

[1] –قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، ص 45؛ بيريل سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى (ترجمة : قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1984م)، ص 39؛ آلبان ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبي ،(ترجمة : عبد العزيز جاويد، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 221، القاهرة 1996م)، ص 183.

الحظ - في القدرة على إخفاء أسرارها العلمية إلى الحد الذي جعل بوسع كل من أراد أن ينكر حضارتها وينسب الفضل إليه، أن يفعل ذلك وهو بمأمن من المناقضة.

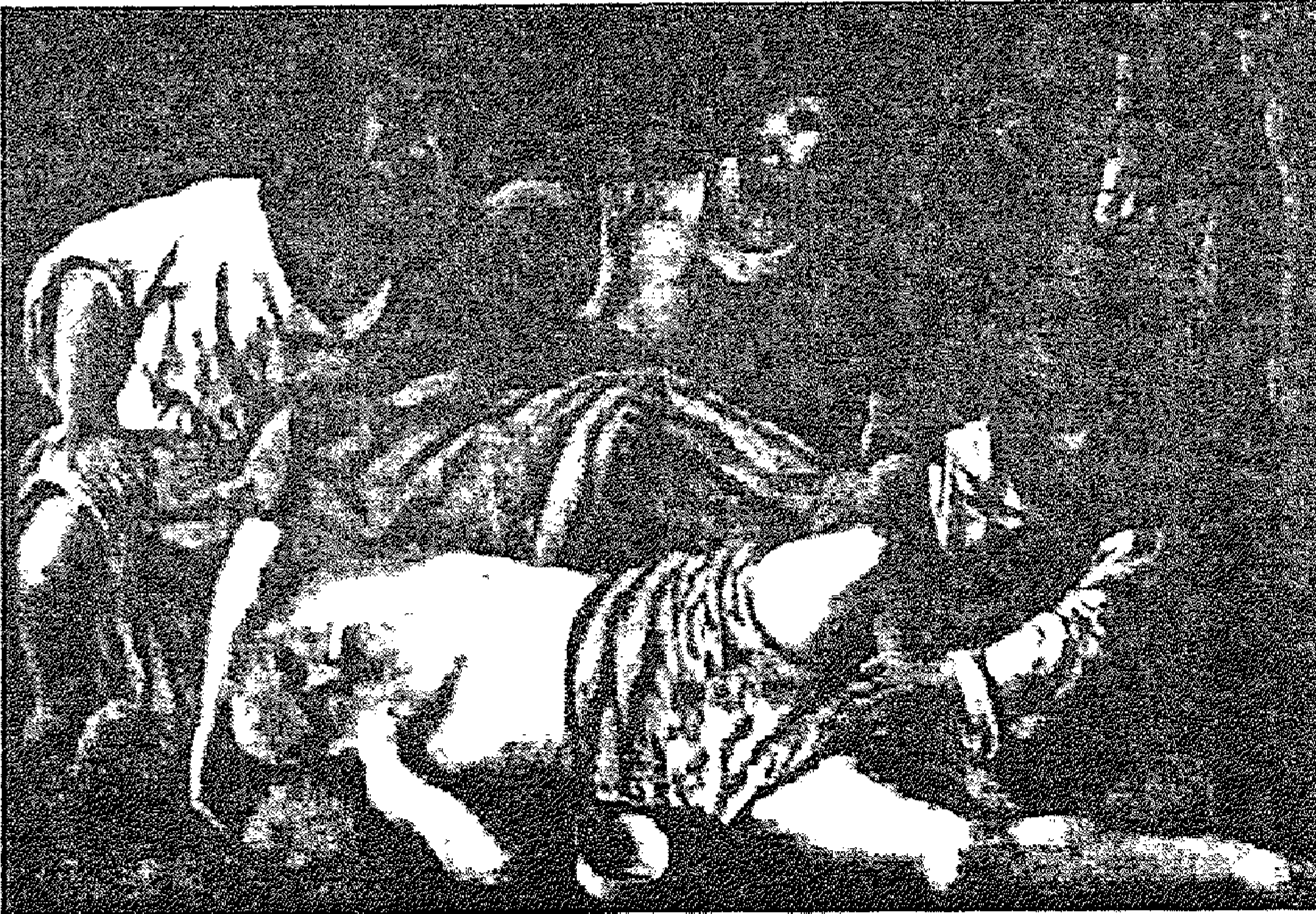
جدير بالذكر أن العديد من الناس ينظرون للطوفان كحدث عالمي؛ لكثرة انتشاره وإن بتفاصيل مختلفة يقترب بعضها من الحادثة الحقيقية التي حدثت كما في أساطير السومريين والبابليين، ويبتعد بعضها الآخر عن تلك التفاصيل بحيث يطغى الخيال على الحقيقة كما في أساطير الإغريق والهنود، فمثلا نقرأ قصة الطوفان في الملحمة الشعرية الهندية (مها بهراتا) بطلها يسمى (ريشي مانوا) (رئيس وباني) أي النبي، ويعتقد الاستراليون أن جزية سيلان أصبحت أصغر مما كانت عليه في الماضي لأن جزءا كبيرا من الجزيرة ابتلعه الطوفان، وتقول أسطورة بورمية أن الحدأة فتحت ثغرا في جمجمة السرطان فغضب وانتفخت البحار والأنهار حتى السماء فوقع الطوفان، ولم تخل الأساطير الإغريقية لأكثر من طوفان، أساطير الطوفان منتشرة في جميع أنحاء العالم عند الشعوب المتحضرة والبدائية، وقد كشفت الحفريات التي تمت في منطقة بلاد ما بين النهرين، عن ألواح ورقم دوّنت عليها ملاحم أدبية تتحدث عن الخليقة وفي سياقها ترد حادثة الطوفان، فهناك الملحمة السومرية والملحمة الأكادية (البابلية) وفي تراث الهند الثقافي ملحمة ورد فيها عن الطوفان ما يشبه إلى حدّ ما ملاحم بلاد الرافدين والأسطورة اليونانية عن الطوفان مقتبسة من بلاد ما بين النهرين مع تعديل بسيط. وتبدو رواية التوراة والطوفان متشابهة مع رواية الطوفان في الأساطير السومرية والبابلية. أما القرآن الكريم فقد أجمل القصة كما ذكرنا ولم يحدد مكان وزمان الطوفان ولم يحدد من كان مع نوح، ولكن أكد على حقيقة الطوفان.[1]

وتتلخص الخطوط العريضة للأسطورة في نقاط تتكرر كلها مع بعض التنويعات في بقية الأساطير اللاحقة، قرار إلهي بدمار الأرض بواسطة طوفان شامل، اختيار واحد من البشر لإنقاذ مجموعة صغيرة من البشر، وعدد محدود من الحيوانات، انتهاء

[1] -: محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص ص 37-50؛ مجموعة من الباحثين: طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، (سلسلة السراة، الطبعة الأولى، البحرين، 2005)، ص 12؛ كارم محمود عزيز، النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم، ص ص 45-145؛ فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص ص 157-210.؛محمد الحامدي: الطوفان بين الحقيقة والأسطورة (مجلة التراث العربي ، العدد 58 ، دمشق 1995م)،ص67.

الطوفان واستمرار الحياة من جديد بواسطة من نجا من الإنسان والحيوان.[1]، وبهذا الشكل سنجد قصة الطوفان عند الكثير من اليهود والمسيحيين والمسلمين ، فضلا عن عامة الناس قد اعتقدوا بعالمية الطوفان.

وإن لم يكن اليقين كله فإن أقرب الأشياء إلى اليقين، أن يد الخيال طالت حادثة الطوفان في مدونات التوراة أو ترجماتها وتفاسيرها بإضافة تفردت بها "مدونة التوراة" دون غيرها من المصادر، فاستغلت حادثة (طوفان نوح) والإضافة التي تفردت بها مدونات التوراة من قبل اليهود ليسوغوا لأنفسهم ارتكاب المحظورات، واستعباد الآخرين، واتهام الأنبياء بارتكاب المحظورات، واستعباد الآخرين، واتهام الأنبياء بارتكاب الفاحشة أو بادعاء أنها بإيعاز منهم؛ فاتهموا نوحاً بالسكر والتعري، ولعن كنعان ومباركة سام.[2]، ثم أرجعوا نسبهم إلى سام بن نوح وجعلوه حكراً عليهم بغرض التأسيس للنظرية السامية والتمييز بين الشعوب والأمم على أساس سلالي عرقي عنصري بغيض.



هكذا مثلوا نوحاً عليه السلام سكراناً ومعرّى ، وأحد ابنائه يستره ويُغَنُّونَ مشهد اللوحة "سكرة نوح" نقلاً عن كتاب بين آدمين

واكتنف حادث الطوفان الغموض والخرافة في آراء من قالوا بعالميته من الرحالة والمؤرخين وغيرهم؛ رغم عدم تصريح النصوص بذلك. فلم يكن الطوفان عالمياً، ولم

[1] –فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص 157.

[2] –أحمد عثمان: تاريخ اليهود (الجزء الأول، مكتبة الشروق، القاهرة 1994م)، ص 5.

يكن الناجون هم نوحاً وأبناءه وزوجاتهم فقط؛ لم تصرح الأساطير بذلك ولا التوراة ولا القرآن الكريم[1]،إلا أنه يمكن القول: أن طوفان نوح حقيقة لا مراء فيها، أهلك قوم نوح، وكان طوفاناً عارماً، وما جاء في الأساطير والتوراة مبالغ فيه ولا ينسجم مع معطيات الواقع، وقواعد المنطق. ورغم ذلك ظن أكثر الناس على اختلاف عقائدهم بأن الطوفان كان عالمياً، وتأسس على ذلك أكذوبة تسمى "السامية"[2]، وتاه الناس في وهم ولا زالوا، كانت بدايته هوى ومطمعا فأصبح اليوم حقيقة وواقعا، لأجل حفنة من اليهود شاءوا أن يقنعوا العالم بأنهم شعب الله المختار ، فعبثوا بحقائق التاريخ والجغرافيا وعبثوا بسيرة الأنبياء الأطهار، ليثبتوا لأنفسهم حقاً غير مشروع ففعلوا، ولكنهم ما كانوا ليفلحوا لو كانت العقول متيقظة واعية، وما كان للخدعة أن تستمر ردحا من الزمن لو تحرر المؤرخون من التفسير التوراتي الذي هيمن على تناولهم لتفاصيل الحادثة التي دخل منها المؤرخون إلى تاريخ مصر وحضارتها القديمة.

يقول المقريزي: "الفرس وسائر الكلدانيون، أهل بابل والهند وأهل الصين، وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان وأقر به بعض الفرس. . ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يتجاوز عقبة حلوان ولا بلغ ممالك المشرق".[3]

ويضيف في "ضوء الساري": "وأهل الهند والصين لا يقرون بذلك، ويقول بعضهم أن الطوفان لم يحدث سوى في إقليم بابل، وما [وراه] من البلاد الغربية فقط.فإن ولد [كيومرت] الذي هو عندهم آدم كان بالشرق فلم يصلهم الطوفان ولذلك أهل الصين والهند لا يعرفون الطوفان".[4]، ويؤكد ابن خلدون في تاريخه: "واعلم أن

---

[1] – ذكرت قصة نوح في عدة سور بشيء من التفصيل في الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر وسورة نوح، وتختلف الآيات بالألفاظ بحسب ما تكون الغاية من إيراد الآيات والمراد من معناها.وروت التوراة في سفر التكوين في الإصحاح السادس والسابع والثامن قصة الطوفان، فأسهبت في سرد الأحداث، وبينت الأسباب والنتائج، ورواية التوراة فيها عناصر مشابهة للعناصر الموجودة في أساطير بلاد ما بين النهرين، وتختلف عنها في جوانب أخرى، وقد أثرت هذه الرواية في كافة أتباع الأديان الثلاثة: الموسوية والمسيحية، والإسلام

[2] – السامية:نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام، أما الحامية: فهي نسبة إلى حام بن نوح عليه السلام.

[3] –الخطط، ج1، ص 325.

[4] – المقريزي: (تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد)(ت845هـ): ضوء الساري لمعرفة خبر

الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط".[1] وأشار لذلك المسعودي بقوله: "وقد ذكر أن مواضع سلمت من الطوفان، يذكر ذلك الفرس وتزعم أنها لا تعرف الطوفان وكذلك الهند..".[2]،وقال البيروني: " لم يعم العمران كلها ولم يغرق فيه إلا أمم قليلة وأنه لم يجاوز عقبة حلون ولم يبلغ ممالك المشرق".[3]



كاريكاتير يعبِّر عن الخيال الذي تحكَّم في عقلية من اعتقد بعالمية الطوفان

وباتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ تجمع الروايات السابقة التي تناولت حادثة الطوفان على أنه كان محلياً، وقضى على الهمج والخطاة، ونجا نوح عليه السلام ومن معه من ذريته، وأهله وآخرون من غير الظالمين والكافرين.[4] بينما شذت مدونات

تميم الداري،(مخطوط مطبوع غير محقق)، ، الرياض 1423هـ.

[1] –ابن خلدون(عبد الرحمن بن خلدون)،(ت 808 هـ): تاريخ ابن خلدون،(الجزء الثاني، سلسلة الذخائر، العدد 154، القاهرة 2007م)، ص 5.

[2] –المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) ت 346 هـ: أخبار الزمان ومن إبادة الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية(ط. الأولى، الرياض 1415 هـ)، ص 58.

[3] –البيروني (أبي الريحان محمد بن أحمد): الآثار الباقية عن القرون الخالية(مكتبة المثنى، بغداد، د.ت)، صـ 24.

[4] – محمد فيض الله الحامدي: طوفان نوح بين الحقيقة والأسطورة، ص 67؛ مجموعة من الباحثين: طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، ص 217.

التوراة بإضافة جئ بها في نهاية الحادثة، فنسبوا إلى النبي نوح (عليه السلام) السكر والتعري ولعن كنعان ظلماً ليحققوا أغراضاً خاصة ذات علاقة بخلافهم مع الكنعانيين، ثم استغلت تلك الإضافة لوضع بذرة التمييز العنصري والتأسيس للنظرية السامية وسطروا أساطيرهم بهتاناً وكذباً منذ أول يوم زورت فيه التوراة.

ورغم لا معقولية عالمية الطوفان، إلا أن الاعتقاد بعالميته ووصوله إلى مصر ساد في أوساط الناس؛ والذي أوهم السواد الأعظم منهم بهذا،هو ما ذهب إليه مفسروا التوراة حيث لم تخل تلك الروايات بشكل أو بأخر من تأثير الإسرائيليات التي كانت تعكس التفسير التوراتي لأصول شعوب المنطقة والتي كانت بدورها نابعة من التراث الثقافي والأسطوري لهذه المنطقة ذاتها، وانعكس ذلك التأثير في روايات الرحالة والمؤرخين في سياق حديثهم عن آثار الحضارة المصرية القديمة، بل اتخذوا من حادثة الطوفان باباً يعرجون منه إلى فضائل مصر وعجائبها و تاريخها الموغل في القدم.

يحكي البكري في (الروضة المأنوسة) أن " نوحاً عليه السلام لما طاف الأرض بالسفينة فصار كلما مر علي بلدة، خرج إلية الملائكة الذين يتولون حراستها، فيسلمون علي نوح عليه السلام ، فلما مر علي مصر لم يخرج إلية أحد، فتعجب من ذلك ، فنزل عليه الوحي من الله تعالي ،بأن لا تعجب فإن كل بلدة قيدت لها ملائكة لحراستها إلا مصر ، فإني توليت حراستها بنفسي.." [1]

ما يهمنا في هذه الرواية ، هو استمرار (الموروث الشعبي) في استثناء مصر وتميزها عن غيرها مثلما سبق وتم استثناء مصر وأهلها من الذل الذي كتب علي أبناء حام ، وفقا للقصة العبرانية و كما تعكس إحساس أبناء مصر بمكانه بلدهم وأنها هبة ربانية اختصها الله دون سائر البلاد بالرعاية والحماية والخير.

روايات عديدة جمعها لنا المؤرخون تشير إلي أن المصريين كانوا أول من تنبأوا بالطوفان وأول من وضعوا الأساطير والقصائد الموزونة مثلما يقول المقريزي: " هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى[2]، أول من نظر في علم الطب وألف لأهل

---

[1] – الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة،ص55

[2] – تقول إحدى الأساطير المصرية القديمة أن (توت) خرج من رأس الإله (ست) إله الشر عند المصريين

زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية والسماوية وقالوا أنه أول من انذر بالطوفان، ورأي أن آفة سماوية تصيب الأرض من الماء والنار"[1]

وأضاف المسعودي:" كان عند أهل مصر علم الطوفان، ولم يقدروا كثرته ولا طول مقامه على وجه الأرض، فاتخذوا السراديب تحت الأرض وصفحوها بالزجاج وحبسوا الريح فيها بتدبيرهم، واتخذ الملك فليمون رأس الكهنة مع نفسه عدة له ولأهل بيته.."[2]

مما تعكسه الرواية السابقة أن الكهنة في مصر كانوا هم الفئة التي حفظت العلم وتناقلته وكان لهم دور هام في العديد من جوانب الحياة في مصر القديمة وهكذا،تأثرت قراءة ورؤية المؤرخين لآثار مصر وحضارتها بحادثة الطوفان الذي شاع خبره بين الناس جيلا بعد جيل. لدرجة أنه انطبع على القراءة الشعبية للتاريخ وترك بصمته واضحة على وجدان الشعب المصري من خلال أمثاله العامية ليدل على حياة التمزق الأسري فيقول المثل السيار:" **إن جه عليك البحر طوفان، حط ابنك تحت رجليك**" وربما لأن الطوفان كان حادثة شاذة في التاريخ، فإن المثل أيضا يعبر عن الأنانية، ولكنها شذوذ يؤكد القاعدة التي تشير إلي شدة ترابط الأسرة المصرية واتحادها في وجه التقلبات وعقبات الزمن، وهذه الرؤية الشعبية نجد ما يعضدها من إشارات عند (ابن الزيات) في (الكواكب السيارة) عندما قال:" مَنْ ملك مصر بعد الطوفان، والمرأة التي أخذت ولدها على كتفها، وأغرقها الله تبارك وتعالى مع قوم نوح.. وكان لها ولدا وأخا كانا في السفينة لم ينج من قوم نوح غيرهما، وذكر النسابة وذكر أنها من ولد رجل من مصر، لم ينج من الطوفان غيره..".[3]

القدماء بعد أن ابتلع (ست) منّي حورس بطريق الخطأ. ونتيجة لارتباط (توت) بالقمر صار إله الوقت و"حاسب الزمن" وبوصفه الرب الذي اخترع الكتابة فكان حاميا للكتبة أيضا وكان (توت)يوصف بأنه لسان رع أو قلبه وبوصفه حاميا لأوزوريس صار معينا للموتى أيضا. ولهذه الصفات جميعا قال الإغريق أنه(هرمس) إله الحكمة لديهم وهرمس في الأساطير اليونانية هو رسول آلهه الأوليمب .كما كان إله الطرق ومرشد المسافرين، كما أعتبره الإغريق إله الخصوبة مانحا للثروة وموزع الحظوظ، وهو ابن الإله زيوس من مايا ولد في الصباح. أنظر: قاسم عبده قاسم: بين التاريخ الفولكلور ص51،ص57

[1] – المقريزي: الخطط جـ1، ص27

[2] – المسعودي:أخبار الزمان، ص57

[3] –ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص 10.

وهكذا أثرَتْ المعطيات الدينية الحكايات الشعبية والمدونات التاريخية بالرؤى والأفكار التي حملت جزءاً من المعاناة الإنسانية، التي تلونت بالسمة الدينية، ولا سيما فيما يرتبط بمواقف الناس من قصص الأنبياء ،وأخبار عاد وثمود وطوفان نوح، وقد أسدى المقريزي النصح إلي كل من ينظر في تلك الأخبار بتوخى الحذر لأن: "كل ما تتعلق معرفته ببدء الخلق وأحوال القرون السالفة، فإنه مختلط بتزويرات وأساطير؛ لبعد العهد، وعجز المعتني به عن حفظه وقد قال الله سبحانه وتعالى: "﴿أولم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ فالأولى أن لا يقبل من ذلك إلا ما يشهد به كتاب أنزل من عند الله يعتمد على صحته لم يرد فيه نسخ ولا طرقه تبديل أو خبر ينقله الثقات".[1]

شاعت حول أهرام مصر وآثارها أقاويل، ونظريات كثيرة اعتنقها الرحالة والمؤرخون القدماء. حيث تركوا لنا سيلاً من الافتراضات تتناقض فيما بينها خصوصاً عندما يشيرون إلى أسباب تشييدها، والكيفية التي شيدت بها تلك الأهرامات، فحركت خيال مؤرخيهم وكتّابهم، فراحوا يبحثون عن أسرارها، لماذا شيدت؟ وكيف شيدت؟ ومن شيدها؟ وماذا حدث؟ فحيكت الأساطير، وكثرت الأقاويل والخرافات، وتكاثفا الضباب حولها، ووصفوا تلك الأهرامات، أثبتوا دهشتهم الشديدة وانبهارهم بتلك الأوصاف التي قد تعتبر الشئ الوحيد المعقول من بين أقوالهم الأخرى.

وقد ورد الكثير من الحكايات في هذا الشأن؛ يقول المقريزي: "اعلم أن الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جداً . وأعظم الأهرام الثلاثة التي هي اليوم قائمة تجاه مصر، وقد اختلف الناس في وقت بنائها واسم بانيها، والسبب في بنائها، وقالوا في ذلك أقوال متباينة أكثرها غير صحيح".[2] وتشير بعض الروايات إلى هذا بقولها: "وما أكثر الروايات والأساطير التي تتداولها الألسنة في أصل هذه الجبال".[3] ورغم ذلك لم يجد لها البغدادي ذكرا "في التوراة ولا في غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها"[4] فكيف

[1] – المقريزي: الخطط، ج1، ص 250

[2] –المقريزي، مصدر سابق، ج1، ص 207.

[3] –أولياچلبي، مصدر سابق، ص 617.

[4] – البغدادي (موفق الدين أبو محمد): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، (سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 314، القاهرة 1998م)، ص 112.

إذن بنوها أو شاركوا في بنائها؟!. ويذكر التلمساني: "أن أحوال الأهرام عجيبة وحكاياتها غريبة وللناس فيها كلام كثير وهي من عجائب البلدان وغرائب البنيان".[1] ويقرر أبو الصلت :"أن الأهرام والبرابي فإنها من الآثار التي حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفكار الراجحة ،وتركت لها شغلا بالتعجب منها والتفكير فيها..".[2]، ولم يشذ الهروي عن ذلك القول: "الأهرام: من عجائب الدنيا وقد اختلفت الأقاويل بين الناس فيها ،وفيمن بناها. ما أريد بها..".[3] ودلت رمزية الأهرام في العقلية الشعبية وأحلام الناس على الغرائبية فتتوه كتب تفسير الأحلام أن:" رؤية (أهرام مصر) في المنام دالة على الأخبار الغريبة من الأمم السابقة، والمواعظ والفكر، وربما دلت رؤيتها على تزوج للأعزب بأهل الشرك، أو الأعاجم، أو معاشرة أولئك والتمذهب بمذاهب أهل البدعة، أو الاهتمام بطلب الفنون أو العلوم الدراسية، وربما دلت رؤية ذلك على العمر الطويل وعلى مواضع اللهو واللعب والمعازف والرقص "[4]

وأجمل المقدسي الآراء التي دارت في عصره حولها فقال: "سمعت في الأهرام أشياء مختلفة؛ فمنهم من قال: هما طلسمان ومنهم من قال: كانتا أهراء يوسف، وقيل بل كانت هي قبورهم وقرأت أنهما للرمل المحبوس".، ويستقر رأي المقدسي على أنهما مقابر: "آلا ترى إلى ملوك الديلم بالري كيف اتخذوا على قبورهم قباباً عالية".[5]، وهكذا، للناس في أمرها اختلاف: فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك".[6]

أما أسباب بناء الأهرام كما جاء في تلك الحكايات: يذكر الرحالة أبو الصلت رواية

---

[1] - التلمساني (ابن أبي مجلة أحمد بن يحيى) (ت 776 هـ): سكردان السلطان (الطبعة الثانية، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، 1957م)، ص 460.

[2] – أبو الصلت (أمية بن عبد العزيز)(ت 528 هـ)، الرسالة المصرية،(ضمن نوادر المخطوطات، تحقيق : عبد السلام هارون، المجموعة الأولى، الطبعة الثانية، مكتبة البابلي الحلبي، القاهرة 1972م)، ص 25.

[3] –الهروي: (أبي الحسن علي)،(ت 611 هـ): الإشارات إلى معرفة الزيارات (تحقيق علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2002م، ص 41.

[4] - انظر كتاب تفسير الأحلام وتعطيره وتعبيره للنابلسي وابن سرين وابن قتيبة (جمع وترتيب :أبو صهيب محمد ، دار ابن الجوزي ، القاهرة 2006م)، ص67

[5] –المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 210.

[6] –ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص 50 ، 51 .

تعكس استمرار تنازع الاتجاهات السائدة في ذلك الوقت سواء ؛العربية أو الإغريقية أو القبطية المصرية. ورغبة كل اتجاه في نسبة منجزات الحضارة المصرية القديمة إليه، تلبيه لحاجات ثقافية / اجتماعية آنذاك فيقول: "زعم نفر من الناس أن هرمس الأول المدعو بالمثلث بالنبوة والملك والحكمة، وهو الذي يسميه العبرانيون خنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم - وهو إدريس ﷺ - استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الأرض، فأكثر في بنيان الأهرام ،وإيداعها الأموال وصحائف العلوم ،وما يشفق عليه من الذهاب والدروس حفظا لها واحتياطاً عليها. ويقال: إن الذي بناها ملك اسمه سوريد بن سهلوق بن سرياق، وقال آخرون: إن الذي بنى الهرمين المحاذيين للفسطاط: شداد بن عاد، لرؤيا رآها. والقبط تنكر دخول العمالقة بلد مصر، وتحقق أن بانيها سوريد. لرؤيا رآها وهي آفة تنزل من السماء، وهي الطوفان".[1]

ويضيف ابن خرداذبة: "ويقال والله أعلم أنهما من بناء بطليموس القلوني الملك".[2] أما الرحالة القزويني فيذكر أن: "من الناس من يزعم أن إدريس ﷺ أمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائف العلوم؛ إشفاقاً عليها من الدروس واحتياطا عليها وحفظا لها..".[3]، ومنهم من قال إنما عملوها خوفاً من الطوفان.[4]

وباتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ تحدث كلٌ من المقريزي والسيوطي عن أسباب بناء الأهرام فقالا: "..قال جماعة من أهل التاريخ: الذي بنى الأهرام سوريد بن سلهوق بن شرياق ملك مصر، وكان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة؛ وسبب ذلك أنه رأى في منامه كأن الأرض انقلبت بأهلها، وكأن الناس هاربون على وجوههم، وكأن الكواكب تساقطت، ويصدم بعضها بعضاً؛ بأصوات هائلة، فأغمه ذلك، وكتمه، ثم رأى بعد ذلك كأن الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض في صورة طيور بيض، وكأنها تخطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين وكأن الجبلين انطبقا عليهم، وكأن الكواكب النيرة مظلمة، فانتبه مذعوراً وجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر- وكانوا مائة

[1] -أبو الصلت، الرسالة المصرية، صـــ 27، 28.
[2] -ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 159.
[3] -القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص 269.
[4] -الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص 41.

وثلاثين كاهناً ـ فأخذوا في ارتفاع الكواكب، فأخبروا بأمر الطوفان، فأمر عند ذلك ببناء الأهرام وملأها طلسمات وعجائب، أموالاً، وخزائن، وغير ذلك ، وزبر فيها جميع ما قالته الحكماء وجميع العلوم الغامضة، وأسماء العقاقير، منافعها ومضارها، وعلم الطلسمات (الألغاز والرموز)، والحساب والهندسة والطب، وكل ذلك مفسر لمن يعرف كتابتهم ولغاتهم، ولما أمر ببنائها ، وقطعوا الأسطوانات العظام والبلاطات الهائلة وأحضروا الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة، وشدها بالرصاص والحديد والصفر، وجعل أبوابها تحت الأرض بأربعين ذراعاً. وكان ابتداء بنائها؛ في طالع سعيد، فلما فرغ منها، كساها ديباجاً ملوناً من فوق لأسفل، وجعل لها عيداً حضره أهل مملكته كلها.

ثم عمل في الهرم الغربي؛ ثلاثين مخزناً مملوءة بالأموال الجمة، والآلات والتماثيل المصنوعة من الجواهر النفيسة وآلات الحديد الفاخر والسلاح الذي لا يصدأ والزجاج الذي ينطوي ولا تكسر، والطلسمات الغريبة، وأصناف العقاقير المفردة والمؤلفة والسموم القاتلة، وغير ذلك، وعمل في الهرم الشرقي أصناف القباب الفلكية والكواكب وما صنع أجداده من التماثيل، وجعل في الهرم الملون [الأكبر] أخبار الكهنة في توابيت من صنوان أسود، ومع كل كاهن مصحفة، وفيها عجائب صنعته، وحكمته وسيرته، وما عمل في وقته ،وما كان وما يكون من أول الزمان إلى آخره. وجعل لكل هرم خازناً من قرب منه وثبت إليه من ناحية قصده وطوقت على عنقه فقتله."[1]، ونجد ابن حوقل يناقش قيل عن الأهرام فيقول: "وقد ذكر قوم أنهما قبران وهما ليسا كذلك وإنما حدا صاحبهما أن عملهما أنه قضى بالطوفان وهلاك جميع ما على وجه الأرض إلا ما حصن في مثلهما فخزن ذخائره، وأمواله فيهما وأتى الطوفان، ثم نضب فصار ما كان فيهما إلى بيصر بن نوح."[2]، كما يؤكد الدمشقي أن :" السبب الموجب لبنائها استدلال هرمس بالأحوال الكوكبية على حدوث الطوفان فأمر ببنائها وإيداعها صحائف العلوم والأموال وما تخاف عليه من الذهاب

---

[1] –المقريزي: الخطط ج1، ص 207؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1،، ص 70 : ص 72؛ ابن محشرة الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 53؛ أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، ص 617، ص 617؛ الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص 109، ص 110.

[2] –ابن حوقل: صورة الأرض، ج1، ص 152.

الدثور.."[1]، وأن "هرمس الأول الذي يسمه اليونانيون أخنوخ بن يرد وهو إدريس عليه السلام علم بطوفان نوح إما بالوحي أو بالاستدلال. فأمر ببناء الأهرام. ."[2] فلم يكن عجيباً أن يقول ابن وصيف شاه عن أهل مصر :"وأهل مصر يتحدثون بالأشياء ويخبرون بالأمور المستقبلية قبل أن تقع، ويقال :مصر بأقوالها. "[3]

ما يهمنا في تلك الروايات عن أسباب بناء الأهرامات، هو تأثير قصة الطوفان عليها، وقد تبين لنا كيف يصير القصص الديني مادة لأمثال هذا النوع من القصص، كما تفصح عن ما كان للأهرامات من شغل شاغل في فكر المصريين، فلقد اكتنزوا فيها علومهم النافعة وفنونهم وأموالهم وذهبهم، وادخروها لمن يأتي بعدهم، وينجح في حل طلاسمها وقراءة رموزها، مما يعني حكمة وحصافة وعلم لم يتسن لغيرهم من الأمم، و لسان حالهم يقول: "كونوا اسعد حظاً منا" فلم يكونوا أبدا من الجبارين والطغاة الذين استعبدوا شعوبهم وسخروهم فيما لا فائدة منه من أجل مجد شخصي، وإنما كان في مخيلتهم من أجل الإنسانية.كما أن أبا الصلت في روايته القائلة :"وهذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربي على ما شاهدناه منهما "[4] يكشف لنا عن أن الهرم الثالث كان مازال مطموراً لم يكشف عنه بعد حتى حوالي عام 487هـ.

كما أن هذه الحكايات تعيد إلى الأذهان قصة حلم فرعون الذي ربط القصص الديني بينه وبين يوسف بن يعقوب، ذلك الحلم الذي كان نبوءة بكارثة الجوع، وما كان من تأويله، والقيام بتخزين، وحفظ القمح المصري في سنوات الوفرة إلى سنوات الجوع، كما أننا نجد في الرواية الأخيرة والتي سجلها كلٌ من السيوطي والمقريزي والتي نسبها السيوطي إلى مجهول مبهم وغير محدد سماه "جماعة من أهل التاريخ" ؛ الذين هم في الحقيقة رواة التاريخ الشفاهي الفولكلوري، الذين تختلط في رواياتهم بقايا المعرفة التاريخية الحقيقية ببقايا الأساطير ،التي تحولت إلى مأثورات شعبية حيث تشكل هذه المأثورات الفولكلورية في بعض جوانبها: "الحجرة الخاصة"

[1] -الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص 33.
[2] -القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص 269.
[3] - ابن وصيف شاه :جواهر البحور ووقائع الأمور ، ص15
[4] - أبو الصلت : الرسالة المصرية ، ص27.

للتاريخ؛ وهي الحجرة التي تضع فيها الطبقات الشعبية عواطفها، وتخزن فيها موروثها التاريخي - كما ينبغي أن يكون لا كما كان - وتودع فيها تصوراتها ورؤاها وحكمتها العملية، والباحث المدقق في رواية السيوطي عن الأهرام سيجد فيها مزجاً أدبياً بين الحقائق التاريخية والمأثورات الشعبية - أو أنه بتعبير آخر سيجد صياغة فولكلورية لبعض الحقائق التاريخية القليلة التي وصلت لعصر السيوطي، وهي صياغة تحاول أن تملأ الفراغات التاريخية بالخيال الأدبي: وهو تقليد عرفه المؤرخون والجغرافيون والعلماء العرب منذ العصور الإسلامية؛ عندما انفتح أمام العرب عالم العجائب والغرائب والحقائق في البر والبحر ، في البلدان الحقيقية والبلدان الأسطورية وكانت مصر بالتالي في طليعة تلك البلدان.

سبب آخر رآه المؤرخون دعى إلى بناء الأهرام يقول عنه البيروني: ".. وقالوا أن أهل المغرب لما أنذر به حكماؤهم - يعني الطوفان - بنو أبنية كالهرمين المبنيين في أرض مصر، إذا كانت الآفة من السماء دخلناها ، وإذا كانت من الأرض صعدناها، فزعموا أن آثار ماء الطوفان، وتأثيرات الأمواج بينه على أنصاف هذين الهرمين لم يجاوزهما . وقيل أن يوسف . جعلهما هرياً وجعل فيهما الطعام والميرة لسني القحط".[1]، ويعتمد المسعودي على جماعة من رواة التاريخ الشفاهي الشعبي في قوله: "فإني سمعت جماعة من أهل الخبرة يخبرون أن يوسف النبي ﷺ حين بنى الأهرام اتخذ مقياساً لمعرفة زيادة النيل..".[2]، ويشير إلى ذلك صاحب "آكام المرجان" بقوله: "الهرمان ارتفاعهما مائة ذراع وهي من صخرة وبها كان يجمع الطعام في أيام يوسف عليه السلام".[3]

ونجد قول البلوي حين يتحدث عن فضائل مصر فيقول: "إن بها الأهرام القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر البديعة الإنشاء كأنها القباب المضروبة في جو السماء وبها كان يجعل الطعام في أيام يوسف عليه السلام..".[4]، وقال المقدسي:" ومنهم من قال كانتا

---

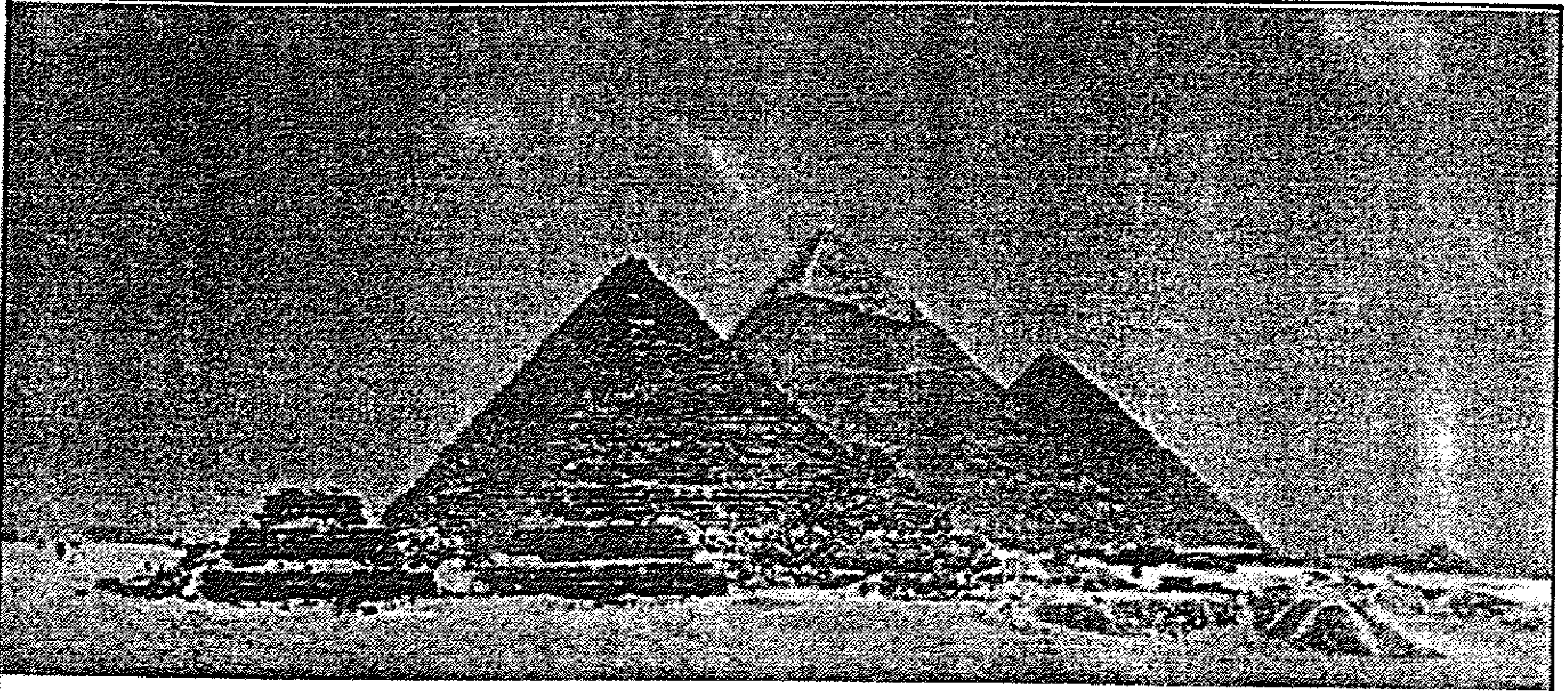
[1] -المسعودي: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص 24.

[2] -المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 344.

[3] -المنجم (اسحق بن حسين): آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان،(بريدة 1407هـ)، ص 23.

[4] -البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص 220.

أهراء يوسف ﷺ".[1] بينما اقترب المؤرخ (ابن ظهيرة) من بعض الحقائق التاريخية والتي تتصل بجوهر عقيدة البعث والخلود لدى القدماء المصريين فيقول: "لم تزل مشايخ مصر يقولون: الأهرام بناها شداد بن عاد ،وهو الذي بنى الغار وجند الأجناد وهي الدفائن، وكانوا يقولون بالرجعة، فكان إذا مات أحدهم دفن معه ماله كائناً من كان وإن كان صانعاً دفنت معه آلته..".[2]



مثل شكل الهرم سحراً كبيراً للمصريين القدماء ، انطلاقاً من ربطه بشكل التل الأولى الذي اعتقدوا أن الحياة نشأت عنه . كما أنه مازال يمثل لنا سحراً حتى اليوم من حيث ضخامته وانعكس ذلك السحر على مصنفات السحر الشعبي التي اتخذت من الشكل الهرمي أحجبة وتمائم لها صفات وخواص سحرية

في الروايات السابقة والتي جعلت من الأهرامات (أهراء) أو مخازن خزن فيها النبي يوسف ﷺ القمح يتبين لنا كيف يصير القصص الديني ـ مرة أخرى ـ مادة لأمثال هذا النوع من القصص، وكيف يستمر لجوء الخيال الشعبي إلى الخرافة، والحكايات الشعبية لسد النقص في سطور القصص الديني أو لتأكيد الإيمان بالقصص الديني نفسه كإضافة إلى رصيده في الوجدان الشعبي لا الخصم منه، كما يتبين لنا أن أصحاب النزعة الإسلامية من المؤرخين حاولوا أن ينسبوا كل شئ في مصر القديمة إلى يوسف ﷺ، ولا شك أن تياراً يهودياً ساعد في هذا وأكده؛ فحكاية أن يوسف ﷺ هو باني الأهرامات وصاحب عمارتها، وأمرها. كل هذا ربما دخله عنصر إسلامي

[1] -المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 210.

[2] -ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص 156.

قرآني من ناحية، ودخله عنصر يهودي مغرض وفاهم ومنظم في دنيا الأخبار والتاريخ من ناحية أخرى، وسنجد الكثير من الكتابات التاريخية خضعت لهذه الأخبار موردة لها عن اقتناع ديني مرة، وعن اقتناع عصبي مرات، ولكنها - الكتابات التاريخية - لا تغفل في كل أخبارها دور يوسف ﷺ في حياة مصر، محملة كل خيراتها له ولجهوده بما في ذلك بناء الأهرام.

وفي أوربا العصور الوسطى، كادت قصص العهد القديم عن يوسف ﷺ في مصر أن تكون لها وجودها المستقل؛ فقد كانت موضوعات شعبية لتزيين صناديق المجوهرات، وفي كنيسة سان مارك التي بنيت على طراز البازيليكا في البندقية القرن الحادي عشر الميلادي، رُسمت قصة يوسف ﷺ بالموزايكو. في سقف الرواق الشمالي، حيث تجد يوسف الوزير يشرف على تخزين الغلال، وكانت هذه الغلال تشاهد مخزونة في الأهرام، التي صورها الفنان أينيه، وعددها خمسة ولها نوافذ، وفكرة أن الأهرام كانت مخازن الغلال للفراعنة (أو شئون يوسف ﷺ) لها تراث طويل استمر حتى القرن السادس عشر الميلاد.[1]، وقد سببت ارتباكا لبعض أولئك الرحالة اللاحقين الذين سافروا إلى مصر، والذين كانوا قد عرفوا الكُتَّاب الكلاسيكيين من أمثال هيرودوت الهاليكارناسي الذي زار مصر حوالي سنة 450 ق.م، وقد وصف هيرودوت أهرام الجيزة، وسجل طريقة بنائها مثلما حكاها له الكهنة.[2]

وواصل المؤرخون وسط بحر متلاطم من الخرافة الحديث عن كيفية بناء الأهرام ونسج المؤرخون والرحالة معلومات من وحي خيالهم، وأكثر بعداً عن منطق الأشياء

---

[1] –آن وولف: كم تبعد القاهرة؟ (ترجمة: قاسم عبده قاسم، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 1053، القاهرة 2006م)، ص 86، ص 87.

[2] –يبدو أن هيرودوت حيث زار مصر. كان قد وقع في حبائل مجموعة من آفاقي الإدلاء والكهنة الجهلاء، الذين حشوا دماغه بمعلومات هي أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة ؛ فهو أول من قال : "بأن الهرم قد بني بالسخرة واستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاماً، وأن ملك مصر حين أفلست خزائنه من المال الكافي لاستمرار تمويل عمليات البناء طلب من ابنته أن تمارس الدعارة، والرذيلة في ماخور. وأمرها أن تحصل على مبلغ معين لم يذكروا له مقداره من كل من يأتيها، فضلا عن حصولها على ما أمرها به أبوها، فكرت بدورها في ترك أثر خاص بها؛ لذلك كانت تطلب إلى كل من دخل عليها أن يهديها حجراً، ومن هذه الأحجار – فيما يقال – بنى الهرم الذي يقع بين الثلاثة وهم أمام الهرم الأكبر .هيرودوت يتحدث ن مصر(ترجمة : محمد صقر خفاقة، دار القلم، القاهرة 1966م)، ص 251: ص 254.

وظل المؤرخون خلال أمد طويل لاحق يمزجون بين التاريخ التوراتي والبعد الأسطوري فيما يتعلق بأهرام مصر وكيفية بنائها، حتى ساد الاعتقاد بأن المصريين الذين صنعوا تلك الآثار، ناس غير طبيعيين يتمتعون بقدرة فائقة على الإتيان بالخوارق، وأنهم قد استعانوا بالسحر في تنفيذ كل هذه الإنشاءات الهائلة؛ ويرجع هذا الاعتقاد بصفة أساسية إلى عدم معرفة أسرار الكتابة المصرية القديمة التي كانت مدونة على تلك الآثار.

ورغم أن الرحالة العبدري يصف أهرامات مصر بقوله: "على شكل مخروط وليس لها باب ولا مدخل، ولا يعلم كيف بنيت"[1]، إلا أن السؤال ظل ملحاً على أذهان الناس بما فيهم المؤرخين والرحالة سواء من الشرق أو الغرب وشّيدت الأهرام في مخيلة الناس باستخدام السحر أحياناً أو بالمعجزات الإلهية أو بواسطة عمالقة من البشر أحياناً كثيرة.

يقول المسعودي: "كان القوم يبنون الهرم مدرجاً ذا مراقي كالدرج فإذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلى أسفل.."[2]، ويسوق التجيبي قولاً: "أن سبب حسنها ـ الأهرام ـ أنها نحتت بعدما بنيت فخفي بسبب ذلك ما استعين به على إلصاقها. ."[3]، ويعلق البغدادي على ذلك: "والعجب في وضع الحجر بهندام ليس في الإمكان أصح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل إبره ولا خلل شعرة وبينهما طين كأنه الورقة لا أدري ما صنعته ولا هو. ."[4]، ويقرر ابن زولاق: "لا يعلم في الدنيا حجر على حجر في هذا الوسع... ولا يقدر الخلق على عمل مثلها، ولم يقولهما إلا خالق الأرض".[5]

ويشرح الإسحاقي كيفية بناء الأهرامات بقوله: "...لما شرع في بنائها؛ أمر بقطع الاسطوانات العظام واستخدم الرصاص من أرض المغرب، وإحضار الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة: الشرقي ، والغربي، والملون ، وكانوا

---

[1] ـالعبدري (أبي عبد الله محمد بن مسعود) (ت 700 هت) : رحلة العبدري (تحقيق: علي إبراهيم كردي. الطبعة الأولى، دار سعد الدين، دمشق 1999م)، صـ 316.

[2] ـمروج الذهب، ج1، ص 350، العبدري: الرحلة، صـ 317.

[3] ـمستفاد الرحلة والاغتراب، ص 166.

[4] ـالإفادة والاعتبار، ص 92.

[5] ـابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص 71.

يمدون البلاطة ويثقبونها ويجعلون بوسطها قضيباً من حدي قائما ويربكون عليها بلاطة أخرى مثقوبة ويدخلون القضيب فيها ثم يذاب الرصاص ويصب في القضيب حول البلاطة إلى أن أكملت وجعل ارتفاع كل واحد من الأهرام مائة ذراع بالذراع الملكي. ولما فرغت كساها ديباجا ملونا من أسفلها إلى أعلاها..".[1]

ويعلق (ابن جبير) على بناء الأهرام فيقول: "قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة، وركبت تركيباً هائلا، بديع الإلصاق، دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها..".[2]

أما المقريزي فقد حاول مناقشة كيفية بناء الأهرام مناقشة علمية فقال: "فكرت في بناء الأهرام، فأوجب علم الهندسة العملية ورفع الثقيل إلى فوق، أن يكون القوم هندسوا سطحاً مربعا، ونحتوا الحجارة ذكراً وأنثى ورصوها بالجبس البحري إلى أن ارتفع البناء مقدار ما يمكن رفع الثقيل، وكانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتى يكون السطح الموازي للرفع الأسفل مربعاً أصغر من المربع السفلاني، ثم عملوا في السطح المربع الفوقاني مربعا أصغر بمقدار ما بقي في الحاشية، ما يمكن رفع الثقيل إليه، وكلما رفعوا حجرا مهندما رصوه إليه ذكرا وأنثى إلى أن ارتفع مقدار مثل المقدار الأول، ولم يزالوا يفعلون ذلك إلى أن بلغوا غاية لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك فقطعوا الارتفاع، ونحتوا الجوانب البارزة التي فرضوها لرفع الثقيل ونزلوا في النحت من فوق إلى أسفل، وصار الجميع هرماً".[3]

والأهرامات كانت قرينة الرحالة (أبو الصلت) على ما وصل إليه المصريون القدماء من تقدم في علم الهندسة فيقول: "كان فيهم ـ المصريون ـ طائفة من ذوي المعارف والعلوم خصوصاً بعلم الهندسة والنجوم. ويدل على ذلك ما خلفوه من الأشغال البديعة المعجزة ؛ كالأهرام والبرابي (المعابد)، فإنها من الآثار التي حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفكار الراجحة وتركت لها شغلاً بالتعجب منها والتفكير فيها..".[4]، ويصفها الاصطخري بقوله :"مربع الأسفل ثم لا يزال يرتفع ويضيق حتى

---

[1] -الإسحاقي: أخبار الأول فيمن ملك مصر، ص 110.

[2] -ابن جبير: الرحلة، ص 50.

[3] -المقريزي: الخطط، ج1، ص 114، الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص 63.

[4] -الرسالة المصرية: ص 25.

يصير أعلاه نحو مبرك الجمل وملئت بنيانه بكتابة يونانية، وفي داخله طريق يسير فيه الناس رجالة".[1]

أما الرحالة اليهودي (بنيامين التطيلي) (القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي). فقد كان له رأياً مخالفاً فقال عن الأهرامات [2] أن في الجيزة:" الأهرام التي بناها السحرة مما يندر نظيرة بين مباني العالم. ".[3]، فما أكثر الروايات والأساطير التي تتداولها الألسنة في أصل هذه الجبال الاصطناعية.. ".[4]، خصوصاً بعد أن بَعُدَ زمانهم عن زمان بناء الأهرام بنحو 4000 سنة أو يزيد، ولذلك شاعت بينهم معلومات مغلوطة، يبدو بعضها وقد اختلق اختلاقا بقصد ادعاء المعرفة بأسرار الغرائب والعجائب، حتى ولو كان ذلك على حساب العقل والمنطق وبديهيات التفكير السليم.

وهكذا، بنيت الأهرامات باستخدام السحر في نقل أحجارها الضخمة من المحاجر إلى مكان البناء، إذ يبدو بوضوح أن تلك الروايات تأثرت بما شاع عن المصريين من فنون السحر، كما قدمت لنا صورة عن أفكار الناس وآرائهم عن الأهرام والتي عدوها من فضائل مصر والحارسة لها، كما تعكس مدى انشغال الذهنية الشعبية بأخبار تلك الآثار. فراح الوجدان الشعبي يضيف من تصوراته وموروثاته إلى تلك الروايات، فجاءت متعددة بمقدار انشغال الوجدان الشعبي بها. كما تبين لنا أن الوجدان الشعبي حاول أن يختلق (علاقة شرعية أو غير شرعية) بين الأهرامات والسحر وهدف إلى إظهار النواحي السحرية التي استندت عليها أسس عمارة الأهرامات وخُيِّلَ للوجدان الشعبي أن من الجائز أن يكون من بين أغراض البناء محاكاة بعض المظاهر الطبيعية واستنباط طراز معماري خاص من نظامها. فلقد مثل شكل الهرم سحراً كبيراً للمصرين القدماء، انطلاقاً من ربطه بشكل التل الأولى الذي اعتقدوا أن الحياة نشأت

---

[1] -الاصطخري (أبي إسحاق إبراهيم بن محمد) :المسالك والممالك،(تحقيق: محمد جابر عبد العال، سلسلة الذخائر، العدد 119، القاهرة 2004م)، ص 41.

[2] ــــ ارتبطت بالأهرام العديد من الخرافات ، وقد نقل لنا الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي ما يتداوله الناس عن تلك الأهرام ، وهو على أية حال لم يزعم كغيره أن اليهود هم الذين بنوها أو حتى شاركوا في بنائها .

[3] -بنيامين (ابن يونة التطيلي النباري الأندلسي)،(561ــ569 هــ): رحلة بنيامين التطيلي(ترجمة:عــزرا حداد، دراسة: عبد الرحمن الشيخ، الطبعة الأولى، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002م)، ص 353.

[4] -أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، ص 617.

عنه. كما أنه مازال يمثل لنا سحراً حتى اليوم من حيث ضخامة تشييده وانعكس هذا السحر على مصنفات السحر الشعبي التي بين أيدينا اليوم والتي نجد فيها الشكل الهرمي المثلث مستخدماً في عمل الأحجبة والتمائم والأحراز.

وسحرية الشكل الهرمي تتضح لنا في محاولتنا ونحن نتكشف أن الهضبة نفسها التي أقيمت عليها الأهرامات بين الجيزة والفيوم يكثر فيها - بمحاذاة شمال بحيرة قارون وفي الأودية الصحراوية المطلة على البحيرة والأراضي الزراعية ـ عدد لا يحصى من الكثبان الرملية المنتظمة ذات الأشكال المخروطية أو المخروطية الناقصة، وهى تبدو عند النظر إليها كما لو كانت أهرامات بالفعل بعضها مدرج، ومنها ما يتخذ شكل المصاطب أو الأهرامات المنتظمة.

وكلما توغلنا في الهضاب المحاذية لشمال البحيرة ازدادت تلك الأهرامات الطبيعية أو بالأحرى الكثبان المخروطية الشكل، حتى يكاد يساورنا الشك في أن وجه الشبه بين تلك الأهرامات التي شيدتها الطبيعة، وهذه الأهرامات التي أقامها الفراعنة لم يأت بمحض المصادفة، وأن هناك صلة تربط بين الاثنين، ويحتمل أن فكرة محاكاة الطبيعة نشأت مع نزعة عامة للعناية بالأحجار وإعارتها اهتماماً بالغاً يقترب من التقديس يجعلنا نتساءل عن صلة هذا الطابع الهندسي المخروطي أو المثلث بجوانب من الفنون الشعبية القديمة أو القائمة حتى الآن والذي يبدوا جلياً في الرسوم السحرية على شكل مثلثات أو أشكال مخروطية التي افترشت بها كتب السحر الشعبي إضافة للتشابه بينها وبين تلك الأشخاص المجردة التي تكثر في مخطوطات السحر التي تظهر فيها أجزاء الجسم كما لو كانت مربعات أو مثلثات أو دوائر، وربما من هنا اتخذ شكل المثلث طابعاً سحرياً ودينياً إذ نرى إيزيس الممثلة في



كثير من تماثيل دولة البطالسة في مصر ممسكة بالمثلث الحديدي ومتخذة منه سلاحاً لطرد الأرواح والشياطين الضارة.

وفي فنوننا الشعبية في الوقت الحاضر نجد الأجراس الهرمية أو المثلثة الشكل مستخدمة كثيراً في لجام وسرج بعض الدواب، ولاسيما ما يجر منها العربات حيث يمكن أن نستشف منها الغرض السحري الذي يهدف إلى طرد الأرواح أو الشياطين التي قد تؤثر على الدابة فتجعلها تتعثر في سيرها. فالدابة التي تجر العربة أو تحمل حملاً، تبدو أحياناً غير مبالية بثقل الحمل، خفيفة في حركتها كما لو كان الدافع أو المعين لها بعض الأرواح. وفي أحيان أخرى تتعثر لحمل أقل ثقلاً وتجمح في السير، وكأن "عُكوساً" تؤثر عليها. فلعل هذه الأسباب مجتمعة تحمل الرجل الشعبي على تزويدها ببعض الأجراس المثلثة الشكل أو المخروطية التي تعتبر بمثابة دروع وقائية تحمي الدابة من الأرواح الشريرة والشياطين كأن الشكل الهرمي أصبح حرز أو رصد يحمي الدابة. [1] ونجد أن شكل المثلث الهرمي ينتشر بقوة في الموروث الشعبي المتعلق بخاتم سليمان (وهو الخاتم الذي استطاع سليمان به أن يستخدم الجن ويسخره ،فحملت له البساط، وقطعت له الأحجار، وبنت له الهياكل والقصور) وتشير بعض مصنفات السحر الشعبي أن هذا الخاتم هو تطوير لخاتم على شكل هرمي كان لآدم عليه السلام إذ أن قيمته العددية ذات الطابع السحري تساوي 15 بحساب الجمل[2]. وقد نسب هذا الخاتم أيضاً إلى آصف بن برخياء وزير سليمان، ويذكر الموروث الشعبي أن آخر من ملك هذا الخاتم كان الإمام الغزالي. [3] ولذا ينبغي ألا ندهش بعد هذه القرائن من أن نعثر عند الشعبيين على أحجبة مصنوعة على شكل هرمي أو مثلث جمعت في منشنها بين الغرض الديني والغرض النفعي.

وهناك من رأى بأن الأبراج البابلية المسماة بالزيجورات الشبيهة بالأهرامات المدرجة والمثلثة الشكل، وكذلك الأهرامات المصرية القديمة، وما يناظرها من أهرامات أقيمت في حضارات المكسيك القديمة، ومعابد بورما المقامة على هيئة

[1] ـ سعد الخادم :الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص 80

[2] ـ على أبو حي الله المرزوقي :الجواهر اللماعة في استحضار ملوك الجن في الوقت والساعة ، (مكتبة القاهرة 1959م) ،ص21.

[3] ـ سليمان محمود حسن : الرموز التشكيلية في السحر الشعبي ، ص158.

أهرامات يعلوها شكل اسطواني ـ هناك رأي بأن هذه الهياكل كلها إنما أقيمت لتجمع بين الغرض الديني وغرض التنجيم، وكلاهما سحري في أصله.[1] كما أن ما روجه المؤرخون والرحالة حول :"وأهل مصر يتحدثون بالأشياء ويخبرون بالأمور المستقبلية قبل أن تقع، ويقال :مصر بأقوالها. "[2] كأحد الأسباب المباشرة لبناء الأهرام خوفاً من الطوفان يذكرنا بما شاع عن المصريين من طقوس شعبية تكاد تطابق فتح المندل عند الشعبيين واستنطاق الودع وقراءة الطالع وهو الشئ الذي ظل محتفظاً بطقوسه السحرية وسط هذا الانقلاب في التفكير ووسط تطلع الأذهان إلى جلب المكاسب المادية وتحقيق التوسع في مناطق النفوذ.

ومن أهم ما يرغب المترددين على المشتغلين بالسحر في معرفته هو طلب الإخبار بمعلومة معينة حول المستقبل، أو الحصول على توجيه إلهي أثناء النوم. وهذا لا يوجد بالنسبة للمعتقدات السحرية عند الشعب المصري فحسب بل يوجد في المعتقدات السحرية عند كافة الشعوب. [3]

ويعد هذا الهدف وهو معرفة الغيب، مطلباً أساسياً، لدى المترددين والدوافع إلى معرفة الغيب كثيرة عندهم، فهناك دوافع الخوف. .الخوف من المجهول، والخوف من ضياع النعم، أو فقدان الحب أو المال، أو الولد، وهناك دوافع العجز فحين يعجز شخص عن معرفة من سرق ماله مثلاً، أو تعجز أم عن معرفة مكان ولدها التائه فإنهما قد يلجآن إلى المشتغلين بالسحر وبخاصة حين يفشلان في ذلك باللجوء إلى الشرطة.[4]

ففكرة الفأل والتنجيم وكشف الطالع وغيرها من الممارسات الشعبية ذات الطابع السحري ؛فيها بطبيعة الحال نوع من التناقض، إذ نرى شخصية الفرد تتطلع إلى سعة المدارك والجرأة في خوض غمار مخاطرات وكشوف بدافع العقلية المادية وهي في الوقت نفسه ترتد لتحتمي في أوهامها القديمة غير مقتنعة تماماً بما أكسبتها للفنون

[1] ـ سعد الخادم :الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص95

[2] ـ ابن وصيف شاه :جواهر البحور ووقائع الأمور ، ص15

[3] ـ محمد الجوهري : علم الفولكلور ، دراسة المعتقدات الشعبية (الجزء الثاني ، دار المعارف ، القاهرة 1980م)،ص219.

[4] ـ سامية الساعاتي : السحر والسحرة ، ص176.

والعلوم من المنافع ومكنتها من التقدم، فالطابع السحري الذي كان بمثابة الموجه أو أحد العوامل الرئيسية التي أكسبت هذه الفنون طبيعتها ومقوماتها الفنية، وكذلك طائفة من صناعاتها وحرفها، ولاسيما عند منشئها [1] فلا غرو أن يتداخل الخيال مع الأسطورة لدي من وصف المصريين سواء كان مؤرخاً أو كاتباً أو رحالة ، فيربط البعض منهم بين الأحوال الفلكية، وسمات أهل مصر؛ يقول المقريزي: " إن منطقة الجوزاء تسامت رؤوس أهل مصر فلذلك يتحدثون بالأشياء قبل كونها، ويخبرون بما يكون وينذرونه بالأمور المستقبلة، ولهم في هذا الباب أخبار مشهورة". [2]

يشير المقريزي إلي تلك الحاسة ويرجعها إلي عوامل بينية جغرافية تتصل بموقع مصر وعلاقته بالنجوم والأفلاك، ويلحظ المرء بروز الاعتقاد في تأثير النجوم في طبائع الناس وأحوالهم ويشير (أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي) إلي ذلك فيقول :" المصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم، وتصديقاً لها وتعويلاً عليها وشغفاً بها، وسكوناً إليها. حتى أنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلي أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التي لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها ولا تضبط جهاتها، ولا تقيد غاياتها ولا تعد ضروبها إلا في طوالع يختارونها ونصب يعتدونها". [3]

ويستشهد صاحب الرسالة المصرية علي ما يقول، بحكاية يرويها :" ولقد شهدت يوماً رجلاً من الوقادين في آتون الحمام يسأل رزق الله المذكور- أحد المنجمين- عن ساعة حميدة لقص أظفاره فتعجبت من سمو همته، علي خساسة قدره ووضاعة مهنته[4]".ويضيف إلي ذلك قوله: " ومن الحكايات العجيبة، في فرط استعمالهم لأحكام النجوم ،وعنايتهم بها؛ ما شهدت بالصعيد الأعلي وذلك أن بعض الولاة حبس رجلاً من بعض أهل تلك الناحية كان ينظر في علم النجوم وشفع إليه فيه من يكرم عليه فشفعه فيه، وأمر بإطلاقه، وكان من الحبس في عذاب واصب، وجهد ناصب، فلما أتوه وقالوا له: انطلق لشأنك. أخرجَ من كمه اصطرلاباً، فنظر فيه فوجده مذموماً،

[1] - الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص 167.

[2] - المقريزي: الخطط، ج1، ص 49.

[3] - أبو الصلت : الرسالة المصرية ،ص 39.

[4] - المصدر نفسه، ص 39.

فسألهم أن يتركوه مكانه إلي أن يتفق وقت يصلح للخروج من السجن، فعادوا إلي الوالي، فأخبروه بخبره فضحك منه، وتعجب من جهله وفساد عقله وأجابه إلي سؤاله وتركه علي حاله، وأطال مدة عقابه"[1].

هكذا بلغ الاعتقاد في النجوم والطوالع وتأثيرها في أحوال الناس الحد الذي جعل وقاداً في أحد الحمامات يستشير النجوم قبل أن يقص أظافره، وجعل ذلك المنجم يرفض الخروج من السجن حين أتيح له ذلك بعد شفاعة أحد المتشفعين، لأن الوقت لم يكن مناسباً حسبما قالت له الأبراج. كانت تلك سمة من سمات ذلك العصر في تلمس كل السبل للتنبؤ بالغيب حتى انتشرت الوسائل المتعلقة بها وتنوعت تلك الأمور ما بين ضرب الرمل واستنطاق الودع، وفتح المندل والاستخارة بالرؤية وبالقرآن الكريم حتى أنكر ابن الحاج ذلك علي المصريين بقوله: " أما الباطل فهو زعمهم في فتح الختمة والنظر في أول سطر يخرج منها أو غيره".[2]

واضطلع العديد من الناس بهذه المهام ليقدموا للإنسان اللاهث وراء المجهول كل ما يرضيه أو يطمئنه علي المستقبل أو ينذره من ويلاته وحسبنا هنا مشاركة المؤرخ العيني (855هـ) حيث أشار في حديثه عن (السلطان الظاهر ططر) بقوله: " وكانت توليته في ساعة أجمع عليها أهل الحساب أنها تدل علي طول أيام مولانا السلطان خلد الله ملكه مع عافية وأمن وسرور. ثبت الله أركان دولته وأيام سطوته وعزته ".[3] بيد أن " **ساعة السعد**" التي أشار إليها العيني لم تكن كذلك فقد تبوأ السلطان (سيف الدين أبو الفتوح ططر) في يوم (29 من شهر شعبان عام 824هـ) ولم يمهله القدر في حكم مصر أكثر من تسعين يوماً لا غير.

أما **الأرصاد الحافظة للأهرام** والروايات التي شاعت حولها فقد تأثرت كذلك بما عرف عن المصريين من إتقان للسحر حيث: "كان أهل مصر أعلم الناس بالسحر، وأقواهم عليه، وانتشر ذلك فتناذرهم الناس..".[4]، وعلى هذا يصف (ابن الظهيرة)

---

[1] – أبو الصلت : الرسالة المصرية ، ص40.

[2] – ابن الحاج: المدخل، ج1، ص 278.

[3] – العيني (محمد بن أحمد) (ت 855هـ): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر (تحقيق هانس أرنست، الطبعة الأولي دار إحياء الكتب، القاهرة، 1962م)، ص40.

[4] –ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 48.

أهرام مصر وعلاقتها بالسحر في قوله: ".. ليس على وجه الأرض بناء أرفع منهما - الهرمان - منقور فيها بالمسند كل سحر وطب وطلسم..".[1]، ومن هنا يؤكد (أوليا جلبي) أنه :"ليس هناك شك في أن هذا البناء العجيب - الأهرام - مطلسم؛ لأننا حينما وصلنا الحوض المذعور، بهتنا كلنا وتولتنا الحيرة، والدهشة، وأحاط بنا النصب والأذى لمن كان جهة، فعدنا بأعجوبة، ولكن بكل مشقة وبلاء، وقد كادت أرواحنا تفارق أجسامنا؛ من هول الموقف حتى وصلنا إلى الهواء الطلق، وتنفسنا الصعداء ودبت الحياة فينا من جديد..".[2]

وبإسناد مبهم وغير محدد يضيف (التلمساني): "يُحكى أن الذي بناها ملك يُقال له سلموق بن درمسيد؛ الذي أغرقه نوح ﷺ بالطوفان. . وأنه لما بناها وكّل بكل هرم منها روحانياً يحفظه؛ فوكل بالهرم البحري ،وهو المفتوح الآن روحانيا في صورة امرأة عريانة مكشوفة الفرج، ولها ذوائب تصل إلى الأرض، فإذا أرادت أن تستفز الإنسي ضحكت في وجهه وجرّته إلى نفسها، فتطعمه وتسخر به، وحكى من رآها عريانة عند هذا الهرم أنه امتلاء قلبه رعباً، وعدل عنها ولم يكلمها ولم تكلمه. ووكّل بالهرم الذي إلى جانبه روحانياً في صورة غلام أمرد أصغر عرياناً، وذكر جماعة أيضا أنهم رأوه على جانبه مرة بعد مرة، ثم يغيب عنهم، ووكل بالثالث وهو الصغير روحانياً في صورة شيخ في يده مبخرة، وهو يبخر بها، وعليه ثياب الرهبان، ذكر قوم من أهل الجيزة أنهم رأوه مرات في أطراف النهار، فإذا قربوا منه يغيب عنهم، ولم يظهر فإذا بعدوا عنه عاد إلى حالته التي كان عليها..".[3]

هذه الروايات على الرغم من غرابتها وامتزاجها بكثير من الخيال ووسائل الإيحاء، لا تنفى تفوق الذهنية الشعبية إلي حد الموهبة في إيجاد مبررات صمود تلك الآثار أمام عوادي الزمن فتسربت بعض الأفكار المرتبطة بالسحر الشعبي المتغلغل في نسيج المجتمع المصري آنذاك ليقدم تبريرات ممنطقة لكل الأسئلة التي ألحت علي العقلية الشعبية يومئذ فلا غرابة أن نجد في تلك الروايات التي قدمها لنا الرحالة

[1] -ابن ظهيرة، محاسن مصر، ص 155.
[2] -سياحتنامه مصر، ص 621.
[3] -سكردان السلطان، ص 459؛ الخطط: ج1، ص 210.

والمؤرخون موتيفات فلكلورية عن روحانيات تحرس الأهرامات تتشابه كثيراً مع روايات وردت في مصنفات السحر الشعبي حول الجن والعفاريت التي تحرس كنوز القدماء فيقول ابن الحاج التلمساني المغربي في كتابه شموس الأنوار تحت باب بعنوان (الباب السابع في فتح الكنوز) :"هذه عزيمة قوية يفتح بها كل كنز مغلق وتغلق الصخور المنتظمة والقلل على أبواب الكنوز والديور الكائنة تحت الأرض التي فيها ذخائر الملوك وملوك الجاهلية، وكيفية العمل بها ؛ أن تخدم العزيمة في فلاة من الأرض مدة أيام فإذا بلغت أحداً وعشرين يوماً يظهر لك عبد أسود طويل القامة كبير الرأس راكب على فرس وبيده أسد عظيم فإنه يكلمك فلا تجبه ثم بعد خمسة وثلاثين يوماً يظهر لك شخص وجهه وجه كلب وذاته ذات آدمي ويسلم عليك فلا تجبه فإنه يذهب عنك ويظهر لك في اليوم الثاني والأربعين سبعون رجلاً لباسهم أخضر فيسلمون عليك فرد عليهم السلام فإنهم يقولون أي حاجة تريد عندنا فقل لهم طلبت من الله ثم منكم أن تجمعوني مع الأمير سلطانكم خليفة دمرياط الصنديد المسمى بالطاوس. .." [1]وتستمر الرواية في سرد أسانيد إيمانية لتقوية الاعتقاد بقوة الآثر في ظهور(خُدام) أو حراس من العالم الغيبي يقومون علي حراسة الكنوز والآثار القديمة.

وصورة الروحانيات التي تحرس الأهرامات والتي ورد لها نظائر في مصنفات السحر الشعبي تتشابه كثيراً أيضاً مع تردد بالحكايات الشعبية حول معبد مدينة قفط إذ يقال إن معبد قفط تحرسه فتاة سوداء كحية البركة، وتحمل على ذراعها طفل رضيع سواده سواد الليل الجواني، وعندما يهل سواد الليل، تخرج الفتاة وتلف في المنطقة، وقفط هى مدينة (كيتوس)، وعندما تشاهد يقال الأم تحمل رضيعها وتظل حائمة وهى هكذا منذ الجدود. ويقال إنه كان معها أخوها وزوجها، وسبحان من يفرق العائلات والجماعات. . إنها تندبهم وتندب وحدتها ويا بخته من صادفها ومسح لها دمعتها ودلها أو أجابها على سؤال أو يا بخت من يسترها، ومن يسترها تستره دنيا وآخرة، وتدله على باب الكنز. [2]

---

[1] - ابن الحاج التلمساني المغربي : شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى،ص38

[2] - انظر :محمد الفيل : الثقافة المصرية بين الرسمية والشعبية (الجزء الأول ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة 2007م)، ص105

طلسم شائع في مصنفات السحر الشعبي استخدم فيه الأشكال الهندسية لمجابهة ظلم وبطش الحكام

وقدمت لنا كتب التراث؛ صورة عما كان شائعا من روايات شفوية ومكتوبة عن الأهرام، وأدلى المؤرخون والأدباء والرحالة بدلوهم فيما رأوه. عاكسين بذلك بعض الأفكار التي سادت المجتمع المصري حول هذه الأعاجيب، وكيف أن تلك الأفكار كانت مزيجاً من الحقيقة والخيال، لدرجة أنها: "حيرت الأذهان الثاقبة، واستعجزت الأفكار الراجحة أو تركت لها شغلا بالتعجب منها والتفكير فيها".[1]، على حد قول الرحالة (أبو الصلت الأندلسي) ولدرجة أن الخيال الشعبي أضفى على الأهرام هالة قدسية؛ مثلما للكعبة المشرفة من قداسة ومكانة في نفوس تابعيها؛ ففي تلميح إلى وجود أرصاد حارسة للأهرام استعار (الخيال الشعبي) هيكل أسطورة (إساف ونائلة[2])

---

[1] الرسالة المصرية، ص 25.

[2] ـ أسطورة إساف ونائلة: ملخصها كما جاءت في كثير من كتب الأدب ، أن (إسافاً ونائلة) رجل وامرأة تمكن الحب من قلبيهما فأصبحا عاشقين ، وكانا يرغبان في اللقاء والاجتماع بعيداً عن أعين الرقباء ، فلم يجدا مكاناً يلتقيان فيه خفية غير الكعبة ، فأحدثا في الكعبة فعوقبا على ذلك بأن مسخا حجرين كما أن الآلهة لم ترض عن هذا اللقاء في هذا المكان ، وكانت قد حظرت عليهما اللقاء في الكعبة حرم الآلهة .علي عبد

العربية دون المضمون خاصة حينما حاولا أن يفعلا الفاحشة في جوف الكعبة فيقول المسعودي: "... وحكى أن رجلا وامرأة دخلا (الهرم) للفجور فصرعا جميعاً فلم يزال مصحوبين مشهورين إلى أن ماتا... وحكي أن قوما دخلوا الهرم، ومعهم غلام يعبثون به، فخرج عليهم غلام أسود في يده عصا، فأخذ يضربهم ضربا وجيعاً، فخرجوا هاربين وتركوا طعامهم، وشرابهم، وبعض ثيابهم، وقد أصاب قوم في بربا إخميم مثل ذلك..."[1].

وتعكس الروايات السابقة إلى أي مدى انشغلت الذهنية الشعبية بفكرة الأرصاد والطلاسم والإحراز التي تقي من الأرواح الشريرة وغيرها يعرف المعجم الوسيط الطلسم بأنه خطوط وأعداد يزعم كاتبها انه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية لطبائع السفلية لجلب أو دفع أذى وهو لفظ يوناني لنعت كل ما هو غامض ومبهم كالألغاز والأحاجي وحسب ابن خلدون فإنه إذا كان السحر هو اتحاد روح بروح، ولا يحتاج الساحر فيه إلى معين فإن الطلسمات يحتاج فيها الساحر إلى معين فيستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر ولذلك فإن الطلسمات اتحاد روح بجسم أي ربط للطبائع السماوية (التي هي روحانيات الكواكب بالطبائع السفلية.ويعني ذلك أن الطلاسم (أو الطلسمات) ليست شيئا آخر سوى الجداول (بالتعبير المغربي الدارج الذي ينطق الكلمة بجيم ساكنة مع تشديدها) أن صناعة الجداول تخصص لا يتقنه سوى نخبة الفقهاء السحرة الذين اكتسبوا معرفة دقيقة بأكثر «علوم السحر» تعقيدا ولأجل ذلك يطلبون مقابل عملهم تعويضات من الزبائن تكون قيمتها المالية كبيرة.واهم العناصر التي صنع منها الجداول هي: حروف غير مفهومة مثل السبع خواتم، (معروفة بخاتم سليمان) حروف أبجدية، أرقام، أسماء هجرية، أسماء عناصر، أسماء الشياطين وملوك الجن والملائكة، أسماء الله الحسنى، سور من القرآن،أشكال هندسية مختلفة.

وتسمى الجداول كذلك في لغة السحرة «خواتم» أو حسب شكلها الهندسي مربع

الحليم محمود : القصة العربية في العصر الجاهلي ،ص155.

[1] المسعودي:أخبار الزمان، ص 53.

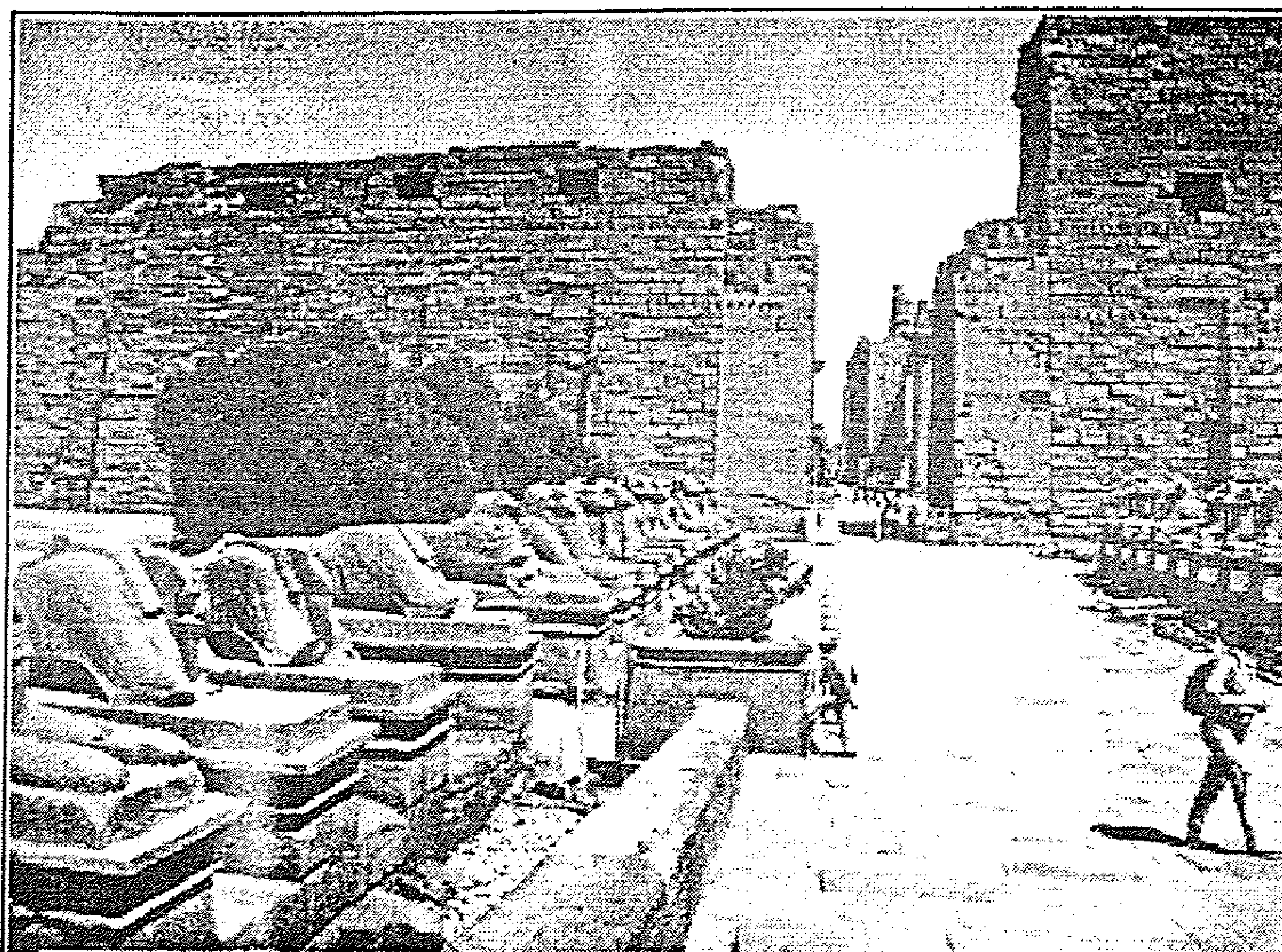
مخمس وهي من التنوع والغرابة بشكل يرعب العامة أو على الأقل احترامها للعمل السحري ومن مطالعتنا لبعض كتب السحر التي تحفل بالكثير من النماذج نستخلص ان الجدول الواحد يصلح لقضاء أكثر من غرض واحد وطريقة الاستعمال وحدها تحدد النتيجة التي حصل عليها المستفيد من العملية ونظرا لأن تلك الرسوم التخطيطية الغامضة تبدو متضمنة لخاصية سحرية (كل ما هو غامض هو سحري) فإن مؤلفي مصنفات السحر الشعبي الأساسية بالغوا في حشو بعض الجداول بكل ما هو غريب وغامض من الرموز بيد أن أكثر إشكال الجداول خطورة (من وجهة نظر المعتقدات السحرية) وإثارة لرعب العامة هي تلك المسماة «الجدولية»، والجدولية هي رقعة ورق وضعت عليها كتابات سحرية يتم إعدادها غالبا بدافع الغيرة وبغاية الانتقام الأسود من غريم أو عدو وهذه العملية السحرية تستدعي القوى الخفية على رجل أو امرأة من قبل فقيه ساحر يتعاهد من جني لإشراكه في العملية بحيث يصبح الجني حارسا للجدول السحري وضامنا لاستمرار مفعوله طالما بقي المستهدف بالعمل السحري حياء ويمكن تلخيص العملية فيما يلي: "بعد أن يعد الساحر الجدولية» يقيم عهدا مكتوبا مع جني بأن يحرسها ثم يقوم بدفن كل من الجدولية والعهد المكتوب في الروضة المنسية بإتباع طقس معقد جدا والروضة المنسية في فهم المغاربة هي المقبرة المهجورة التي كفت منذ أمد بعيد عن استقبال موتى جدد وانمحت الكتابات من شواهد قبورها "

إن الأثر السحري الذي يترتب عن هذا العمل المرعب يتحدد في جعل المستهدف منه يصبح غائبا عن محيطه وبتعبير المختصين في صرع الجن فإن ضحية الجدولية تصبح «ملبوسة من طرف الجن» وهي اخطر أنواع الإصابات التي يلحقها الجن بالبشر وربما نجد في الأمر بعض التشابه مع المضمون الغرائبي لحكايات ألف ليلة وليلة التي أثرت بعمق في المتخيل الشعبي العربي وتركت بصمات واضحة المعالم في مأثوراتنا الشعبية وعلى الخصوص منها حكايات الجن الذي يظل مسجونا في قمقم أو حارسا يحمي كنزا لعدة قرون،وفي زعم السحرة ان الجني الذي يحرس الجدولية يصبح متقمصا (لابسا) للضحية حتى لا تستطيع أية قوة سحرية أخرى إبطال مفعوله وفي محكمة الجن الكبرى في بويا عمر يحدث ان ينهار الحارس للجدولية أثناء

حصص «الصريع» فيفيد هيئة المحكمة الغيبية بمصدر الشر الذي يحرسه واسم صاحب الجدول السحري والفقيه الذي صنعه وفي بعض الأحيان حتى المكان الذي دفن فيه الجدول والعهد، ولا يقتصر استعمال الجداول على الأغراض الملحقة للأذى بالغير فقط بل يستعمل لأغراض نافعة أيضا، ومنها علاج لسعات الحيوانات السامة، والكلاب المصاب بالسعار، ولأجل ذلك ينقع الورق الذي كتبت عليه عبارات سحرية سرية في ماء، ثم يقدم شرابا للمريض، كما تعلق بعض الجداول الأخرى بغاية علاج أمراض خطيرة، كحمى المستنقعات وأمراض القلب، وآلام الأعصاب والعقم، وغيرها.

والمدقق في الروايات السابقة سيجد أن الحديث عن أولئك الخدام والروحانيات والطلاسم، والصيغ السحرية التي وضعت لحماية الأهرام، تتصل بما صار يعرف بلعنة الفراعنة، ويشير هذا إلى أن الاعتقاد في وجود تلك اللعنة والرصد قديم، كما تشير أيضا إلى أن أماكن الآثار المصرية كانت من الأماكن المحببة إلى الناس ارتيادها كما تدل على ما ابتلي به المجتمع المصري من أمراض اجتماعية كالزنا واستيلاء شهوة المردان الملاح على قلوب البعض، كما نستخلص مما سبق أن فكرة الاستعانة بالطقوس الدينية والسحرية التي ارتبطت بالأهرامات كانت وسيلة الذهنية الشعبية لحفظ هذا التراث الإنساني من الضياع ،وبطبيعة الحال ظلت مجموعة كبيرة من تلك المعتقدات القديمة قائمة حتى عهود متأخرة، بل نجد لها بقايا في كثير من الفنون الشعبية، ولاسيما فنوننا. وهذا الاستمرار يدل على أن تلك الفنون الشعبية سجل يجمع نواحي متفرقة من تاريخ البشر في عهوده المختلفة، وأن بعض العادات أو القصص أو الفنون الشعبية تقص علينا أحياناً جوانب من عادات وطقوس مجتمعات عاشت منذ فجر الإنسانية كالعصور الحجرية، وأن تلك الطقوس القديمة التي امتزج فيها الدين بالسحر وخيال الرجل الشعبي بالخرافات التي يحيط نفسه بها، جعلته رغم غرابتها وبعدها عن المنطق يكتسب صفات المثابرة والجلد والحذق بل المهارات المختلفة، فلعل خشيته بأس الأرواح الشريرة والشياطين وحذره ومحاولته اتقاء شرها ومكرها وبطشها، جعلته يتطلع دائماً إلى الوصول إلى نوع من القوى والسحر تبطل

أضرار تلك الأرواح التي يخشاها ،بل تسيطر عليها وتسخرها. 1 أضف لذلك ما تعكسه الروايات من اعتداد المصريون بتاريخهم وآثارهم حيث كانوا ينظرون إلى الأهرام باستمرار نظرات ملؤها الاحترام والتقديس وهو ما نكتشفه في الروايات التي تناثرت في كتابات الرحالة والمؤرخين عن عبادة الأهرامات.



تضم هذه الصورة طريق الكباش (أبو الهول) وهو الطريق الذي كان يربط بين معبدي الكرنك و الأقصر على مسافة يصل طولها إلى ثلاثة كيلو مترات ولكن للأسف دفن هذا الطريق ولم يتبق منه إلا هذه الكباش الموجودة في الصورة وجاري عمل مشروع انتشال هذه الكباش من تحت الأتربة و إعادتها إلى الحياة مرة أخرى

تشير الكتابات التاريخية إلى انتشار ما اصطلحنا عليه في العصر الحديث بظاهرة ـ الافتتان بالمصريات ـ[2]، بين شعوب العالم الوسيط وأن تلك الظاهرة قد اتخذت

---

[1] ـ سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص26.

[2] ـ ظاهر الافتتان بالمصريات: ما يعرف اليوم بـ "الاجيبوتومانيا" وهي نوع من الولوع أو الافتتان الشديد بمعرفة المعلومات التي تتصل بمصر وتاريخها وحضارتها القديمة، وهو أيضا ضرب من ضروب الجنون يتميز بالانفعال الشديد في الانعطاف نحو شئ ما، وهي ظاهرة عامة تفشت بين عشرات الملايين من الناس على مدى آلاف السنين، انتشرت بين معظم الشعوب التي تنتمي إلى حضارات قديمة أخرى غير الحضارة

أطوارا متباينة وأشكالا عدة، ونتيجة لشيوع الأساطير والخرافات حول الأهرام بين شعوب العالم الوسيط، نشأ نوع من "الحج" لزيارة 'الأهرام، فتوافد - خلال العصور الوسطى - مئات الألوف سواء من الشرق أو الغرب، وخلد المؤرخون تلك الزيارات في سياق حديثهم عن عجائب مصر فيقول (أولياچلبي): "..إذا كان جبل الهرمين في تلك العصور مزارا للخاص والعام، لأنه مقبرة يزورونها، ويتطوفون بها مثل الكعبة، وقد دام الحال على هذا المنوال منذ عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام".[1]، ويضيف أنه: "كان يؤم هذين الهرمين في ربيع كل سنة مئات الألوف من الناس من أنحاء العالم ويزورونهما..".[2]، ويشير الغرناطي إلى أن :"الصابئة تزعم أن هذه القبور - الأهرام - أحدهما قبر غاثمور، وهو عند شيث، والآخر قبر هرمس، وإليه تنسب الصابئة على قول من يزعم ذلك، وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الديكة، وما يريدون علمه من الأمور المغيبة...".[3]، كما يذكر البغدادي: "أنه كان يحج إليهما، ويهوي نحوهما من أقطار الأرض".[4]، وأن الصابئة تحجهما من حران".[5].

وطاف الخيال الشعبي حول الأهرام فخلع عليها صفات استعارها من الأفكار الإسلامية والعربية عن الكعبة وكسوتها فيسوق الهمذاني رواية تقول: "ذكر الشريشي في شرح المقامات: أن بين الجيزة والأهرام سبعة أميال.. وروى في بعض أخبارها أن عليها مكتوب؛ بنينا هذه الأهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد في ستمائة سنة، فإن الهدم أهون من البناء، وكنا نكسوها حريراً فاكسوها بعدنا حصراً..".[6]، أضف لذلك ما لاحظه المؤرخون من أن الحج وصفات القداسة لم تقتصر على الأهرام فحسب بل حاز تمثال "**أبو الهول**" على قدر كبير من تلك الصفات القدسية وأعده البعض أحد

المصرية.

[1] - ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ض 154؛ أوليا چلبي : سياحتنا مه مصر، ص 37.

[2] -نفسه، ص 618.

[3] -الغرناطي (أبي حامد محمد) (ت 565 هـ): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب (تحقيق : علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2003م)، ص 94.

[4] -البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص 94.

[5] -الكندي: فضائل مصر، ص 66.

[6] -الهمذاني (بهاء الدين محمد بن حسين) (ت 1031 هـ): المخـــــلاة (الطبعة الثانية، مكتب مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1957م)، ص 258.

أركان مناسك الحج إلى الأهرامات حيث كانت الصائبة "تحج إليه" وتقول: يا أبا الهول إليك قد حججنا...".[1] وفي مدينة حران وضواحيها بشمال سورية كان يعيش قوم يعبدون الكواكب يعرفون بالصابئة، وتنسب لهم ألوان من العلوم السحرية الخاصة بـ(الصفات السحرية) للنباتات والأحجار والمعادن، وكان الصابئة قد اشتهروا بالكثير من أفكار الفلسفة اليونانية، ولاسيما المحدثة منها[2] وقوم من الصابئة سكنوا العراق، ولهم رسوم سحرية متميزة تشبه في شكلها العام رجال الفضاء، ويعتقد الصابئة أن هناك عوالم أخرى يعيش بها بشر، وهى عوالم أكثر طهارة من عالمنا، وان البشر هناك يختلفون عنا كثيراً، ومن هنا كان اعتقادهم بأن الرب نقل بنات آدم من هذا العالم (الأرض) وجلب زوجات من عالم آخر لأولاد آدم. [3]

وإذا كانت الأهرام قد ظلت قابعة في غياهب الخرافة والأساطير. فإنه بسقوط سلطان الرومان في مصر، هوى "أبو الهول"[4] في غياهب الإهمال والنسيان، أما السافي أبداً أن الرمال التي لم تعد يكبحها أوامر الملوك في الأساطير. فقد طفقت تغرقه شيئا فشيئا إلا على الرأس فوق سطح الأرض، الذي أصبح فريسة للعوامل الجوية والتعصب الديني، ومع ذلك الإهمال والإعراض الذي كان فيه، فلقد ظل أبو الهول

---

[1] –ابن ظهيرة: **الفضائل الباهرة**، ص 154؛ الأقفهسي(شهاب الدين بن العماد)،(ت 808هـ):**كتاب أخبار نيل مصر**، (تحقيق: لبيبة مصطفى، نعمات محمد، الطبعة الأولى، دار الكتب، القاهرة 2006م)، ص 62.

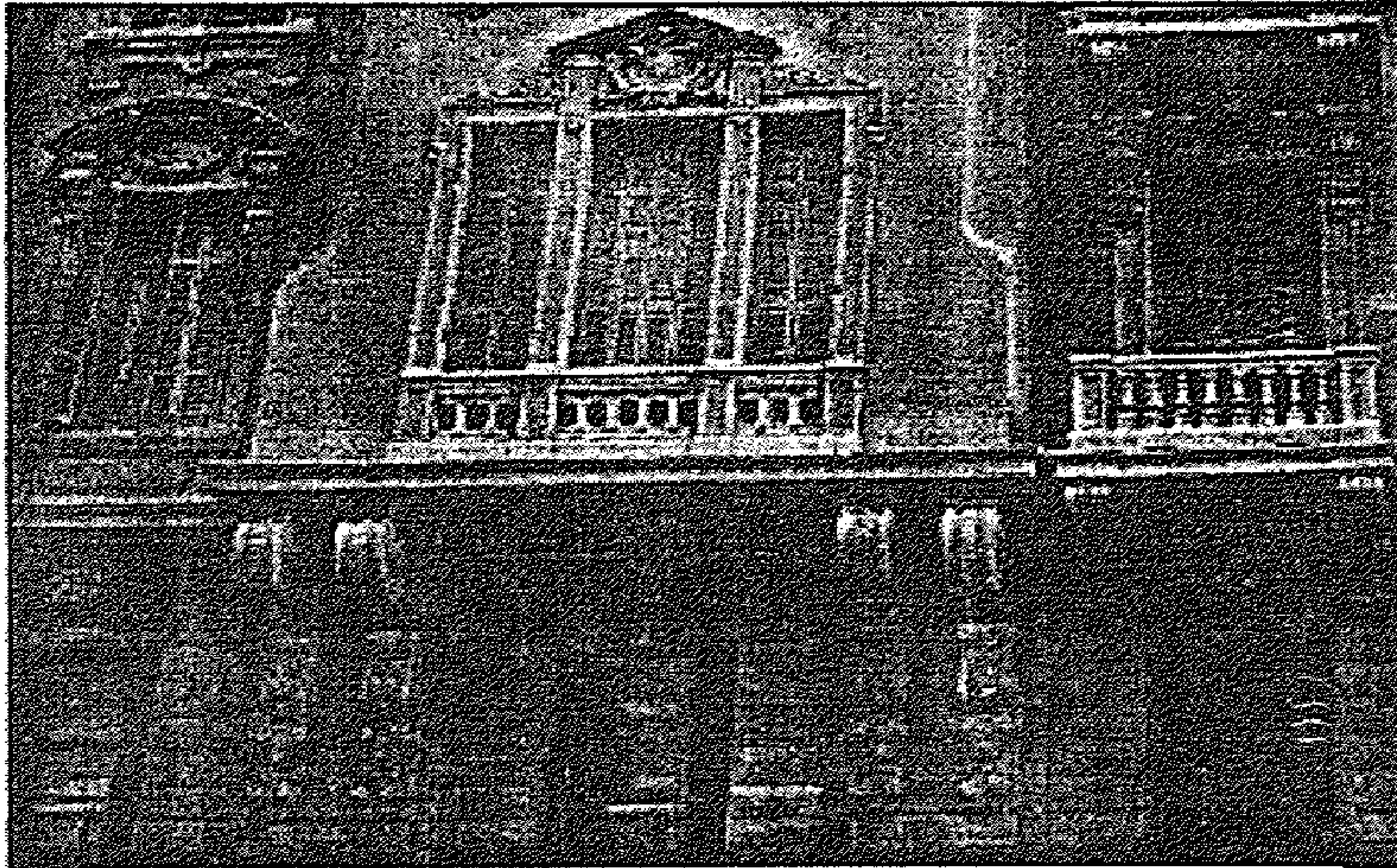
* و<u>الصابئة</u>: من الفرس الذين عبدوا قوى الطبيعة، وهم القائلون بالأصنام الأرضية للأرباب السماوية، أي الكواكب متوسطون إلى رب الأرباب، ينكرون الرسالة في الصور البشرية عن الله تعالى ولا ينكرونها عن الكواكب، انظر: المقريزي، **الخطط، ج1**، ص 261 : ص 262؛ كرد على: **خطط الشام**، ج6، ص 213، (ط. دمشق 1928م).

2 – الكسنر أغناتنكو :**بحثاً عن السعادة** (دار التقدم ، موسكو 1990م)،ص18.

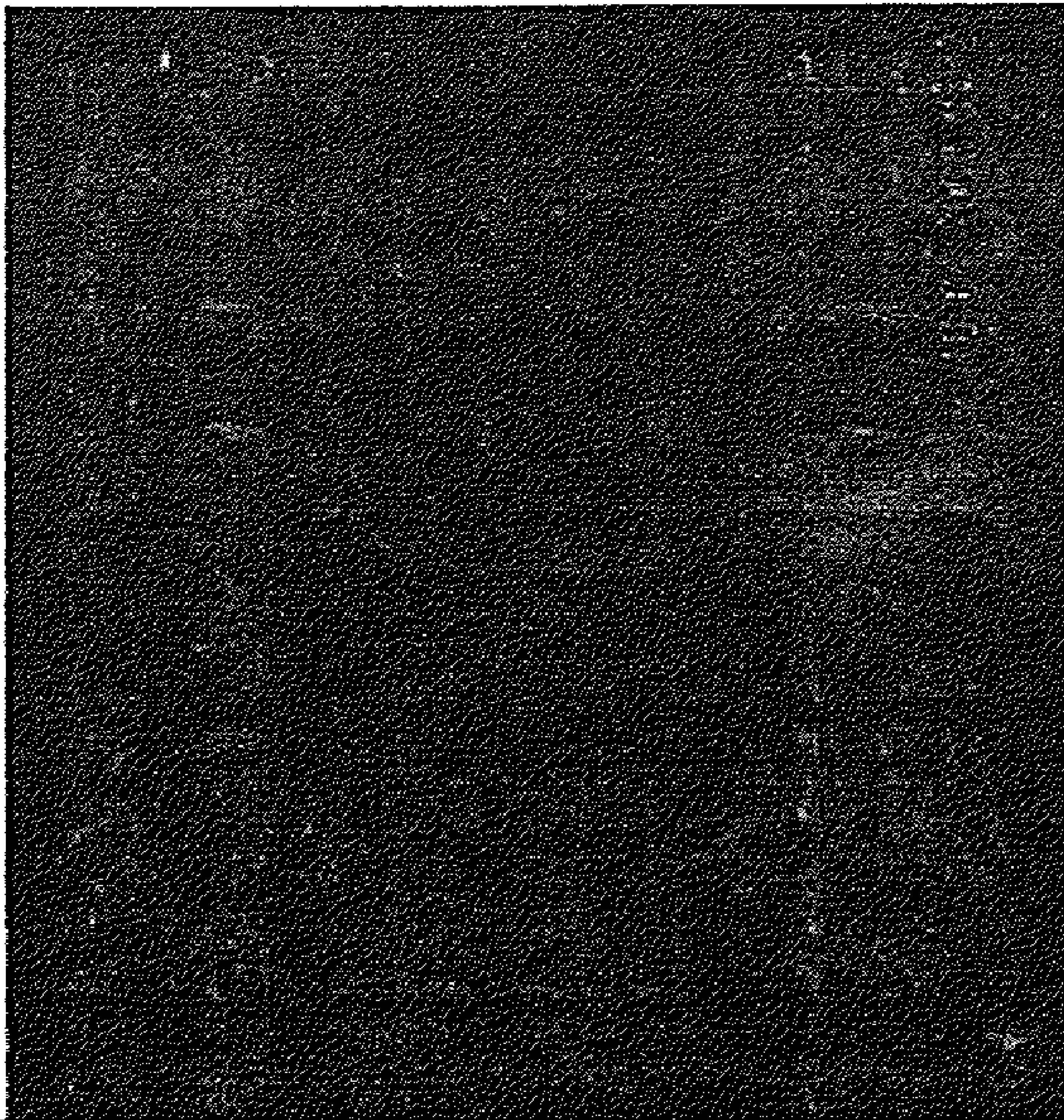
3 – سليمان حسن :**الرموز التشكيلية في السحر الشعبي** (هيئة قصور الثقافة ، القاهرة 1999م)،ص91.

[4]– <u>أبو الهول</u>: اصطلاح مأخوذ من التعبير المصري شسب عنخ *sheсp ankh* ومعناه "الصورة الحية" تمثل قوة وسلطة فرعون، تمثال رأسه بشرية وجسده جسم أسد ضخم رابض، وهو حامي الخير وطارد الشر، وكان الهدف من إقامته حماية المتوفى بإبعاد الأرواح الشريرة عن المقابر، وكان الأسد بالنسبة للمصريين القدماء، حارس بوابات الفجر، ويواجه "أبو الهول" كرمز شمس للإله "رع" اتجاه الشرق، مستقبلا الأشعة الأولي للشمس الساطعة في أول أيام الربيع، بريان م. فاجان: **نهب آثار وادي النيل** (ترجمة: أحمد زهير، مكتبة الأسرة، القاهرة 2003م)، ص248،آنا رويز: **روح مصر القديمة**(ترجمة إكرام يوسف، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 965، القاهرة 2005م)، ص245.

يمارس تأثيره الخلاب علي عقول الذين ينظرون إليه، وحفظ لنا الكثير من التكهنات عن أصله وطبيعته في كتابات المؤرخين المسلمين، في حين صار اسمه الأصيل تعبيراً شائعاً يرادف اللغز في كل أذهان العالم الوسيط والإسلامي تقريبا حتى أعتبره كثير من الناس أنه يستحق الإعجاب والتقدير أكثر من الأهرام، إذ أنه يروع الإنسان بسكونه وصمته المهيب.



وجه أسد على أحد واجهات المنازل التاريخية القديمة بشارع علي بالقاهرة لحماية البيت من الأعداء والأرواح الشريرة وهو تقليد كان شائعاً عن البابليين



فهو يمثل رمزا للحكمة الغامضة واليقظة الأبدية. وسماه قدماء المصريين (حو) بمعنى الحامي أو (حوريم أخت) بمعنى (حورس الأفق). وكان الهدف من إقامته حماية المتوفى بإبعاد الأرواح الشريرة عن المقابر.

وكان الأسد بالنسبة للمصريين القدماء، حارس بوابات الفجر. ويواجه (أبو الهول)، كرمز شمسي للإله (رع)، اتجاه الشرق، مستقبلاً الأشعة الأولى للشمس الساطعة في أول أيام الربيع. وقد بني - مثله في ذلك مثل الأهرامات - وفق الاتجاهات الأصلية.

ويعتقد أن كلمة (سفنكس) اشتقت من التعبير المصري (شيسيب عنخ) بمعنى صورة حية.

والمدهش أن (أبو الهول) نحت من كتلة صخرية صلدة، برزت من رمال الصحراء في هضبة الجيزة. وأقيم الجزء السفلي من جسده من كتل حجرية ضخمة، اقتلعت من منطقة قريبة. ويبلغ طول جسد أبو الهول 240 قدماً، وارتفاعه 66قدماً، برأس إنسان عرضه 14 قدماً، ويرتدي غطاء الرأس التقليدي (نيمس). وكان يرتدي - قبلاً - اللحية المستعارة التي يرتديها الملك، عثر على بقايا منها بين براثنه خلال القرن التاسع عشر الميلادي.[1]

وانتشرت تماثيل (أبو الهول) عبر التاريخ المصري. وغالباً ما يصور الملك في هيئة "ابو الهول" بينما هو يهزم أعدائه. وهناك طريق على جانبيه تماثيل أبو الهول برءوس كباش، يربط بين الأقصر والكرنك - حيث كان المفترض أن هذه التماثيل تتولى الحراسة أثناء نقل تمثال آمون خلال مهرجان (أوبت) السنوي. وخلال عصر الدولة القديمة عبد (أبو الهول) باعتباره رمز الملكية، وبنى (رعمسيس الثاني) منصة للقرابين من الجرانيت بين براثن الأسد. [2]

وقد احتل الأسد مكانة متميزة في الطقوس السحرية والمعتقدات الغيبية في مصنفات السحر الشعبي واستخدم في الطلاسم السحرية بزعم قدرته على تحقيق أغراض متنوعة. وفي مصنفات السحر الشعبي التي بين أيدينا اليوم نجد الكثير منها يورد وصفات مفصلة لأنواع من الطلاسم السحرية والتي يلعب فيها الأسد دوراً لا بأس به، بزعم أنها تحقق أغراضاً معينة. \ونذكر على سبيل المثال نموذج ورد في غاية الحكيم ففي بعض الطلاسم ما يُزعم إنه لعلاج ألم الحصاة، ويكون بأن ينقش الطلسم في صحيفة من ذهب على صورة أسد بين يديه حصاة وكأنه يلعب بها، ويكون العمل في ساعة وطالع معينين، فعلى قولهم أن الألم يزول لمن أمسك بالطلسم. [3]

ومن المعتقدات الشعبية التي كانت شائعة كذلك عند العرب أن من لطخ بدنه بشحم

---

[1] ـ آنا رويز : روح مصر القديمة ، ص246.

[2] ـ آنا رويز : روح مصر القديمة ، ص245.

[3] ـ المجريطي : غاية الحكيم ، ص47.

السد هربت منه السباع ولم ينله مكروه وقتل صوته التماسيح. وأنه إذا وضعت قطعة من جلد الأسد في صندوق مع الثياب لم يصبها السوس، وأن ذنبه إذا استصحبه إنسان لاتؤثر فيه حيلة محتال. وقال هرمس: الجلوس على جلد الأسد يذهب البواسير والنقرس.وقال الطبري: الاكتحال بمرارة الأسد يجلو البصر. [1]

ومن العادات الشعبية الشائعة منذ زمن طويل ندب النساء للرجال بقولهن على لسان(العدودة أو البكائية):

حطي سلاح السبع فوق الباب

لو حتى غايب يحسبوا لوا حساب

حطي سلاح السبع ع العتبة

لو حتى غايب يحسبوا حسبة

حطي سلاح السبع من قدام

لو حتى غايب يعرفوا لو مقام

فالعدودة تطلب من الزوجة المخاطبة بهذا القول أن تضع السلاح الخاص بالسبع الغائب علامة على باب بيتها، وفوق عتبة البيت، وعلى واجهة البيت، والعلامة المقترحة هى سلاح السبع، والسبع المعني هنا هو الزوج، وسوف نلاحظ أن أكثر الحيوانات التي تتخذ مثالاً للرجل هى (السبع) فتندب المرأة زوجها بقولها :"مكنش يومك يا سبعي".

وهذه باكية تذكر شجاعة فقيدها الذي يشبه السبع، والذي خلا الجو من بعده للطامعين فتقول[2] :"

كان لنا سبع تهييه السبوعه ** والسبع مات واحنا تاكلنا الضبوعة

كان لنا سبع تهييه الناس ** والسبع مات واحنا صبحنا بلاش

أما السبع ؛فالمقصود به الأسد وهو أكثر الحيوانات حرمة، وأقدرها على حماية عرينه وأشباله، وأوفرها قوة، ولا شك أن الأسد يضرب به المثل في القدرة على

---

[1] ـ سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص23.

[2] ـ عبد الحليم حفني : المراثي الشعبية (العديد) ،(الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1997م)، ص72

البطش[1]. لذلك تطلق الزوجة على زوجها لفظ السبع لتوفيره الحماية لها، وافتخار بما كان يتصف به زوجها من الشجاعة التي عرفت عن الأسود. ومن هنا كان احتفاء الموروث الشعبي بـ(أبو الهول) كطلسم على صورة أسد له دلالة سحرية لحماية مصر من الأخطار. وربما يتسنى لنا إيجاد علاقة بين هذه الأفكار مع ما كان يعتقده البابليون والآشوريون من أنهم عرضة لأذى الجن المزعجين، فكانوا يعملون على مطاردتها بإقامة أسود منحوتة في خارج القصور والبيوت[2] وهو التقليد ذاته الذي نجد له بقايا في كثير من الفنون الشعبية، ولا سيما فنوننا ويؤيد هذا الرأي تلك الرسوم التي تصور على جدران بعض منازل وقصور مصر حالياً إذ نجد صوراً للأسود على الأبواب وواجهات المنازل. لحماية البيت من الأعداء والأرواح الشريرة ودفع أذى العين الشريرة.

الأمر الذي يؤكد أن هذا الاستمرار يدل على أن تلك الفنون الشعبية سجل يجمع نواحي متفرقة من تاريخ البشر في عهوده المختلفة، وأن بعض العادات أو القصص أو الفنون الشعبية تقص علينا أحياناً جوانب من عادات وطقوس مجتمعات عاشت منذ فجر الإنسانية، وأن تلك الطقوس القديمة التي امتزج فيها الدين بالسحر وخيال الرجل البدائي بالخرافات التي يحيط نفسه بها، جعلته رغم غرابتها وبعدها عن المنطق يكتسب صفات المثابرة والجلد والحذق والمهارات المختلفة، فلعل خشيته بأس الأرواح الشريرة والشياطين وحذره ومحاولته اتقاء شرها وبطشها ومكرها، جعلته يتطلع دائماً إلى الوصول إلى نوع من القوى السحرية التي تبطل أضرار تلك الأرواح التي يخشاها. وهو أمر يمكن أن نتلمس بصيص منه في كتابات المؤرخين والرحالة في سياق تفسيراتهم لوجود (أبو الهول) ووظيفته في حياة مصر القديمة. لا سيما وأن المخيلة العلمية آنذاك لم تكن تختلف كثيراً عن المخيلة الشعبية.

وأفاضت المصادر التاريخية في الحديث عن تمثال أبي الهول، فوصفته وتحدثت

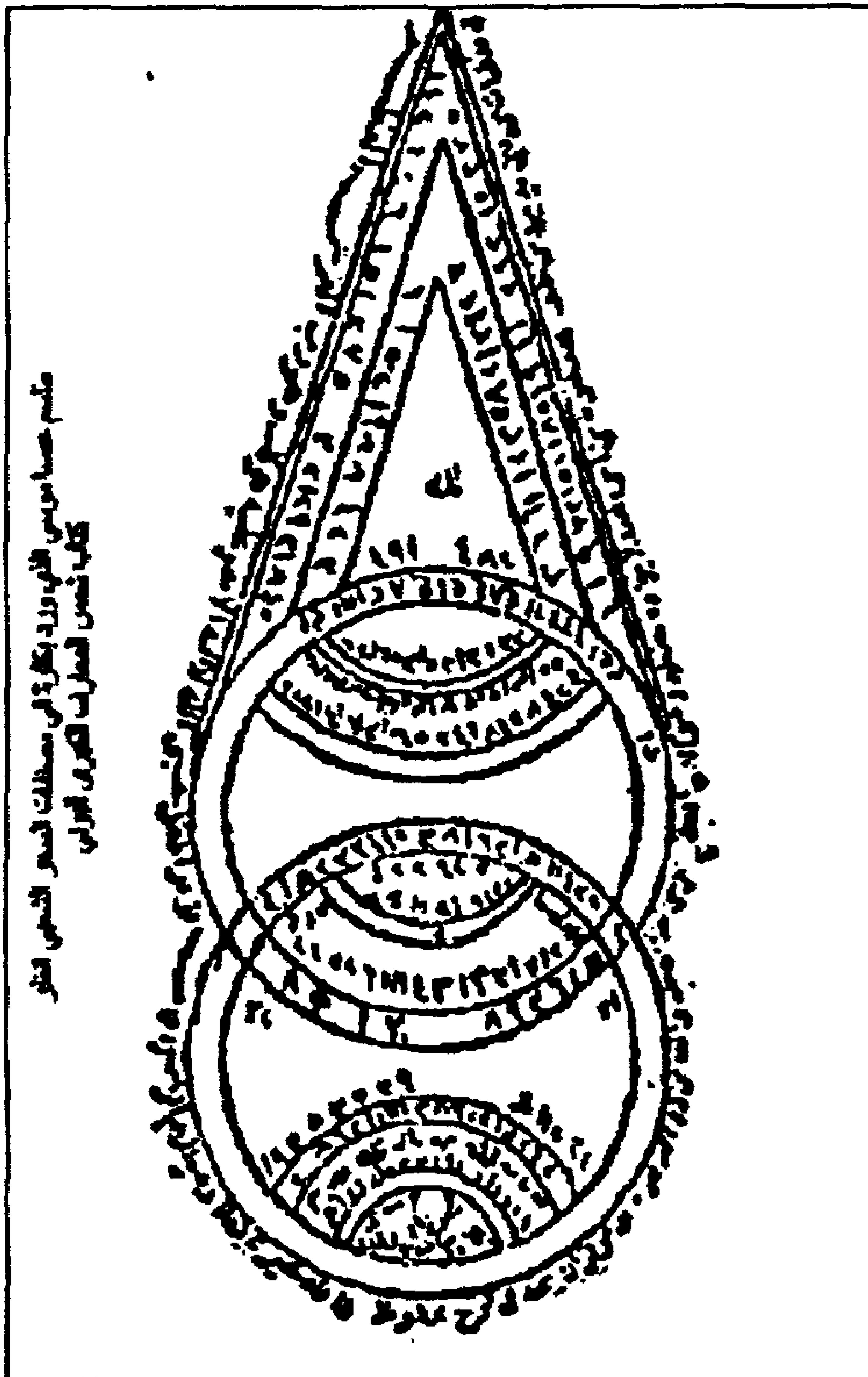
---

[1] ـ درويش الأسيوطي : أشكال العديد في صعيد مصر (سلسلة الدراسات الشعبية ، العدد105 ، القاهرة 2006م)، ص118.

[2] ـ كامبل طومسون : دولة بابل أيام حمورابي ، في تاريخ العالم ، م1 ، ص524 نقلاً عن : سليمان حسن : الرموز التشكيلية في السحر الشعبي ، ص70

عن اسمه وأشارت إلي دورة ووظيفته في حياة مصر والمصريين،ولقد أورد "السبتى" من أخباره: "بمقربة من هذه الأهرام الثلاثة رأس صورة من حجر صلد هائل المنظر، على صورة رأس الإنسان، غير أنه غاية في الكبر،قد قام كالصومعة العظيمة ووجه هذا الرأس مقابل الأهرام وظهره إلي القبلة مهبط النيل ويدعوه أهل مصر بأبي الأهوال.. ويزعمون أنه طلسم للرياح، وأنه لو ذهب لأتلف ريح مصر، والله أعلم بحقيقة ذلك، وبما كان المراد منه، وبما مر عليه من الدهور والعصور"[1]

أما القزويني فقد كانت روايته مختلفة فيما يتعلق بوظيفة "أبو الهول" فقال:" ومن عجائب مصر أبو الهول، وهو صورة آدمي عظيمة مصنعة، وقد غطي الرمل أكثره. يقال: أنه طلسم للرمل لئلا يغلب على كورة الجيزة، فإن الرمال هناك كثيرة شمالية متكاثفة، فإذا انتهت إليها لا تتعداه، والمرتفع من الرمل رأسه وكتفاه. وهو عظيم جداً، وصورته مليحة كأن الصانع فرغ منه.. وهو مصبوغ بالحمرة.."[2]



وتحت عنوان "ذكر الصنم الذي يقال له أبو الهول" يقول المقريزي في خططه:" هذا الصنم بين الهرمين عرف أولا ببلهيب،

---

[1] – السبتي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص167، ابن جبير: الرحلة، ص51.

[2] – القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص269.

وتقول أهل مصر اليوم – سنة 780هـ تقريبا- أبو الهول. . ويقال أن أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل.."[1]

ويورد المقريزى من أخبار ما كان يعرف بـ" سرية أبي الهول" فيقول: "ويقابله – يعنى أبا الهول- في بر مصر، قريبا من دار الملك، صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب الأعضاء كما وصف، وفي حجره مولود – وعلى رأسه ماجور الجميع صوان مانع، يزعم الناس أنها امرأة، وأنها سرية أبى الهول المذكور،وهي بدرب منسوب إليها،ويقال لو وضع على رأس أبي الهول خيط ومد إلي سريته لكان على رأسها مستقيما ويقال إن أبا الهول طلسم الرمل عن النيل، وإن السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر "[2]

وسلكت بعض الروايات مسلكا مخالفا للروايات السابقة فتقول:" ويقال أن هذا الرأس – أبو الهول- كان في الزمن الماضي يكلم القادمين والرائحين، من الزوار، وقد جعل له طلسم بحيث ينبئ عن هجوم عدو على مصر، أو ظهور قحط أو غلاء ونزول الأمطار وامتناعها، ومقدار فيضان النيل أو عدم فيضانه، أو موت أحد أو حياته، أو بالاختصار كان يخبر عن المغيبات الخمسة"[3] وهي الرواية التي رفضها المقدسى وعدَّها من المزاعم الباطلة بقوله "وثم صنم –أبو الهول- يزعمون أن الشيطان كان يدخله فيكلمه، حتى كسر أنفه وشفتاه.."[4] ويبدو أن تلك الفكرة كانت شائعة عند العديد من الشعوب ففي حضارة سومر كانت بعض التماثيل توضع كبديل للعابد نفسه في معبد الآلهة التي يسعى إلى تكريمها، وتدل النقوش الموجودة على بعضها أن الغرض من هذه التماثيل العمل علي إطالة حياة من تمثله، إلى جانب طلب العون من الآلهة. والتمثال بهذا كان بديلاً سحرياً لصاحبه، يكتسب من بعده حياة مستقلة، وهذه الحياة المستقلة التي يكتسبها التمثال البديل كانت تتأتى عن طريق شعائر فتح الفم التي كانت منتشرة منذ عهد الأسرة الفرعونية الأولى في مصر حيث مزجوا النظرة المثيولوجية عن الكون بالحركة السحرية للقوى التي أعطته الحياة. فكانت التماثيل تصبح من

---

1 – الخطط: جـ1، ص123: ص124.

2 – الخطط: جـ1، ص112.

3 – سياحتنا مه مصر، ص623.

4 –أحسن التقاسيم، ص210.

الأحياء ،إذا ما تلا الكاهن الصيغة المناسبة وقام بالحركات اللازمة للطقس السحري، أما في سومر فقد كانت التماثيل تمر بطقوس معقدة وبالغة السرية حتى تتحول المادة الجامدة للتمثال إلى وعاء يستقبل الحضرة الإلهية، حيث كان يعتقد أن الإله ينفخ شيئاً من روحه في التمثال، فيتحول من جسم جامد إلى هيكل حي، ومن هنا كانت التماثيل توهب الحياة، وتفتح عيونها وأفواهها حتى تتمكن من الرؤية ومن تناول الطعام أثناء الوليمة المرتبطة بالشعائر.[1]

هكذا، نلحظ أن الروايات حول آثار مصر القديمة كانت تسير في خط صاعد،فيما بين كتابات المؤرخين، مما أدي إلي تراكم رصيد ضخم من الأساطير والخرافات التي راجت حول حضارة مصر القديمة،في محاولة لفك رموزها والوقوف على أسرارها، كما تكشف عن النظرة الإيجابية إلي آثار القدماء المصريين، والتي رآها الوجدان الشعبي أنها تقوم بدور هام في حياة الناس، وأن لكل منها دور ووظيفة في الحفاظ على خيرات مصر وأمن وسلامة أهلها.

كتابات الرحالة والمؤرخين بما حملته من (موروث شعبي) حول آثار مصر تؤكد أنه لم ينظر إلي تلك الآثار على أنها أوثان أو مظاهر للكفر والوثنية يجب تحطيمها أو إزالتها إلا في حالات نادرة وشاذة تؤكد على القاعدة، وهي أن مصر، واسطة العقد بوسطيتها. يدل على ذلك الروايات التي أوردها المؤرخون عما لحق بوجه أبى الهول من تشويه،وما كان من أمر تحطيم أنفه، وسط بحر لجي من الأساطير التي أحاطت بما ترتب على ذلك التشويه من آثار ضارة لحقت بأرض مصر فيقول أحد المؤرخين: "وفي زماننا -780هـ كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية، سعيد السعداء، قام في نحو سنة ثمانين وسبعمائة لتغيير أشياء من المنكرات،وسار إلي الأهرام،وشوه وجه أبى الهول،وشعثه، فهو على ذلك إلى اليوم، ومن حينئذ غلب الرمل على أرضي كثيرة من الجيزة، وأهل تلك النواحي يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضي فساد وجه أبى الهول ولله عاقبة الأمور.."[2]

---

1 – محمود شاكر الألوسي :بلوغ الأرب في أحوال العرب (بغداد 1898م)،ص219، وانظر :سليمان حسن :الرموز التشكيلية ،ص89

2 – المقريزي:الخطط، جـ1، ص123،ص124.

ومن بوابات الأسطورة دخلت بعض الروايات لتفسير تشويه وجه أبي الهول فتقول: " لما بلغ ذلك موسى ﷺ ذهب إليه – أبو الهول- وقال له: إنك قادر على التحدث فيجب عليك أن تؤمن بي أنا رسول الله الحق، فقال له أبو الهول إني أومن بإدريس ﷺ ولا أؤمن لغيره، فغضب موسي وكان عاتياً، وضرب أبا الهول بعصاه، وثلمه عدة ثلمات، وخدش فمه وأنفه وقال:" اسكت يا ملعون"، وانصرف ومن ذلك اليوم صمت أبو الهول، ولم يعد يتكلم. ولا تزال آثار عمل موسي باقية على رأسه،ولم تزل عيناه مخدوشتين،ومع ذلك فهو صنع إنسان بديع،وأثر عجيب"[1]

ما يهمنا في تلك الروايات هو انشغال الوجدان الشعبي بقصص الأنبياء التي لم تشبع حاجات هذا الوجدان الروحية،فراح يضيف من تصوراته وموروثاته إلي تلك القصص التي حفظتها لنا الكتابات التاريخية، خاصة ما يتعلق بالمعجزات الموسوية العديدة التي ينسبها رواة التراث لموسي ﷺ والتي نجد إشارات لها في القرآن الكريم أو مدونات التوراة،، وهي من عادات التراث الشعبي. كعصا موسى التي أبطلت سحر سحرة الفراعنة مجتمعين وقضيت عليه تماماً وجاء في المثل الشعبي "اضرب عصاتك واجري وراها " والعصا التي تسير لا ريب عصا سحرية وهى فكرة شائعة في الآداب الشعبية بل إن للعصا أحياناً منفعة سحرية ومن بين اللغات البدائية التي جمعت بين صفات الكتابة وصفات الزخارف المتكررة عصا المراسلة التي كانت منتشرة في جهات كثيرة من العالم، وظلت قائمة إلى عهد قريب في السويد والنرويج، وكانت الرسائل المراد تسجيلها على العصا تكتب على شكل حروف وجمل على شكل خطوط متقاطعة أو متعرجة تحفر على ساق العصا نفسها كأنها نقشات زخرفية ،وفي غالبية الأمر لم يكن لحامل الرسالة من جهة أخرى أي دراية بمضمونها غير أن عصا الرسائل أو المراسلات اتخذت أيضاً في بعض الأحيان صبغة سحرية.[2]

وهي تذكرنا بعصا الساحر التي من شأنها أن تحقق المعجزات كعصا موسى. التي أفترش الحديث عنها مصنفات السحر الشعبي كقول صاحب شمس المعارف الكبرى تحت فصل بعنوان (فصل أذكر فيه الأسماء التي كانت على عصا موسى عليه السلام)

---

[1]- سياحتنا مه مصر، ص622،ص623.

[2] - سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص72.

وبها كان يفعل الغرائب إذا كتبها في شرف الشمس أو شرف المشترى بماء المرسين وماء أبحيق النهري وماء كزبرة البئر وماء الحلاف وماء الورد البصير والزعفران الشعر في رق غزال ويبخر وقت الكتابة برائحة أريجة وتجوف العصاة وتجعل الأسماء فيها وتختم عليها بشمع فرح بنت بكر فإن كنت في مكان مخيف وظهر عليك اللصوص وقطاع الطرق أو ظهر عليك شئ من الوحوش الضارية المؤذية فاضرب بالعصا الأرض 3 مرات وقل اللهم إني أسألك ببركة هذه الأسماء العظيمة التي كانت على عصا موسى بن عمران عليه السلام وضرب بها البحر فانفلق وكان كل فرد كالطود العظيم أن تحبس عنًا ما هو كذا أو تذكر ما تريد من توقيف رجال وتوقيف سباع وتقول في أثناء كلامك وقفوهم إنهم مسئولون فإنهم يقفون بإذن الله تعالي "[1]

كما نجد كيف أختلق" الوجدان الشعبي" العديد من التفاصيل فيما يتعلق بكرامات ومعجزات عصا موسي عليه السلام التي ورد ذكرها في القرآن الكريم حيث أورد لنا أخباراً ترسم ملامح ومعجزات وكرامات لا حصر لها تختلف قليلا فيما بين المؤرخين والرحالة والتي جاءت في سياق الموروث الشعبي الذي جمعه لنا هؤلاء المؤرخين. وتكشف لنا عن جوانب أخري للقراءة الشعبية لسِّير الأنبياء حيث يتفاعل فيها الواقع بالحلم والأسطورة، وتجسد لنا رد الفعل التخيلي للجماعة الشعبية

[1] ـ البوني (أحمد بن علي بن يوسف البوني)(ت622هـ):شمس المعارف الكبرى المسمى شمس المعارف ولطائف العوارف ، (أربعة أجزاء ، مكتبة جمهورية مصر العربية ، القاهرة بدون تاريخ) ،ص256

لطبيعة معجزات الأنبياء وأخبارهم.

وربما حمل هذا النوع من القصص الشعبي المتعلق بآثار الحضارة المصرية، رسالة تحذير لمن يتجرأ ويتطاول على حرمة الآثار وانتهاك قدسيتها، وتؤكد على نبذ الناس في مصر لكل الأفكار الشاذة، نلحظ ذلك في سياق عرض بعض الروايات لأسباب تهشم وجه " أبو الهول" فيقول: " كان في خانقاة الصلاحى صوفي متعصب يدعى محمداً – محمد صائم الدهر- وكان يقول بحرمة صور الحيوانات. وفي سنة 781هـ تصدي هذا الصوفي لتهشيم فم أبي الهول وأنفه أكثر مما هشما بيد موسي ﷺ، وأقدم على هذا العمل دون أن يحصل على إذن بذلك من حاكم ذلك الوقت، وبينما هو يحاول ذلك هبت ريح عاتية بحكمة الله على مدينة الجيزة فحالت دون وصول البرسيم والغلال وسائر الأرزاق إلي القاهرة حيث غرقت في الرمال، فقبض الحاكم على محمد الذكور وقطعه إرباً إرباً، وأمر بدفنه بجانب أبي الهول، ولا يزال زوار أبي الهول يرجمون قبر ذلك الصوفي المنحرف..".[1]

ولعل ما أقدم عليه محمد صائم الدهر من تشويه لأنف أبي الهول نجد له مناجاة للطقوس الفرعونية القديمة حيث تعمد الفنان فيها إظهار أجسام بعض الآدميين دون رءوس أو بعض أنواع الطيور من البط أو الأوز ورءوسها مقطوعة، أو نراه يصور أنواعاً من الحيوان وقد شطرت أجسامها شطرين، أو رشق فيها عدد من الخناجر أو السكاكين، وكان الهدف من وراء هذا التشويه المتعمد إيقاف الأثر السحري لهذه الحيوانات أو الطيور أو التنكيل بصور بعض الأعداء بغية أصابتها بالأذي نفسه الذي أصاب رسومها ويبدو أن هذا النوع من الرموز السحرية وخدشها الذي استخدم في العصر الفرعوني ظل عالقاً في أذهان كثير من الشعبيين حتى يومنا هذا فنصادف في بعض كتب التنجيم الشعبية عن قراءة الفأل في فنجان القهوة تفسيراً للأشكال التي تظهر فيه، مثل رؤية امرأة ناقصة رجلاً أو يداً أو رأساً، فظهورها في الجهة الرائقة من الفنجان يدل علي الفراق، أو علي جنازة ليست لقريب لصاحب الطالع [2] .

1 – المقريزي : الخطط ،ج1،ص38؛ أوليا جلبي : سياحتنا مه مصر، ص623

2 – عبد الفتاح الطوخي :البيان في علمي الكوتشينة والفنجان (مكتبة الجمهورية المصرية)نقلاً عن سعد الخادم : الفن الشعبي ، ص68

ولعلنا نجد أن من بين الطقوس السحرية التي زاولها المصريون القدامى في أثناء بنائهم المعابد والتماثيل نراهم يضعون في الأساسات علامات في الزوايا الهامة، وتأتي هذه العلامات أحياناً على هيئة خدوش، ويمكن أن يقال أيضاً إن طقوس الفديات كانت تقدم من التماثيل الحجرية كما لو كانت تذبح ويمكن أن يقال إن استئصال أعلى المعابد القديمة وتشويهها ودفنها في الأساسات الحديثة كان يحمل معنى النحر والدية، كان المعبد نبات أو إنسان يقتل ليبعث من جديد.

وهناك تقليد كان يقوم على تشويه ومحو معالم بعض النقوش والرسوم المنحوتة على جدران المعابد، فكانت تنقر النقوش بآلة حادة بشكل منتظم، فتزيل النقش تماماً أو تشوهه مع ترك معالم طفيفة له، وقيل إن الغرض من هذا التشويه المتعمد هو حقد بعض الملوك على أسلافهم ورغبتهم في التنكيل بصورهم حتى يصابوا في حياتهم الأخرى بالأذى نفسه الموجه لصورهم (وهو ما سوف نلحظه في سياق الحديث عن معبد الملكة دلوكة في إخميم).

ومن الآراء ما يرى في هذا التقليد محاولة لإثبات أن الأثر السحري لتلك النقوش والتماثيل قد انتهى، أو أن وقتها انقضى، فإزالتها أو تشويهها قد يفسر بأنه إبطال أثرها السحري. وربما أمكن تفسير هذا التشويه بأنه نوع من القرابين حكمها كحكم التماثيل التي تحرق وتفتت أو المعابد التي تدفن في أساسات معابد أخرى مستحدثة[1]. وعلى كل فلقد ظلت فكرة تشويه الصور أو التماثيل في كثير من الطقوس الشعبية ذات الطابع السحري التي تهدف إلى التنكيل بأصحاب تلك الصور أو التماثيل وربما كانت تلك الفكرة تلح علي الذهن الشعبي المصري آنذاك في ربطه بين هبوب الرياح على الجيزة وبين تهشيم وجه أبو الهول.

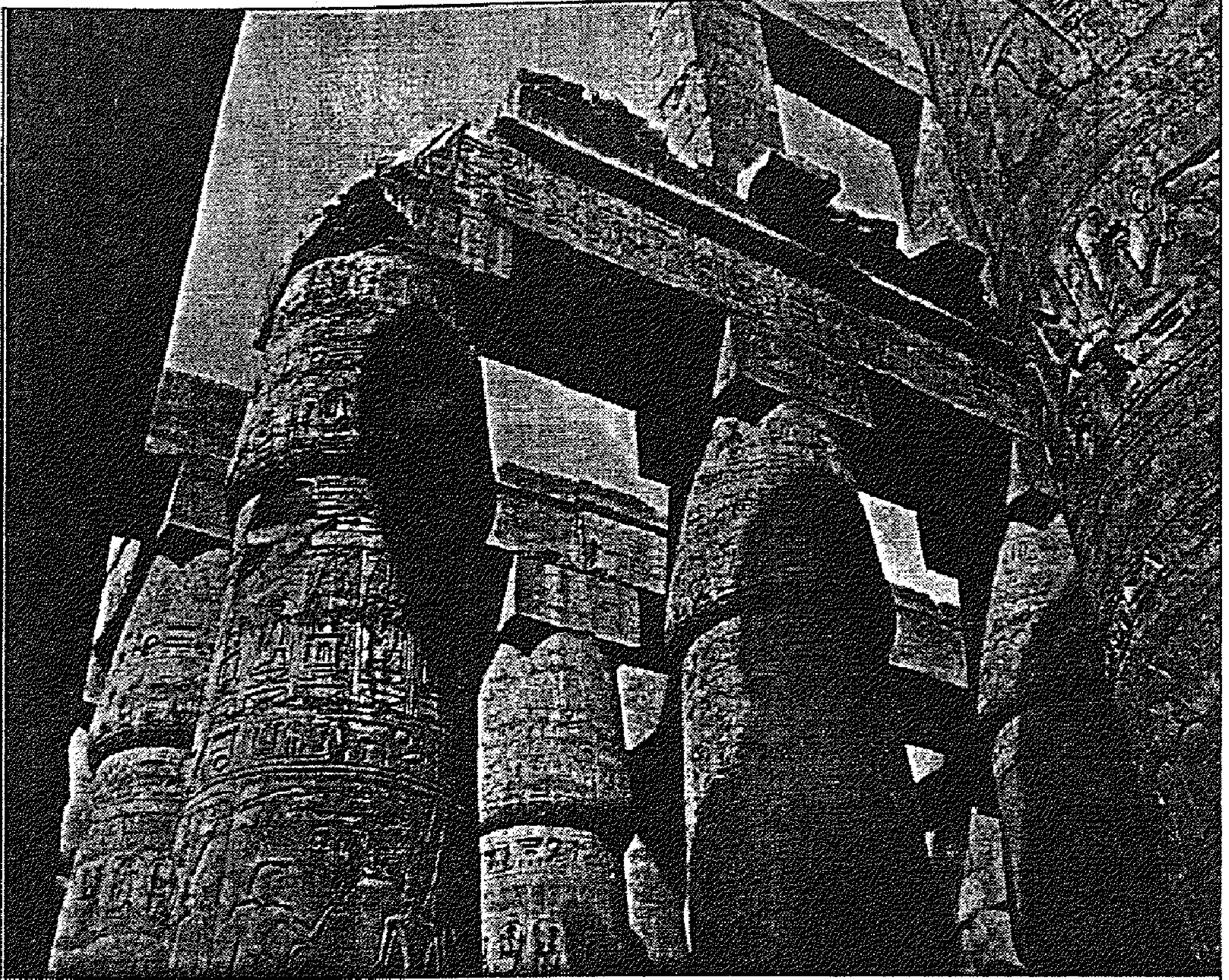
أما المعابد المصرية القديمة، فقد كانت معلما بارزا من معالم الحضارة المصرية القديمة، وقد أثارت اهتمام المؤرخين والرحالة المسلمين، فأفاضوا في الحديث عنها، وكانوا يعرفونها بـ" البرابي"[2] ويقول المقريزي في أصل برابي مصر أنها :" تنسب

---

1 ـ سعد الخادم :الفن الشعبي ، ص124.

2 – البرابي: بيوت الحكمة (المعابد) وهي الدور التي كان المصريون القدامى يتعلمون فيها العلوم وخاصة اللاهوتية. انظر: مروج الذهب، جـ1، ص360-361، فضائل مصر وأخبارها، ص65، حاشية (9)، معجم

إلي براب بن الدر مسيل ابن نخويل بن خنوخ بن فار بن آدم عليه السلام.[1]



كان المعبد يمثل مقراً خاصاً بالآلهة في علم البشر وقد أطلق عليه الرحالة والمؤرخون اسم "البرابي" وقد وقف الخيال الشعبي الخصب أمام أعمدة المعابد في محاولة لإيجاد تفسير سحري لتلك النقوش التي وجدوها علي جدران تلك المعابد وفي الصورة يظهر بهو الأعمدة بمعبد الكرنك وهذا البهو يضم ١٣٤ عمود يروي كل منهم قصص الحروب الطويلة التي عاشتها مصر من قديم الأزل وانتصاراتها على يد أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ

وكعادة العرب في اهتمامهم بالأنساب وإرجاعهم كل شيء إلي جد أسطوري أعلى، فأرجعوا الاسم إلي "براب" هذا وكأنها عرفت به ونسبت إليه وهو تعليل وتفسير وجدنا أمثاله_ فيما سبق_ من الحديث عن أصل الاسم "مصر".

وعرفها القزويني بقوله: " البربا عبارة عن بيت عمل فيه شجر أو طلسم.."[2] ورآها البعض أنها: "من أبنية مصر القديمة.. وهي بيوت حكماء القبط ويقال أنه كان بكل كورة من كور مصر بربا، يجلس بها كاهن على كرسي للتعليم.."[3] ووصفها

البلدان، جـ1،ص532.

[1] – الخطط جـ1، ص37.

[2] –آثار البلاد وأخبار العباد، ص139.

[3] – الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر،ص35.

البعض الأخر على أنها:" مخزن لذخائر القوم الذين قضوا من أهل مصر بالطوفان قبل وقته بقرنين.."[1] وأضاف المقريزي أن:" بمصر أبنية يقال لها البرابي من الحجارة العظيمة الكبيرة، وهي على أشكال مختلفة.. عملت لصناعة الكيمياء"[2]

بربا إخميم كان من أشهر البرابي التي ذكرتها المصادر التاريخية إذ أنه" من الهياكل المتحدث بغرائبها في الدنيا، هيكل عظيم شرقي المدينة المذكورة وتحت سورها -يقصد إخميم-، طوله مئتا ذراع وعشرون ذرعا وسعته مئة وستون ذراعا، يعرف عند أهل هذه الجهة بالبربة وكذلك يعرف كل هيكل عندهم.. قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع، ويأتي في صُمّ الحجارة من ذلك ما لا يأتي في الرخو من الخشب، فيحسب الناظر له استعظاماً له، أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزينه، لضاق عنه. فسبحان الموجد للعجائب.. وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم، ومرآه إحدى عجائب الدنيا التي لا يبلغها الوصف، ولا ينتهي إليها الحد.."[3]

هكذا، ظلت البرابي المصرية لها سحرها الخاص، ورهبتها في النفوس على مر العصور، وقد حظيت بعض البرابي شهرة تاريخية واكتسبت قدسية لدي الخيال الشعبي الذي تدخل كثيرا برواياته المشبعة بالخيال ليغير ما يراه من حقائق أو يقدم تفسيرا لما قد غمض عليه فهمه حول أسباب إنشاء البرابي ووظيفتها في المجتمع المصري.

يقول ابن عبد الحكم: " لجأت إحدى ملكات مصر، وهي دلوكة[4] إلي عجوز ساحرة، كانت السحرة تعظمها، ويستشيرها فرعون في كثير من الأمور قبل غرقه..فقالت لها دلوكة: احتجنا إليك في شيء تصنعينه يكون حرزا لبلادنا ممن يرومه من الملوك، إذ بقينا بغير رجال. فأجابتها إلي ما أرادت وصنعت لها بربا، وهو بيت له أربع أبواب إلي أربع جهات..وقالت: قد عملت لك شيئا يغنيك عن الرجال

---

[1] – ابن حوقل: صورة الأرض، ص159.

[2] –المقريزي: المصدر السابق، ص37.

[3] –ابن جبير: الرحلة، ص62، المقريزي: نفسه، ص239.

[4] – دلوكة: هي الملكة دلوكة بنت زباء، رآها الوجدان الشعبي، أنها كانت ذات عقل ومعرفة وتجارب، ولها شرف عال بين نساء مصر الذين بقوا بمصر بعد غرق فرعون وأصحابه، وقد ملكت مصر ثلاثين سنة، وكانت تبلغ من العمر 160سنة. لمزيد من التفاصيل عنها راجع: فتوح مصر ص47،ص49، الخطط، جـ1، ص199، حسن المحاضرة، جـ2، ص334، الأقفهسي، كتاب أخبار مصر، ص66.

والسلاح والحصن، فإن أتاكم من البر يكون على الخيل والبغال والحمير،وإن من أتاكم من البحر يكون في السفن، فعند ذلك تحركت الصور التي هي مثلهم وتشاكلهم فما فعلتم بالصور أصابهم مثل ذلك في أنفسهم.."1 وربما فكرة ارتباط الصورة بأكملها، أو جزء منها، تخضع لأعمال السحر إيماناً بأن ما يحدث للصورة سوف يحدث نظيره للشخص صاحب الصورة، وفي إطار ذلك ظهرت الشخوص (أو التمائم) السحرية التي استخدمت في أغراض عديدة ولهذا جاءت وصايا أصحاب المصنفات السحرية لتؤكد على ضرورة الاهتمام بالتصوير في الأعمال السحرية، فقال ذو مقراط :"وأحسنوا التصوير في الطلاسم المصورة في الأعمال، فيكون مناسباً للعمل المطلوب"، وقال دمرغاش في منظومته :"وأحكموا التصوير في الأعمال، لتبلغوا المقصود والآمال ".وقال صاحب المنثور:"البشر جامع لكل البشر، والجن جامع لكل جن، والأملاك جامع لكل ملك، والحيوان جامع لكل حيوان "[2]

وعلى جانب آخر نجد أن صورة العجوز (دلوكة) لها رديفاً في حكايات ألف ليلة وليلة حيث تحتل شخصية العجوز المكانة الممتازة في الليالي والتي دارت بسببها، وبسبب حيِّلها خاصة، حوادث احتلت نحو خمس الليالي، فهي شواهي بطلة قصة عمر النعمان وولديه، هذه العجوز استعملت دهاءها ومكرها في الكيد السياسي، فقادت جيوشاً هزت ممالك عصف بالملوك في سبيل الانتقام السياسي، وفي الحروب تكون العجوز حركة دائمة بين الجيوش؛ فهي عند المسلمين الناسك الذي يدبر لهم خطة السير، وهي عند النصارى العجوز التي توصلهم إلى عدوهم بما عندها من معلومات وبما دبرت من حيَل، وهي ربما كانت العجوز (دلوكة) في الكتابات التاريخية قد استمدها الراوي من خياله ولكنه صبغها بواقعة كثيرا. ارجع إليها فكرة بناء سور حول مصر للخلاص من الأعداء والمنافسين[3].

وهذه الرواية وغيرها عن صورة المرأة العجوز توضح لنا كيف أن الموروث

---

[1] –ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ص48، القزويني: آثار البلاد، ص139، المسعودي: مروج الذهب، جـ1، ص359، الحميرى: الروض المعطار، ص16–17.

[2] ـالبوني : شمس المعارف الكبرى، ص48، 53

[3] ـ، انظر: سهير القلماوي: ألف ليلة وليلة، ص 314، ص 315؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص 167، ص 191

الشعبي - برغم من قدرته على البقاء والصمود - فإن الكثير من عناصره تتغير وتتبدل كعمل أدبي شعبي يرتبط أكثر ما يرتبط بالروح العامة للشعب. أما التفاصيل فهناك بدائل وإضافات عديدة تتراكم وتتراكب لتؤلف المخزون الضخم الذي يميز ذاكرة الشعب، وهو يختلف من جماعة لأخرى ومن عصر لآخر. فالموروث قابل للإضافة والحذف والتشكيل وإعادة التشكيل، وهو الأمر الذي نراه عادة عند بعض الرواة عندما يعمد إلى أن يضيف إلى الموروث الشعبي (مادة جديدة) تنعش دماءه. والذاكرة الشعبية مكتظة هي الأخرى بالصور الخيالية الغريبة والمثيرة عن (المرأة العجوز أو الساحرة المكارة) وهي صورة أكثر شعبية ظهرت لكي تلائم بعض الممارسات التي تتكرر في السحر الشعبي بقصد دفع أذى العين الحاسدة وقد ذكرها المؤرخ السيوطي في كتابه (الرحمة في الطب والحكمة) تحت اسم (أم الصبيان) فهي عنده الساحره المكارة التي :"خربت القصور، وعمرت القبور، ويتمت الأطفال بعينها الردية، الخاينة المؤذية، قابلها سيدنا سليمان صلوات الله عليه وعلى نبينا أتم السلام، وفي واسع البرية. ..على حجرها ولد وفي يدها حربتين، تعوي عوى الذئاب، وتصهل صهيل الخيل في ظلام الليل، قال لها خزيتي من الله عميتي يا كلبة يا لعينة ،...إيناس إيناس، ما فيك يا عين منافع للناس، وأحطك يا عين في قمقم نحاس، وأسبك عليك يا عين بالزيبق والرصاص، وأرميك يا عين في بحر غطاس. ."[1] وتمضي القصة الشعبية في شكلها التقليدي بأن يأخذ عليها النبي سليمان العهد والميثاق بألا تفعل ذلك.

والنص الذي ذكره السيوطي نجده يتشابه في إطاره العام ومضمونه مع ما ورد بالرقى الشعبية في مصر حتى اليوم والتي تستدعى فيها الرموز والدلالات التي تتحدث عن أم الصبيان (خرابة الدور العامرة وفتاشة القبور الضلمة) كما يظهر لنا دلالات العدد سبعة والموروث الشعبي المحمل بإرث طويل عن الحسد وأخطار العين الشريرة.وقد ترك لنا (الباحث إبراهيم سلامة) أحد نصوص الرقية من قرية (عرب الشيخ يوسف - الرحمانية - مركز أبو كبير - بمحافظة الشرقية - مصر) والتي تؤديها

[1] - جلال الدين السيوطي : الرحمة في الطب والحكمة (مطبعة صبيح ، القاهرة بدون تاريخ) ،نقلاً عن سليمان حسن :الرموز التشكيلية ، ص153.

(الحاجة مبروكة 70 عام) التي تقول في رقيتها[1] :

إيد الله قبل إيدي**رب المشارق ورب المغارب

ولا يغلب الله غالب ** رقيتك واسترقيتك

من عين أمك ومن عين أبوكِ....من عين كل اللي شافوكِ ولأصلوش على النبي

الأوله بسم الله **والتانية بسم الله

والتالته بسم الله **والرابعة بسم الله

والخامسة بسم الله **والسادسة بسم الله

والسابعة بسم الله

والتامنه بسم الله..تتفرق على قوم خلق الله....أنا بارقيك من فوق شافيك(شافيكِ)

ملوك السموات والأراضين تشفع فيك(فيكِ)....من عين أمك ومن عين أبوك

ومن عين القوم اللي شافوكِ ولاصلوش على النبي

ياعين يا عينية **يا خاينة يا ردية....سايقه عليكِ الكعبة النبويه

خدي شرك وبلاكِ **وروحي للي اشتهاكِ...الله أكبر عليهم ** عينهم ترتد ليهم

في كعوب رجليهم ** ومن اتطلع لك بالشين...تعمي له عنيه الاتنين **ومن اتطلع لك بالرديه

تعمي وتقصر له المنيه. ببركة الله والكعبة النبوية

وشيوخ الله المسميه**ودروب الله الممشيه..وبيوت الله المبنيه** ورجال الله المسميه

وكعبة الله النبوية **ولا غالب إلا الله الغالب...الملح والصوان في عيون النسوان والرجال

الملح الفاسد **في عين عدوي العاذل

الملح والدقيق **في عين العدو والصديق..ازاي احتار يا ملح يا سلطان

---

[1] ـ عمرو عبد العزيز منير : الشرقية بين التاريخ والفولكلور(الطبعة الأولى ، دار الإسلام للنشر، المنصورة2005م)، ص73.

**وتساعدني في الدار

أطلع من [وتذكر اسم المريض واسم امه]...ورجع له[لها] راحة البال...ببركة النبي عليه الصلاة والسلام

الله أكبر عليهم **عنيهم في كعوب رجليهم..أخصي عليهم **عنت الله وربي عليهم

ومصارين تقيد رجليهم** غشا تغشي عنيهم...يا كافي كل كفيه ** يا عالم بيهم وبياويكل الخلق سويه

اطلع من [وتذكر اسم المريض أو المريضه] العين الرديه

كما طلعت صفيه (ذكرت مثالاً على طلوع عين الحسود من المريضه عين صفيه من فاطنه النبويه)

من فاطنه النبويه **بعزايم الله القويه** ودروب الله الممشيه

ورجال الله المسميه ** الله أكبر عليهم **عنيهم في كعوب رجليهم

إن كان من مره **في عنيها شرشره...وإن كان من بنت **في عنيها بشت

وإن كان من ولد **في عنيه وتدوإن كان من راجل **في عنيه حد من المناجل

وإن كان من الضيف **في عنيه حد من السيف...وإن كان من عجوز **في عنيه حربه ببوز

وإن كان من نصارى** يفكها رب البصارى...وإن كان من مسلمين **يفكها رب العالمين

وإن كان من الله **يحمد العبد الله...الله أكبر عليهم ** عنيهم في كعوب رجليهم

إخصي عليهم **عنيهم في كعوب رجليهم....اطلعي يا عين بره **اطلعي يا عين بره

يا خرابة الدور العامره ** يا فتاشة القبور الضلمه...الله أكبر عليهم **الضيف محمد **والطبيخ عدس

والمره جيده **والراجل نحس....بحق من أفرط القمر وأنزل الشمس يفك عنك [............]

ولعلنا ندهش حين نعرف أنه في العصور الفرعونية أمكن رصد ظاهرتين أساسيتين للسحر عند المصريين القدماء، الأولى كانت القوة المطلقة الخلاقة للكلمة أو الصوت، فالاسم كان جزءاً أساسياً من الشخص، أي أن الاسم كان عندهم كائناً حياً، وكان يكفي معرفة اسم شخص ما حتى يمكن السيطرة عليه بأن تلقى عليه تعويذة فيقع له ضرر أو يموت، وكانت عادة تشويه أسماء الأعداء بعد موتهم نوعاً من الأخذ بالثأر، وبهذه الطريقة تم تشويه أسماء حتشبسوت وإخناتون. وكان النطق باسم إله يأتي به في حضرة الإنسان.

والظاهرة الثانية في السحر المصري كانت القوة الخلاقة للتمثال، فكان صنع تمثال أو عمل صورة لرجل، ينقل إلى ذلك التمثال جزءاً من الشخصية الروحية لذلك الرجل. واستعمل هذا المبدأ في أغراض عدة منها ما كان لدرء الخطر بتحطيم تمثال العدو. واستعملت التماثيل فيما يعرف بالسحر الوقائي، فكان تمثال الرجل يوضع في مكان عام بعد تغطية جسمه بالرموز السحرية المضادة للأفاعي والتماسيح والعقارب، وكان يكفي أن يُصَب قليل من الماء فوق هذا التمثال، وأن يشرب سائل مشبع بالقوى السحرية، حتى يقي صاحب التمثال من الخطر، واستخدمت الأم المصرية القديمة التمائم لتيسير الرضاعة إذا شعرت بجفاف لبنها. وكانت بعض تلك التمائم من المعدن أو الخزف مصورة على هيئة المعبودة إيزيس وهى ترضع طفلها الوحيد، أو كانت على هيئة ثدي - وهو تشخيص رمزي - لتعلق علي الصدر واستعملت التماثيل الصغيرة في شكل تمائم لحماية الدولة ومليكها ومعابدها، وكان يكتب على هذه التماثيل أسماء الأمم أو أسماء رؤساء القبائل التي يرهب جانبها، وكانت تقطع أوصال هذه التماثيل أو توطأ تحت الأقدام أو تحرق أو تدفن تجنباً لضرر من تمثلهم هذه التماثيل. [1]

ولم تكن تلك الأفكار المرتبطة بسحرية الصور والزخارف غريبة عن الأفكار التي سادت المنطقة آنذاك إذ نقرأ في أساطيرنا وقصصنا الشعبي عن الثياب والستور المسحورة المطلسمة التي نسجت عليها زخارف ونقوش من شأنها إكساب لابسها بعض المميزات الخارقة إذ نجد فقرة في سيرة فيروز شاه (وهى إحدى القصص

[1]- سليمان حسن : الرموز التشكيلية ، ص81

الشعبية المسلسلة الذائع انتشارها) :"ثم أخذته إلى صندوق من الحديد ففتحته وأخرجت منه ثوباً مزركشاً بالفضة وقفطاناً منقوشاً بالنقوش الرفيعة وبطلاسم لا يحسن قراءتها إلا كل ساحر، ومصور عليه من الصور أشكال كصور النسر والغراب والباشق وكبار الطيور، وكالأسد والفيل وكبار الحيوانات، وصور مردة من الجان وشياطين وغير ذلك، مما يبهج النظر ويخيف القلب، فقال لها :لم هذه الثياب ؟ قالت: إذا لبسها الإنسان يأمن كل سحر، ولا تصيبه عين، فهي منيعة ولابسها يأمن كل غائلة وهذه أعجب ما صنعت "[1]

تدلنا الرواية على الجانب الاعتقادي الذي ارتبط بآثار مصر وبالبرابي والتي شاعت بين الناس،بأن فيها من الأسرار والطلاسم والكنوز ما يمكن أن يكشف عنه الإنسان ويستفيد منها إذا عرف الوسيلة إلي ذلك، كما يكشف عن النظرة التي إلي وجود أسرار خفية وأن لكل أثر أو حجر دور ووظيفة يؤديها في حياة الشعب المصري لدرجة أن السيوطي يقول عنها:" ويقال أنه كان فيها – بربا إخميم- جميع ما يحدث في الزمان حتى ظهور رسول الله صلي الله عليه وسلم، وأنه كان مصوراً فيها راكبا على ناقة.."[2]

وفي الحياة الشعبية نرى رواسب ومتبقيات من هذه المعتقدات لا تزال قائمة وتتردد كثيراً في مصنفات السحر الشعبي بأساليب وطقوس متنوعة، فتصنع من رسوم الحيوان طلاسم لتحقيق أعراض مثل صيد السمك، أو نفي العقرب، أو الحدأة، إلى غير ذلك، وهم يقصدون ساعة معينة طالعاً بذاته عند عمل هذه الطلاسم، فعلى زعمهم أن ذلك يجعل الأثر قوي وفي الحكايات الشعبية ظهرت النصب المطلسمة التي تعقد عندها الرياح العاتية، ومن ذلك ما جاء في حكاية ذي القرنين، حين عبر بجيشه بحر الظلمات وما ذكر عن النصب الذي أقامه فرعون مصر، فأباد جميع اليهود الذين حاولوا العودة بعد طردهم، حيث صعقهم الصنم المحصن بالأسماء المطلسمة [3].

أما المقريزي فقد أورد أن الهدف من بناء البرابي هو رغبة الملك الذي: " يقال أن

---

1 – قصة فيروز شاه :المجلد الأول ، مطبعة عبد الحميد حنفي سنة 1366هـ.
2 –السيوطي: حسن المحاضرة، جـ1، ص65.
3 ـ سليمان حسن : الرموز التشكيلية ، ص33

اسمه دومريا، وأنه جعل هذه البربا مثلاً للأمم الآتية بعده، وكتب فيها تواريخ الأمم والأجيال ومفاخرهم التي يفتخرون بها،وصور فيها الأنبياء والحكماء وكتب فيها من يأتي من الملوك إلي آخر الدهر"[1]

عجائب بربا إخميم ورد عنها العديد من الحكايات التي نسجتها الذهنية الشعبية، والتي أضفت على تاريخ وآثار الحضارة المصرية القديمة قدراً من الحيوية، وبالطبع لم تكن أسرار العصر القديم قد تكشفت بعد.لذلك كانت مرتعا خصباً للخرافات والأساطير التي دارت حول عجائب تلك الآثار. منها ما رواه ابن محشرة في قوله:" رأيت في بربي إخميم صورة عقرب، فألصقت عليها شمعا فلم أتركها في موضع إلا أن انحاشت العقارب إليها من كل موضع وإن كانت في تابوت اجتمعت حول التابوت"[2] وربما تشابهت تلك الفكرة عن طرد العقارب مع فكرة الأحراز السحرية والوصفات الشعبية التي استخدمت في أزمنة الفراعنة التي استخدمت دهن القط لتهجير الفئران. [3] كما تتشابه مع الوصفات الشعبية التي يستخدمها أصحاب الخيول العربية لطرد العقارب من مرابط الخيول فيقول:" إذا أخذت عقرباً وقتلتها فاحرقتها بالنار، فإن جميع العقارب التي في المكان إذا شمت ريح تلك العقربة هربت من المكان "[4]

ويورد المقريزي من أخبار عجائب هذا البربا:" ذكر أهل إخميم أن رجلا من الشرق وكان يلزم البربا ويأتي إليه كل يوم ببخور وخلوف فيبخر ويطيب صورة من عضادة الباب فيجد تحتها دينارا..فيأخذه وينصرف"[5] ولعل فكرة هذا الدينار المزعوم هي امتداد للأفكار التي شاعت في مصنفات السحر الشعبي وتطلع إليها الوجدان والخيال الشعبي عن جلب الدراهم والدنانير والكنوز متى ألقيت التعزيمة المناسبة وأقيمت الطقوس الخاصة وهو ما نقله لنا ابن الحاج التلمساني في كتابه (شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى) فيشرح تحت عنوان (مسئلة في جلب الدراهم)

---

[1] – المقريزي: الخطط، جـ1، ص448.

[2] – الاستبصار في عجائب الأمصار، ص60، المقريزي: المصدر السابق، ص447.

[3] ـ سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص68.

[4] ـ بكتوت الرمّاح : علم الفروسية وسياسة الخيل ، ص124.

[5] – الخطط، جـ1، ص248، الحميري: الروض المعطار، ص18.

الطريقة التي بها يحصل الإنسان على مراده من الأموال والذهب وتتلخص:" في أن يضع الإنسان مربعاً سحرياً خاص في ذعذ أخضر في اليوم الأول من يناير وتكتب هذه الآية دائرة، وهي قوله تعالى :"وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى. .إلى قوله تعالى سعياً "، ثم تبخر عملك ببخور السودان ثم تصلي اثني عشر ركعة كل ركعة بفاتحة الكتاب والآية سبعين مرة ثم تذكر عليه هذا الكلام إلى طلوع الشمس وهو (بأسلوم أجب شروت بحق صفيا كل وأنت قــ) جعلت قبل الصلاة درهماً من فضة مكتوباً فيه جامع بالنقش وفي الثاني جاعل بالنقش، وهو تحت السجادة والمربع الذي فيه الدرهم المكتوب فيه جامع تحت جبهتك عند الصلاة، فإذا طلعت الشمس فإنك تجد الدرهم المكتوب فيه جاعل قد رجع إلى عند المكتوب ،فأنفق بالمكتوب فيه جاعل فإنه يرجع، ولو أنفقته سبعين مرة لا تدفعه إلا لأهل الذمة من اليهود فإنك إن أكلت به مال أحد من المسلمين بطل عملك. ..."[1]

ويؤكد المقريزي علي عجائب بربا(معبد) إخميم بقوله:" بربا إخميم عجب من العجائب بما فيه من الصور وأعاجيب، وصور الملوك الذين يملكون مصر وكان ذو النون الإخميمي يقرأ البرابي فرأي فيها حكماً عظيمة فأفسد أكثرها.[2]

ويضيف المقريزي أيضا" يقال أنه كان في بربا (معبد) إخميم شيطان قائم على رجل واحدة. وله يد واحدة قد رفعها إلي الهواء وفي جبهته وحواليه كتابه، وله إحليل ظاهر ملتصق بالحائط، وكان يذكر أن من احتال حتى ينقب على ذلك الإحليل حتى يخرجه من غير أن ينكسر، ويعلقه على وسطه فإنه لا يزال منعظاً أن ينزعه، ويجامع ما أحب ولا يفتر ما دام معلقا عليه، وأن بعض من والي إخميم أقتلعه فوجد منه شيئا عجيبا من ذلك" [3]. وأشار المقريزي إلى تمثال مشابه بالإسكندرية على :" صورة صنم قائم وله إحليل إذا أتاه المعقود والمسحور ومَنْ لاينتشر ذكره فمسحه بكلتى يديه انتشر ذكره وقويً على الباه".[4].

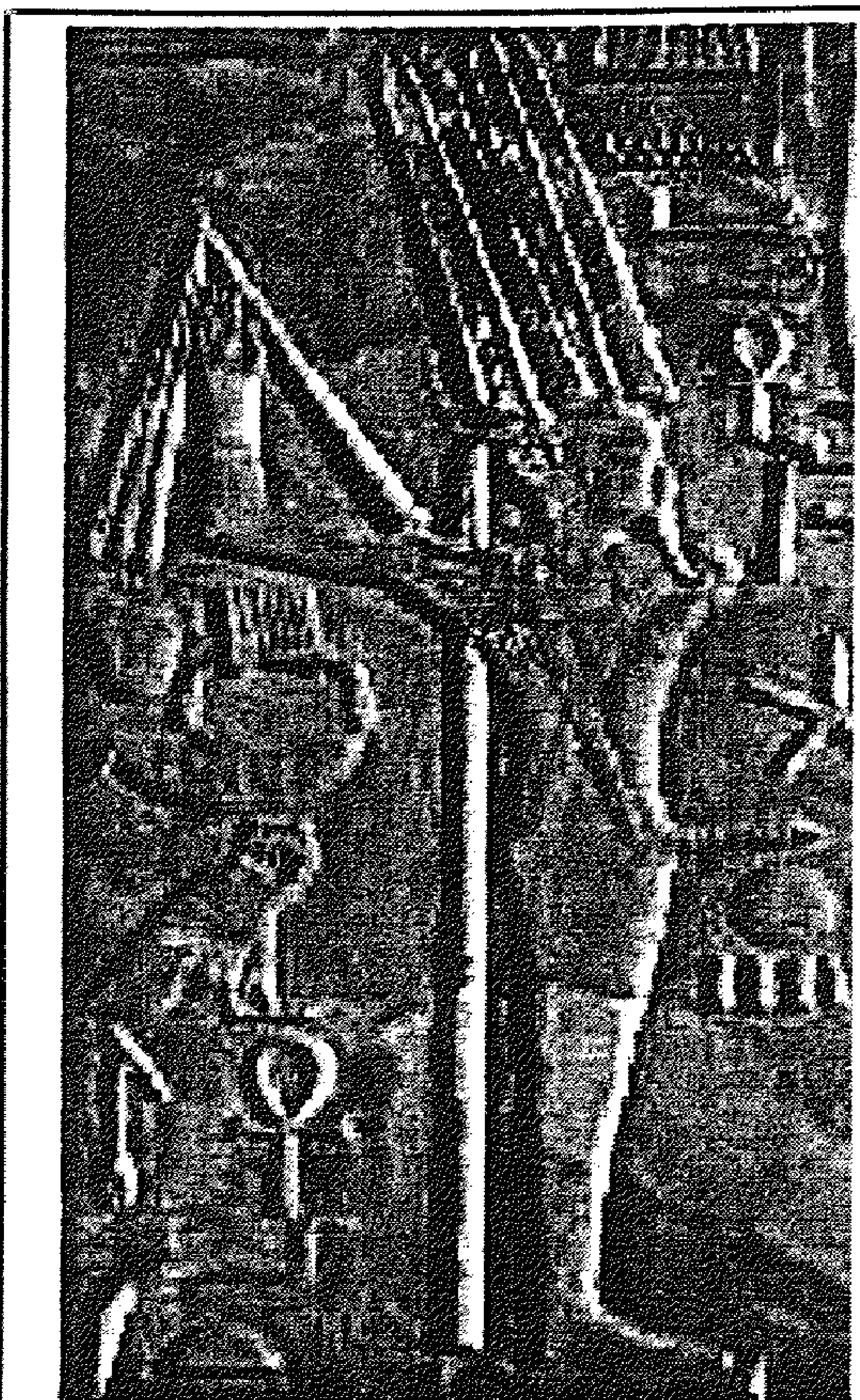
[1] ـ ابن الحاج التلمساني المغربي (ت737هـ):شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى (الطبعة الأولى ، مكتبة محمد على صبيح ، ميدان الأزهر و القاهرة 1907م)، ص95.

[2] – الخطط، جــ1، ص31.

3 – الخطط، جــ1، ص240.

4 – المقريزي :الخطط ، ج1، ص133؛ ديمتري ميكس وآخرون: الحياة اليومية للآلهة الفرعونية(ترجمة فاطمة

نستشف من رواية المقريزي أنه ربما كان يتحدث عن الإله المصري القديم " مين" "MIN" فهو حامى إخميم وقفط وطيبة وأرمنت وحامي الطريق إلي بلاد العرب، فكان الأول " مين" يصور بجسمه النحيل ووقفته المتصلبة الخجلة، ويبدو طويلا جدا بالريشتين اللتين يضعهما على رأسه والجزء الظاهر من جسمه، خارج ثوبه المحكم حول جسده ولونه الأسود، أما ذراعه الأخرى فوضعها تحت ثوبه أمسك بيده الذكر الإلهي المنتصب، وهو من أقدم الآلهة المصرية، وكانت تقدم له القرابين من نبات الخس لما يعتقد في احتوائه على خواص منشطة جنسياً.[1]


الإله مين إله الخصوبة
عند المصريين ويظهر عضوه الذكوري المنتصب

وقد شبه الإغريق الإله "مين" بإلههم "بان" (PAN) الذي يعتبر أيضاً إلهاً لخصوبة الأرض[2]، وقد وصف "هيرودوت" موكبا للإله "مين" الذي ظل متوارياً في الوجدان الشعبي المصري حتى ظهر في شخصية "علي كاكا" وهو شخصية غريبة تدل على ولوع المصريين بعلاقاتهم الجنسية، إذ هي شخصية رجل يلبس الحذاء ويلبس في وسطه حزاماً تتدلى منه قطعة على شكل (العضو التناسلي الذكوري) في أضخم أنواعها، وقد رأى

محمود، سلسلة الألف كتاب الثاني، القاهرة، 2000م)، ص 373؛ جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة(ترجمة : أمين سلامة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1996م)، صـ 328.،أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية (ط. الثانية ، القاهرة ،د.ت)،ص337

[1] - آنا رويز : روح مصر القديمة ، ص135.

[2] - ادولف إرمان :ديانة مصر القديمة (ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، محمد شكري ، مكتبة الأسرة ،القاهرة 1997م)، ص43

البعض أن شخصية "علي كاكا" لا تعكس ولع المصريين بعلاقاتهم الجنسية، وإنما هي دفقة من التيار التحتي للموروث الشعبي الذي يسري في اللاوعي الجمعي للمصريين.

والرواية السابقة تعكس أن المسألة الجنسية كانت تشغل حيزاً لا يستهان به من تفكير الوجدان الشعبي ونشاطه، وتتحكم إلى حد ما في تصرفاته بل ومواقفه وطقوسه، وتكشف لنا أهمية تتبع أصول المسألة الجنسية من كونها تعكس - من ناحية - مفاهيم وأخلاقيات المجتمع، كما أنها على الصعيد الفردي تشغل جانباً شديد الأهمية من حياة الإنسان، كما تحكم نظرته للإنسان الآخر أو الجنس الآخر مما دفعه لاختلاق طقوس وعادات شعبية غرضها خدمة هذه الناحية الجنسية ومنها ما خصصه صاحب كتاب(رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه) من فصل كامل تحت عنوان (في ذكر الخواتم والطلاسم والأسماء المختصة بالباه) فيقول :" تكتب هذه الأسطر في ورق ذهب وتجعلها تحت لسانك وتجامع مهما شئت فإن ذكرك لايزال قائماً مادامت الورقه تحت لسانك. ..... (نوع آخر للباه) تكتب هذه الأسماء على عصابه بيضاء جديدة وتبخرها بمقل أزرق ولبان ذكر وعند الجماع إما أن تتعصب بها وإما أن تربطها على عضدك اليسار وتجامع فإنك ترى عجباً ، فإذا فرغت فانزع العصابة وأرفعها لوقت الحاجة وهذا الذي يكتب على العصابة (هقوس هووس سامر هفراس دزمن عينيه أنوه أنوه طيفوس ذكر ملك ملكه معها سرياصهلل إيه أين آه آه آه). ...(صفه أخرى) إذا كان القمر في الميزان يؤخذ فص كهربايكون فى وزن تسع عشرة شعيره ينقش عليه بشده صفة قرد على قرافيصه ماسك إحليله بيده اليسرى وينقش حوله بشده الأحرف الآتيه وهى (ا هـ ط م ف ش ذ) ثم يجعله تحت لسانه وقت الجماع فإنه يرى عجباً من قوة الباه**[لاحظ التشابه مع صورة إله الخصوبة مين (Min)]**. ..... ذكر صاحب هذا الباب أنه دخل على زوجته فاجتمع بها فلما قضى شغله منها مر بهذا الخاتم على فرجها من أسفل إلى فوق وقال توكل أيها العون بعقد هذا الفرج عن جميع فروج بني أدم ثم خرج عنها وقعد إلى آخر النهار ثم أتى إليها وسألها فقالت والله العظيم لم يقدر أحد أن يجتمع بى ولا يكون طيباً حين يقرب منى إلا ويهيج صلبه ويتفرقع فيقوم مقطوع الظهر قال فحللتها بالخاتم فمررت به من فوق إلى أسفل وقلت حل أيها الملعون ماعقدت.

....صفة الخاتم أن ينقش في يوم الأربعاء في ساعة زحل أو يوم السبت ساعة عطارد أو في يوم الجمعة في الساعة الرابعة أو الحادية عشره. .."[1]

وربما تذكرنا الروايات السابقة بما ورد بمصنفات السحر الشعبي التي تنطوي علي وصفات عديدة للشفاء من الأمراض وتقوم الكثير من هذه الوصفات على وجود خاتم سليمان والعزائم المرتبطة به. ويقول الموروث الشعبي إن سر قوة الخاتم والعزائم المرتبطة به ليس في الخاتم، وإنما في وجود (اسم الله الأعظم) عليه ولهذا ظهر في المصنفات عدة صور لخاتم سليمان(خاتم سليمان هو نجمة سداسية استخدمت على نطاق واسع في أعمال السحر المرتبط بالجان، وهناك صور من هذا الخاتم تم تقسيمه فيها إلى مثلثات أو معينات عُمرت بأرقام ترتبط بحساب الجمل أي القيمة العددية لها) ربما تكون اقرب إلى تفسير مضامين المعتقد من هذه الصور ما يقال إنها تعمل على زيادة القوة الجنسية للإنسان عند جماع زوجته، حيث يكتب في ورقة ثم تشمع، أو ينقش في رصاصة ثم يوضع تحت اللسان عند الحاجة. أو يعلق على الظهر. وحول الخاتم أدعية خاصة وله ساعة معينة وبخور خاص، كما أن له ترتيلاً يتلى بطريقة خاصة ويشتهر في هذا الباب حل المربوط أو المعقود، وهو الموضوع الذي يأخذ المكانة الكبرى في مصنفات السحر الشعبي العربي. [2]

ولعلنا نجد امتداداً لتلك الفكرة (المرتبطة بمسح أعضاء التماثيل لغرض الشفاء) في العقائد المصرية القديمة التي اتجهت إلى ربط كل جزء من أجزاء الجسم بالإله الذي يؤثر على العضو، فإصابة بعض أعضاء الجسم أو سلامتها في هذه العقائد وقف على هذه الآلهة، وهكذا نرى الإنسان قد أصبح يمثل نظاماً مصغراً للكون، وارتبط بالآلهة التي صارت تمثل بدورها أجراماً سماوية، وكأن الإنسان بأعضائه، وعلى الرغم من ضآلته يصور نظاماً مصغراً للكون.

فالوجه الثالث من برج الجوزاء ـ حسب بعض المخطوطات القديمة ـ يؤثر على آلام العضلات، والوجه الأول من برج السرطان يؤثر على أمراض الأوردة

---

[1] ـ أحمد بن سليمان(ت940هـ) :رجوع الشيخ إلى صباه في القوة والباه (دار الكتاب العربي ، دمشق بدون تاريخ) ، ص33

[2] ـ سليمان حسن :الرموز التشكيلية في السحر الشعبي ، ص160

والشرايين، والوجه الثاني من برج السرطان يؤثر على الرئتين، والثالث منه يؤثر على أمراض القلب، والوجه الأول من برج الأسد يؤثر على المعدة والوجه الثاني يؤثر على آلام الكليتين، والثاني منه يؤثر على انسداد الحالبين وحصر البول، والثالث منه يؤثر على آلام العضلات. [1]

العديد من البرابي الأخرى التي حمّلها الخيال الشعبي بالأساطير انتشرت في أرجاء مصر فنجد في "بلاد أسوان بربا، وبأتفوا بربا، وبشامة وطامة بربا وبإسنا بربا، وبقوص بربا وبدندره بربا عجيبة، وبالبهنسة بربا عجيبة، وبشاطئ النيل فيها بين أسوان وجبل الطير برابي منحوتة في الجبال كالمعابد للمتفردين من الناس وبأنصنا بربا".[2]أما بربى [بربا] سمُنودَ فقد دار حولها روايات تشي بمدى رهبتها في النفوس فيقال عنها :" قد خزن فيها بعض عمالها قرضاً فرأيت الجمل إذا دنا من بابها بحمله وأراد أن يدخلها، سقط كل دبيب في القرظ فلا يدخل منها شئ إلى البربا ".[3]، أما عجائب بربا إسْنا فقد تحدث عنها الخيال الشعبي بقوله :"إن الفأر لا يدخلها، وإن دخلها مات ".[4] وهكذا تحولت هذه الأماكن وما أكثرها إلى طلاسم وحكايات، وكثر اهتمام الوجدان الشعبي في هذا الزمن بها وأشاعت المخيلة الشعبية جواً من السحر والغموض حول نقوش معابد مدينة إخميم وباقي معابد (برابي) مصر، وقد دون الرحالة العرب في كلامهم عن هذه النقوش الضخمة خلال الثلاثة قرون الأولى للفتح العربي.

كما نسجوا حول أرض آثار مصر الحكايات الكثيرة حول الذهب والكنوز، فقد راح أهل مصر يقيمون وينسجون الأساطير والحكايات السحرية حول كل شئ. كما أعادوا من الذاكرة المدفونة حكايات السحر والأعاجيب حول آثار تلك المدن والمعابد المصرية ونسجوا الروايات حول الأشكال الحيوانية التي وجدوها منحوتة ومرسومة على جدران تلك الآثار وحكايات أخرى حول حقيقة الثعابين والعقارب والجعران هذا الكيان (الذكر الأنثى) والذي يحكون أنه خلق نفسه بنفسه!!.

---

1 – سعد الخادم : الفن الشعبي ، ص96.

2 –الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، صـــ 35.

3 – القلقشندي : صبح الأعشى ، ج3، ص323.

4 – نفسه ، ص324.

ولم تكن المسلات المصرية[1]، بأحسن حالاً من البرابي، فيما يتعلق بالخرافات والأساطير التي دارت حولها، وعنها يقول المقدسي: "وبعين شمس شبه منارتين طويلتين، قطعة واحدة على رأسها شبه حربة تسميان المسلتين، وتم أيضا على هذا العمل دونهما وسمعت فيهما أشياء لا يقبلها العقل، وقرأت في كتاب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح ويجوز هذا، ألا ترى أن التماسيح في كورة الفسطاط لا تضر مع عظمها وكثرتها".[2]وقيل عن عجائبها أيضاً أن :"الشمس تطلع على [المسلة] الجنوبية منهما في أقصر يوم في السنة، وعلى الشمالية في أطول يوم في السنة".[3]،" وفيهما صورة إنسان على دابّة وعلى رأسيهما شبه الصومعتين من نحاس فإذا جاء النيل قطرَ من رأسيهما ماء ويظهر حتى



يظهر في هذه الصورة المسلات المصرية بمعبد الكرنك بالأقصر

1 –المسلات : حجر طويل مستدق يشبه القلم رأسه هرمية الشكل، كانت على علاقة بعبادة الشمس، استولى الأثريون الأوائل على كثير منها وتسمى (OBELISK).

2 –أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، صـ 210؛ القلقشندي : صبح الأعشي ،ج3،ص324.

3 – القلقشندي : صبح الأعشى ، ج3 ،ص325؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص121.

يجري إلى أسفلهما".[1] فلم يستطيع الخيال الشعبي أن يفسر تكثف بخار الماء على السطح الأملس للمسلات على شكل قطرات ندى فعدها من العجائب، ورغم الخرافات والأساطير التي تداولها الناس فقد وصف المؤرخون المعالم الخارجية للآثار المصرية كأبنية جسيمة، وأثبتوا دهشتهم الشديدة وانبهارهم بتلك الأوصاف التي قد تعتبر الشئ الوحيد المعقول في أقوالهم.والتي ربما نظروا إلى المسلات المصرية أن لها منفعة سحرية أو دينية وهي الفكرة ذاتها التي نجد لها عمق فرعوني قديم يدلنا على ذلك بما نجده في معبد الكرنك من مسلة لحتشبسوت، رغم أن تصميم المعبد لم يكن مهيأ ليتسع لهذه المسلة، وإنما جاءت بها حتشبسوت من محاجر الجرانيت بأسوان، وثقب سقف المعبد وأفسح مكان للمسلة التي نذرت حتشبسوت أن تقيمها في موقع معين من المعبد، وبالفعل ثبتت في وضعها الذي نراها فيه اليوم، وبطبيعة الحال يتعذر تفسير إقامة هذه المسلة على غير أساس ذي صبغة سحرية أو دينية.

فالمسلة لم تضف إلى مباني المعبد أو تصميمه بقدر ما تسببت في إصابة البناء وهدم بعض أجزاء منه. ولو كان الهدف من وضعها بالمعبد التجميل لكان من الميسور أن تثبت في أي مكان خال بداخل فناء المعبد.[2]

أما **اللغة المصرية القديمة**،فلقد ابتدعوها فصارت هدى ونوراً أضاء عقل الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها. ولولاها لظلت البشرية موءودة في ظلمات الجهالة والضلال. . وعبّروا بها عن أنفسهم فقلدتهم شعوب الأرض في هذا التعبير. . وبها استطاعت الشعوب أن تقول: ها نحن. . وهذا ما فهمناه و فعلناه. . تلك هي (الكتابة).. هدية المصريين القدماء إلى الحضارة الإنسانية، وإلى جميع شعوب الأرض في كل زمان ومكان. . ولكن جاء حين من الدهر كانت فيه تلك اللغة، تمثل لغزاً محيراً للعقول، هاجساً يؤرق الناظر فيقف أمامها مشدوداً مشدوهاً، إلى أن خرج (جان فرانسوا شامبليون) من مصر، وفي أحدى يديه مفتاح الهيروغليفية[3]، بهذا المفتاح أضاف إلى

---

1 – ابن عبد الظاهر: **الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة**، ص121.

2 - سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص118.

3 – **الهيروغليفية**: **النقش الهيروغليفي** Hieroglyphs كتابة تصويرية ظهرت كاملة التطور حوالي سنة 3100 ق.م وظلت مستخدمة حتى العصر الروماني، وهي مزيج النطق (خواص الصوت أي الفونجرام) والرموز التصويرية (إيدوجرام)، وكانت تستخدم أساساً في كتابة النصوص الأدبية والدينية، كما يوجد ما يسمى بـــ

تاريخ البشر، خمسة آلاف عام أو يزيد، فكان إيمانه بمصر كعصا موسى: يبطل معها كل سحر[1]. ولما كانت تلك الرموز مثار اهتمام الرحالة والمؤرخين وغيرهم وباتت سراً مستغلقاً على مدى العصور ومثار دهشة، فما كان للخيال الشعبي أن يقف أمامها عاجزاً طويلا إذ حلق في آفاقه وقدم لنا تفسيراته الممنطقة لتعويض النقص المعرفي الحاد في تلك المنطقة المبهمة من تاريخ مصر القديم.

صدى تلك التفسيرات وجدت طريقها إلى دفات كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين، التي أظهرت الشغف الذي ساد المجتمع المصري لحل رموز تلك الكلمات والكتابات المنقوشة على جدران آثار مصر، والذي ساعد بدوره على فتح المجال واسعً للحضور الأسطوري والخرافي حولها، وإن كنا لا نعدم محاولات جادة لفك رموز تلك الكتابات، والتي لا شك أنها أكثر أشكال الكتابة جمالية وإلهاماً للخيال في تاريخ البشرية وبخاصة وأن الكتابة كانت عند المصريين لغة الآلهة السحرية.[2]

"الخط الهيراطيقي"، هو خط متشابك (متصل / متطور عن الهيروغليفية استخدم في كتابة الوثائق القانونية، وفي مجال =الأعمال حتى نهاية الدولة الحديثة، حيث شاركه في ذلك الخط الديموطقي، والخط الديموطيقي أيضاء خط متشابك (متصل) الحروف تطور عن الهيروغليفي في القرن السابع الميلادي، وكان يستخدم في المعاملات الرسمية الجارية لتسهيل الشئون الإدارية، وكان منتشراً مع الهيراطيقية والهيروغليفية : كلير لالويت، **الفن والحياة في مصر الفرعونية**(ترجمة / فاطمة عبد الله، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 370، القاهرة 2003م)، ص 379؛ بريان فاجان: **نهب آثار وادي النيل**، (ترجمة: أحمد زهير ، مكتبة الاسرة ، القاهرة2003م.)،ص240،ج.جيمز : **الحياة أيام الفراعنة** ،ص127.

[1] – أميط اللثام عن بعض الدراسات تتحدث عن **المكتشف الحقيقي للغة المصرية القديمة الهيروغليفية** وهو ابن وحشي النبطي أبو بكر أحمد بن علي بن وحشية الذي كان عالماً بالعلوم الخفية والفلاحة والكيمياء والسموم والفلك والأقلام القديمة والسحر والحيل وغيرها، والذي خلف أكثر من خمسين كتاباً على وجه التقريب، وعاش في القرن الرابع الهجري في كتابه (**شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام**) الذي تضمن نحواً من تسعين قلماً من أقلام اللغات القديمة وأقلام التعمية، بينها أقلام الهيروغليفية الثلاثة، وقد نشر الكتاب **المستشرق النمساوي جورج همر** في لندن سنة 1806م بالعربية والإنكليزية مع دراسة مهمة نبّه فيها على أهمية الكتاب في كشف اللغات القديمة، والهيروغليفية خاصة، وقد تأكد أن **شامبليون** الذي نُسب إليه اكتشاف اللغة المصرية القديمة الهيروغليفية المدونة على حجر رشيد بنصوصها الثلاثة عام 1822م أي بعد 16 سنة من صدور كتاب ابن وحشية قد اطلع على انتاج ابن وحشية و الكتاب له نسخ خطية كثيرة موزّعة على مكتبات العالم : باريس ولندن والنمسا وإيران وتركيا. وقد صدر الكتاب ضمن سلسلة "نصوص ودراسات" ويصدرها المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت والذي يتخذ من اسطنبول مقراً له الآن .انظر : جمال الغيطاني : **ملامح القاهرة في ألف عام** ، سلسلة مكتبة الأسرة ،القاهرة 2007م، ص237.

[2] – سيمسون نايوفتس: **مصر أصل الشجرة، السياقات** (الجزء الأول ،ترجمة: أحمد محمود، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 993 القاهرة 2006م)، صــــ11.

أشار الرحالة اليعقوبي إلى أسباب وجيهة لعدم معرفة أسرار اللغة المصرية القديمة بقوله: ".. وفي دهرنا ـ القرن الثالث الهجري ـ قد عدم الناس معرفة قراءاته ـ الخط المصري القديم ـ والسبب في ذلك؛ أنه لم يكن يكتب به منهم إلا الخواص، وكانوا يمنعون العوام، والذين يقومون به منهم حكماؤهم، وكهانهم، وكانت فيه أسرار دينهم، وأصول مقالتهم التي لا يطلعون عليها إلا كهانهم، ولا يعلمون بها أحدا إلا أن يأمر الملك بتعليمه، فلما قهرتهم الروم، وملكتهم بسطوة شديدة، وسلطان، أبطلوا ما كانوا يقومون به من سعيهم وأعمالهم، وحملوهم في بدء أمورهم على شرائع اليونانيين حتى فسدت لغتهم، ومازج كلامهم كلام الروم، ثم تنصرت الروم، فحملوهم على التنصر، فدرس جميع ما كانوا فيه من أمر دينهم وسنتهم، وقتل الروم كهانهم، وعلماؤهم فهلك من كان يفهم ذلك الكتاب، ومنع من بقي منهم من تعليمه، والنظر فيه؛ فلذلك ليس يوجد أحد يقرأه منهم ولا غيرهم".[1]، ويضيف المسعودي أن من أسباب عدم معرفة تلك الكتابة هو: "تداول أرض مصر الأمم ، فغلب على أهلها القلم الرومي، وأشكال الأحرف للروم، والقبط تقرؤه على حسب تعارفها إياه وخلطها لأحرف الروم بأحرفها على حسب ما ولدوا من الكتابة بين الرومي والقبطي الأول، فذهبت عنهم كتابة آبائهم...".[2]

ونجد المسعودي، حين يسأل عن اللغة المصرية القديمة، ولا يجد إجابة، يناقش ويدقق ويستنتج، وساعتها يكون أكثر دقة، وأقرب إلى الصواب؛ فإن عقله الواعي، كان طيعا في إعطائه الجواب الصحيح أو الأقرب إلى الصحة إن ترك له فرصة المناقشة والاستنتاج، فيقول: "وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد، وغيره من بلاد مصر، من أهل الخبرة (رواة التاريخ الشفاهي) عن تفسير فرعون، فلم يخبروني عن معنى ذلك ولا تحصل لي في لغتهم. . فيمكن والله أعلم أن هذا الاسم كان سمة لملوك تلك الأمصار وأن تلك اللغة تغيرت كذلك، كتغير الفهلوية وهي الفارسية الأولى إلى الفارسية الثانية، كاليونانية إلى الرومية، وتغير الحميرية وغير ذلك من اللغات".[3]

فهو هنا قد أصاب مرتين؛ حين ذكر أن لفظ فرعون لقب يطلق على الملوك، ومرة

---

[1] ـاليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) (ت 284 هـ): **تاريخ اليعقوبي**(المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت 1960م)، ص 187.

[2] ـ**مروج الذهب** ،ج1، ص 350، ص 351.

[3] ـالمسعودي: **مروج الذهب**، ج1، ص 316؛ ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ج2، ص 74.

حين ذكر أن اللغة المصرية القديمة قد تغيرت وليست هي لغة أقباط عصره.

إلا أن رجاحة عقل المسعودي لم تمنعه من أن يكون ناقلاً للوهم إلى جوار الحقيقة وأورد الأمرين معاً تاركاً للعقل أن يقبل ما يلائمه، وللخيال أن يأخذ ما يروقه. فيقول: "وأخبرني غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر عن أبي الفيض ذي النون بن إبراهيم المصري الإخميمي الزاهد وكان حكيماً. وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابي ودارها وامتحن كثيرا مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور، قال: رأيت في بعض البرابي كتاباً تدبرته، فإذا هو "أحذروا العبيد المعتقين، الأحداث المغترين، والجند المتعبدين، والنبط المستعربين". قال: ورأيت في بعضها كتاباً تدبرته فإذا فيه "يقدر المقدور والقضاء يضحك"." وزعم أنه أرى في أخره كتابه وتبينها بذلك القلم الأول فوجدها.. تدبر بالنجوم ولست تدري ورب النجم يفعل ما يريد".[1]

الغياب المعرفي بتلك اللغة المصرية القديمة تحدث عنه المؤرخون في قولهم: "لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرف القلم القديم، وهذه الكتابات كثيرة جدا لو نقل ما على الهرمين فقط إلى صحف لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة".[2]

ويقول آخر: "ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بسطور متضايقة متوازية من كتابة بانيها، لا تعرف اليوم أحرفها ولا تفهم معانيها، وبالجملة الأمر فيها عجيب، حتى أن غاية الوصف لها والإغراق في العبارة عن حقيقة الموصوف".[3] ويضيف الهروي أن :"الكتابة التي عليها -يقصد الأهرام- بقلم الطير لا يعلمه أحد في الدنيا وكذلك البرابي ببلاد الصعيد لا يحل قلمها أحد..".[4]، واقترب التلمساني من الحقيقة قليلاً حين قال: "وهي كتابة كاهنية".[5]، ورآها البعض أنها: " كتابة بالمسند".[6]

---

[1] – المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 360؛ القلقشندى : صبح الأعشى ،ج3،ص 323 ؛أولياچلبي: سياحتنامه مصر، ص 622.

[2] –البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص 92.

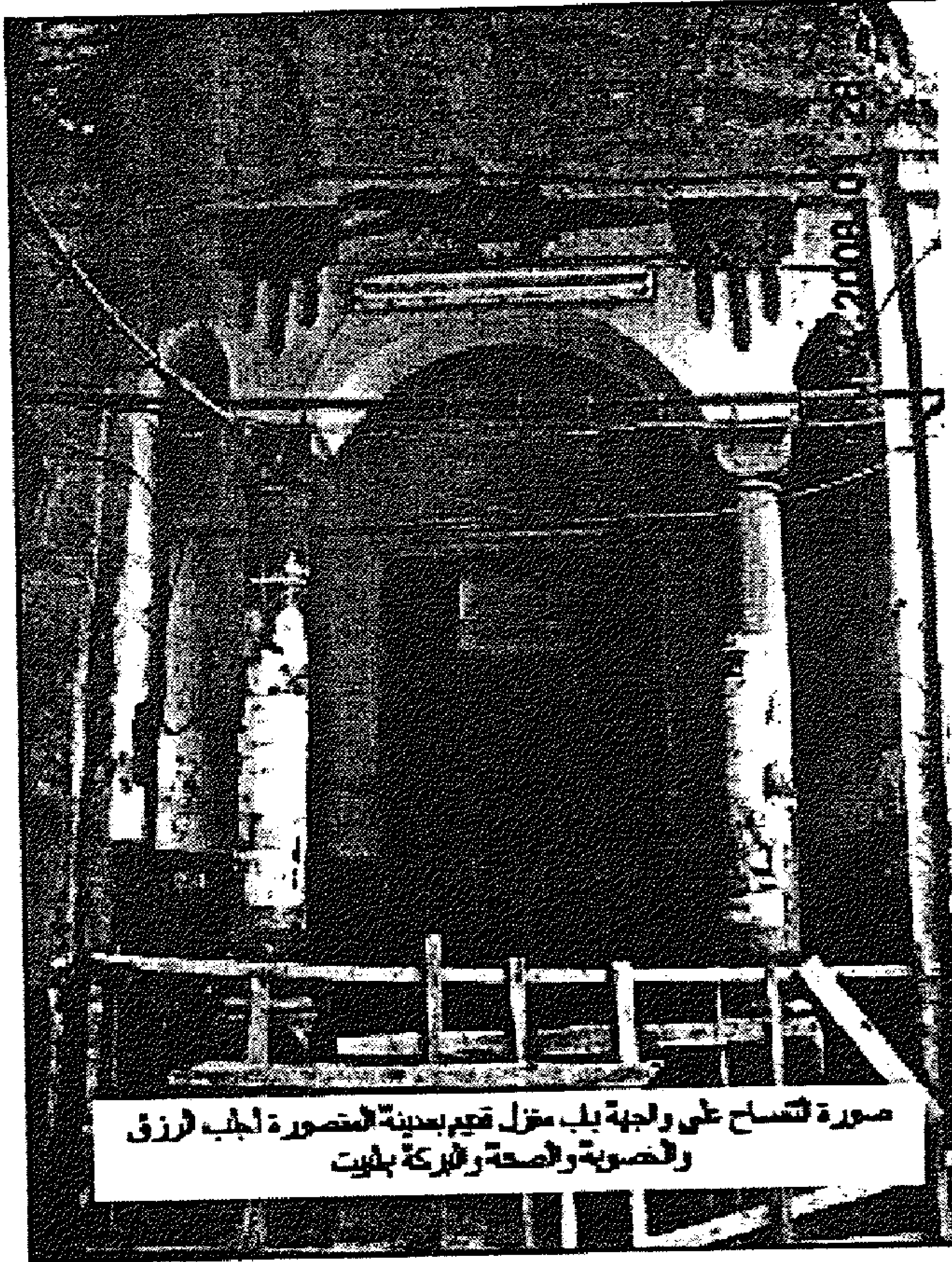
[3] –أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص 28.

[4] – الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص 41.

[5] –سكردان السلطان، ص 459.

[6] –الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص 50.

وبرغم التكهنات حول ماهية الكتابة المصرية القديمة، فقد ظلت بالنسبة للمؤرخين والرحالة مستغلقة الفهم و :"أشياء لا تُعلم الآن بالخط القديم، وكثيراً باقياً إلى الآن لا تدري ما كان المراد به. . إلا الله عز وجل. ويزعم بعض أهل البطالة، أن لبعض هذه الصور خواص ينتفع بها من يلازم خدمتها، ويرقبها حتى تتحرك بزعمه فإذا تحركت انقضى له ما أمل، وهذا كله باطل وهوس وضعف عقل ودين..".[1] كما أن علماء ورحالة ومؤرخين عرباً آخرين فسروا هذه الكتابة بأنها عبارة عن رموز لعلم الكيمياء الذي برع فيه المصريون القدماء واستطاعوا به تحويل الحديد والنحاس إلى ذهب وفضة !!. . وقال آخرون بأن هذه الرموز خاصة بالسحر وعمل الرقيات والأحجبة. وقد شاعت مثل هذه الأقوال أيضاً في أوروبا العصور الوسطى. . وظلت الكتابة المصرية لغزاً مغلقاً لا يعرف أحد سره حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي.


صورة لتمساح على واجهة باب منزل قديم بمدينة المنصورة لجلب الرزق والخصوبة والصحة والبركة بالبيت

برغم أن المصريين القدماء أنفسهم اعتبروا كتابة لغتهم فكرة نابعة من مصدر إلهي، وتضمنت أساطيرهم وعقائدهم الدينية حكاية الإله (تحوت) الذي نسبوا إليه اختراع الكتابة والحساب والطب والفلك والحكمة وكل الفنون والعلوم الأخرى التي عرفوها. . ونسبوا إليه أيضاً فكرة تصميم الرموز والحروف والكلمات. . واعتبروه (الكاتب) الذي اختاره الآلهة المصريون الآخرون لتدوين أعمالهم

---

[1] -السبتي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص 166، ص 170.

وأوصافهم وتخصصاتهم، فهو (كاتب الآلهة) وهو أيضاً (إله الكتاب) المصريين الذين كانوا يتبركون به ويعتبرونه رمزاً لمهنتهم الرفيعة السامية. ويُمثّل الإله تحوت بجسم إنسان له رأس طائر الأبيس ويحمل لوحة للكتابة في يده اليسرى وقلماً بيده اليمنى. . وفي أحيان أخرى كان يمثّل بطائر (الأبيس) وحده أو بأحد قرود البابون. ولأن المنقار المنحني لهذا الطائر يشبه هلال القمر، فقد اعتبرته العقيدة الدينية المصرية القديمة رمزاً لإله القمر. وأياً كان مخترع الكتابة. . وأياً كانت كيفية اختراعها، فقد ضمن هذا الاختراع العظيم خلود التاريخ المصري القديم والحضارة المصرية القديمة.

واعتبرت زيادة النيل في كل العصور بمثابة "مؤشر" الثروة القومية، ومن ثم كان طبيعيا أن يهتم المصريون منذ فجر تاريخهم **بمقاييس النيل**[1] التي بنيت على النهر من أسوان حتى القاهرة وبالنسبة للمقاييس التي وجدت قبل الإسلام فلا نجد في المصادر العربية سوى صورة مضطربة عنها يغلب عليها الجو الأسطوري وتشوبها الخرافات.[2]

تقول الروايات العربية أن أول من قاس النيل بمصر هو خصليم السابع (من أبطال الأساطير العربية التي حيكت حول تاريخ مصر قبل الإسلام). ويقال أنه :"صنع بركة لطبقة وركب عليها صورتي عقاب من نحاس: ذكر وأنثى، يجتمع عندها كهنتهم وعلماؤهم في يوم مخصوص من السنة، ويتكلمون بكلام فيصفر أحد العقابيين، فإن صفر الذكر استبشروا بزيارة النيل وأن صفرت الأنثى استشعروا عدم زيادته فهيئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة".[3] وينسب المؤرخون مقياس منف إلى يوسف

---

[1] ـ **المقاييس** : الغرض منها قياس مستوى النهر في كل مكان هام و بغية العلم بمقدار ما يجري في النهر من ماء في كل جزء من أجزائه ، وهو ما اصطلح على تسميته تصرف أو تصريف النهر . لذلك كان وجود مقياس ثابت يسجل مستوى النهر في كل وقت أمراً لازماً لقياس تصرف النهر بانتظام . ولابد أن يكون المقياس مثبتاً إلى جانب النهر تثبيتاً متيناً بحيث لا يتزحزح لأي ظروف طارئة . أيضاً على كل مقياس بيان بالارتفاعات المختلفة ، وهذه الارتفاعات تقاس بالنسبة إلى نقطة الصفر المصطلح عليها . ونقطة الصفر في المقاييس الواقعة في مصر من أسوان إلى الدلتا هى مستوى سطح البحر المتوسط . لمزيد من التفاصيل انظر : محمد عوض محمد : نهر النيل ، ص253-256، الأقفهسيّ :كتاب أخبار نيل مصر ،ص67.

2 –قاسم عبده قاسم: **النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك** (الطبعة 1، دار المعارف،القاهرة 1978م)،ص 40.

[3] –السيوطي: **كوكب الروضة من تاريخ النيل وجزيرة الروضة**،(تحقيق: محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة 2002م)، ص 146، القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص 293؛ التلمساني: سكردان

ﷺ، كذلك ينسبون إلى دلوكة العجوز بناء مقياسين بأنصنا و إخميم من بلاد الصعيد.[1]

ولكننا نقفز إلى سماعيات الرحالة المسعودي والتي تشابهت مع الكثير من المؤرخين والرحالة فيقول: "وأما المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، فإني سمعت جماعة من أهل الخبرة، يخبرون أن يوسف النبي (ﷺ) حين بنى الأهرام، اتخذ مقياساً لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، وأن ذلك كان بمنف... وأن دلوكة الملكة العجوز ووضعت مقياساً آخر ببلاد إخميم[من محافظة سوهاج بالصعيد]".[2]،"كما وضعت العجوز دلوكة صاحبة حائط العجوز مقياساً بأنصنا وهو صغير الذرع"[3] ولكن الأسعد بن مماتي ينسب هذين المقياسين إلى ملوك العجم دون تحديد الأسماء، ويضيف إليهما مقياساً بناه القبط بقصر الشمع.[4]

ما يهمنا في الرواية السابقة: أن الفكرة القائلة بأن يوسف الصديق ﷺ هو باني الأهرام تمر كأنها حقيقة لا تحتاج إلى نقاش، كما أن حديثة عن الملكة الفرعونية دلوكة (من ملوك مصر بعد الطوفان وفقا لروايات الأساطير العربية) يمر أيضا بلا نقاش، وإن كنا لا ندري من أين جاء بهذا الاسم الذي يكثر في الكتابات التاريخية، إلا أنه لا شك تأثر بما سمعه ممن عايشهم في مصر عن ما توصلت إليه معلوماتهم عن تاريخها القديم، وهو يأخذ كلامهم أخذ المسلم غير المدقق وغير المتشكك؛ إذ يبدو أنه كان يكفيه أنه كلام صادر عن قوم يزعمون المعرفة (جماعة من أهل الخبرة)، وهم بعد من أهل البلاد، ومن هنا دخلت الكتابات التاريخية وكتب الرحالة الكثير من الأساطير ومتبقياتها من الحكايات الشعبية المتعلقة بعادات مصر، وموروثها القديم مما بقي في ذاكرة العامة. والتي نجد وقع حوافرها علي العقول ماثلة في إشارات عند الرحالة جون أنتيس في القرن الثامن عشر الميلادي بقوله :"والتماسيح شائعة جداً في مصر . لكنها قلما تصل شمالاً أبعد من القاهرة ولا تتعداها، ويدعى الأهالي أنه بفضل

السلطان، ص 433؛الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول،ص7.

[1] –القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص 294؛ابن سعيد الأندلسي:النجوم الزاهرة في حُلى حَضْرة القاهرة ،القسم الخاص بالقاهرة(تحقيق:حسين نصار ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة 1970م)،ص381.

[2] –المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 344؛القلقشندي : صبح الأعشى ، ج3، ص294.

[3] – ابن سعيد الأندلسي : النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة ، ص381.

[4] –الأسعد بن مماتي: قوانين الدواوين(تحقيق: عزيز سوريال، القاهرة 1943م)، ص 75، ص 76.

مقياس النيل لا يمكن لها أن تتوغل شمالاً لأنه مزود بتعويذة تمنع تسللها أبعد من هذا الحد !!"[1]


صيد التمساح في جنوب مصر

وفي سماعيات الرحالة (أولياچلبي) ، عن مقياس الروضة نجده يسلك مسلكا مختلفا فيقول: ".. في أفواه الناس أقوال كثيرة عن سبب تسمية (أم القياس)[يقصد مقياس الروضة]، ومنها أن ملكاً كانت له ابنة حسناء تدعى "مقياس" فبلغ الملك أن تمساحا خطفها، وهي تستحم في النيل فجعل يصيح، ويولول، ومن حكمة الله أنه كان معه في ذلك الوقت الشيخ أبو بكر البطريني من كبار أولياء الله، فدعا للفتاة، فما لبثت أن أعادها التمساح بأمر الله إلى ذلك المكان سالمة معافاة 2، فابتهج الملك، وبنى ذلك

[1] -جون أنتيس:مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر(1770-1782)،(ترجمة سيد الناصري سلسلة المشروع القومي للترجمة ، العدد22، القاهرة 1997م)،ص110.

[2] -من الأساطير التي تتردد إلى يومنا هذا عن أحد الأولياء وهو (الشيخ إبراهيم الدسوقي) ملخصها: "أن تمساحاً ضخما ابتلع طفلاً صغيرا، وقد لجأت أم الطفل إلى ولي الله إبراهيم الدسوقي، وطلبت منه أن يحضر لها طفلا، فما كان من الوليّ إلا أن خرج إلى البحر (فرع رشيد) الذي تحول فيما بعد عن المسجد، وطلب من التماسيح أن تخرج له التمساح الذي ابتلع الطفل فحضر هذا التمساح، وطلب منه الولي إخراج الطفل، فخرج الطفل من بطن التمساح حياً وقد عاقب الولي التمساح، فقتله، حتى يريح الناس من شروره للمزيد حول هذا الموضوع انظر: فاروق أحمد مصطفى، الموالد دارسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر

القصر في ذلك الموضع وسماه " أم القياس" ذكرى لنجاة ابنته، ثم أمر الشيخ البطريني بصنع تمثال تمساح من الرخام، وعقد عليه وقفا أعظم، ودفنه تحت حوض أم القياس من النيل، وإن تجاوزه التمساح، فلا يلبث أن ينقلب على ظهره، ويرتمي إلى الساحل فيقتل، فلذا ليس في القاهرة تمساح قط..."[1].

وقد ارجع ابن وصيف شاه سبب كثرة التماسيح في مصر إلى رواية أسطورية تداخل فيها السحر مع الدين فيقول :" رجع الملك ماليق (أحد ملوك مصر في الأساطير العربية) إلى مصر فسحروا البربر مدينة مصر فكثر بها التماسيح والثعابين والعقارب والضفادع، وقد فاض النيل حتى غرقت أراض كثيرة في غير أوانه فلما عاين الملك ماليق ذلك لَبِسَ المسوح السود وافترش الرماد وسجد عليه، ودعا إلى الله تعالى بكشف النازلة بعد أن عجز عن تبطيل ذلك السحرة والكهنة، واستمر الملك ماليق في الملك حتى هلك"[2]

الروايات المتعلقة بمقياس النيل في كتابات الرحالة ربما تؤكد انه قد ارتبط بمقياس النيل في مصر معتقدات تعد استمراراً للفكرة القائلة بأن الصورة التي كانت ترسم للفريسة في الثقافات الأولى، والتي كانت المحور الرئيسي للطقوس السحرية للصيد، ظهرت بعد ذلك في الصورة أو الدمية التي تصنع للشخص أو الحيوان المتوحش المراد توجيه السحر إليه. والصورة بأكملها، أو جزء منها، تخضع لأعمال السحر إيماناً بأن ما يحدث للصورة سوف يحدث نظيره للشخص صاحب الصورة، وفي إطار ذلك ظهرت الشخوص (أو التمائم) السحرية التي استخدمت في أغراض عديدة.[3]

ومن ناحية أخرى نجد أن صورة التمساح قد احتلت مكانة متميزة في الموروث الشعبي فهو عند المصريين القدماء الإله (سوبك) وهو التمساح الذي ظهر كمعبود محلي في مناطق مختلفة حاملاً نفس الاسم والشكل فعبد في الدلتا في مدينة سايس حيث (يعطي الحياة للنباتات فوق الشاطئ) ؛إذ إن المصري اعتاد رؤية التماسيح

(سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 96، القاهرة 2004م)، ص 180-181.

[1] –أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، ص 341

[2] ـ ابن وصيف شاه : جواهر البحور ووقائع الأمور ، ص22.

[3] ـ سليمان حسن :الرموز التشكيلية ، ص79.

مستلقاة فوق الشاطئ فاعتقد أنها تكسبه الخصب، واعتبر هناك ابن إلهة المياه (نايت العظيمة) يضحك عندما يأتي الفيضان، ولم يخجل الفنان الشعبي من أن يصور هذه الإلهة ترضع تمساحاً من كل من ثدييها.

وأهم مكان انتشرت فيه عبادة (سوبك) كان أرض البحيرة في الفيوم، ثم في مدينة أمبوس الجنوبية، إذ اعتاد الناس الاحتفال هناك بظهور الفيضان كل عام، ومن هذا نرى أنه كان إلهاً للماء. وقد عثر على صورة له قديمة لا ترتبط بأي مكان في مصر تمثيله في محراب صغير، فوق شاطئ رملي كمعبود يقدس في كل مكان من وادي النيل. وإذا كنا نري أن قدسية هذا الحيوان المفترس بلغت حداً جعلت المصري أحياناً يلقبه بصاحب الوجه الجميل، فليس من شك أن السبب الحقيقي لهذه العبادة يرجع إلى الخوف منه والرعب الذي يشيعه في نفوس أهل شاطئ النيل.[1]

ويعتقد سكان جزر الملايو الحاليون، بوجود كائنات غير بشرية يزعمون أنها تظهر في صورة تماسيح، تسيطر على صحة الإنسان ورخائه، وعلى وفرة محصول الأرز. وفي (بورينو) يحدثنا تشارلس هوز Charles Hose أن الإبانيين Ibans، كلما أتوا أرضاً جديدة صنعوا تمثالاً لتمساح في حجمه الطبيعي،



الإله سوبك (التمساح) عند الفراعنة مايزال متغلغلاً في المعتقد الشعبي

أو لتنين في شكل تمساح، يوضع على علم في حقل مخصص لزراعة الأرز، ثم يقدمون لهذا التمساح الطعام والكساء ودم القرابين من الطيور والخنازير، ويعتقدون أنهم إذا خطبوا وده بهذه الطريقة بارك في محصولهم، وأهلك جميع الحشرات التي تأكل أرزهم. وهذا التمساح - في معتقدهم - من ذوي قرابتهم، وهو عادة من آبائهم، وفي مقدوره أن يسدي إليهم النعم بما له من قوى خارقة للطبيعة اكتسبها بعد موته.

---

[1] - أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص54

ومجمل القول أن التمساح أن التمساح كان رمزاً لجميع القوى الغيبية التي تسيطر على أقدار البشر، حيث يعد التمساح القادر على منح الصحة والأمن والرخاء. ولم يكن غريباً أن يفسر التمساح في الأحلام بما ذكره عبد الغني النابلسي وابن سرين:" بأنه رمز للص الخائن وهو رمز للعدو المخذول في البر لحلوله في غير محله، وأنه لايعيش فيه ومن رأي أنه جر التمساح إلي البر فإنه يظفر بعدوه أو غريمه ويأخذ ماله منه ومن رأى أنه اصاب من لحم التمساح، أو من جلده، أو من شحمه، أو من شئ منه فإنه يصيب من مال عدوه بقدر ذلك. " [1]

وقد ظلت هذه المعتقدات تعمل فعلها في الواقع والوقائع فاستمر العديد من الشعبيين في استخدام صورة التمساح لتزيين مداخل وأبواب منازلهم لا لغرض سوى حماية البيت من الأرواح الشريرة والأعداء واللصوص وجلب الرزق ومنح الصحة لأهل البيت مما يساعدنا على إلقاء الضوء على ماضي الناس في المجتمع المصري وربما أمكن استناداً إلى هذا الماضي الغابر تفهم شغف أهالي بعض المناطق في مصر وتمسكهم بتصوير الأشكال الحيوانية على واجهة بيوتهم كالتمساح وتصوير تدفق المياه أو هطول الأمطار والأهلة في الوحدات الزخرفية بمداخل وأبواب البيوت في مصر.

أما القلاع المطلسمة والقصور المرصودة، فقد كانت من العناصر التي امتلأت بها الأساطير والحكايات العربية التي رواها الناس، وحفظها لنا المؤرخون والرحالة فيما كتبوا عن مصر، وعجائبها الخلابة. فقلعة الجبل كان الغرض من إنشائها هو تحصين القاهرة من احتمال تعرضها للهجوم، ولحماية الحاكم في حالة قيام ثورات ضده أو العصيان عليه. وقد استخدم في بناء القلعة أحجار من منطقة أهرام الجيزة، وسخر في نقلها وفي عملية البناء مئات الأسرى من الصليبيين، وهدم ما حولها من المساجد والقبور.2فلبست أبهى حلة تليق: "بدار الملك الشريف،التي بها تخت المملكة المعروفة الآن بقلعة الجبل، ليس لها نظير في الاتساع، والزخرفة، والأبهة العلو، تشتمل على سور وخندق وأبراج وعدة أبواب من حديد وهي حصينة جداً". [3]

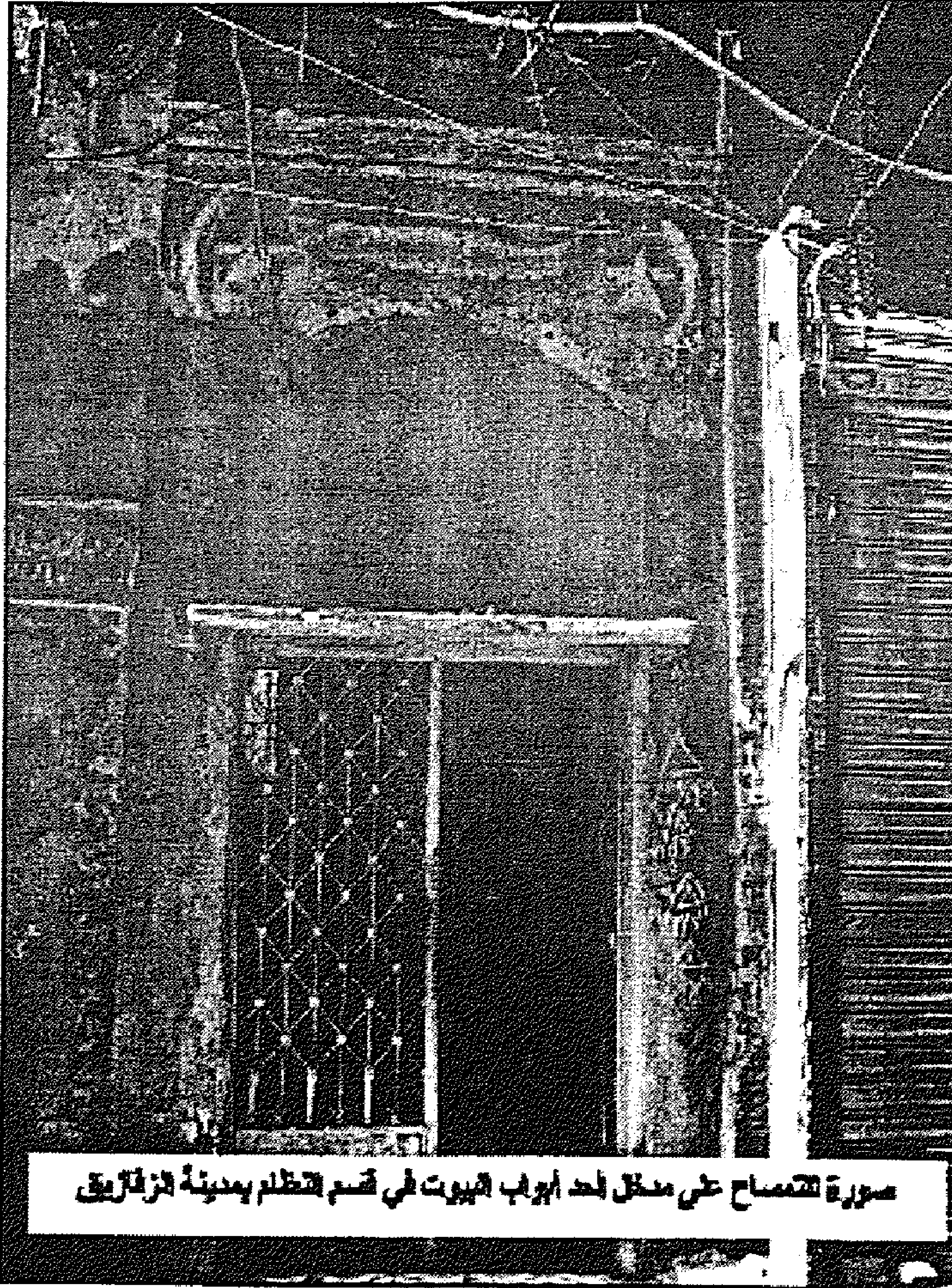
---

[1] ـ تفسير الأحلام وتعطيره وتعبيره ، مصدر سابق ، ص112

[2] –ابن جبير : رحلة ابن جبير، ص 47.

[3] –الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. (تحقيق : بولس

وإن كانت أحجار الأهرام أحد أسباب حصانة القلعة، فلقد تحصنت أيضا بقوى أخرى مصدرها الخيال الشعبي الخصب الذي رأى أن القلعة محفوظة بطلسمات سحرية غامضة إذ إن: " بالقلعة عقارب ولكنها لا تلسع الإنسان، وإن لسعته فليس للسعتها تأثير، ويزول الوجع بعد بضع ساعات؛ لأن هناك طلسما، وذلك لأن الديوان العتيق للسلطان قلاوون مبني على أربعة وأربعين عمودا، لا نظير لها في الربع المسكون إلا في أسوان، وطلسم العقرب؛ صورة عقرب من النحاس الأصفر، معلق من ذنبها على حلقه من الحديد فوق العمود الأيمن في العقد العظيم الذي يجانب منزل التتر، وهي لا تزال واضحة".[1]


صورة للتمساح على مدخل أحد أبواب البيوت في قسم التظلم بمدينة الزقازيق

لم يكتف الخيال الشعبي في تحصينه للقلعة بطلسم العقرب فحسب، ولكنه حصنها بطلسمات أخرى؛:" كطلسم للثعابين، ولأم أربع وأربعين، وآخر للحمى والقولنج، وثالث للطاعون والكلاب المسعورة. . فالحمد لله ليست في هذه القلعة من حمى الربع، والحمى المحرقة، وإذا قدم مريض بالحمى من سائر البلاد، فأقام بهذه

راويس، المطبعة الجمهورية، باريس 1895م)، ص 27.

1 –أوليا جلبي:المصدر السابق ،ص245.

القلعة ثلاثة أيام، شفي منها بأمر الله؛ وذلك لأن العمود الذي بجانب باب وفيق محمد أغا الحلواني مكتوب عليه ثلاثة أسطر من الوقف هو طلسم الحمى!!.."[1].

ورغم العبث بآثار مصر القديمة، ونبش مقابر المصريين القدماء، وإطلاع الناس على الأحجام الحقيقية للمومياوات المصرية إلا أن الآثار المصرية الخالدة التي كانت تملأ ربوع وادي النيل طولاً وعرضاً، كانت مثار إعجاب جميع الغرباء الذين كانوا يفدون إلى مصر من وراء الحدود، سواء أكانوا من الزائرين العابرين أو من المستعمرين المستوطنين أو من المواطنين.

كانوا جميعا يقفون مبهورين أمام ضخامة وروعة هذه المعابد والتماثيل، ناهيك عن الأهرام وأبي الهول.. حتى ساد الاعتقاد بأن المصريين الذين صنعوا تلك الآثار، أناس غير طبيعيين يتمتعون بقدرة فائقة على الإتيان بالخوارق، وأنهم قد استعانوا بالسحر في تنفيذ كل هذه الإنشاءات الهائلة، وهو ما نلمسه عند البغدادي في قوله: "إذا رأى اللبيب هذه الآثار، عذر العوام في اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة، وجثثهم عظيمة، أو أنه كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم..."[2].

وروج الرحالة أولياچلبي لهذه الأفكار الممزوجة بالخرافات بقوله عن نفسه: "لقد عثر كاتب هذه السطور ـ بقصد أولياچلبي نفسه ـ في الطريق. على عظمة ساق في جلدها، يبلغ طولها واحداً وسبعين شبراً من أشباره وكأن هناك كثير من أمثال هذه العظام، وترقد في مغارة كبيرة، جثث ورفات آدمية مكفنة.. يبلغ طول الجثة الواحدة منها سبعين أو ثمانين خطوة.."[3].

ومن الحكايات الشعبية في ذلك يشاع أن (عبد العزيز بن مروان) أراد إعادة بناء الإسكندرية: "فذهب قوم من الناس إلى ناووس وأخرجوا منه رأس آدمي وحملوه على عجلة ووزنوا سناً من أسنانه، فوجدوها عشرين رطلاً على ما بها من النخر والقدم، فقالوا: جئنا بمثل هؤلاء الرجال حتى نعيدها إلى ما كانت. فسكت"[4].

---

[1] ـنفسه، ص 246.

[2] ـالبغدادي: الإفادة والاعتبار، ص 103.

[3] ـأولياچلبي: سياحتنا في مصر، ص 620.

[4] ـالقزويني: آثار البلاد وأخبار العباد،ج1، ص 146، ص 147؛ ابن محشرة: الاستبصار، ص 100.

إذن؛ لم يكن عجيبا أن تتردد أخبار الخرافات والأساطير في كتابات الرحالة والمؤرخين ولكن أقرب الأشياء إلى العجب؛ هو إيمان الكثير من الرحالة والمؤرخين بحقيقة هذه الخرافات والأساطير، بل والدفاع عنها، فالعجب ليس منصرفاً إلى إثباتهم هذه الخرافات عن مصادرهم، وانصرافهم إلى ما جُبِلَ عليه الرحالة و المؤرخون من التصديق لأكثرها بل والتدليل على صحتها، وإن كان فيها ما يمجه العقل، ويأباه الذوق، ومن ذلك قول المقريزي مدللاً على صحة ما ورد في خططه من جلب سبعة من العواميد منها عمود السواري من الصعيد إلى الإسكندرية حملاً تحت الآباط قائلا: "..ويقال أن عمود السواري الموجود - الآن - خارج مدينة الإسكندرية، أحد سبعة أعمدة، أتى بأحدها البتون بن مرة العادي، وهو يحمله تحت إبطه من جبل بريم - قبلي أسوان - على الإسكندرية، فانكسر ضلعه؛ لأنه كان ضعيف القوى في قومه، فشق ذلك على يعمر بن شداد بن عاد، وقال: "ليتني فديته بنصف ملكي". وجاء بعمود آخر جحدر بن سنان الثمودي وكان قوياً. فحمله من أسوان تحت إبطه، وجاء بقية رجالهم كل رجل بعمود، فأقام العمد السبعة، الجارود بن قطن المؤتفكي، وكان بناءها بعد أن اختاروا طالعاً سعيداً كما هي عادتهم في عامة أعمالهم، وقد ذكر غير واحد أن الصخور في القديم من الدهر، كانت تلين فعمل منها أعمدة ناعط، ومأرب، وبينون مآثر اليمن، وأعمدة دمشق ومصر ومدين وتدمر، وأن كل شئ كان يتكلم..".[1]

ويمضي المقريزي في حديثه معلقاً على ذلك بقوله: "وكأني بمن قل علمه ينكر على إيراد هذا الفصل، ويراه من قبيل المحال، وما وضعه القصاص، ويجزم بكذبه، فلا يوحشنك حكاية له، واسمع قول الله تعالى عن عاد وقوم هود: ﴿واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح فزادكم في الخلق بسطه﴾. الأعراف / 69؛ أي طولاً وعظم جسم. . قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً، وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم، وقيل على خلق قوم نوح... كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة، وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم. . كان الرجل ليحمل المصراعين لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يطيقه، وإن كان أحدهم ليغمز بقدميه الأرض فيدخل فيها... واستظل سبعون رجلا من قوم موسى ﷺ في قحف

---

[1] -المقريزي: الخطط، ج1، ص 160.

رجل من العماليق وقال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ [الفجر / 6-8]. وقال بعضهم: سموا ذات العماد لطول قاماتهم. . كان طول أحدهم أثنى عشر ذراعاً... وذكر غير واحد أنه وجد في خلافة المقتدر بالله أبي الفضل جعفر ابن المعتضد كنزاً بمصر فيه ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبرا في عرض ثلاثة أشبار...".[1]

وهكذا؛ حاول المقريزي ، أن يلح على توكيد هذا الخبر بما فيه من الأساطير والخرافة ـ المدرك نكارتها لدى مطالعتها ـ موهما صحته، استناداً إلى أقوال علماء التفسير واللغة ورواة الأخبار في عاد قوم هود، معتقداً أن العلم والفهم ينفيان الارتياب فيه، بل فيهما الدليل على تصديقه، بيد أننا يجب ألا نغفل حقيقة أن بعض الروايات التي يعدها البعض مجرد حكايات أسطورية قديمة لا يقبلها عقل أو نقل، يعتبرها آخرون من موقع فهمهم الديني وموقعهم الزمني حقيقة تاريخية لا جدال فيها، ، ويتلمس موظفوها كل سبيل تربطهم بما يحبه الناس وينقادون له من حكم وأمثال وأحاديث ومراجع علمية دينية في محاولة من جانب المؤرخين تقديم رؤية متماسكة للأبعاد الزمنية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وتحتل الخرافة والأساطير مكان الصدارة من هذه المفاتيح الثلاثة.

وكان من السهل على رحالة ومؤرخي العصر تناقل الخرافات والأساطير بحذافيرها وترديدها كأمور مسلم بها، بل قد تتكرر الخرافة بعينها مع اختلاف الزمان والمكان وسردها بالأسانيد المختلفة، التي تحاول شرعنتها وتبريرها وتسويقها بانتقاء مجموعة من الأحاديث والأخبار وإسقاطها على الواقع والوقائع، خاصة أن الكثير من المؤرخين لم يميزوا بين القص والتأريخ، فكان أن امتزج لديهم القصص بالتاريخ، والخيال بالواقع، فإذا وضعنا في الاعتبار أن مصادرهم في معظمها كانت تعتمد على الروايات الشفاهية المأثورة، استطلعنا القول دون حذر كبير: أن هذه المادة التاريخية هي في آخر الأمر، مادة فولكلورية في المقام الأول؛ لما جُبِلَ عليه المؤرخون على معالجة التاريخ القديم معالجة أسطورية، والتي نهج أصحاب المنهج التقليدي الذي يؤثر أصحابه، أن يمهدوا لمؤلفاتهم بالحديث عن تاريخ البشرية منذ البدء، منذ هبوط آدم من الجنة حتى عصرهم

---

[1] – المقريزي: الخطط، ج1، ص 161.

الأمر الذي جعل هذه الكتابات حافلة بالتاريخ الأسطوري.[1]، ربما كان الاقتراب منها من المحاذير الكبرى آنذاك.

لكن نجد الرحالة (ابن خلدون) يسلك مسلكاً مغايراً في مناقشة ما تفيضه الرواية على فراعنة وآثار مصر القديمة من الأساطير التي جرت في الرواية الإسلامية مجرى التواريخ بل ليس في الرواية الإسلامية كلها في هذا الموضوع فصل كالذي يقدم لنا فيه ابن خلدون من خلال مقدمته عن تلك الإشكالية البحثية التي واجهت علماء عصره، صورة بلاغية وعلمية نقدية من أقوى الصور وأبدعها نقدا فيقول: "وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار القادمين ومصانعهم العظيمة، مثل؛ إيوان كسرى وأهرام مصر، وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب، أنها كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين، فيتخيل لهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها، وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها، ويغفل عن شأن الهندام والمحال، وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين من شأن البناء وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عاديا، نسبة إلى قوم عاد لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم ،وتضاعف قدرهم، وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها، قريباً وبعيداً وتيقناً أنهم لم يكونوا بإفراط في مقادير أجسامهم، وإنما هذا رأي ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة. ... وأنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى أهم ليزعمون أن عوج بن عناق[2] من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طرياً، فيشويه في الشمس ويزعمون بذلك، أن الشمس

---

[1] –محمد رجب النجار، دراسة المأثورات الشعبية في التراث العربي(مجلة عالم الفكر، المجلد الحادي والعشرون، العدد الثاني)، ص 182، ص 183.

[2] – <u>إسطورة عوج بن عناق</u>: ترددت في التراث الشعبي الشفاهي ، كما ترددت في كتابات المورخين والمفسرين في التراث العربي المدوّن وارتبطت بقصة الطوفان كما ارتبطت بخروج بني إسرائيل من مصر ، ودخولهم إلى أرض كنعان . وعنه يذكر ابن جرير الطبري (310هـ) في تاريخه عن الأمم والملوك ، عند حديثه عن الطوفان أنه :"لم يبق شئ من الخلائق إلا نوح ومن معه في الفلك ، وإلا عوج بن عنق فيما يزعم أهل الكتاب ".وذكره القزويني في كتاب عجائب المخلوقات تحت باب :"خاتمة في حيوانات غريبة الصور والأشكال ".فيقول:"كان الطوفان يصل إلى وسطه . وكان جباراً في خلقته مفسداً في أفعاله، وإذا غضب على أهل بلد بال عليهم فيغرقون في بوله .. وقد ضربه موسى بعصاه " فلم يلحق إلا كعبه فانصرع قتيلاً إلى الأرض ، فكانت فخذة ساقه زماناً طويلاً قنطرة على النيل". القزويني :عجائب المخلوقات ،ص197.وانظر قصته في سفر يشوع (12/4–5)سفر العدد(21/23–24–25).

حارة فيما قرب منها..".[1]

هذه القصص مثل قصص أخرى أوردها الرحالة والمؤرخون في هذا السياق، تكشف عن مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية القديمة من ناحية، كما تكشف عن عجزهم عن الوقوف على تاريخها الحقيقي من ناحية أخرى، كما أن بناءها الفني يفوح بأريج حكايات شعبية تشبه حكايات ألف ليلة وليلة وعالمها السحري، وفي رأي بعض الباحثين أن هذه الحكايات تهدف أساسا إلى التسلية على الرغم من أنها تهدف إلى تحقيق غرض ثانوي آخر، وأنها محض خيال أختلقه الرواة. غير أن الراجح أن هذه الحكايات التي أوردها الرحالة المؤرخون لم تكن بقصد التسلية وإنما كانت ترغب في تقديم إجابات "تاريخية" عن حضارة تليدة مضت ولكن آثارها ما زالت ماثلة أمام عيون الناس وعندما عجز المتعلمون عن العثور على إجابات تاريخية حقيقية. بدأ ترقيع هذا النقص عن طريق الخيال، بيد أن بعض هذه الحكايات عن أمجاد مصر القديمة كانت تحمل ظلاً، أو نواة، من الحقيقة التاريخية في غالب الأحوال.[2] مثال ذلك ما قدمه لنا الرحالة و المؤرخون عن وصف للكسوة الخارجية للهرم ـ والتي كانت لم تزل بقاياها موجودة على أيامهم ـ ووصفهم للنقوش والكتابات التي تغطي أحجارها مقررين ـ في بعض الأحيان ـ أن تلك النقوش لو نقلت مصغرة على الورق لشغلت آلاف الصفحات.

فالأساطير والخرافات التي شاعت حول تلك الآثار ترجع بصفة أساسية إلى عدم معرفة أسرار الكتابة (الهيروغليفية) ، التي كانت مدونة على تلك الآثار، وحين قام هيرودوت بزيارته لمصر (في القرن الخامس قبل الميلاد)، كان قد ندر استعمال الهيروغليفية كلغة مصرية، إلا فيما بين بعض الكهنة المحافظين الذين كانوا يعيشون أيامئذ. ولذلك فقد أصبحت هذه اللغة كالطلاسم تماماً أمام كل من يفكر في قراءتها أو استجلاء معانيها، ومن هنا شاعت الأساطير والخرافات القديمة عن المصريين القدماء الذين صنعوا هذه الحضارة.

---

[1] ـ ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 782، 783.

[2] ـ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص 59.

الفصل الرابع

سحر الكنوز المصرية القديمة في الأساطير العربية

"ويقال إن غالب أرضها ذهب مدفون. حتى قيل إنه ما فيها موضع إلا وهو مشغول بشئ من الدفائن "

ابن الوردي

"خريدة العجائب وفريدة الغرائب/32"

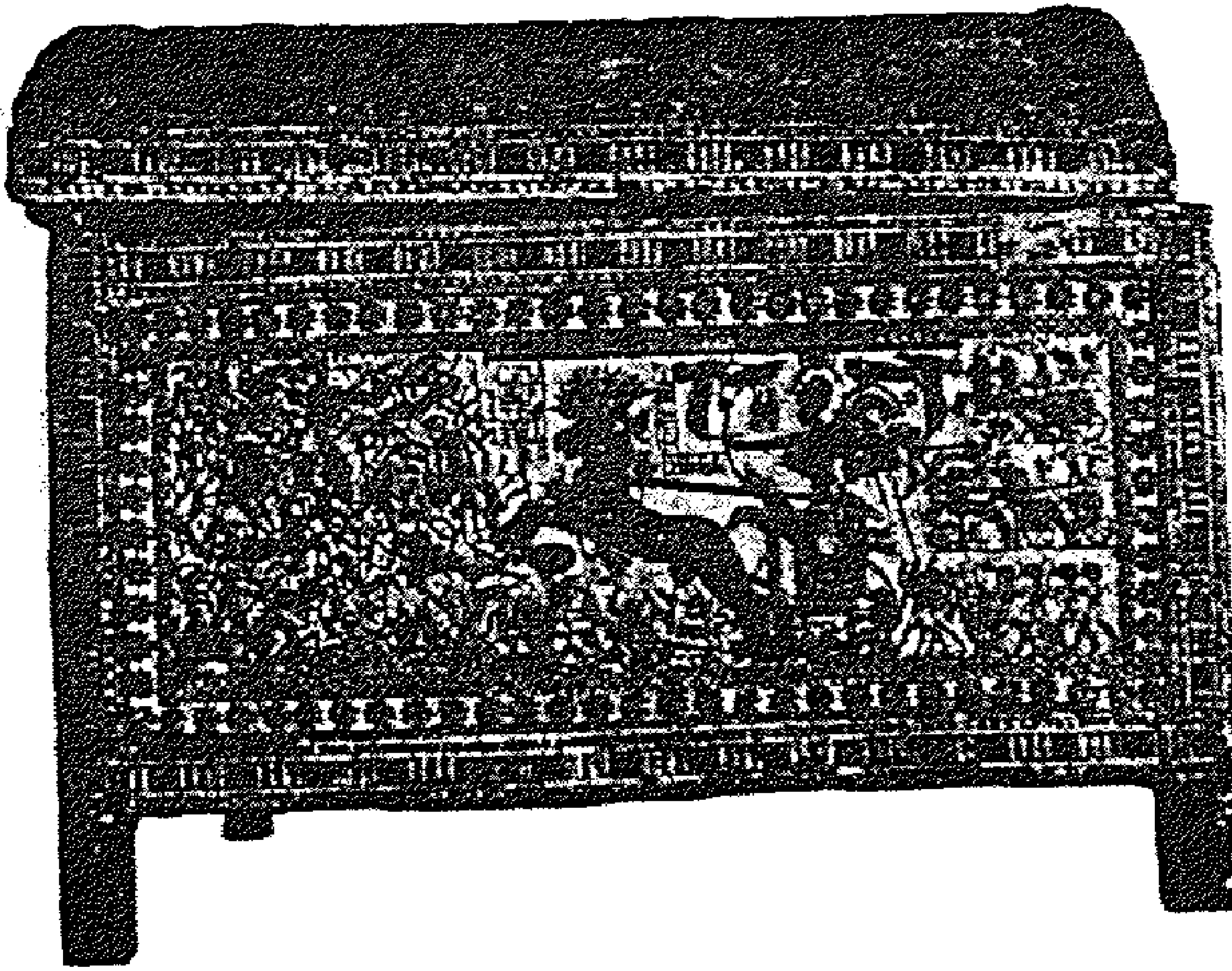
".. ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر، من الترف والغنى في عوائدهم، ما يقضي منه العجب، حتى إن كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النقلة إلى مصر؛ لذلك لما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر، أعظم من غيرها. ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم، أو أموال مختزنة لديهم، وأنهم أكثر صدقة، وإيثاراً من جميع أهل الأرض.. "

ابن خلدون

"مقدمة ابن خلدون 805/2"

القصص والحكايات التي دارت في المجتمع المصري عن كنوز قدماء المصريين التي كانت مخبأة في مقابرهم ومعابدهم - والتي ما تزال تكتشف كل حين إلى الآن - فقد كان بعضها حقيقيا، على حين حمل البعض الآخر رائحة المبالغة، وقد أوردها تقي الدين المقريزي تحت عنوان "ذكر الدفائن والكنوز التي تسميها أهل مصر المطالب".[1]، وهي تسمية تكشف على أية حال عن أن هذا الموضوع كان يشغل الناس فترة طويلة من الزمان.[2]

ويعرج بنا المقريزي إلى أحد العلوم التي تأسست في مصر بفضل كنوزها وهو "علم الكنوز" وأن مفاتيح هذا العلم مخبأة في كنيسة القسطنطينية في إشارة ربما للحث على ضرورة فتح القسطنطينية فيذكر: "...ويقال أن الروم لما خرجت من الشام ومصر اكتنزت كثيراً من أموالها في مواضع أعدتها لذلك، وكتبت كتباً بإعلام مواضعها وطرق الوصول إليها، وأودعت هذه الكتب قسطنطينية، ومنها يستفاد معرفة ذلك، وقيل أن الروم لم تكتب، وإنما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين، والكلدانيين والقبط، فلما خرجوا من مصر والشام حملوا تلك الكتب معهم وجعلوها في الكنيسة".[3]



وبهذا يقدم لنا المقريزي مصطلحاً كما دعاه "علم الكنوز" ووصفه بأنه وثائق كتبت فيها الأماكن التي أودعت الأموال والذخائر، نقلها الروم لما خرجوا من مصر والشام وأودعوها كنيسة القسطنطينية. واختلفت الآراء في أصل تلك الوثائق؛ فرأيُ يقول أنها وثائق الروم ورأيُ يقول أنها آلت إليهم عن ملوك وحكام البلاد التي استعمروها من القبط واليونانيين والكلدانيين، وربما أمكن الربط بين هذا الرأي وبين ما هو معروف عن أمر

---

[1] - الخطط ج1، ص 40 – ص 42.

[2] - قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص 59.

[3] - المقريزي، المصدر السابق، ص 40.

البرديات التي عثر عليها والتي حملت إلى أديرة أوربا وكنائسها، وأن هذا الأمر يعود إلى زمن بعيد.

وكان انتشار أخبار تلك الكنوز وظهورها كفيلاً بأن يحاول الخيال الشعبي في مصر لتفسير أسباب وجودها، فيقول السيوطي: "أن فرعون كان يدخر من خراج مصر ربعاً حيث يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها، فيدفن ذلك فيها لنائبه تنزل أو حائجة بأهل القرية، فكانوا على ذلك، وهذا الربع الذي يدفن هي كنوز فرعون التي يتحدث الناس أنها ستظهر فيطلبها الذين يبتغون الكنوز..".[1]، رآها البعض أنها :"كنوز يوسف ﷺ وكنوز الملوك قبله والملوك بعده لأنه كان يكنز ما يفضل عن النفقات و المؤن لنوائب الدهر..".[2]كما ذكر البعض أن: "القوم كانوا على دين التناسخ، فاتخذوا الأهرام علامة لعلهم عرفوا مدة ذهابهم ومجيئهم إلى الدنيا بعلامة ذلك...".[3]، ورأى الخيال الشعبي أن سبب وجود تلك الكنوز هو: "أن أهل مصر لا يزالون متمسكين بالمذهب الأرضي، ويدفنون أموالهم في الأرض..".[4] كما أن مصر:"من بين الأمصار فما برح نقدها (المنسوب إلى قيم الأعمال وأثمان المبيعات) الذهب خاصة، كل سائر دولها جاهلية وإسلاماً يشهد لذلك بالصحة أن مبلغ خراج مصر في قديم الدهر حديثه أنما هو الذهب".[5]

ما يهمنا هو أن محاولة تفسير وجود الكنوز في مقابر المصريين القدماء أضحى مرتعاً لخيال المؤرخين والناس فيما سمعوه وما دونوه معتمدين في ذلك على ما نقلوه من كتب القدماء، وما جمعوه من الموروث الشعبي المتداول بيد أن بعضهم كاد أن يقترب من الحقيقة والتي ترتبط بعقيدة المصريين القدماء في الموت والحياة الأخرى، وفكره الخلود، طقوس الدفن، والتي لم يتم التعرف على تفاصيلها سوى منذ فترة قصيرة نسبيا؛ حيث فلسفة عقيدة الخلود لدى المصري القديم والتي كانت نتاجاً طبيعياً لتأثير عوامل

[1] -السيوطي:كوكب الروضة، ص 136، المقريزي، الخطط، ج1، ص 40، ص 74.

[2] -النواجي (شمس الدين محمد)(ت 888 هـ): حلبة الكميت في الأدب، والنوادر والفكاهات (سلسلة الذخائر، العدد 27، القاهرة 1998م)، ص 296؛ المقريزي: الخطط1، ج1، ص 40.

[3] -القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص 269.

[4] – سياحتنا مه مصر، ص 238.

[5] – المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة (سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة 1999م)،ص92.

سياسة واجتماعية واقتصادية على العقل المصري بحيث دفعته إلى إبداع تصوراته عن عالم خالد أثر في رؤيته للحياة تأثيراً عميقاً عاش فيه حتى اليوم.

ظلت كنوز مصر التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم﴾ الشعراء / 57، 58، ظلت مرتعاً ومراحاً للخيال الشعبي الشغوف بكنوز السالفين وخاصة مع تواتر أخبارها في الكتابات التاريخية وغيرها وحاول أن يتصور حجم تلك الكنوز ومثال ذلك ما قيل عن أن: " في تلك الأهرام فنوناً من الذهب والفضة والكيمياء والزبرجد الرفيعة والجواهر النفيسة ما لا يحصله وصف واصف...".[1]،وأن بها الكثير:"من التماثيل والعلوم والعجائب، والجواهر والأموال " وأن: "كنوزها لا تحصى"[2].، لدرجة أن أولياچلبي يقول: "وتحتوي الأراضي المصرية على كنوز عظيمة ودفائن جسيمة، وخبايا كثيرة، ومطالب عزيزة. وقد روى أنها ليس فيها موضع يخلو من كنز خفي".[3]، إذ أن فيها من: "المطالب والكنوز ما لا يحصى له عدد.." [4]، ولهذا: "استخرج أهل مصر والإسكندرية من كنوزها وأموالها شيئا كثيرا، وقد استغنى بها بشر كثير هلك أكثرهم..." [5]

يكشف ابن خلدون عن الأصل في وجود ما عرف بـ "المطالب"[6] فيشير إلى معتقدات المصريين القدماء "القبط" بقوله: "... وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر واللآلئ على مذهب من تقدم من أهل الدور، فلما انقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نقروا على ذلك في قبورهم، وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف، كالأهرام من قبورهم مظنة لذلك العهد، ويعثر على الدفين فيها في كثير من الأوقات ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون به

---

[1] –ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 55؛ القزويني، المصدر السابق، ص 268.

[2] – السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص 34؛ابن ظهيرة :الفضائل الباهرة ،ص69.

[3] –سياحتنا مه مصر، ص 238.

[4] – الزهري (عبد الله محمد بن أبي بكر): كتاب الجعرافية (تحقيق: محمد صادق، الثقافة الدينية، القاهرة 2000م)، ص39.

[5] – الزهري :كتاب الجعرافية ، ص47 .

[6] – المطالب واحدها مطلب ، كلمة كان المصريون يطلقونها على الكنوز ، وأشار المقريزي إلى أنها مستعملة لهذا المعنى إلى عهده . والقوم المطالبية هم الباحثون عن الكنوز .

موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك. فصارت قبور القبط منذ آلاف السنين مظنة لوجود ذلك فيها واستخراجها، حتى أنهم حين ضربت المكوس على الأصناف آخر الدولة، ضربت على أهل المطالب، وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهووسين".[1]

وتحدث ابن عبد الحكم عن الأمر فيقول: "زعم بعض مشايخ أهل مصر أن الذي كان يعمل به مصر على عهد ملوكها، أنهم كانوا يقرون القرى في أيدي أهلها، كل قرية بكراء معلوم، لا ينقص عليهم إلا في كل أربع سنين من أجل الظمأ، وتنقل اليسار، فإذا مضت أربع سنين نقص ذلك، وعدل تعديلاً جديداً، فيرفق بمن يستحق الرفق، ويزداد على من يحتمل الزيادة، ولا يحمل عليهم من ذلك ما يشق عليهم، فإذا جُبِيَ الخراج وجُمِعَ وكان للملك من ذلك الربع خالصاً لنفسه يصنع به ما يريد، والربع الثاني لجنده ومن يقوى به على حربه، وجباية خراجه، ودفع عدوه، والربع الثالث في مصلحة الأرض، وما يحتاج إليه من يسورها، وحفر خلجها وبناء قناطرها، والقوة للمزارعين على زرعهم ،وعمارة أرضهم، والربع الرابع يخرج من ريع ما يصيب كل قري من خراجها، فيدفن ذلك فيها لنائبه تنزل أو جائعة بأهل القرية، فكانوا على ذلك، وهذا الربع الذي يدفن في كل قرية من خراجها هو كنوز فرعون التي تتحدث الناس بها أنها ستظهر، ويتطلبها الذين يتبعون الكنوز. ..".[2]

ويسترعي الانتباه ما توردة الروايات السابقة من أخبار التماس الناس وشغفهم بكنوز مصر وحرصهم على استخراجها حتى صار ذلك حرفه يحترفها بعض الناس، وانتهى الأمر بأن فُرضت على العاملين في هذا المجال المكوس والضرائب، كما تعطي لنا الروايات إشارات لما تصوره المؤرخون عن أخبار ذلك التنظيم الدقيق لأمور مصر ومرافقها على أيدي ملوك مصر القديمة، كدليل على إحساس المؤرخين بعظمة تلك الحضارة القائمة آثارها، وتصوروا أن وراء تلك الآثار كان لا بد من وجود إدارة حاكمة تراعي الرفق بالرعية والعناية الشديدة بأمر الأرض والبشر؛ من إصلاح وتسوير، وحفر الترع والخلجان، وما كان يخصص لذلك من أموال، ثم ذلك التحسب والاستعداد

[1] – ابن خلدون:المقدمة (الجزء الثاني، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م)، ص842.
[2] – ابن عبد الحكم: فتوح نصر والمغرب، ص49.

لمواجهة الكوارث والنوائب التي قد تقع وتخصيص الأموال الكافية لذلك، وادخارها في كل موقع على حدة، كما يلاحظ أن ابن عبد الحكم في روايته؛ قد جعل الأصل في وجود الكنوز والمطالب تلك الحصة منذ الأموال التي كانت تدفن في كل قري تحسبا للكوارث والنوائب، بينما اقترب ابن خلدون من بعض الحقائق التاريخية حين أشار إلى أن عقيدة المصريين هي التي دفعتهم لدفن كنوزهم معهم، وأشار لذلك ابن ظهيرة في قوله: "كانوا يقولون بالرجعة، فكان إذا مات أحدهم دفن معه ماله كائنا من كان وإن كان صانعا دفنت معه آلته..".[1]

روايات المؤرخين عن دفن الأموال تحسباً لنوائب الدهر، تكشف لنا عن التطور التاريخي والاجتماعي في شخصية الشعب المصري، الذي عمد إلى إخفاء ما يراه ذا قيمة لديه بعيداً عن أعين الناس والولاة والحكام لتتجلى لنا بعض القسمات والملامح التي تبرز شخصية الناس في مصر بكل مقوماتها بين الشخصيات الجماعية الأخرى، وتكشف عن مدى الخوف والكبت والذي دفع الناس إلى عمل الحفر العميقة؛ لإخفاء أموالهم، لدرجة أثارت انتباه المؤرخين في قول أحدهم: "أن أرض مصر لا يوجد بها ذراع مكية واحدة خالة من كنز من الكنوز القديمة، ويظهر فيه كل سنة حتى الآن دفائن عدة وكنوز ثمينة".[2]

لأن أهلها لا يزالون متمسكين بالمذهب الأرضي ويدفنون أموالهم في الأرض".[3]، والذاكرة الشعبية لم تنس بعد الحكايات الكثيرة، عن القدور التي يعثر عليها فجأة، وفيها سكة الذهب والفضة، ضربت في عصر بيننا وبينه قرون وقرون، ولا تزال ألسنتنا تستعمل إلى اليوم عبارات تدل على هذه الصورة، وهي **(إخراج ما تحت البلاطة)** وكأن هذه الحيلة نتيجة ظروف تاريخية، ووسيلة حماية مقصودة، وتتصل بالتطور التاريخي للبلاد، وهذا ما يزيد من أهميتها بوصفها جزءاً من تطور الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية لمصر.[4]، وقد لفتت نظر المؤرخ الإسحاقي رواية تؤيد ما ذهبنا

---

[1] -ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص 156.

[2] -أولياچلبي: سياحتنامه مصر، صـ 605.

[3] -نفسه، صـ 238.

[4] -كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر (الجزء الأول، ترجمة / محمد مسعود، مطبعة أبي الهول، القاهرة، د.ت)، صـ 521؛ عبد الحميد يونس: مجتمعنا(سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1998م)، صـ 114؛ حسين

إليه، حتى أنه أوردها بالكامل، ليدخل بها إلى صميم التاريخ العربي لمصر من بوابات الأسطورة فيقول :

" عندما دخل عمرو بن العاص، قال لقبط مصر: من كتم كنزاً عنده لأقتلنه، وحدث أن قبطياً من أهل الصعيد يقال له بطرس علم عمرو أن عنده كنزاً. فأرسل إليه فسأله عنه، فأنكر وجحد فحبسه ،وصار يسأل عن أحد فقالوا له لا ولكن سمعناه يسأل عن راهب في الطور فأرسل عمرو إلى بطرس فنزع خاتمه ثم كتب إلى ذلك الراهب أن أبعث لي بما عندك، وختم الكتاب بختم بطرس فجاء المرسل بقلة شامخة مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها مكتوباً: مالكم تحت الفسقية الكبيرة فأرسل عمرو إلى دار بطرس وحبس الماء عن الفسقية فوجد فيها اثنين وخمسين إردب ذهب مضروبة، فضرب عمرو رأس بُطْرس، وأخذ المال جميعاً فعند ذلك أخرَجت القبط كنوزهم شفقة على أنفسهم. ".[1] ولا نسوق هذا النص للتدليل على أن عدداً من أهل الذمة كانوا قد أحرزوا ثروات كبيرة، وإنما لنشير إلى تداخل عناصر عديدة لإخفاء الأموال لدى العامة - خاصة الفقراء والطبقة المتوسطة - مع العامل السابق كالخوف من طمع وبطش الحاكم أو الخوف من الحسد وطلب الستر وما إلى ذلك، حتى أصبحت لازمة شعبية تظل باقية رغم اختفاء السبب أحياناً، وإذا أضفنا تراث التَقيَة الفاطمي أو الشيعي (التقية بتشديد مع فتح التاء والياء) إلى ذلك اتضح عمق هذا الأسلوب، وتقضي التقية أن يكتم المرء (ذهبه ومذهبه وذهابه).[2] أي لا يبدي أو لا يظهر أياً منها، وربما أسهمت الحركة الديرية المصرية هرباً من الاضطهاد البيزنطي في تعميق ذلك أيضاً، وحسبُنا ما أشار إليه موفق الدين بن عثمان في قوله: "قال بعض المؤرخين: كان رجلٌ بمصر يسمى عفان بن سليمان المصري، قد وجد في داره مالاً مدفونا، فصار عفان يتصدق من

مؤنس : الحضارة، صـ 374؛ عمرو عبد العزيز منير: العمران في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين دراسة مقارنة في كتابات الرحالة (رسالة ماجستير- غير منشورة - كلية الآداب، جامعة الزقازيق 2004م)، ص 285، ص 286.

[1] - الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، ص 105 ؛الحميري : الروض المعطار ،ص554.

[2] - ميكل ونتر : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني (ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة 2007م)، ص16.

المال على الفقراء".[1]

ولعلنا نعي أن فكرة اكتناز الذهب عند المصريين ارتبطت أيضاً بأفكار دينية وخواص سحرية؛ يتضح ذلك حين نعلم أنه كان للذهب في الديانة المصرية، معدناً سماوياً مقدساً ذا تداعيات سحرية قوية. فهو ؛ أولاً :يشبه بلونه وبريقه قرص الشمس، وهو معدن لا يفسد ولا يصدأ ارتبط بالدوام والخلود. لذلك عني المصريين بأن يعطوا توابيتهم ورموزهم الدينية والجنائزية الكثير من ذلك (الذهب النقي). ومن أقدم الأزمنة ارتبط الذهب ارتباطاً وثيقاً بعبادة هاتور، إلآهة السماء التي عبدها (الشعب) في كنعان باسم (ملكة السموات) واشتكى يهوه لحزقيال من أن نساء الشعب يصنعن التقدمات لها. ومن ارتباط عبادة هاتور بالذهب، دعيت في النصوص المصرية باسم السيدة الذهبية و (الإلآهة الذهبية)، أو ـ إعزازاً ـ باسم (الذهب) كما دعى حورس باسم (حورس الذهبي)، ولما كان الفرعون قد اعتبر ابناً للإله الشمس رع ،فإنه وصف بأنه "جبل الذهب الذي يشع على العالم كله". ومن استخدام الذهب في صنع التوابيت المصرية ليمنح من يوضع فيها سحره، دُعيت حجرات الدفن الملكية وأماكن صنع التوابيت بـ"بيوت الذهب". ولقد كانت معظم سرقات المقابر بسبب ذلك الذهب الكثير الذي "وُشيت" به التوابيت، ولم يبق من التوابيت الملكية ما احتفظ بكل ما وُشى به من ذهب إلا تابوت توت عنخ آمون الذي سحر العالم المعاصر بروعته.

وقد شاع استعمال الحُلي الذهبية للغاية في أنحاء مصر، وارتداها الرجال والنساء والأطفال من مختلف الطبقات الاجتماعية. واستخدمت كزينة شخصية، كما استخدمت في الأعمال الجنائزية، لإضافة لون إلى الثوب الكتاني الأبيض الفاتح، وبما يشير إلى مرتبة المتوفى. كما استخدمت بشكل أساسي لأغراض السحر في صورة تمائم رمزية حارسة. ظهرت بوضوح في تيجان الذهب الملكية حيث ظهرت في مقدمة التاج الأفعى الملكية المنتصبة "اوراكوس". ولم يكن يرتدي الكوبرا المقدسة "اوراكوس" سوى الأسرة الملكية، حيث أن ارتداءها في وضعها المنتصب فوق الحاجب، يجعلها تحمي الفرعون، رمزياً و وتنفخ النار في وجه من يقترب منه من الأعداء.[2]

---

[1] -موفق الدين بن عثمان: مرشد الزوار إلى قبور الأبرار، (تحقيق: محمد فتحي، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1995م)، ص 182.

[2] - آنا رويز : روح مصر القديمة ، ص63.

وقد كانت مصر المصدر الرئيسي للذهب في العالم القديم، إذ كان المصريون يستخرجون كميات كبيرة منه من مناجم النوبة التي دعيت بذلك الاسم اشتقاقاً من اللفظة المصرية (نوب)أي (الذهب). ولم يكن الذهب مطلوباً لدى المصريين، بل ولدى بعض العائلات المالكة الصديقة للفراعنة، ولكونه معدناً ثميناً وجميلاً فحسب، بل ولما اتصف به في معتقدات المصريين التي شاعت بين الشعوب المجاورة من قيمة دينية وخواص سحرية، اشتقاقاً من خلود الإله واعتبار الذهب (لحم الإله) "رع" إله الشمس ؛ ولأنه يرمز إلى الشمس، قدره المصريون تقديراً كبيراً. ولذلك لم يكن اكتناز الذهب بقصد الثراء الدنيوي فحسب، بل وبهدف الثراء الديني أيضاً؛ لأن امتلاك الذهب اعتبر مما يُكسب مقتنيه فضلاً لدى الآلهة فوق ما يمنحه إياه من صحة وعافية وعمر طويل في الحياة، وما يزوده به من قوى تتزود بها الروح في مسعاها صوب البقاء، بعد الممات.[1]

وقدمت لنا النصوص التاريخية ـ دون قصد ـ وصفاً لهيئة "المطالبية" الذين احترفوا مهنة البحث عن كنوز مصر ودفائنها، يشير إليهم البلوي كاتب سيرة أحمد بن طولون بقوله: "وحدث نسيم الخادم قال: ركب مولاي ـ أحمد بن طولون ـ يوما إلى الأهرام، فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف، وفي أيديهم مساح ومعاول، فسألهم عما يعملون، فقالوا: نحن قوم نطلب المطالب، فقال لهم، لا تخرجوا بعد هذا الوقت إلا بمنشور و رجل من قبلي يكون معكم، فقالوا له :سمعاً وطاعة للأمير، أيده الله. فسألهم عما رُفع إليهم من الصفات، فذكروا له أن في سمت الأهرام مطلباً قد عجزوا عنه، لأنهم يحتاجون في إثارته إلى جمع كبير، ونفقات واسعة، فإن فيه مالاً عظيماً. فنظر مولاي إلى شيخ من أصحابه يعرف بالرافقي من أهل الثغر فضمه إليهم ، وتقدم إلى عامل معونة الجيزة فيدفع جميع ما يحتاجون إليه من الرجال والنفقات."[2]

كان "المطالبية" إذاً جماعة من الناس لهم ثيابهم الخاصة، ومعهم أدواتهم التي يستعينون بها على أداء عملهم "المساحي" و " المعاول" يطلبون المطالب، وكانوا قد تجمعوا وكونوا فريقاً يمارس عمله بعيداً عن أعين الحاكم، إلى أن علم بذلك أحمد ابن

---

[1] ـ شفيق مقار : السحر في التوراة،ص234.

[2] ـالبلوي (أبي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي) :سيرة أحمد بن طولون (تحقيق:محمد كرد علي ، سلسلة الذخائر ، العدد 55 القاهرة 1999م) ص194,195؛المقريزي: الخطط، ج1، ص 41؛ابن سعيد الأندلسي : المُغرب في حُلى المغرب ص98.

طولون، فأمرهم ألا يمارسوا عملهم ذاك إلا بعد أن يأذن لهم، ويعيِّن من رجاله من يراقب عملهم، ويمكن القول: أن هذه أول إشارة إلى ما يمكن اعتباره تنظيما رسميا لعملية التنقيب عن المطالب "الكنوز والآثار".

وهكذا، أصبح البحث والتنقيب يمارس تحت سمع وبصر الحاكم، إضافة لذلك فقد كشفت لنا الكتابات التاريخية حجم المحنة التي واجهت الآثار المصرية من جراء ما قام به الناس وشاركهم في ذلك الحكام ، وشراهتهم في البحث عن الآثار والتنقيب، والعبث بها، لا حباً في كنوزها فحسب بل سعياً وراء أحجار المعابد والمباني الأثرية القديمة ،لاستعمالها في بناء مساجدهم وعمائرهم، والحق أن هذا العبث لم يكن جهلاً، منهم بقيمة تلك الآثار ودلالتها العظيمة فحسب؛ ولكنهم وجدوا فيها مصدراً للثروة والمال الذي كانوا في أشد الحاجة إليه لتعمير المدن والأمصار، وتشييد العمائر وإعداد الجيوش، بفضل كنوز مصر التي اشتهرت بها. لدرجة أن ابن الوردي يلمح إلى ذلك بقوله: "مصر خلد الله ملك سلطانها، من خصائصها كثرة الذهب والدنانير، وكان يقال في المثل السائر ما معناه: من دخل مصر ولم يستغن فلا غناه الله..".[1]، "فخراج مصر في قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب".[2]

كما كان العبث بدفائن المصريين القدماء إلى جانب الذهب والكنوز هو الاعتقاد الذي شاع في العصور الوسطى بين عدد من الشعوب؛ بأن قليلا من طحين أو مسحوق، مومياء مصرية قديمة كفيل بشفاء جميع الأمراض مهما كانت مستعصية، وقد أشار إلى ذلك (الحميري) في سياق حديثه عن مدينة قوص بقوله: "منحوت في جبال منها قبور الأموات، لا يعلم لها عهد. تستخرج منها المومياء الطبية، وهم يجدونها في رممهم وبين أكفانهم".[3]، وكان الطبيب العربي ابن سينا هو الذي ذكر المومياء ودافع عن استخدامها في علاج عدد من الأمراض منها :" الخُرَّاج، والطفح الجلدي، والكسور، وارتجاج المخ، والشلل، واضطراب نبض القلب، واضطرابات الطحال والكبد " وكانت وصفته ينبغي أن تُؤخذ (على فرض جعل طعمها سائغا) في خلطة من النباتات مثل: البردقوش،

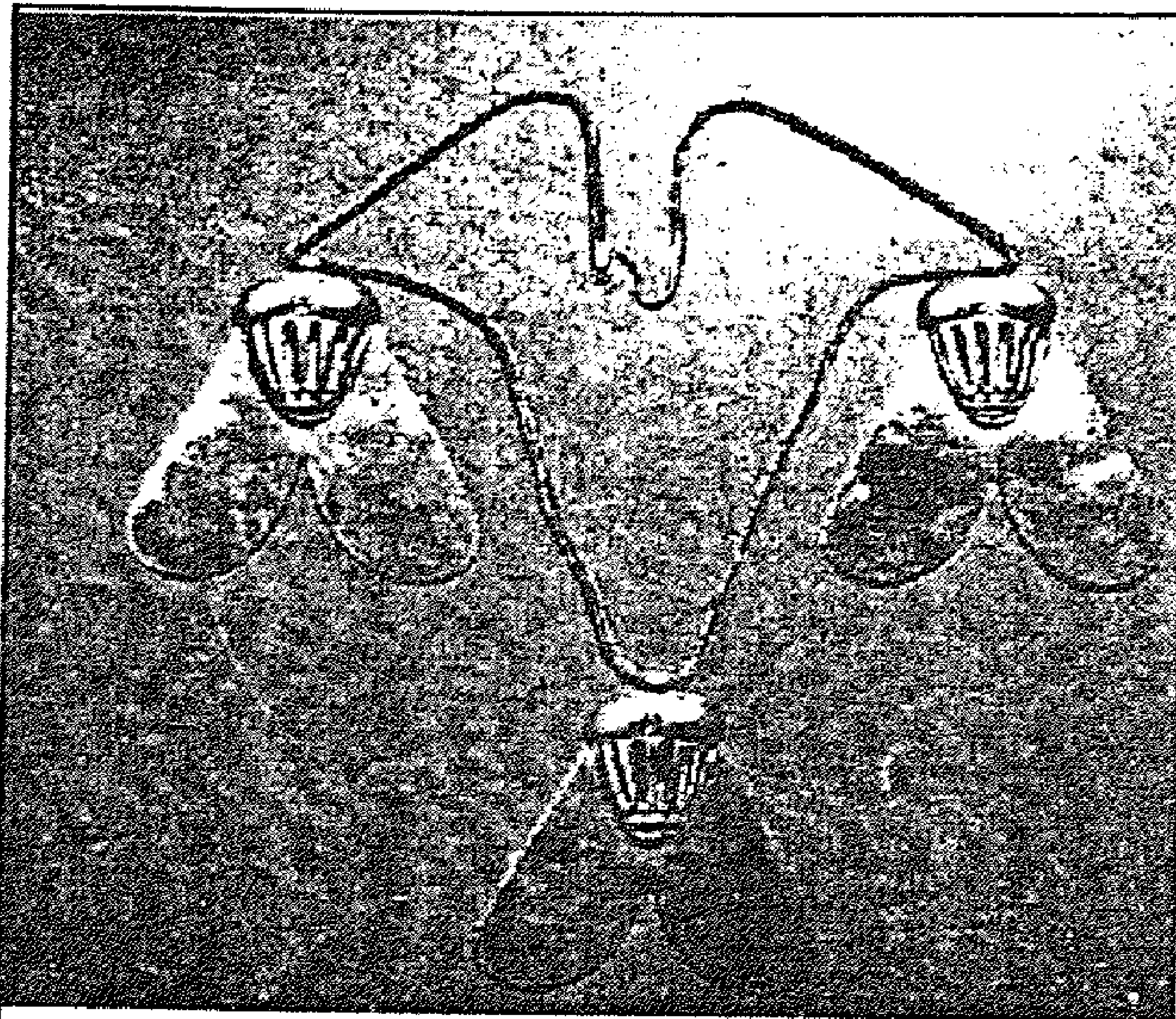
---

[1] –ابن الوردي: خريدة العجائب، ص 205.

[2] –المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة (تحقيق : ياسر سيد، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة 1999م)، ص 55.

[3] –الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 485.

والزعتر، والبلسان، والشعير، والعدس، والزعفران، والقرفة الصيني، والبقدونس. ووردت وصفة ابن سينا عن مسحوق المومياء ضمن **DE VIRILEUS CORDIS** في قائمة مكتبة سان ماركو في فلورنسا، سنة 1444م. ومنذ القرن الحادي عشر، كان بعض العلماء العرب الكبار، يعزون قيمة المومياء العلاجية إلى اللحم المحنط فعلاً، وقد شاع هذا المفهوم عن المومياء في أوربا العصور الوسطى، وقد ذكر استخدام المومياوات كعلاج "جاي دي شافيلاك" **GUY DE CHAVILLAC**، الذي كان جراح البابا كليمنت السادس سنة 1363م. ولاقى هذا العلاج شعبية واسعة، وكان مادة قيمة من مواد التجارة، ويباع عبر أسواق المسكنات، وعلاج الجروح. وصارت الجبانات المصرية القديمة مقصداً جديداً كان يذهب إليه بعض المسافرين إلى القاهرة، بحثاً عن بضائع القبور والمومياوات قبل وبعد القرن السادس عشر فصاعداً.[1]



وسام الذبابة الذهبية ، وهو وسام عسكري كان يمنح للقادة والضباط الذين أبلوا بلاءً حسناً في المعارك الحربية ، وذلك تقديرا لشجاعتهم وقد عثر عليه في مقبرة الملكة "آح حتب" بمنطقة ذراع أبو النجا عام ١٨٥٩م ونلاحظ الحضور الطاغي للأشكال الحيوانية في هذا النوع من الأوسمة

وحفلت المصادر التاريخية بالقصص التي تصور اهتمام الولاة والحكام الذين تولوا أمر مصر بتلك المطالب والدفائن، ومشاركتهم في البحث عنها وما اكتنف ذلك من أخطار وأحداث مثيرة امتزجت فيها الوقائع والحقائق بالخيال في تعانق حميم ،وأخذ المطالبية يعبثون في الأرض فساداً وفي الآثار تخريباً بحثاً عن الكنوز والدفائن، واتخذوا من تجارتهم حرفة تدر عليهم الرزق من أسهل الطرق وأحقرها. لدرجة أثارت سخط وحنق بعض المؤرخين والرحالة، فقد وصف أحدهم ذلك

---

[1] - آن وولف: كم تبعد القاهرة ؟ ، ص 253 - ص255.

العدوان الجائر بقوله: " وقد كان هذا البيت ـ المعبد ـ مُمكناً على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة، فحفر نحتها الجهلة والحمقى طمعا في المطالب فتغير وضعه وفسد هندامه..".[1]

هذا الوعي الحضاري النادر بين علماء ذلك الزمان، والذي أملته على البغدادي نزعته العلمية الغيورة على آثار الحضارات القديمة المجسدة لأسرار التاريخ الإنساني. لم يستمر للأسف، إذ عادت الجهالة والخرافة وضيق الأفق إلى صدارة الوعي التاريخي عند الولاة والحكام وعامة الناس.

ويمكن القول أن من أحد أسباب العدوان الجائر على آثار مصر هو الأخبار الرائجة عن "المطالب" والتي وصلت للناس عبر الأساطير والحكايات الشعبية والأخبار عن حضارات العالم القديم، وكنوزها المخبوءة في باطن الأرض، والذي يمكن لعارفي علوم الأقدمين والسحرة الوصول إليها.ويقف بنا البغدادي على أسباب هوس الناس بهذه الآثار في قوله: "رأوا آثارها الهائلة وراعهم منظرها، وظنوا ظن السوء بمخبرها، وكان جل انصراف ظنونهم إلى معشوقهم وأجل الأشياء في قلوبهم؛ وهو الدينار والدرهم. ..".[2]

وعرض البغدادي لمظاهر الخرافات والأساطير التي سيطرت على ألباب وقلوب الناس فيما يتعلق "بالمطالب" بقوله: "كل شئ رآه ظنه قدحاً، وأن رأي ظل شخص ظنه الساقي فهم ـ يحسبون كل علم يلوح لهم أنه علم على مطلب، وكل شئ مفطور في جبل أنه يفضي إلى كنز، وكل صنم عظيم أنه حاصل لمال تحت قدميه، وهو مهلك عليه، فصاروا يعملون الحيلة في تخريبه ويبالغون في تهديمه، ويفسدون صور الأصنام إفساد من يرجو عندها المال، ويخاف منها التلف، وينقبون الأحجار نقب من لا يتمار أنها صناديق مقفلة على ذخائر، ويسربون في فطور الجبال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها، وانتهز فرصة لم يشعر غيره بها".[3]

نهم الناس وأحلامهم في الثراء السريع بفضل هذه المطالب. أدى إلى أزمة اجتماعية واقتصادية صبت في خانة الخصم من رصيد المجتمع المصري الأخلاقي وليس

[1] ـ البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص 101.
[2] ـ البغدادي: المصدر السابق، ص 107.
[3] ـ نفسه، ص 107.

الإضافة إليه إذ يقول البغدادي: "... من كان من هؤلاء له مال أضاعه في ذلك - المطالب -ومن كان فقيراً قصد بعض المياسر، وقوى طمعه وقرب أمله بأيمان يحلفها لـه، وعلوم يزعم أنه استأثر بها دونه، وعلامات يدعى أنه شاهدها حتى يخسر عقله، ومالـه، وما أقبح بعد ذلك مآله. .."[1].

ويكشف لنا (ابن خلدون) إلى أي حد سيطرت الخرافة والأساطير على عقول الناس فيما يتعلق بالبحث عن الذات من خلال المال والثراء للخروج من شرنقة الفقر المدقع والقمع الذي يعاني منه الناس من جراء سطوة الولاة والحكام. فيقول: "اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض، ويبتغون الكسب من ذلك، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية، لا يفض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه واستحضر ما يحله، من البخور والدعاء والقربان".[2] ويوضح أن الدافع وراء ذلك أنهم :" يترقبون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتخرمة الحواشي أما بخطوط عجمية، أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن، بإعطاء الأمارات عليها في أماكنها يبتغون بذلك الرزق بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويموهون عليهم بأنهم أنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا حتى يكونوا بمأمن من منال الحكام والعقوبات... فيولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتفار، والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدولة، فإذا لم يعثروا على شئ ردوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال ويخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم..".[3] ويضيف ابن خلدون إلى أسباب هذا السعي وراء ذلك الوهم البعيد إلى أن: "الذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل؛ إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية، للكسب عن التجارة والفلح والصناعة، فيطلبونه بالوجوه المنحرفة. . ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الأول، ويعرضون أنفسهم بابتغاء مع ذلك لمنال العقوبات...".[4]

---

[1] -نفسه، صـــ 108.

[2] -ابن خلدون: المـــقـــدمة، ج2، ص 838.

[3] - المـــقـــدمة، ص 839.

[4] -ابن خلدون، المصدر السابق، ص 839.

ما يهمنا هنا هو وقوف الرحالة ابن خلدون والبغدادي على مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية والقديمة من ناحية كما ألمح ابن خلدون إلى شيوع أوراق قديمة بها كتابات وكلمات غريبة وربما هى نفسها الكلمات الشائعة في مصنفات السحر الشعبي، والتي يقال إنها سريانية أو عبرية، وهو تقليد سائد في مصنفات السحر الشعبي إمعاناً في الغموض والدلالات غير المباح بها، مما يضفي علي النصوص صفة الترميز والتشفير

. وأن محاولة إماطة اللثام عن هذه الرموز يعد ضرباً من العبث، وطريقاً ملغوماً بالمخاطر ؛ ولذلك نجد أن أصحاب المصنفات المتعلقة بالسحر الشعبي دائماً ما يلغزون وصفاتهم، وكلامهم في ذلك مُغلق بأقفال الرموز، ليس على ظاهرة ولا على نسق واحد متتابع على تركيب العمل، فهم يضعون الجمل في غير موضعها، ولم يذكروا في مصنفاتهم عملاً كاملاً، وهم يقولون في ذلك إنهم رمّزوه وأخفوه حتى لايقع في يد فاسق أو جاهل، واتكالاً على وضوحها في غير مكانها للحكماء. فقد أخذوا العهد على أنفسهم بذلك ليحملوا الطالب على أخذها من أربابها، كما عاهدوا أنفسهم أن لا يعطوها إلا لمن يكون أهلاً لها، فلا يقع على علومهم إلا الحكيم الحاذق، وهم في ذلك يضعون شروطاً على رأسها شيخ الطريقة [1]، وقد أكد أرباب هذه الصناعة على ذلك فقالوا "اطلبوا شيخ الحكمة ولو لم يكن تقياً"وقال بعضهم [2]:

ولابد من شيخ يريك شخوصها ***لتفريقها بالعين والاسم أقطعُ

وإلا فنصف العلم عندك حاصل***ونصف إذا حاولته يتمنعُ

أضف لذلك أن الروايات التي سبقت تكشف عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي دفعت بالناس إلى العبث في ركام الماضي للنجاة من قسوة حاضرهم ومستقبلهم مستعينين في ذلك بالخرافات والأساطير التي يستحضرونها لملء فراغ الجوع، فيقول ابن خلدون موضحا أن: "من سكان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال، مثل مصر،وما في معناها فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة

---

[1] -سليمان حسن : الرموز التشكيلية ، ص133

[2] - ابن الحاج التلمساني المغربي:شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى(ط1، مكتبة صبيح ، القاهرة ب.ت)،ص123.

الركبان عن شواذه، كما يحرصون على الكيمياء، هكذا بلغني عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه، لما يرونه أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها في مجاري النيل، وأنه أعظم ما يستر دفيناً أو مختزنا، في تلك الآفاق، ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة في الاعتذار عن الوصول إليها بحرية النيل تستراً بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه، فيحرص بما مع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه، من هذه كلفاً بشأن السحر متوارثا، في ذلك القطر عن أوليه، فعلومهم السحرية وآثارها باقي بأرضهم في البراري وغيرها وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك".[1]

بيد أن الفقر الذي كانت تعيش فيه الطبقات الشعبية هو الذي فجر خيالها فيما يمكن أن يكون مختفياً تحت الأرض من كنوز. وكانت مصر هي المنبع الواضح لهذا الخيال حول الكنوز، وحول ما تحت الأرض من أشياء فيها الثراء أو قد يكون فيها مغامرات تنتهي إلى الثراء، فالذي لا شك فيه أن المصريين من قديم كانوا يحفرون في الأرض، ويجدون آثار الفراعنة التي تكون كنوزا حقه. والتي تفتح لهم أبواب الثراء الملموس، بل إننا إلى اليوم نجد هذا الاعتقاد في الكنوز متفشياً في جهات مصر التي دلت الحفريات العلمية والأثرية على وجود كنوز حقيقية مدفونة في أرضها. والظاهر أن أهل مصر شهروا بذلك من قديم بين غيرهم من الأمم الإسلامية.[2] فنسبوا لمصر السحر، وجعلها ابن النديم في كتابه الفهرست بابل السحرة؛ حيث يتكلم عن كتب السحر فيقول: "وهذا الشأن ببلاد مصر وما والاها ظاهر، والكتب فيه مؤلفة كثيرة موجودة، وبابل [منادل] السحرة بأرض مصر، قال لي من رآها: "بها بقايا ساحرين وساحرات، وزعم الجميع من المعزمين والسحرة أن لهم خواتيم وعزائم ورقي وصنادل وجراب ودخن وغير ذلك مما يستعملونه في علومهم.[3]بل أن ابن النديم ينسب إلى أهل مصر نوعاً خاصا من السحر هو الطلسمات فيقول: "والطلسمات بأرض مصر والشام كثيرة ظاهرة الأشخاص، غير

---

[1] - نفسه، ص 841.

[2] –سهير القلماوي: ألف ليلة وليلة (مكتبة الأسرة، القاهرة 1997م)، ص 159.

[3] –ابن النديم: الفهرست (الجزء الأول تحقيق: محمد عوني، إيمان جلال، سلسلة الذخائر، العدد 149، القاهرة 2006م)، ص 309.

أن أفعالها قد بُطلت لتقادم العهد".[1]

وقد نقل يهود مصر السحر عن أهلها من الأقباط، ومازالوا يعملون به ويتفننون في أساليبه، وقد نقلوه إلى بلاد العرب، وعند ظهور الإسلام كان بعض العرب ومعظم اليهود يعملون بالسحر حتى أن اليهودي (لوسيادس) عمل سحراً للرسول ﷺ في شكل خيط من الدوبارة، وكان يعقد بها عقداً على أبعاد متساوية ثم ينفث في هذه العقد، وهو يتلو كلماته السحرية، كما صنع تمثالاً من الخشب يمثل الرسول ﷺ ورشقه بالإبر ثم رماه في أحد الآبار. ونزلت بهذه المناسبة (سورة الفلق) وتمكن الرسول الأكرم من استخراج السحر من مكانه وإعدامه، فبطل وفسد عمله.[2]

والثابت أن مصر شهرت في أول الأمر بالسحرة والساحرات خاصة، وكان ذلك فيما يظهر صدى لقصة موسى وفرعون، ولكن هذه الظاهرة التي ما زالت ترى إلى اليوم، وهي استطاعة الفقراء أن يجدوا تحت الأرض كنوزا حقه من قبور الفراعنة، قد صبغت هذا الصيت بلون آخر هو وأن الكنوز والطلاسم وما يتعلق بها مما يدل على ناحية خاصة من القدرة السحرية.[3] وبذلك أفسح سحرة مصر في كتابات الرحالة والمؤرخين، مكاناً هاماً للكنوز لتلعب دورها في المخيلة الشعبية لينعكس أثر هذا كله على رؤية الناس لتاريخ مصر القديم.غير أن لانتشار الظن برصد الكنوز بواسطة قوى خفية، سبباً جوهرياً غير هذا الذي ذكره ابن خلدون وغيره من المؤرخين ؛ ففي المجتمع الذي لا تتاح فيه الحياة الكريمة، يهرب الناس من مواجهة مشاكله ومنها مسألة الحصول على الثروة – إلى تخيلات وأوهام، فما أيسر أن يعيش الوهم باستطاعة الحصول على كنز متى القيت التعزيمة المناسبة والبخرَةُ المطلوبة، وما أيسر هذا بالنسبة لإبداء جهد إيجابي في سبيل كفالة الحياة المستقرة الرخّية. وعندما تؤمن الجماعة الشعبية بهذا المعتقد، إنما تتبنى بذلك اتجاهاً إنسحابياً بعد عجزها عن التعامل مع الواقع، ومن ثم تضرب في أطناب الغيب، وهذا الاتجاه يتواصل ويتسع نطاقه لدى قطاعات لا يستهان بها.

وقدر يرى البعض أن شيوع مثل هذه المعتقدات تمثل شكلاً من أشكال (الاختراق)

---

[1] – الفهرست، ص 309.

[2] محمد جعفر :كتاب السحر (الأنجلو المصرية ، القاهرة 1958م)،ص20

[3] سهير القلماوي: المرجع السابق، ص 160.

الذي يستهدف التأثير على المجتمع، و تدلنا قراءة التاريخ - فضلاً عن دواعي المنطق - أن حالات الهروب من الواقع وثيقة الصلة بوطأة أو قسوة الظروف المعيشية، فحين تتزايد الضغوط على الناس، تتجه فئات منهم إلى الانسحاب والفكاك إلى عوالم أخرى.

هذا الهرب نجده سائداً في القصص الشعبية حيث يرسم القاص البطل وقد حصل على المال بغير جهد فهو يلقاه كل صباح "تحت سجادة الصلاة" أو الوسادة، شأنه شأن البطل الذي يقطع الآماد على بساط سحري حين كان الانتقال من بلد لآخر مشقة عظيمة. أو أن يحقق الإنسان كل ما يتمنى بحصوله على خاتم سليمان وهو الخاتم الذي استطاع سليمان به أن يستخدم الجن ويسخره، فحملت له البساط، وقطعت له الأحجار، وبنت له القصور، وفجرت له الأنهار والآبار وصورت له التماثيل من خشب ونحاس ومعادن أخرى كأنها الحياض التي تروي الأرض لطولها وعرضها وبواسطة هذا الخاتم - كما يقول الموروث الشعبي - ملك سليمان البلاد.

ويبدو أن فكرة خاتم سليمان الذي تكمن فيه قوى خارقة كانت سبباً في ظهور الكثير من المأثورات العربية وغيرها، حيث كان بطل هذه المأثورات (الخاتم المطلسم الذي يحقق الأماني) ويقول الموروث الشعبي :إن سليمان سخر الكثير من الجان كعقاب لهم لخدمة بعض الأدوات كعبيد أو خدام يلبون رغبات من يملك هذه الأداة، من ذلك اللوح الذي يتحكم في الجني (عيروض) الذي يخدم سيف بن ذي يزن في سيرة سيف، وكذلك الخادم الموكل بالسوط المطلسم، والطاقية المخفية، والجراب الذي لا نفذ ما فيه، وكثيراً ما يتردد في ألف ليلة وليلة تلك الأقسام التي وضعها سيدنا سليمان الحكيم لقهر الجني - كما يقول الموروث الشعبي - يردد هذه الأقسام الكاهن أو الساحر لإرغام الجني على الطاعة وتنفيذ الأوامر.[1] فذلك كله حلم ومنى ليس لهما من الواقع أصل. فكل مجهول لدى العامة من الناس، وكل عقبة كئود، في بطن الأرض أو خرابها أو موحشها، وفي تلك الأوضاع الاجتماعية شديدة الوطأة ؛ يتولد الوهم وتنسج الأسطورة وتغذيها وتقوم الأوضاع الاجتماعية الضاغطة بحماية هذا المعتقد وتعضد فكرة فتح الكنوز بواسطة السحر[2]. خاصة وأن المصريين القدماء، كانوا يدفنون مع موتاهم نفائسهم وكنوزهم،

---

[1] - سليمان حسن : الرموز التشكيلية ،ص171

[2] - أحمد رشدي صالح : الأدب الشعبي (سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة 2002م)،ص144,145.

وكانت قبورهم في المخيلة الشعبية محوطة بسوار من الأسطورة. وأموالهم كانت (مرصودة)، فيما يظنون. ولكن كثيراً ما اقتحم الحكام وذوي السلطة هذا السوار واستحلوا النفائس، وفعل مثلهم أصحاب البأس من اللصوص، ولا ريب في أن امتلاك تلك الكنوز بالغصب قد أثار لدى العامة المجردين من الحول والسلطة، الأمل في الحصول على ما قد يكون خافياً منها.

التنقيب عن كنوز أهل مصر القدامى، وهدم وتخريب آثارهم كان مجالاً لتفكير ولاة وحكام مصر، حيث غلبت على أكثرهم فكرة وجود كنوز مدفونة فيها، وبحسب رواية الرحالة عبد اللطيف البغدادي فقد حاول عثمان بن صلاح الدين الأيوبي هدم واحد من الأهرام الصغيرة ليستعمل حجارته في بعض مشاريعه العمرانية، ولكنه اضطر إلى العدول عن هذه المحاولة الصعبة المنال: "لم ينالوا بغية ، ولا بلغوا غاية، بل كانت غايتهم أن شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل".[1]، ورأينا الخليفة المأمون يرسل جيوشاً من الحفارين؛ للبحث والتنقيب حتى استطاع بعضهم دخول الهرم الأكبر في عهده: "فإذا خراج مصر وغيرها من الأرض لا يفي بقلعها وهي من الحجر والرخام.. رغم أن الهدم أيسر من البناء والتفريق أيسر من التأليف.[2]، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أدى إلى هدم مدن بكاملها من جراء ذلك مثل: "عين شمس والتي يحمل منذ أول الإسلام حجارتها إلى غيرها من البلاد وما تفنى".[3]

يورد المؤرخون العديد من القصص والسماعيات حول محنة الآثار المصرية في عهد عبد العزيز بن مروان عامل مصر في عهد أخيه عبد الملك بن مروان، فيقول المقريزي: "عندما كان عبد العزيز بن مروان والياً على مصر في خلافة أخيه عبد الملك بن مروان جاءه رجل وقال له بالمقبرة الفلانية كنز عظيم ، وقدم الدليل على صدق كلامه، فأمر عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال، وبدأت تظهر تحت الحفر بلاطات من رخام ومرمر إلى أن ظهر عمود من الذهب، على أعلاه ديك عيناه ياقوتان

---

[1] –البغدادي :الإفادة والاعتبار، ص 94، ص 95.

[2] –ابن حوقل: صورة الأرض، ص 136؛ ابن محشرة: الاستبصار، ص 56، البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص92؛ الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص109؛ابن خلدون: المقدمة، ج2، ص785؛ الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص63؛ أولياچلبي: سياحتنا مه مصر،ص 618.

[3] –القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج1، ص 225.

تساويان ملك الدنيا، وجناحاه مضرجان بالياقوت والزمرد، ورأسه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود، فأمر له عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال في ذلك.. ثم انتهوا في حفرهم إلى ظهور رأس الديك فبرق عند ظهوره لمعان عظيم.. ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور الذهب. فركب عبد العزيز بن مروان حتى أشرف على الموضع فنظر إلى ما ظهر من ذلك فأسرع بعضهم ووضع قدمه على درجة نحاس ينتهي إلى ما هناك. فلما استقرت قدماه على المرقاة ظهر سيفان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها فالتقيا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعا، وهوى جسمه سفلاً فلما استقر جسمه على بعض الدرج، اهتز العمود، وصفر الديك صفيراً عجيباً سمع من كان البعد من هناك وحرك جناحيه، وظهرت من تحته أصوات قد عملت بالكواكب والحركات، إذا مال وقع على بعض تلك الدرج شئ أو ماسها شئ انقلبت فتهاوى من هناك من الرجال إلى أسفل تلك الحفرة، وكان فيها من يحفر ويعمل، وينقل التراب، وينظر ويحول ويأمر وينهي نحو ألف رجل فهلكوا جميعا، فخرج عبد العزيز، وقال: هذا ردم عجيب الأمر، ممنوع النيل نعوذ بالله منه، وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس، فكان الموضع قبراً لهم..".[1]


الأشكال الحيوانية وعلاقتها بعالم السحر والذهب علاقة حميمية

هذه القصة ربما كانت تحمل ظلاً من الحقيقة، مثل انهيار الحفر أو سقوط بعض العمال داخل أحدى مقابر قدماء المصريين، التي اعتادوا نحتها في أعماق بعيدة تحت سطح الأرض ،مثل مقابر وادي الملوك، على الضفة الغربية للنيل بمدينة الأقصر،

---

[1] -الخطط، ج1، ص 40 ص 41.

والتي حرص المصريون القدامى على عمل أبواب تمويهية لمقابرهم، وافتعال فخاخ للصوص، وربما كانت تلك الفخاخ وراء حدوث بعض الإصابات. ثم حولتها مبالغات الرواة الشفوية إلى هذا النمط من القصة ،التي تتميز بالحبكة الفنية، على الرغم من أن بطلها الأساسي شخص تاريخي حقيقي هو عبد العزيز بن مروان. أحد ولاة مصر في العصر الأموي. وعلى أية حال فإن علماء الآثار المصرية الأجانب روجوا خلال القرن الماضي وهذا القرن عدداً من القصص حول ما أسموه "لعنة الفراعنة"[1] والتي أولع بها الخيال الشعبي في مصر وروّج لها وأعادت للأذهان الحكايات الشعبية حول الكنوز المرصودة التي تدور في القصص والسيَّر العربية.

ساعد ما كتبه الرحالة والمؤرخون وما شاع بين الناس طوال العصور الإسلامية على رواج الاعتقاد بقدرات وقوى خفية وطلاسم كائنة في آثار الحضارة المصرية القديمة، وكان من الطبيعي أن يستجيب العامة من الناس لهذه القصص الخيالية، وأن ينشغلوا بها وبقائليها انشغالاً عظيما، لا سيما في عصور بحث الناس فيها عن العجيب والغريب، وتلبستهم الخرافة وصدقوها وتحولت أطر قرارات الناس بنصيحة قارئ الكف أو ضاربة الودع، وتبحث عن السعادة في الطالع، وتؤطر حياتها بالسحر والأساطير، التي برع في حياكتها المصريون منذ القدم. وساد الاعتقاد بين الناس ـ وما زال ـ عن وجود رابط سحري غامض بين المصريين القدماء والسحر والغموض في

---

[1] – مؤخراً، رأى العلماء أن "لعنة الفراعنة" ربما تكون بالفعل هي جراثيم الأتربة التي اكتشفها علماء الأحياء الدقيقة في المومياوات المصرية، وهذه الجراثيم يمكنها البقاء آلاف السنوات في مكان مظلم وجاف، معظمها غير مؤذ، غير أن بعضها يمكن أن يكون ساماً وربما تكون هذه الجراثيم خرجت للهواء عندما فتحت المقابر للمرة الأولى، ودخلت أجساد الذين فتحوا المقابر عبر الأنف أو الفم، أو العينين، وربما يؤدي الضرر الذي تحدثه هذه الجراثيم إلى الفشل العضوي والوفاة، خاصة بالنسبة لهؤلاء الذين يعانون من ضعف أجهزة المناعة لديهم، ويُقال أن (هوارد كارتر) مكتشف مقبرة (توت عنخ أمون) عام 1922م، لاحظ وجود فطريات بنية اللون تغطي الجدران الداخلية لمقبرة (توت عنخ أمون) وعقب افتتاح المقبرة بوقت قصير، بدأت قصة تنتشر فحواها أن لعنة أصابت كل من تورط في إقلاق نوم الفرعون، ووفقا لرواية هوارد كارتر، عثر على لوحة طينية نقش عليها "الموت يأتي على أجنحة لمن يقلق نوم الملوك" واللوحة نفسها لم تدرج في قائمة محتويات المقبرة، ولا توجد بأي حال احتمال ــ إلا في خيال كارتر، ولم يذكر خبراء المصريات والآثار شيئا عن الدليل على وجود اللوحة، ومع ذلك سارعت التقارير الصحفية إلى التأييد، وروجت لفكرة لعنة المومياء المصرية الأسطورية الجذور. انظر:آنا رويز: روح مصر القديمة (ترجمة / إكرام يوسف، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 965، القاهرة 2005م)، ص 209؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص: ص 60–61.

ظاهرة عجيبة تختلط فيها الأساطير بالمعتقدات الخاطئة أحيانا. ولكن ذلك لا ينفي حقيقة أن المصريين القدماء هم الذين خططوا لبقاء هذا الارتباط بمعرفتهم المذهلة لعلم الفلك "فمصر بلد العلم والحكمة من قديم الدهر ومنها خرج العلماء الذين عمروا الدنيا".[1]

والقصص التي تدور حول هذا الموضوع كثيرة، ولكنها تشترك جميعا في صفة واحدة هي المبالغة التي تعكس الانبهار بالحضارة المصرية القديمة والتي تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلي أعمال السحر والخوارق. ونجد عددا لا بأس به أورده الرحالة والمؤرخون عن كنوز مصر المرصودة، والتي تصيب لعنتها كل من يحاول أن يعبث بها ويؤرق مضاجع أصحابها، ويحكى الرحالة "ابن محشرة" أن: "قوما قصدوا الأهرام، فنزلوا في تلك الآبار،وطلبوا أن يدخلوا في تلك المضايق، التي تخرج منها الرياح واحتلموا معهم سرجا في أوان رخام، فلما دخلوا في تلك المضايق، خرجت عليهم ريح شديدة، وأخرجتهم منها عنفا، وأطفأت أكبر سرجهم فأخذوا أحدهم، وكان أقواهم جأشا وأشدهم عزما وأصلبهم قلبا، فربطوا وسطه بالحبال. وقالوا:"أدخل. . فلما دخل. . انقطعت حبالهم. .وبقي الرجل في ذلك الشق وهم لا يعلمون عنه خبرا. فصعدوا هاربين حتى خرجوا من البئر، واغتموا ما أصاب صاحبهم..فبينما هم كذلك. إذ انفجرت الأرض فرجة كالكوة، وأثارت لهم ذلك الرجل عريانا.. مشوه الخلق ميت الدم جامد العينين. وهو يتكلم بكلام عجيب لا يفهم، فلما فرغ من كلامه سقط ميتا. فاحتملوا صاحبهم، وتصلوا أنباؤهم بوالي مصر وهو (ابن المدبر في أيام المتوكل) فأمر أن يكتب الكلام الذي قال ذلك الرجل الذي مات حسب ما قاله، وأقام ابن المدبر يطلب من يفسره ففسره: "هذا جزاء من طلب ما ليس له، وأراد الكشف على ما يخفى فليعتبر من رآه". قال: فمنع حينئذ ابن المدبر أن يتعرض أحد للأهرام.."[2]

وحاول الرحالة "أوليا چلبي" أن يلح على توكيد مثل تلك الأخبار عن القوى الغامضة الحارسة للأهرام فيقول: "وخلاصة القول: أن الخوف والهلع قد ساورنا وأحاط بنا كل الجوانب وقررنا العودة، وبينما نحن نفكر فيما آل إليه أمرنا، إذ بمشاعلنا تنطفئ، إذ برياح شديدة باردة تهب من جانب تلك الطيور – الخفافيش- كادت تقضي

---

[1] –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص 84.

[2] – ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص59.

علينا وعلى سرجنا الضئيلة أيضا.." ثم يؤكد بأسلوب لا يقطعه الشك أنه " ليس هناك شك في أن هذا البناء العجيب – الأهرامات- مطلسم،لأننا حينما وصلنا الحوض المذكور بهتنا كلنا، وتولتنا الحيرة والدهشة وأحاط بنا النصب والأذى من كل جهة فعدنا بأعجوبة ولكن بكل مشقة وبلاء وقد كادت أرواحنا تفارق أجسادنا من هول الموقف"[1].

رواية أخرى تناقلها الرحالة والمورخون تحكي أن: "قوما دخلوا بعض الأسراب التي في الهرم، فانتهوا إلى صنم أخضر على صورة شيخ، وبين يديه أصنام صغار كأنه يعلمهم، ثم صاروا فوجدوا فوارة تحت قبة يقع فيها ماء من أعلى تلك القبة، فيكون له نشيش شديد كأنه يطفئ ناراً، ثم يفيض هناك ولا يتبين ثم داروا فوجدوا بيتا مسدودا، لا يظهر له باب غير حجر صلد، وفيه دوي شديد لا يدري ما هو، ووجدوا عنده شبه المطهرة الكبيرة فيها ماء ودنانير منقوش في الوجه الواحد صورة أسد، وفي الوجه الثاني صورة طير فأخذوا من تلك الدنانير شيئاً فلم يقدروا على حركة ولا كلام حتى تركوها في موضعها..".[2]

تكشف الروايات السابقة عن اهتمام الولاة والحكام الذين تولوا أمر مصر بتلك المطالب، ومشاركتهم في البحث عنها، وتنظيمهم لها، وما اكتنف ذلك من أخطار، وأحداث مثيرة تمخض عنها أخبار وحكايات غرائبية تساعدنا على رصد بعض السمات التي اتصفت بها ثقافة المجتمع المصري في طور من أطوار حياته؛ حيث تعددت فيه هذا النوع من الأساطير والحكايات في تنوع يتسع للعديد من الأفكار المتناقضة أحياناً، بما يدل على ثراء الفكر والإبداع الشعبي في مصر، كما يشهد على محاولات دائمة لتطوير الفكر الإنساني الباحث عن ماهية الأشياء، ولسد الفراغات النقص الحاد في رصيده المعرفي.

على جانب آخر وجدنا الحكام يحذرون الناس وفي نفس الوقت يقومون هم بعمل منظم للحصول على كنوز المصريين القدماء والاستعانة بها في تعضيد حكمهم وسلطتهم حتى لقد قيل أن (أحمد بن طولون) قد اكتشف كنزاً عظيما، استطاع به أن يشيد

---

[1] – سياحتنامه مصر، ص 620- 621.

[2] –ابن محشرة: المصدر السابق، ص 60.

جامعة العظيم بالقاهرة.[1] و"أنه قد أصاب فيه من المال [ما] كان مقداره ألف ألف دينار، وهو المطلب الذي شاع خبره "[2] ومنه " أنفق على الجامع مائة ألف دينار وعشرون ألف دينار، وعلى البيمارستان ومستغلهِ ستون ألف دينار. وأنفق في بناء الميدان مائة وخمسين ألف دينار"[3] وضرب دينارا باسمه سمي بـ (الأحمدي) وصار أجود عيار وكان لا يطلي إلا به.[4] و"كان عيار الدينار منه أجود من عيار السندي بن شاهك ومن عيار المعتصم، ولم يكن يرى أجود منهما "[5] كما عرف عن: أحمد بن طولون أنه: "كان مولعاً بمعرفة هذه الآثار القديمة والعجائب".[6]

ويحكي التاريخ أن (أحمد بن طولون) استطاع بفضل ثروة مصر وكنوزها أن يناطح الخلافة العباسية في بغداد، وينطلق من مصر بأفكاره الاستقلالية، وينشأ دولة دانت لها الشام وبعض أقطار أخرى، ومن الحكايات التي قيلت في شأن (أحمد بن طولون): "أنه دخل جماعة في أيام أحمد بن طولون، الهرم الأكبر، فوجدوا في أحد بيوته جام زجاج غريب اللون والتكوين، فحين خرجوا به فقدوا واحداً، فدخلوا في طلبه، ورجع هارباً إلى داخل، فعلموا أن الجن استهوته، وشاع أمرهم، فأحضروا عند أحمد بن طولون، فحكوا له القصة، فمنع الناس من دخول الهرم، وأخذ منهم ذلك الجام الزجاج لنفسه...".[7]

في الوقت نفسه نجد رواية تناقلها المؤرخون تؤكد على استباحة أحمد بن طولون كنوز مصر لنفسه؛ فيقول ابن إياس نقلا عن وصيف شاه: "... خرج الأمير أحمد بن طولون يوما على سبيل التنزه إلى نحو الأهرام، فبينما هو يسير إذا غاصت قوائم فرسه في الأرض، فأمر بكشف ذلك المكان، فلما كشفه إذ هو مطلب فيه دنانير يوسفية".[8] فنقلها إلى خزائنه على ظهور الجمال بالشكاير، واتسع حاله، فأخذ في أسباب بناء

[1] –ابن إياس: بدائع الزهور، ص 38.
[2] – البلوي : سيرة أحمد بن طولون ، ص76.
[3] – نفسه ، ص351.
[4] –المقريزي: الخطط، ج1، ص 42؛ البلوي : سيرة أحمد بن طولون، ص196.
[5] – البلوي : مصدر سابق ، ص196.
[6] –ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 102.
[7] –التلمساني: سكردان السلطان، ص 460.
[8] –دنانير يوسفية: نسبة إلى يوسف ﷺ، والذي كان يعتقد أنه خزن أموال وكنوز مصر في الأهرام واتخذ منها أهراء لهذا الغرض.

الجامع المعروف به..."[1] ولعبت النبوة والأحلام دورها الفاعل في رواية عثور بن طولون على الكنز وكأنه قدر وحق مكتوب يسوغ للحاكم (أحمد بن طولون) الحق في الاستحواذ على الكنز فيقول كاتب سيرة بن طولون :"وأقر أحمد بن طولون. . عبد الله بن دشومة أميناً عليه. . وكان عبدالله بن دشومة منهم، واسع الحيلة. . وكان قبل إسقاط المرافق بمصر قدشاور عبد الله بن دشومة في ذلك. . فقال: أيها الأمير إن الدنيا والآخرة ضَرتان،. . ولسوف يجتمع للأمير أيده الله مما قد عزم إسقاطه من المرافق في السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار. . فشغل قلبه كلامه، فبات في تلك الليلة بعد أن مضى. . فرأى في منامه رجلاً من إخوانه الزهاد بطرسوس، وهو يقول له: ليس ما أشار به عليك من استشرته في أمر الارتفاق والفسخ برأي تحمد عاقبته فلا تقبله. . فأمض ما كنت عزمت عليه. . وركب في غد ذلك اليوم إلى الصيد، فلما أمعن في الصحراء ساخت في الأرض يد فرس بعض غلمانه، وهو رمل، فسقط الغلام. . فنظر فإذا بفتق ففتح، وأصاب فيه من المال ".[2]

الحكايات الخرافية والأساطير التي تداولها الموروث الشعبي والتي وصلتنا من مدونات الكتابات التاريخية وأقلام الرحالة ؛ واصلت حديثها عن اللعنة التي تصيب كل من يعبث بآثار مصر فتربط بين موت ابن طولون بتحطيمه لتمثال مصري كان قائما في المطرية، فقد أورد ابن إياس: "قال جامع السيرة الطولونية: كان بمدينة عين شمس، وهي المطرية، صنم من الكدان الأبيض على قدر خلقة الرجل المعتدل القامة، وكان ينظر إلهي، فنهاه بعض الكهان عن رؤية هذا الصنم، وقال: أيها الأمير لا تنظر إلى هذا الصنم، فما نظر إليه أحد من ولاة مصر إلا عزل في عامه، فلم يعبأ بهذا الكلام، وركب وتوجه إلى عند ذلك الصنم، ورآه، ثم إنه أمر بقطعه قطعا فلم يبق له أثر، فلما رجع حم من يومه ولزم الفراش، فسلم في المرض نحو عشرة أشهر. . فاستمر حتى مات".[3]

دلالة القصة غير خافية فهي تحذر من التطاول على الآثار المصرية، وتدعو إلى احترامها وإلى تقدير أصحابها، والاعتراف بسبقهم وفضلهم في تداخل وعناق حميم بين

[1] -بدائع الزهور، ج1، ص 38؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص 136؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 102؛ المقريزي: الخطط، ج1، ص 75.

[2] - البلوي : سيرة أحمد بن طولون ، ص76.

[3] -بدائع الزهور: ص 167.

الأسطورة والتاريخ.

لقد أحاط الرحالة والمؤرخون آثار مصر وكنوزها بأساطير وحكايات مزعجة مخيفة تبعث الرعب في كل من يقترب منها أو يحاول الدخول إليها والعبث بها، ورأينا كيف قالوا أن الهرم الأكبر يحرسه روح شيطانية عبارة عن "غلام" عار أمرد أصفر اللون تطل من فمه أنياب حادة، بل وسجل بعضهم ما ذكره لهم بعض الناس من أنهم قد رأوا هذه الروح بأعينهم، وهي تحوم حول الهرم وقت القيلولة ووقت الغروب وعلى نفس المنوال الذي نسج عليه هؤلاء المؤرخون، نسج مؤرخون وجغرافيون ورحالة عرب آخرون معلومات أكثر تطرفاً في الخرافة وأكبر بعداً عن منطق الأشياء تساعدنا في التعرف على وجدان وعواطف وأفكار ومواقف واتجاهات المجتمع المصري في أحد أطوار تاريخه، وهذه كلها أمور يمكن رصدها من خلال دراسة النتاج الأسطوري ولعجائبي للمجتمع والتي سجلها لنا الرحالة والمؤرخون بين دفات كتبهم ورحلاتهم عن كنوز الحضارة المصرية القديمة والتي كان الولاة والحكام وعامة الناس يطمعون في استخراج تلك الكنوز التي يشاع أن الفراعنة قد دفنوها معهم بداخل مقابرهم، وبطبيعة الحال فقد تبددت أحلام البعض منهم في العثور على ما كان يتوقعه من كنوز مدفونة، بينما نجح البعض الآخر في الوصول إلى تحقيق أحلامه ولكن على حساب سلامة آثار مصر.

وينقل لنا المسعودي رواية تقول: ".... وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن قد أغرى بحفر الحفائر، وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة وصف موضع ببلاد مصر، وعلى أذرع يسيرة من بعض الأهرام؛ بأن فيه مطلباً عجيباً، فأخبروا (الإخشيد محمد بن طغج) بذلك فأذن لهم في حفر وأباح لهم استعمال الحيلة في إخراجه، فحفروا حفراً عظيمة إلى أن انتهوا إلى أزج.[1] وأقباء وحجارة مجوفة".[2]

ويبدو من هذا أن أولئك المطالبية، كانوا يدركون أن الأهرام هو مركز يجتذب إليه

[1] -الأزَجُ: بناء مستطيل مقوس السقف، وجمعها: آزاج، المعجم الوجيز؛ القاموس، المحيط، ج1، ص 184.

[2] -المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 275.

المدافن والكنوز، وهو أمر كشف عنه الأثريون؛ وأوضحوا أن كبار القوم كانوا يعملون على أن يدفنوا بالقرب من الأهرامات لينعموا بما كان يقدم لأصحابها من الطقوس والقرابين، كما أن الروايات السابقة تكشف لنا بعض أخبار الحفائر التي قام بها العرب للتنقيب عن الآثار المصرية القديمة بداية من محاولات عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان إلى أحمد بن طولون إلى عصر الإخشيد بن طغج. والصور المشوشة التي نقلها لنا المؤرخون عن وصف المقابر المكتشفة والدفائن التي كانت بها، صورة تكاد تنطبق على الاكتشافات الأثرية، وما تميزت به القبور المكتشفة من سمات تكاد تكون مشتركة، ولكن الغالب من المؤرخين لم يحدثوننا عن مصير هذه الثروة الأثرية، وهل كان وراء اكتشافها جهد علمي حقيقي، أم هو مجرد انسياق مع أحاديث العامة عن الكنوز المرصودة، والذهب الذي تحرسه الطلسمات ولا يكشف إلا لأصحاب الوقت، والعقائد الشعبية الأخرى التي ملأت الضمير الشعبي المصري في أولى مراحل حسه الحضاري وإدراكه للثروة التراثية الخطيرة التي يعيش فوقها. وإن كنا نحس أن المعنى التاريخي للمكتشفات الفرعونية لم تغب عن أذهان بعض الرحالة و المؤرخين – كالمسعودي مثلا - حيث استطاع البعض منهم أن يجمع من هذه المقولات المتداولة ما يشكل هيكلا ما للتاريخ المصري القديم بعد ما يقرب من أربعة آلاف سنة في أعماق التاريخ، وواضح أن تلك الفترة من تاريخ مصر امتلأت بمثل هذه الحفائر التي أضاعت الكثير من الآثار المصرية القديمة والتي أضافت في الوقت ذاته بعض المعلومات إلى الذخيرة التاريخية العربية المليئة بالتشويش حول التاريخ المصري القديم.[1]

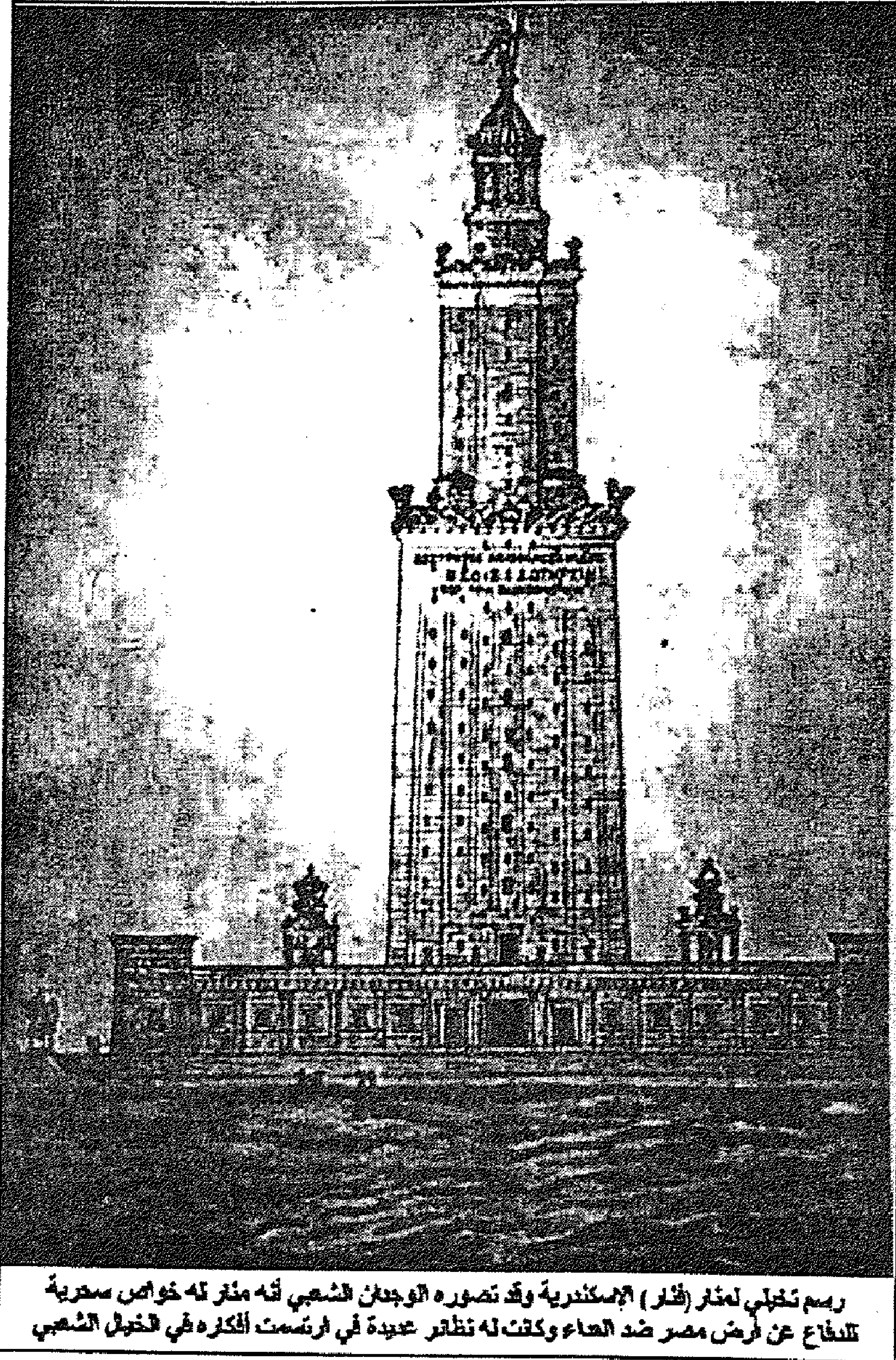
ورغم أن الزمن قد غدر بالعديد من الآثار التي خلفتها الحضارة المصرية القديمة. إلا أن كتابات المؤرخين ظلت حافلة بأوصاف العديد من المنشآت المعمارية الضخمة التي شيدها المصريون، من قصور ومعابد وأهرام وتماثيل ومسلات... ومن أعظم تلك الآثار قاطبة "منار الإسكندرية"[2].

---

[1] – فاروق خورشيد : جولة في التراث بمعادن الجوهر (مكتبة الأسرة ' القاهرة 1999م)، ص90.

[2] –كان منار الإسكندرية منذ إنشائه في عهد بطليموس فيلادلفوس (280 ق.م – 279 ق.م) أحد المعالم البارزة في العمران السكندري، بحيث اعتبر لضخامة بنيته، وارتفاع هامته، ولما كان يؤديه من مهام عظام أحد أعاجيب الدنيا السبع، ولهذا شدت إليه الرحال، وأقبل على وصفه عدد كبير من مشاهديه، فتعددت أوصافه في المصادر المختلفة: اليونانية، واللاتينية والعربية، وقلدت صوره في منارات أخرى ومن بينها

حيث كان منار الإسكندرية بحق هداية للقادمين إليها من البحر فقد كان المؤشر لنهاية رحلة العذاب التي يجتازها المسافرون في البحر، وقد شاهد الرحالة المغربي ابن بطوطة جانبا مهدما من المنار في أثناء زيارته الأولى للإسكندرية (سنة 725 هـ)، ثم شاهده عند زيارته الثانية لها في (سنة 750 هـ)، وقد



رسم تخيلي لمنار (فنار) الإسكندرية وقد تصوره الوجدان الشعبي أنه منار له خواص سحرية للدفاع عن أرض مصر ضد الأعداء وكانت له نظائر عديدة في ارتسمت أفكاره في الخيال الشعبي

استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه"[1]، ولم يبق من المنار-

---

منار قادس الذي كانت صورة مصغرة منه: الزهري: كتاب الجعرافيا، ص 10، وانظر: السيد عبد العزيز سالم، تأثير منار الإسكندرية في عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس (صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مدريد 1986م، عدد 23)، ص 184؛ سحر السيد عبد العزيز: مدينة قادش ودورها في التاريخ السياسي والحضاري للأندلس في العصر الإسلامي(الإسكندرية، 1990م) ص 9، ص 40.

[1] -ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (دار صادر، بيروت، 1960)، ص 40.

والذي كانت الزلازل سبباً في دماره ـ زمن النويري السكندري (سنة 775 هـ) سوى أطلال دارسة قائمة على أسسه، التي ظلت قائمة حتى أيام المقريزي.[1]

منار الإسكندرية ترك أثره على الموروث الشعبي الذي وصلنا في كتابات الرحالة والمؤرخين وما كان يدور حول المنار من أفكار تتطلع إلى كنوز الحضارة المصرية وإرثها الأثري الضخم فنجد رواية شعبية تقول: "أرسل صاحب الروم يخدع صاحب مصر، ويقول: أن الاسكندر قد كنز بأعلى المنارة كنزاً عظيما من الجواهر واليواقيت والأحجار التي لا قيمة لها خوفاً عليها.. فانخدع لذلك وظنه حقاً، فهدم القبة فلم يجد شيئا مما ذكره، فسد طلسم المرآة".[2]

ونسجت الحكايات التي تفسر سر تهدم المنار وترجعه إلى احتيال الروم الذين راموا التخلص من مرآتها التي كانت تحول بينهم وبين دخول الإسكندرية والاستيلاء عليها وأورد المؤرخون حكايات مشابهة تمت فيها الحيلة على"عمرو بن العاص" تارة وعلى"الوليد بن عبد الملك" تارة أخرى.[3] تلك المرآة التي تحدث عنها (الموروث الشعبي) هي التي جعلت من (منار الإسكندرية) أحد عجائب الدنيا على حد قول الهروي: "أنما ذكروا منارة الإسكندرية من العجائب لما كان بها المرآة" وإنما المنارة اليوم ليست من العجائب إنما هي على هيئة مثال برج على ساحل البحر على هيئة المرقب..".[4]

وحينما ألهبت منار الإسكندرية على ساحل البحر المتوسط الخيال الشعبي وجعلته مولعاً بنسج الحكايات والأساطير حولها. فقد شيد الموروث الشعبي منار آخر ولكن على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) ونسبت تلك المنار إلى أحد ملوك مصر القدامى بعد الطوفان فيحدثنا ابن وصيف شله بقوله :" وتولى فرسون وكان عالماً فاضلاً بالسحر والكهانة، عمل منارة على بحر القلزم، الذي هو بحر الحجاز، وجعل فوقها مرآة من أخلاط شتى، تجذب المراكب إلى البحر ولا تبرح حتى يؤخذ منه

1 ـالمقريزي: الخطط، ج1، ص 277.

2 ـابن الوردي: خريدة العجائب، ص 31؛ ابن محشرة: الاستبصار، صـ 95.

3 ـانظر: ابن إياس بدائع الزهور، ج1، ص 106؛ المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 281.

4 ـالهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص 48؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص 146.

العشر ".[1]

كما وصلتنا روايات شبيه حول قيام أحد ملوك مصر القدامى قبل الطوفان بعمل "طلسمات للريح، فكانت المراكب المقلعة إذا وصلت إليه تقف ولا تسير، حتى يعطوا له على كل مركب ضريبة يأخذها، فيطلق إليهم الريح من الجو فيسافروا به "[2]

ونحن لا نورد تلك الحكايات عن منار بحر الحجاز (القلزم/الأحمر) لندلل على رغبة الوجدان الشعبي في إيجاد طلسماً - ربما - ليحمي الأماكن المقدسة في الحجاز خاصة مع محاولات الصليبيين العبث بمقدسات المسلمين بالمدينة المنورة وبمكة المكرمة. أو أنها إشارة على استشعار الوجدان الشعبي في بضرورة اليقظة لحماية حدود مصر - خاصة الشرقية منها - وأمنها ضد أي خطر متوقع. ولكن كي نلقى الضوء على شيوع فكرة المرآة المطلسمة التي شاعت في العديد من أساطير العالم القديم.

ولعل الحديث عن المرآة وعجائبيتها يعد امتداداً لما شاع في الموروث الشعبي عن وظائف المرآة السحرية لدى العديد من الشعوب فنجد أن من بين الوسائل المتبعة في الكونغو للتنبؤ، والتي تشبه إلى حد بعيد فتح المندل في عاداتنا الشعبية، تقليد يقوم على استعانة الساحر بمرآة لتظهر عليها صور



مفتاح الحياة (عين-خي = عنخ) Ankh (Key of Life)

---

[1] - ابن وصيف شاه : جواهر البحور ووقائع الأمور، ص20

[2] - المرجع نفسه ، ص17.

الأشخاص الذين يرغب في التعرف عليهم، كمعرفة السارق أو العدو أو ما شاكل ذلك[1]. ونسج المؤرخون والرحالة العديد من الحكايات العجائبية حول فكرة المرآة السحرية والتي تتشابه لحد بعيد مع فكرة فتح المندل فيشير التلمساني إلى وجود مرآة سحرية عند أهل بابل بالعراق وهي :"مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها، فأبصروه على أيّ حالة هو عليها، كأنهم يشاهدونه حاضراً "[2]

كما استخدمت المرآة أيضاً عند الحيثيين في الطقوس السحرية الخاصة لإعادة الوظائف الجنسية لرجل أو امرأة بعد أن تكون قد تعطلت :"أضع مرآة ومغزلاً في يد المريض ثم يمر تحت "بوابة" وعندما يخرج من تحت البوابة، آخذ منه المرآة والمغزل وأعطيه قوساً، وأقول له :"انظر لقد أخذت منك الأنوثة وأعطيتك الرجولة، ولقد طرحت عن نفسك طبيعة المرأة، وتحليت بطبيعة الرجل"."[3]

ويبدو في هذا التقاليد أيضاً أنها قريبة من تقاليد مماثلة كانت منتشرة في عهد الفراعنة حيث استخدمت المرآة في أغراض سحرية وكانت مرايا مصقولة بعناية تسمى (عنخ)، مصنوعة من البرونز، أو النحاس، أو الفضة ،وعثر على مرايا موضوعة تحت رؤوس المومياوات، أو في مقابل وجوهها، كما حدث مع مومياء مسنول من الأسرة الحادية عشرة، مدفون في (أواست). وكان للمرايا مقابض أنيقة بأشكال بديعة مثل فتيات صغيرات، أو زهور، أو حيوانات، أو رمز للحياة الأخرى - المعروف أيضاً باسم عنخ - والعديد من التصميمات ذات الرمزية السحرية ويعد (عنخ) أكثر الرموز المصرية شعبية، وأقدمها، وأشهرها، وهو يمثل الحياة الأبدية، هدف المصريين من وجودهم كله. وتمثل الدائرة في الرمز الشمس، بينما يمثل الصليب الأرض ؛ بارتباطهما يرمز عنخ إلى الاتحاد بين الإله والإنسان، والسماء والأرض. وغالباً ما يصور الإله (آتون) على هيئة شمس متوهجة ذات أشعة ممتدة تنتهي برموز الحياة (عنخ). وهذا التصوير بالتحديد رمزاً لأن البشر تحوطهم أشعة آتون مانحة الحياة. وكان الملوك يرتدون (عنخ) التي تمد الفرعون بالحماية والحياة

[1] ـ سعد الخادم : الفن الشعبي ، ص 82.

[2] ـ التلمساني : سكردان السلطان ، ص434.

[3] ـ أ . د . جرني : الحيثيون (ترجمة :محمد عبد القادر محمد ، سلسلة الألف كتاب الثاني ، العدد257 ، القاهرة 1997م)،ص196.

الأبدية، وصنعت المرايا استلهاماً منها وهى تسمى أيضاً (عنخ) على هيئة الرمز الذي حملت اسمه.[1]

المرآة السحرية كان لها حضور قوي في أساطير الرحالة والمؤرخين المسلمين في سياق حديثهم عن ملوك مصر القديمة قبل الطوفان فنجد ابن وصيف شاه يتحدث عن أعمال الملك سوريد بقوله :"وكان عالماً فاضلاً في علم السحر والطلسمات وكانت له أعمال كثيرة، وكان أغنى ملوك الأرض، ثم عمل مرآة من أخلاط شتى، فكان ينظر فيها جميع ما يقع في الأقاليم السبعة من خير وشر، وما روى من أرضها بالماء وما لم يُروَ، وكانت تلك المرآة في وسط مدينة أمسوس قائمة على جامة خضراء أسطوانية".[2]

واستمرت (موتيفة) المرآة السحرية مع ملوك مصر بعد الطوفان فيقول ابن وصيف شاه في سياق حديثه عن أعمال الملك (صا) فيقول :" وتولى من بعده ابنه صا (وهو الذي بنى مدينة صا) وبه سميت، وهى الآن خراب على شاطئ بحر النيل، وكان بها أسطوانة من الرخام الأبيض، وعليها مرآة من أخلاط شتى، وكان ينظر فيها جميع ما يحدث من الحوادث في الأقاليم السبعة من خير أو شر، واستمر في الملك حتى هلك ".[3]

---

[1] ـ آنا رويز : روح مصر القديمة ، ص157.

[2] ـ ابن وصيف شاه : جواهر البحور ووقائع الأمور ، ص18.

[3] ـ نفسه ، ص21



وحول آثار ملوك مصر القديمة دارت الروايات والقصص الشعبية ومنها الدراهم والقساطل والأواني التي خلفها هؤلاء الملوك إذ يقول ابن وصيف شاه في سياق حديثه عن أعمال ملوك مصر القديمة :"وكان الملك (هوجيب) حكيماً فاضلاً في علم السحر والكهانة، وله أعمال عجيبة، منها أنه عمل درهماً إذا ابتاع صاحبه شيئاً اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن هذا الدرهم ولا يطلب عليه زيادة فيغتر البائع ويقبل الشرط فإذا وقع الوزن بذلك الدرهم فيزن قبالته جميع الأصناف ولا يعد له في الوزن، وقد وجد هذا الدرهم في كنوز بعد مدة طويلة، واتصل من ناس إلى ناس حتى وجد في خزائن بني أمية، وكان من شأن الدرهم إذا أراد الرجل أن يبتاع فيقلبه ويقول له :يا درهم اذكر العهد القديم الذي أنت عليه، ثم يبتاع به ما أراد، فإذا مضى إلى بيته فيجد ذلك الدرهم قد سبقه إلى ميزانه. ويجد البائع مكان ذلك الدرهم ورقة بيضاء من قرطاس أو ورقة آس، فكان الناس يتعجبون من شأن هذا الدرهم، حتى فقد من الوجود إلى العدم، واستمر (هوجيب) في الملك حتى هلك."[1]

ولعل فكرة هذا الدرهم المزعوم هي امتداد لما شاع في مصنفات السحر الشعبي

[1] - ابن وصيف شاه :جواهر البحور ووقائع الدهور ، ص19.

ال	ر	زا	ق
٩	٩٩	٣٢	١٩٩
٩٨	٦	١٠٢	٣٣
٢٠١	٢٤	٩٧	٧

وتشبع به الوجدان والخيال الشعبي عن جلب الدراهم والكنوز متى ألقيت التعزيمة المناسبة وأطلقت الطقوس الخاصة وهو ما نقله لنا ابن الحاج التلمساني في كتابه (شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى) فيشرح تحت عنوان (مسئلة في جلب الدراهم) الطريقة التي بها يحصل الإنسان على مراده من الأموال والذهب وتتلخص:" في أن يضع الإنسان مربعاً سحرياً خاص في كاغد أخضر في اليوم الأول من يناير وتكتب هذه الآية دائرة، وهي قوله تعالى :"وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى. .إلى قوله تعالى سعياً "، ثم تبخر عملك ببخور السودان ثم تصلي اثني عشر ركعة كل ركعة بفاتحة الكتاب والآية سبعين مرة ثم تذكر عليه هذا الكلام إلى طلوع الشمس وهو (بأسلوم أجب شروت بحق صفيا كل وأنت قـ...) جعلت قبل الصلاة درهماً من فضة مكتوباً فيه جامع بالنقش وفي الثاني جاعل بالنقش، وهو تحت السجادة والمربع الذي فيه الدرهم المكتوب فيه جامع تحت جبهتك عند الصلاة، فإذا طلعت الشمس فإنك تجد الدرهم المكتوب فيه جاعل قد رجع إلى عند المكتوب ،فأنفق بالمكتوب فيه جاعل فإنه يرجع، ولو أنفقته سبعين مرة لا تدفعه إلا لأهل الذمة من اليهود فإنك إن أكلت به مال أحد من المسلمين بطل عملك. ..."[1]

ويتحدث المقريزي عن آنية بمصر :" إذا جُعِلَ فيها الماء صار خمراً في لونه ورائحته وفعله، وقد وجد من هذه الآنية بأطفيح في إمارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، شربة جزع بعروة زرقاء ببياض، وكان الذي وجدها أبو الحسن الصائغ الخراساني، هو ونفر معه، فأكلوا على شاطئ النيل وشربوا بها الماء فوجدوه خمراً سكروا منه وقاموا ليرقصوا فوقعت الشربة فانكسرت عدة قطع، فاغتم الرجل وجاء بها إلى هارون، فأسف عليها وقال لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكي ".[2]

[1] ـ ابن الحاج التلمساني المغربي (ت737هـ):شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى (الطبعة الأولى ، مكتبة محمد علي صبيح ، ميدان الأزهر و القاهرة 1907م)، ص95.

[2] – المقريزي : الخطط ، ج1 ، ص34.

ويعلق المقريزي على ذلك بعبارة تكشف مدى الارتباك الناجم عن وصول إشارات من تاريخ البطالمة في ثنايا الرواية الأخيرة فهو يذكر :"وأما الآنية النحاسية التي تجعل الماء خمراً فإنها منسوبة إلى قلوبطرة [كليوباترا] بنت بطلميوس ملكة الإسكندرية "[1] بينما يقول ابن وصيف شاه :"أن الملك مرقونس .كان عالماً فاضلاً بالسحر والكهانة وهو الذي عمل آنية إذا ملئت ماءً يصير خمراً، وقد وجدت في بعض الكنوز بمدينة إطفيح في أيام هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ثم هلك".[2] لنجد اختلاطاً بين العناصر الأسطورية والعناصر التاريخية بشكل مثير .وإن كانت تتحدث دائماً عن أعمال السحر والعجائب التي كانت تلازم ملوك مصر القديمة، والتي من شأنها أيضاً أن تعكس قدراً كبيراً من الانبهار والإعجاب الممزوجين بالنقص الفادح في المعلومات التاريخية .

إن الآثار المصرية وكنوزها، وأسرارها على الرغم من توالي الأزمنة، ودورة العصور لا تزال تتوهج بالأساطير التي تركت أثرها على أصحاب الكتابات التاريخية كلما اقتربوا من تلك الآثار المصرية في إحساس يحمل من الجاذبية والسحر قدر ما يحمل من القلق والخوف فالدخول إلى هذا العالم هو دخول إلى عالم يتمازج فيه الواقع مع الخيال والطبيعة مع ما وراءها والحاضر مع الماضي .

كل هذا عبر مشهد سطوة وسحر الآثار المصرية والتي وقف أمامها الرحالة الزهري في(أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) قائلا: "وفيها من الأعاجيب والبنيان والمطالب والكنوز، ما لا يحصى له عدد، فاختصرنا ذكرها لشهرتها، وسنذكر منها لمعاً فمن ذلك أن فيها مغارات تحت الأرض فيها طلاسم تتحرك بيد بعضها سيوف وأقواس ترمي بها من يدخل عليها. وقد ذُكر أن قوماً دخلوا هذه المطالب فبلغوا إلى باب من حديد قد طلي بالذهب ولم تبدله الأيام وعليه طلسم واقف، وبيده سيف مشهور طوله أربعة أذرع وفي عرضه ذراع، لو صب على جبل لمزقه، فاحتالوا عليه حتى سقط الطلسم فلما قربوا من الباب إذا بنبال ترشقهم من خلفهم فصنعوا لذلك واقي لظهورهم فكادت النبال ترشقهم وتنفذهم لشدة رميها فلما

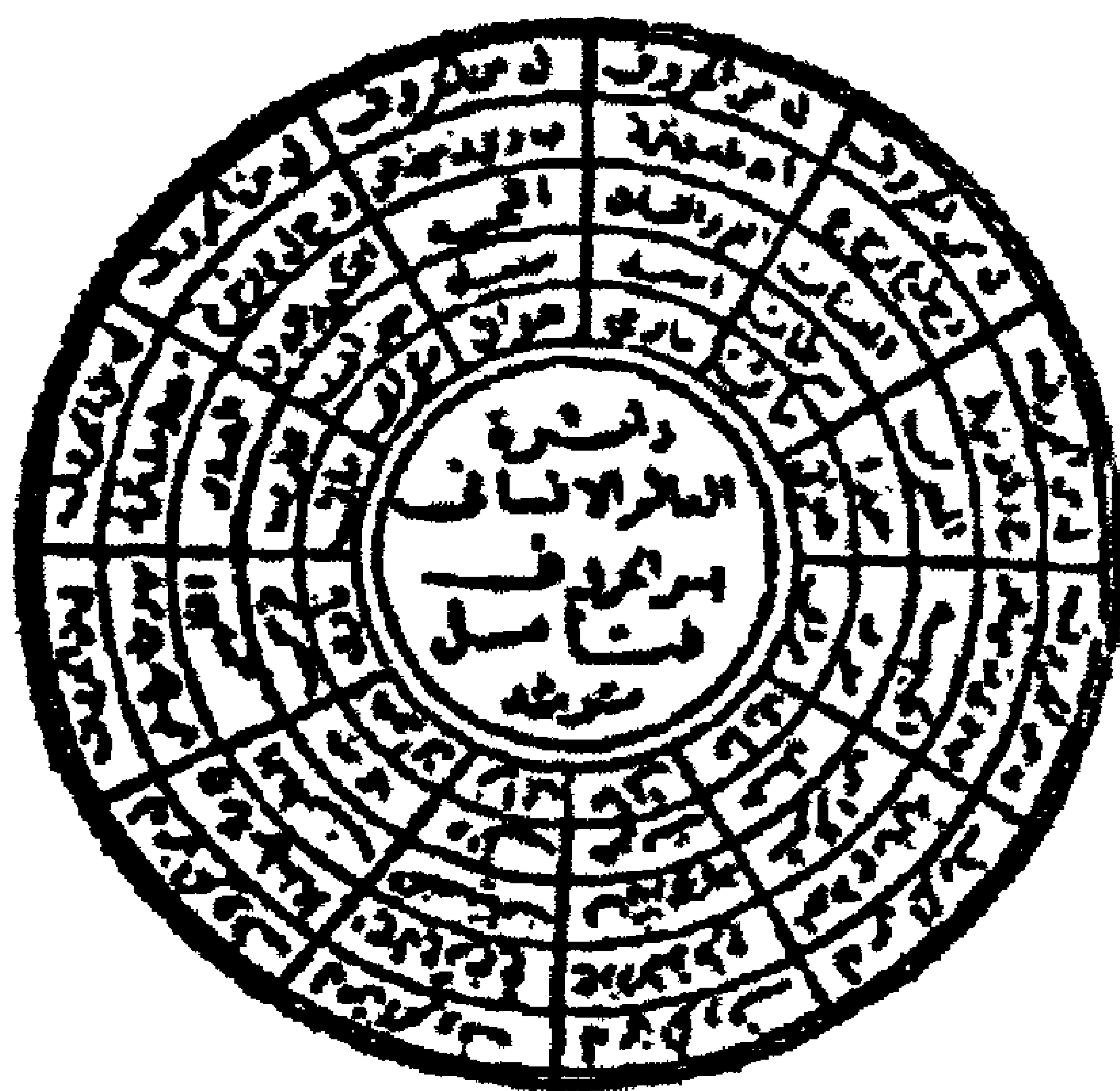
---

[1] – نفسه ،ج1،ص35.

[2] - جواهر البحور ووقائع الأمور ، ص21

فتحوا الباب إذا هم بقصر تحت الأرض قد دارت بهم مراتب .. فأخرج كل واحد منهم وقره وما قدر عليه من الذخائر، فلما خرجوا من الباب اختلف عليهم الطريق وتلف بعضهم عن بعض، وطفيت مصابيحهم فهلكوا ونجا بعضهم. فمن خرج منهم أخبر بكل ما رآه فما زال الناس يسلكون تلك المغارات ويخرجون منها أنواعا من هذه الصفات والذخائر فمنهم من يخرج ومنهم من يهلك".[1]

جدير بالذكر أن المصريين القدماء كان لديهم اعتقاد راسخ في الدور السحري الذي تؤديه كنوزهم وفي القدرة السحرية لقطع الحلى والمصوغات والمجوهرات واستخدمها كتمائم وتعاويذ لمنع الأذى أو اتقاء لسؤ الحظ، أو للتحصين ضد السحر الأسود الشرير، أو ضد الحسد وأعين الحاسدين، وإبعاد الأرواح الشريرة والوقاية من الأمراض، بالإضافة إلى قدرتها السحرية على تحقيق الرغبات والأمنيات الطيبة. ومن المعروف – حتى في عصرنا الحالي – أن المخيلة الشعبية مازالت تؤمن بمثل هذه المعتقدات، وترى في بعض أنواع الحلى ومشغولات المصوغات والمجوهرات، قدرة على تحقيق الحماية من الأمراض أو الوقاية من عض الثعابين والأفاعي ولدغ العقارب وغيرها من الحشرات السامة.



شكل سحري منتشر بمخطوطات السحر الشعبي عن طبائع الأنفس يشبه فلك البروج بمعبد دندرة

[1] – الزهري: كتاب الجعرافية، ص 39 ص 40.

وكان سحر مصر يكمن في أمور أخرى عند بعض الرحالة والمؤرخين والكتّاب، وأن لم تكن مصر جذابة في حد ذاتها، فجاذبيتها بالنسبة لهم كانت تنبع من ارتباطها بأشياء أخرى؛ فمثلا اهتم التلمساني (المتوفي سنة 776 هـ) بعجائب مصر من منظور آخر في كتابه "سكردان السلطان".[1]، وهو كتاب أدبي تاريخي، يشتمل على أنواع الجد والهزل، ألفة للسلطان الملك الناصر بن أبي المحاسن في سنة 757 هـ. في خواص السبعة التي هي أشرف الأعداد طبع وحاول أن يشعرنا فيه بأن هناك رابطاً سحريا غامضاً بين عجائب أرض مصر وبين العدد سبعة حتى أنه خصص باباً كاملاً في هذا الشأن تحت عنوان: "في ذكر نبذة مما وقع في إقليم مصر من هذا العدد على طريق الإجمال".[2] فيشير لذلك بقوله :"فلما كانت السبعة من أشرف الأعداد، وكان وجودها بمصر المحروسة أكثر من سائر البلاد، ألفت منها في هذا الكتاب سنة سبع وخمسين وسبع مئة ما لم أسبق إليه، ولا أحد في الأقاليم السبعة عليه، وسيأتي مصداق هذا الكلام، ولاسيما عند ذكر قصة يوسف الصديق عليه السلام"[3] ومن أطرف الحكايات التي تنسب إلى قدماء المصريين قدرات خارقة مرتبطة بأسرار العدد سبعة ؛ أن أحد ملوك مصر القدامى: "عمل مرآة من المعادن السبعة[4]، فينظر فيها إلى الأقاليم السبعة، فيعرف ما أخصب منها وما أجدب، وما حدث فيها من الحوادث، عمل في وسط المدينة صورة امرأة جالسة في حجرها صبي كأنها ترضعه، فأي امرأة أصابها وجع في جسمها مسحت ذلك الموضع من جسد تلك المرأة فتبرأ من ساعتها، وهذا من العجائب".[5]

---

[1] –السكردان في الأصل: خوان يوضع فيه الشراب.

[2] –التلمساني: سكردان السلطان، ص 351.

[3] ـ المصدر السابق ، ص349.

4 – –كان المصريون أول الكيميائيين، وفي عملياتهم التحويلية اشتغلوا بالمعادن السبعة: الذهب، الفضة، الزئبق، النحاس، والحديد، الزنك، الرصاص، ويتحكم في كل منها الكواكب السبعة على التوالي التي كانت تُعبَد: الشمس والقمر، عطارد، الزهرة، المريخ والمشتري، وزحل. للمزيد انظر: آنا رويز: روح مصر القديمة، ص 184.

[5] –التلمساني: المصدر السابق، ص 433؛ المقريزي ، الخطط ، ج1 ،ص33.

فأسطورية الرقم (سبعة) وظهوراته ــ في الكتابات التاريخية المتعلقة بمصر يكاد لا ينتهي، إذ أنها رمزية تتدرج في نطاق الرمزية (الكوزمولوجية) ظلت محافظة على قدسيتها واستسراريتها عبر العصور، ولدى أغلب الشعوب، رغم تغير المعتقدات والأديان، شأنها كشأن المكان المقدس الذي يكون معبداً وثنيا ثم يصير كنيسة فجامعاً فمدرسة دينية، فقد مثل الرقم (سبعة) دائماً رقما ملغزاً، سحرياً، يجسد المعرفة المكثفة، والتنوير، والروحانية، وفي مصر يبرز الرقم (سبعة) دائما فيما يتعلق بالعجائب والأساطير، والمعبودات، والفراعنة، والكيانات الروحية، والفلك.[1]

[1] -آنا رويز: روح مصر القديمة، ص 184.

العدد سبعة أيضاً له مكانته المميزة والإستمرارية في مصنفات السحر الشعبي فيقول البوني في شأن العدد سبعة :"واعلم أن الله خلق سبع سموات وسبع أرضين وخلق الخلفاء للظاهر سبعاً والشياطين سبعاً والنجوم السيارة سبعاً وكذلك الملائكة المقربين، والأفلاك والصفات الأسمائية والأسماء الأفعالية والأسماء الذاتية، وخلق الجنة على سبع، وأعلم أن العرفاء سبع، وبهم يستدير السبع السفليات وعليهم استمداد أنوار العلويات فيفيض كل واحد على عرش الآخر إلا الغوث فإنه يمتد من العرش المطلق فيفيضه، ولذلك كان استمداد السبعة منه بواسطة الأربعة والسبعة أقطاب تمد السبعين والأربعة رأس الأربعين والجميع من نسبة الكرسي وكل عالم يردّ الآخر وهذه صورة الإنسان وما له من الصفات والأسماء وما تحت رجليه اليمين والشمال .قال صلى الله عليه وسلم :"الجنة تحت أقدام الأمهات وهذه صورته "[1]

من هنا يعد السحر المكتوب أكثر ضروب السحر الرسمي أهمية لدى العامة، وتتبع أهميته البالغة من حيث هو – في نظر العامة – «سحر عالم» بمعنى انه يقوم على علوم مضبوطة القواعد تدرس عكس ما هو عليه الأمر بالنسبة إلى السحر الشعبي الذي تتناقل وصفاته بين عامة الناس عن طريق المشافهة ،وإذا كانت فعالية السحر الشعبي نسبية اعتبارا لكونه يتداول بشكل مفتوح بين العامة فإن سحر الأحرف والأرقام يعد «مؤكد الفعالية» بسبب توفره على شرطي الغموض والسرية الضروريين لتمام العملية السحرية ونجاحها.وذلك من خلال الوفق؛ والوفق :يسمى أيضا في لغة أهل «الحرف» الجدول أو المربع ويسمى أيضا الخاتم هو جدول يتكون من عدد معين من الخانات أفقيا ومثلها عموديا وتتوافق أعدادها وأحرفها وتستوي في الأقطار والزوايا وعدم التكرار لتنتج مفعولا سحريا وتختلف أسماء الأوفاق بحسب عدد أضلاعها ففي الحال التي يكون عددها ثلاثا يسمى الوفق مثلثا وفي حال الأربعة مربعا وهكذا إلى المعشر الذي هو الجدل المشكل من عشر خانات عمودية وعشر أفقية .وبحسب البوني فإن لكل صنف من الاوفاق أغراض يتوسل به إلى قضائها وهكذا، فإن :

المثلث: لأعمال الخير وتيسير الأعمال العسرة كإطلاق المسجون وتسهيل الولادة

---

[1] ـ البوني :شمس المعارف الكبرى ، ص462.

ودفع الخصومة والظفر بالعدو والأمن من الغرق وابتداء الأعمال وذهاب ريح القولنج .والمربع: لأعمال الخير كالمحبة والجذب ومنع التعب والنصرة على الحرب والجاه والقبول ولقاء الأمراء وكسب مودة النساء .والمخمس: لأعمال الخير كتسليط المرض والفرقة والعداوة والخراب والرجم ومحبة النساء . أما المسدس: لأعمال الخير كالرفعة والجاه والعمارة والنصر وزيادة المال .والمسبع: للظفر بالعدو وتسهيل العلوم ومنع السحر وإذهاب البلادة .والمثمن: لأعمال الخير والشر والجاه وجلب الامطار والبرء من المرض وذهاب الجنون وتسهيل العلوم وابتداء الأعمال والإخفاء عن أعين الناس .والمتسع: لأعمال الخير كالجاه والقبول ودفع الخصومة والأمن من المكائد وللمحبة والنصرة في الحرب ومنع البرودة من الأعصاب وإذهاب البلغم . وأخيراً المعشر :للعظمة والشرف ومنع الحديد ودفع السموم وذهاب الوباء وتسهيل الأمور الشاقة وقضاء الحوائج من الأمراء والسلاطين والنصرة في الحرب وغير ذلك.

وهكذا كان لأرقام معينة في مثيولوجيات الشرق الأدنى القديم "قيَمٌ سحرية" اعتبرت بالغة الفعالية إلا أن الأعداد عند اليهود ــ الذين لم يعرفوا الأرقام ــ أصبحت حواذاً غلاباً افترش صفحات (العهد القديم) كله وسرى في أوصال الديانة وربما انتقل هذا التأثير إلى كتابات الرحالة و المؤرخين الذين لم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد في القرآن الكريم من أخبار مصر القديمة، فالتمسوا المادة فيما وصل إليهم من تفاصيل ما روي من هذه الأحداث في الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى.[1]

وعندما توصل الفيثاغوريون سنة 540 ق.م إلى التفكير في العداد كعنصر أساسي لتقويم كافة الأشياء ــ أمكن عن طريق هذا التفكير تطوير الرياضة وإدخالها في مجال جديد. ولقد تسنى استكمال هذه الرياضة بعدئذ على يد فلاسفة العرب في العصر الإسلامي، ثم توقف من بعدهم تطوير الرياضة فترة من الزمن. ولقد ارتبطت الأعداد عند اليونان بالماديات، ولذلك نراها ترتبط منذ بداية التفكير فيها بمولد الإنسان

[1] -شفيق مقار: السحر في التوراة والعهد القديم (الطبعة الأولى، مكتبة رّياض الريس، بيروت 1990م)، ص 463، ص 504؛ حسين مؤنس: الحضارة، ص 70.

ووجوده جثمانياً في الطبيعة، ولا غرابة أن نجد في الرموز الرياضية للفيثاغوريين التي تجنبت تحديد الوقت أنها ترمز أيضاً إلى رحم الأم الذي يعتبر مصدر الحياة، وحاز العدد 1 (واحد) قداسة خاصة في الفكر المصري ؛ لأنه ــ في ذلك الفكر ــ ارتبط بالألوهة، وبالبدء، وبالزمن الول الذي لم يكن قد وُجد فيه شيئان على أرض مصر. فهو تجسُّد المطلق والوُحدة، وهو الذي يولِّد التعدّد من ذاته. ومتى دلفنا إلى عالم الأعداد المسحور ذاك، سنجد أنفسنا مواجهين، بلا مهرب قبل أي شئ آخر، بالعدد واحد، وبالتالي بمسألة خلق العالم وقضية التوحيد.

مثال للقيم العددية للحروف (اسم الله القابض)
نقلاً عن كتاب شمس المعارف الكبرى

(الفصل الحادي والعشرون في اسمه تعالى قابض) من ذكر هذا الاسم غلب عليه الجلال والهيبة ولا يطيق احد مجالسته ومن رسمه في صحيفة من رصاص في شرف زحل وذكر الاسم عدده وقال اللهم اقبض على فلان قلبه وسره استجيب له وهو من أذكار عزرائيل عليه السلام وفيه سر القبض الارواح وله مربع جليل القدر وقد جمع بين مربعه الحرفي ومثله العددي ومن أراد قبض روح أحد فليتخذه ذكراً دائماً ويذكر اسم من أراد هلاكه فانه يهلك فاتق الله ومن اكثر من ذكره أقبلت عليه عوالمه ويرى آثار الفعالات في نفسه وفي غيره بقدر اجتهاده وصفاء باطنه وهذه صورته

جليل	محيط	جميل	حسيب
٦٢	٧١	٧٤	٦٦
٧٠	٨١	٦٩	٧٥
٧٦	٧٦	٦١	٧٢

٢١٨	٢٣١	٢٢٧	٢٢٥
٢٢٩	٢٢٤	٢١٠	١٢٥
٢١٣	٢٢٤	٢٢٣	٢٢٠
٧٣	٢٢٢	٢٢٢	٢٢٧

وهذا الاسم له من العدد ٩٠٣ وهو يدل على الجمع الذي هو مقتضى الضيق وهو فرد مستطيل

في بردية نسي آمسو نجد أنه، قبل أن يوجد العالم وما فيه ومن فيه، لم يكن هناك إلا الواحد. وعندما حان وقت التعدد والكثرة "صنع الواحد فمه، وبفمه نطق باسمه، بكلمة القدرة، فأوجد ذاته، وبزغ من المادة الأولى التي وجدت بغير شكل منذ الأزل، وكان الواحد كامناً فيها، وكان اسمه أوزيريس، جبلة المادة الأولى، ولم يكن هناك وجود لشئ قبله، ولم يكن هناك غيره، وعندما بزغ بكلمة فمه إذ نطق باسمه، صنع كل الأشياء وحده"

وفي كتاب الموتى يقول الإله :" أنا الواحد. أنا الأوحد. أنا رع الذي بزغ في البدء. أنا الإله العظيم الذي أوجد ذاته بذاته وجعل أسماءه جمع آلهة في الإله الواحد " ثم يقول الإله :"أنا الأمس. أنا اليوم. أنا الغد. أنا بالأمس أوزيريس. أنا اليوم رع. أنا في الغد حورس" .

وكما قدس المصريون العدد واحد، قدسوا العدد 2 ؛ لأنه رَمَزَ في فكرهم الديني إلى التثنية، إلى خلق ما هو أعلى وما هو أسفل، إلى خلق الليل والنهار، إلى تثنية جنس الإله بحيث هو لاجنس له، وإلى خلق الذكر والأنثى .[1]

فالواحد المطلق، إذ يعي ذاته يخلق التعدد، فيصبح الواحد اثنين، ويخلق التقابل والتضاد. فالعدد 2 يعبر عن التضاد وتباين الطبيعة والاستقطاب، وفي الأسطورية المصرية تمثّل ذلك أساساً في التضاد بين أوزيريس وست، ثم بين حورس وست. وكذلك ارتبط العدد 2 الذي أتى من ازدواج العدد المفرد بالعضو الجنسي عند الرجل، أما العدد 3 فقد ارتبط حسب رياضة اليونان هذه بالتكاثر الناجم عن اقتران الرجل بالمرأة.[2]

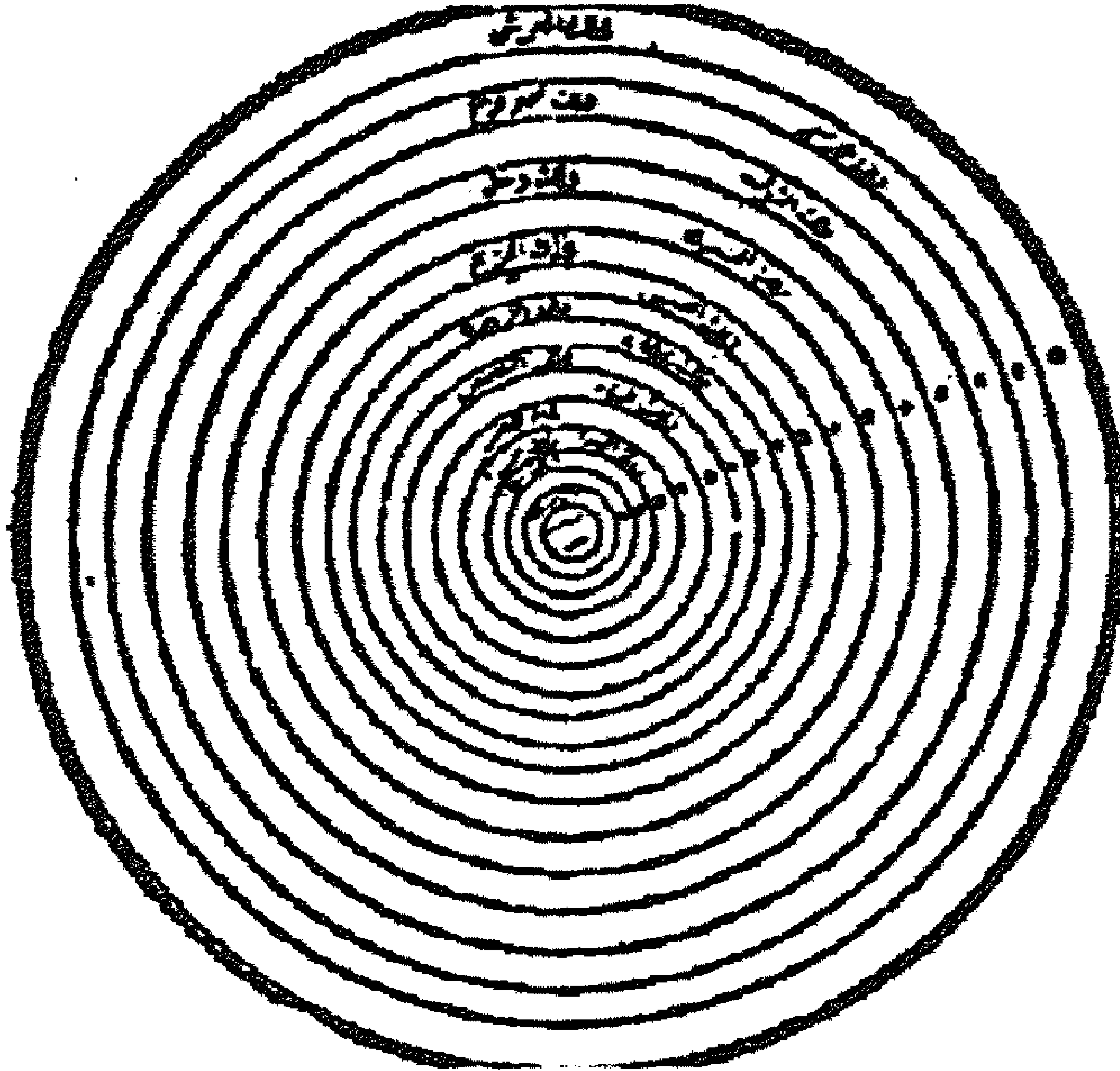
وفي الأسطورية المصرية، اكتسب ذلك العدد 3 قداسة خاصة استمدت من قداسة الثالوث الأوزيريسي: أوزيريس ــ إيزيس ــ حورس، وثالوث طيبة: آمون ــ مُتْ ــ خِنسو. وبشكل عام، وجد الفكر المصري أن ذلك هو العدد الذي له بداية ووسط، ونهاية، ووجده أول الأعداد تجسيداً لكمال الوحدة المركّبة، الرمز الرئيسي للألوهة عند المصريين، باعتباره رمز الكامل كمالاً مطلقاً، واللامتناهي، الذي كان، والذي هو كائن، والذي سوف يكون ("أنا الأمس، وأنا اليوم، وأنا الغد"). ومن قداسة ذلك العدد، قُسم النهار إلى ثلاثة أوقات: الصبح، والظهر، والمساء، لإقامة الصلوات في المعابد كل يوم.

ولم يكن وقوف المصريين على ذلك المفهوم التثليثي عشوائياً أو من قبيل التهويم: "فأي ظاهرة من ظواهر العالم الطبيعي تمثل ــ لحظة حدوثها ــ لحظة من التـوازن بين قوى موجبة وقوى سالبة. ولقد كان العقل المصري المستنير قـادراً علـى إدراك

---

[1] ـ شفيق مقار: السحر في التوراة ، ص478.
[2] ـ سعد الخادم :الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص154.

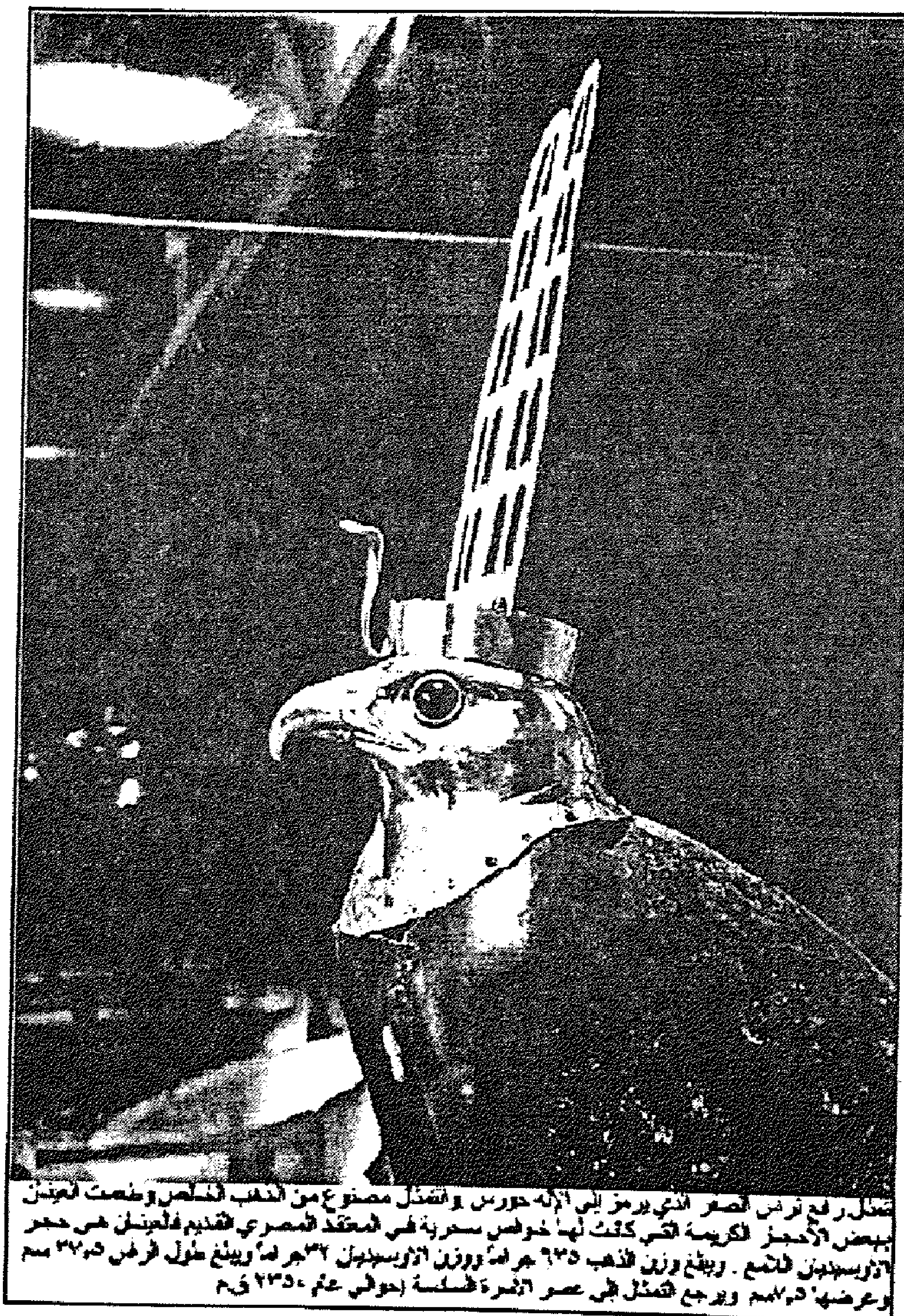
ذلك، والتعامل معه بعلمه المتقدم. ومن الواضح أن علماً يقدر على فهم تلك الحقيقة يصبح قادراً أيضاً على إدراك أنه مستطيع، متى توصل إلى معرفة كافية بتلك القوى الموجبة والسالبة، وأن يتوصل ـ عن طريق الاستنتاج ـ إلى الوقوف على المزيد من المعارف عن القوة الثالثة التى لا سبيل إلى وصفها، والأقدس من أن تحددها كلمات اللغة، من حيث أنها، وهى المحدثة للتوازن بين الموجب والسالب، لابد كائنة ولا بد معادلة في القوة لتلك القوى المتضادة. ومن هذا السعي إلى الوقوف على كنه تلك القوة الثالثة، خطوة قصيرة إلى الرغبة في استخدام ما تفضي إليه المعرفة بها. والقدرة على استخدام تلك المعرفة وجه من أوجه ما نسميه بـ"السحر"



العدد واحد رمز الله مركز الكون المتمثل في دوائر
كما ورد في مصنفات السحر الشعبي

أما العدد 4، فاستمد أهميته من انكباب كهنة (أون) بهليوبوليس على تعمّق مضامين الأبعاد المكانية، وإقامتهم المذبح مربع الأركان المتوجه كُل ركن من أركانه إلى جهة من الجهات الأصلية الأربع التي قالت الأسطورية الدينية المصرية القديمة: إن أبناء حورس الأربعة يحرسونها، وفي لاهوتية هليوبوليس، كانت قدرة الخلق

الأصلية مقسمةً ذاتها إلى ؛ الأرض، والماء، والنار، والهواء: الأرض تنجب كل حياة وتزود كل حيّ بما يقيم أوده، لكنها ــ في النهاية ــ تبتلع كل حياة أنجبتها، والماء يعطي المطر ويسبب الخصب ويحدث الفيضان، لكنه أيضاً يحدث الدمار من حيث كونه عنصر الفوضى الأولى المهدِّد أبداً باجتياح الخليقة ؛ والهواء نفس الحياة المسمى: النور، والدفء ومنبع الحياة الواعية، لكنها أيضاً عنصر الدمار الذي يُهلك ولا يبقى على شئ. تلك العناصر الأربعة معاً تشكل المحصلة الكلية للكون بكل أوجهها المتضادة الإيجابية والسلبية والخيرة والضارة.[1]



تمثال رفيع لرأس الصقر الذي يرمز إلى الإله حورس والتمثال مصنوع من الذهب الخالص وطعمت العينان ببعض الأحجار الكريمة التي كانت لها خواص سحرية في المعتقد المصري القديم فالعينان هي حجر الأوبسيديان اللامع. ويبلغ وزن الذهب ٦٣٥ جراماً ووزن الأوبسيديان ٣٢ جراماً ويبلغ طول الرأس ٣٧٫٥ سم وعرضها ١٠٫٧ سم ويرجع التمثال إلى عصر الأسرة السادسة حوالي عام ٢٣٥٠ ق.م

[1] ـ للمزيد، انظر شفيق مقار، السحر في التوراة، ص479.

الأفكار نفسها انتقلت إلى إخوان الصفا (في القرن العاشر الميلادي) حين اعتبروا أن العدد 4 أصل الموجودات، ورتبوه على الأمور الطبيعية والروحانية واعتمدوا في ذلك على المربعات لأنهم وجدوا عدد الأربعة في أكثرها، فصار له شرف الصدارة عندهم، مع ما لسائر الأعداد من الفضل في نسبة بعضها إلى بعض كما توجد النسبة في الأمور الطبيعية والأمور الروحانية، فمن ذلك قولهم في الرسالة الأولى :"إن الأمور الطبيعية أكثرها جعلها الباري جل ثناؤه مربعات مثل الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ؛ ومثل الأركان الأربعة التي هى النار والهواء والماء والتراب، ومثل الأخلاط الأربعة التي هى الدم والبلغم والمرتان (المِرّة الصفراء والمِرّة السوداء) ومثل الأزمان الأربعة التي هى الربيع والصيف والخريف والشتاء، ومثل الجهات الأربع، والرياح الأربع :الصبا والدبور، والجنوب والشمال، والأوتاد الأربع الطالع والغارب ووتد الأرض، والمكونات الأربع التي هى المعادن والنبات والحيوان والإنس، وعلى سبيل هذا المثال وجد أكثر الأمور الطبيعية مربعات، ". وقد أكد هؤلاء تفوق علم الهندسة وعلم الكون وفقاً للتقاليد الفيثاغورية .

وهناك تقليد جاء من الهند وفارس أضاف مربعات سحرية أخرى، منها ما يعرف بالمربع الفيدي الذي استخدم فيما بعد كمفتاح للتخطيطات والرسوم الهندسية الإسلامية، وقد أخذت الحضارة الإسلامية هذا المربع وضمته إلى اكتشافاتها في زمن مبكر، وتحتوي فيه مربعات كل من الصف الأول الأفقي والصف الأولى الرأسي على الأرقام من 1 إلى 9، وتملأ المربعات الأخرى بحاصل ضرب الرقمين الأفقي والرأسي المتقابلين (أو مجموع الأرقام التي يتكون منها حاصل الضرب) في شكل يشبه شبكة الكلمات المتقاطعة مثال 7 × 9=63 (3+6=9) إن هذا المربع ملئ بالطرائف والمفاجآت الرياضية أولها الرقم سبعة في مركز المربع الفيدي وله قوة سحرية خاصة [1]

وإن كان العدد 4 قد احتل تلك المكانة عند فلاسفة الإسلام ومن قبلهم عند كهنة الحضارة المصرية القديمة فما بلك بالعدد 7، الذي كان ــ دينياً وسحرياً ــ أعظم الأعداد أهمية عند المصريين، باعتباره العدد المجسّد للكمال والاكتمال، فهو

[1] ـ سليمان حسن :الرموز التشكيلية ، ص180

الذي يرمز إلى وحدة الروح والمادة، وحدة العدد 3 والعدد 4. ولسنا بحاجة إلى الذهاب بعيداً في بحثنا عما يجسد مغزى العدد 7 وأهميته عند المصريين، فلدينا الهرم ــ الذي مازالوا حائرين فيه حتى اليوم آخذين في نسبته إلى "مهندسين يهود" أو زوار جاءوا من الفضاء فبنوه ــ وقاعدته المربعة التي ترمز إلى الجهات الأربع الأصلية وجوانبه الثلاث التي ترمز إلى الثالوث، ولدينا أيضاً اللاهوتية المصرية كلها، وكون العدد 7 فيها العدد المقدس للإله الشمس رع، مسبّع القدرات، والإلأهة معات، ربة الحقيقة، وبالنظر إلى أنه حاصل جمع العدد 3، الرمز الرئيسي للألوهة في الديانة المصرية، والعدد 4 المجسد للمحصلة الكلية للعالم الذي أوجدته الألوهة، فهو العدد السحري الأشمل والأكمل و الأفعل تعبيراً عن وحدة الإله وخليقته.

وقد وصف الفيلسوف الإسلامي ابن سينا الذي ولد سنة 980م، فلسفة الكون بدوائر سبع وكان كل كوكب يناظر مربعاً سحرياً ،ويتولد عن هذه المربعات عدة تراكيب من التخطيطات ويشير ابن سينا إلى الأفلاك السبعة وخصائصها العددية. ويضيف التلمساني صاحب كتاب (سكردان السلطان) تحت باب(في ذكر شرف هذا العدد[سبعة] وخاصيته ومزيته على غيره من الأعداد) يقول:"السبعة أول الأعداد الكاملة ؛ لأنها جمعت العدد كله، لأن العدد أزواج وأفراد، فالأزواج منها أول وثان، فالاثنان أول الأزواج، والأربعة عدد ثان والثلاثة أول الأفراد، والخمسة فرد ثان، فإذا جمعت الزوج الأول مع الفرد الثاني، أو الفرد الأول مع الزوج الثاني كانت سبعة، وهذه الخاصية لاتوجد في عدد قبل السبعة ... والعرب تبالغ بالسبعة ؛ لأن التدبل في نصف العدد وهو خمسة إذا زيد عليه واحد، كان لأدنى المبالغة، وإذا زيد عليه اثنان كان لأقصى المبالغة ولا زيادة على ذلك ... والسبعة عدد مقنع ؛لأنها في السموات والأرض، وفي خلق الإنسان، وفي رزقه، وفي أعضائه التي يطيع الله، وبها يعصيه، وهي عيناه وأذناه ولسانه وبطنه وفرجه ويداه ورجلاه. قال الإمام فخر الدين في أسرار التنزيل :لا إله إلا الله محمد رسول الله سبع كلمات، وللعبد سبعة أعضاء، وللنار سبعة أبواب ،فكلّ كلمة من هذه الكلمات السبع تغلق باباً من الأبواب السبعة، عن عضو من الأعضاء السبعة. "[1]

[1]ـ التلمساني: سكردان السلطان ، ص356-357

وقد حاول بعضُ المؤرخين والرحالة أن يطوعوا استمرارية العدد على عجائب مصر السحرية او التي كان للسحر دوراً لابأس به في وجودها. فالقصص التي تدور حول هذا الموضوع كثيرة ومتناثرة في بطون الكتب التاريخية، ولكنها تشترك جميعاً في صفة واحدة هي المبالغة التي تعكس الانبهار بمصر؛ الإنسان، والأرض، والحضارة. والتي تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلى أعمال السحر والخوارق في خروج من دائرة ما هو مألوف إلى انفتاح على اللامألوف وتجلياته، مما يعطي القناعة بأن العجيب متجذر في الكتابة التاريخية المتعلقة بمصر تجذراً، يجعل منه سمة بارزة وشكلاً يحضر مرة بهذه الصفة، ومرة أخرى يحضر باعتباره عنصراً تحفيزياً تاريخياً حقيقياً وفاعلاً في الواقع والوقائع.

وهكذا، بقدر ما بهرت الآثار العظيمة التي خلفتها الحضارة المصرية القديمة، والتي لم تخلف مثلها حضارة أخرى من حضارات العالم القديم، بقدر ما بهرت هذه الآثار العالم في العصور القديمة والوسيطة والحديثة. التي عرفت جميعاً ذلك الهوس الجمالي بتلك الآثار، والذي عبر عن نفسه فيما كتبه الرحالة والمؤرخون والرحالة والأدباء، طوال تلك العصور، ولا يزالون حتى يومنا هذا، يوالون التعبير بالكلمة والصورة عن ذلك الهوس النبيل، بما أبدعه الإنسان المصري القديم؛ من آيات حضارية شامخة بقدر هذا الإعجاب الإنساني بحضارة مصر القديمة الذي لا يماثله إعجاب بأي من الحضارات الإنسانية الأخرى، بقدر ما تعرضت هذه الآثار المصرية العظيمة من أقدم العصور ـــ أيضا إلى يومنا هذا للعدوان والمحو والتشويه والسرقة والاستهانة والتهريب والجهل الغليظ، وشارك الكثير من الناس والحكام في تلك الجرائم والخطايا التي ارتكبت في حق الآثار المصرية العظيمة. وصدقت نبوءة الحكيم السكندري "أسكليبيوس" عن مصير تلك الآثار والتي يقول فيها: "يقترب الوقت الذي لا يعرف فيه أحد ديانة المصريين وسيهجر بلدنا، وستكون القبور والموتى فقط شهوداً عليه. فيا مصر ! لن يبقى من مذهبك سوى أساطير، لا يؤمن بها أحد من الأعقاب ولن يبقى غير الكلام المنقوش على الحجر والذي يحدث عن قدماء الآلهة". ولم تتحقق نبوءة رمسيس الثاني المكتوبة على جدران معبده: "سيظل هذا بيتاً للرب

إلى الأبد".[1]

تلك بعض لمحات من تاريخ الآثار المصرية وكنوزها التي لم تكن أسعد حالاً من بناتها الحقيقيين أهل مصر الذين ظلوا خارج المعادلة طوال العصور لكنهم مثل آثارهم العظيمة قاوموا ولا يزالون كل عوامل الفناء!!!

---

[1] -إميل لودفيغ: النيل حياة نهر (ترجمة: عادل زعيتر، مكتبة الأسـرة، القـاهرة 2000م)، ص 663، ص 665.

الفصل الخامس

فراعنة مصر القديمة الأسطورة والتاريخ

" ارفع من شأن الجيل الجديد، إن مجتمعك ملئ بالشباب الناشئ الذين هم في سن العشرين، فضاعف هذا الجيل الجديد وزد من عدد أتباعك منه، وزوده بالثروة والحقول والماشية"

التعاليم الموجهة إلى الملك المصري"مري كارع"

بردية لينتجراد التي يرجع عهدها إلى عصر تحتمس الثالث

(1478-1447ق.م)

حين اندثرت الحضارة المصرية القديمة، وحلت محلها حضارات أخرى، فإن الآثار المبهرة التي خلفتها تلك الحضارة الزائلة دفينة في الرمال وبطون الجبال وبين طبقات الطمي المتراكمة، ما زالت تكتشف يوماً بعد يوم، وما زالت حتى الآن ذات قدرة سحرية فائقة على إبهار الرحالة والمؤرخين والذين سجلوا وذكروا قصصاً كثيرة عن الفراعنة الذين كانوا يحكمون مصر، وعن حياة وعادات وتقاليد المصرين التي كانوا يعتبرونها غريبة عن تقاليدهم وما اعتادوا عليه، كما ذكروا أيضا الكثير من الأساطير والخرافات التي لا تصدق عن مصر وحضارتها التي ارتبطت بالفراعنة، وهم ملوكها القدماء، الذين توارت شخصيتهم بين الأسطورة والتاريخ.

وكانت كثيرة هي الجهود التي بذلت من جانب الرحالة والمؤرخين؛ للتعرف على

فراعنة مصر القديمة، فكانت جهودهم أقرب إلى الأساطير منها إلى التاريخ في بعض موضوعاتها. التي حفلت بالخيال الواسع الذي زاد من خصوبته أن فرعون لم يعجز في أن يجد حوله من يدافع عنه ويستأنف حكم القصص الديني عليه أمام الوجدان الشعبي الجمعي الشغوف بصورة البطل المنصف، أو المستبد العادل والمبارك ـ رغم أن المستبد لم يكن عادلاً أو مباركاً في يوم من الأيام ـ أنه تمجيد لصورة القوة حتى لو خلت من وجه الإنسان.

دفع الوجدان الشعبي ببطلان حكم القصص الديني على الفرعون الذي ارتبط اسمه بمصر مدعمين دفاعاتهم بروايات مختلفة جاء فيها: ".. وقال موسى: يا رب، إن فرعون جحدك مائتي سنة، وادعى أنه أنت مائتي سنة، فكيف أمهلته. فأوحى الله إليه: أمهلته لخلال فيه. إني حببت إليه العدل، والسخاء، وحفظت له تربيتك.... إنه عمر بلادي وأحسن إلى عبادي..."[1] والروايات أظهرت فرعون عادلاً منزهاً عن الظلم حين عنف وزيره هامان عندما جمع مائة ألف ألف دينار للخزينة مقابل



أن يجري هامان للناس الماء إلى أرضهم فعنف فرعون هامان بقوله: "بئس ما صنعت من أخذ هذه الأموال، أما علمت أن السيد المالك ينبغي له أن يعطف على عبيده، ولا

1 –ابن زولاق: فضائل مصر، ص 21؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص 90.

يأخذ منهم على إيصال منفعة أجرا، ولا ينظر إلى ما بأيديهم. أردد المال إلى أربابه ولا تأتي بمثلها...".[1]

الموروث الشعبي المتعلق بفرعون مصر - الموسوم بالكفر والطغيان في القرآن - تعاطف كثيرا معه، فأضفى عليه بعض الصفات المحببة إلى نفوس العامة؛ بحيث يعطي لشخصيته بعدا دينيا محببا، فالشخصية التاريخية هنا غير الشخصية الأسطورية التي غذاها ولا يزال يُغذيها الوجدان الشعبي الشغوف بفضائل مصر، والذي ما لبث يخلع على ملوكها الفراعنة صفات وينسب لهم أحداثا مغايرة ليكتب لهم الخلود شعبيا، إلى الدرجة التي ينبغي التميّيز عند الدراسة بين الشخصية الشعبية، والشخصية التاريخية لنفس الحدث أو الشخص.

فجاءت الشخصية التاريخية لفرعون مصر غير الشخصية الشعبية له إذ تحكي الروايات؛ أنه خرج من صفوف الفقراء وظهر كمدافع عن حقوقهم، وبرز للناس بريئاً من تجاوزات بطانته الظالمة، ليصبح في الذهنية الشعبية صاحب سلوك مثالي، ولا شك أن إسقاط العيوب عن الشخصية التاريخية لصالح الشخصية الشعبية، يعد تعبيراً صادقاً وتلقائياً عن رأي الناس في الدور المحوري والتاريخي لملوك مصر الفراعنة الذين شيدوا العديد من المباني الضخمة والرائعة في طول البلاد وعرضها، فجاءت تلك الروايات تقديراً من الناس لهذا الدور بغض النظر عما أثبتته الإشارات القرآنية، أو ما سطرته أقلام الرحالة والمؤرخين و المفسرين والفقهاء الملتزمين بالحقائق المجردة.


رسم تخيلي للفرعون العراي
نقلا عن اختلاف جغرافيا الأنبياء

بيد أن ذلك لم يمنع من أن لفظ (فرعون) قبع في الذاكرة الشعبية للناس رمزا للجبروت، والقوة والتعالي؛ فيصفون من يتخذ هذه

1 –ابن الوردي: خريدة العجائب، ص 34، 35.

الصفات بأنه "مُتفرْعن" ويفسرون تفرْعُنه هذا بخنوع الآخرين تجاهه، وعدم رده وصده بقوة أكبر.[1] وربما تسنى لنا إيجاد صلة بين هذا المعنى وبين ما ورد عند النابلسي من تأويله لرؤيا فرعون في الأحلام بقوله :"هو في المنام عدو الدين ومن رأى فرعون حسن الحال فهو سوء حال الإمام وقومه ،كما أن سؤ حال فرعون حسن حال الإمام وقومه، كذلك كل عدو لرجل، ومن رأى أنه تحول بعض فراعنة الدنيا فإنه ينال قوة وتشيع دعواه ويفسد دينه " ويقول ابن سرين في (منتخب الكلام في تفسير الأحلام) :" وكل فرعون يراه الرجل في منامه فهو عدو الإسلام، وصلاح حاله يدل على فساد حال أهل الإسلام وإمامهم ..فإن رأى كأنه تحول كأحد فراعنة الدنيا، فإنه ينال قوة، وتضاهي سيرته سيرة الجبار، ويموت على الشر "[2] وهو خلط شاع لدى العامة بين اسم الفراعنة ـ مفردها فرعون ـ واسم قدماء المصريين مما حيَّر كلاً من المسعودي وابن خلدون ومن كان في زمانهم في سياق بحثهم عن أصل هذا اللقب، فأوردت المصادر التاريخية الكثير من الروايات، وها هو صاحب النجوم الزاهرة ينقل عن المسعودي قوله: "قال المسعودي: سألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من أهل الخبرة عن تفسير اسم فرعون فلم يخبروني عن معنى ذلك ولا تحصل لي في لغتهم، فيمكن والله أعلم أن هذا الاسم كان سمة ملوك تلك الأمصار وأن تلك اللغة تغيرت".[3]

كشف المسعودي من المسح التحقيقي الذي أجراه بنفسه في أيام زمانه، ومع من وصفهم "بأهل الخبرة" من الأقباط، كشف لنا أن أهل مصر لا يفقهون ماهية هذا اللقب الشهير[4]، بل لا يوجد في لغتهم. كما اكتشف المسعودي بنفسه، وأرجع ذلك بما حدث

---

1 –ابن ظهيرة: **الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة**، ص 89؛ الزمخشري : **أساس البلاغة**، مادة فرعن؛ سليم عرفات المبيض: **ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية**(مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م)، ص71، ص 72.

2 ـ **تفسير الأحلام وتعطيره وتعبيره** ، مصدر سابق ، ص458

3 –ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن) ت 874هـ: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**(الجزء الأول، تحقيق: محمد شلتوت، طبعة دار الكتب، القاهرة)، ص 61؛ المسعودي: **مروج الذهب**، ج1، ص 366.

4 ــــ لقب (فرعون) لم يستعمل هذا اللقب الذي يوحي إلينا بشخصية ذات عظمة، ومجد من غابر الأزمنة، إلا في الألف سنة ق. م ، كلقب للملك ، وعندما أنجزت مصر ما أراده لها القدر ، وصيغته المصرية عبارة تعني "البيت العالي " أو " البيت العظيم " ، وكانت عبارة أشار المصريون

من تغير اللغة المصرية القديمة التي صبغ اللقب فيها، كتغير اللغات الأخرى، الأمر الذي نتج عنه جهل أقباط مصر بمعناه القديم، وافترض المسعودي أنه كان سمة لملوك مصر الأقدمين، ويمكن القول أن نظرة المسعودي هذه نظرة علمية تتسم بالدقة وسلامة المنهج.

أما الرحالة ابن خلدون فقال في باب "الخبر عن القبط وأولية ملكهم ودولهم وتصاريف أحوالهم والإلمام بنسبهم": كانوا يسمون الفراعنة سمة لملوك مصر في اللغة القديمة ثم تغيرت اللغة وبقي هذا الاسم مجهول المعنى كما تغيرت الحميرية إلى المضرية.."[1] رغم أن لقب "فرعون" قد ورد في القرآن الكريم بصيغة المفرد لا بصيغة الجمع![2] إلا أنه أصبح علماً على أهل مصر في نعتهم بـ "الفراعنة" (فلقب الفرعون يطلق على ملوك مصر.. فإذا أرادوا الجمع في اللفظ قالوا: الفراعنة".[3]

وتناول الرحالة والمؤرخون لقب "فرعون" بالتعريب، حيث أطلقوا أسماء عربية على فراعنة مصر وملوكها فيقول المقريزي: ".. ثم وقع غلاء في زمن فرعان بن مسور، وهو التاسع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان، وسببه أن الظلم والهرج كثر حتى لم ينكره أحد، فأجدبت الأرض، وفسدت الزروع، وجاء بعقب ذلك الطوفان،

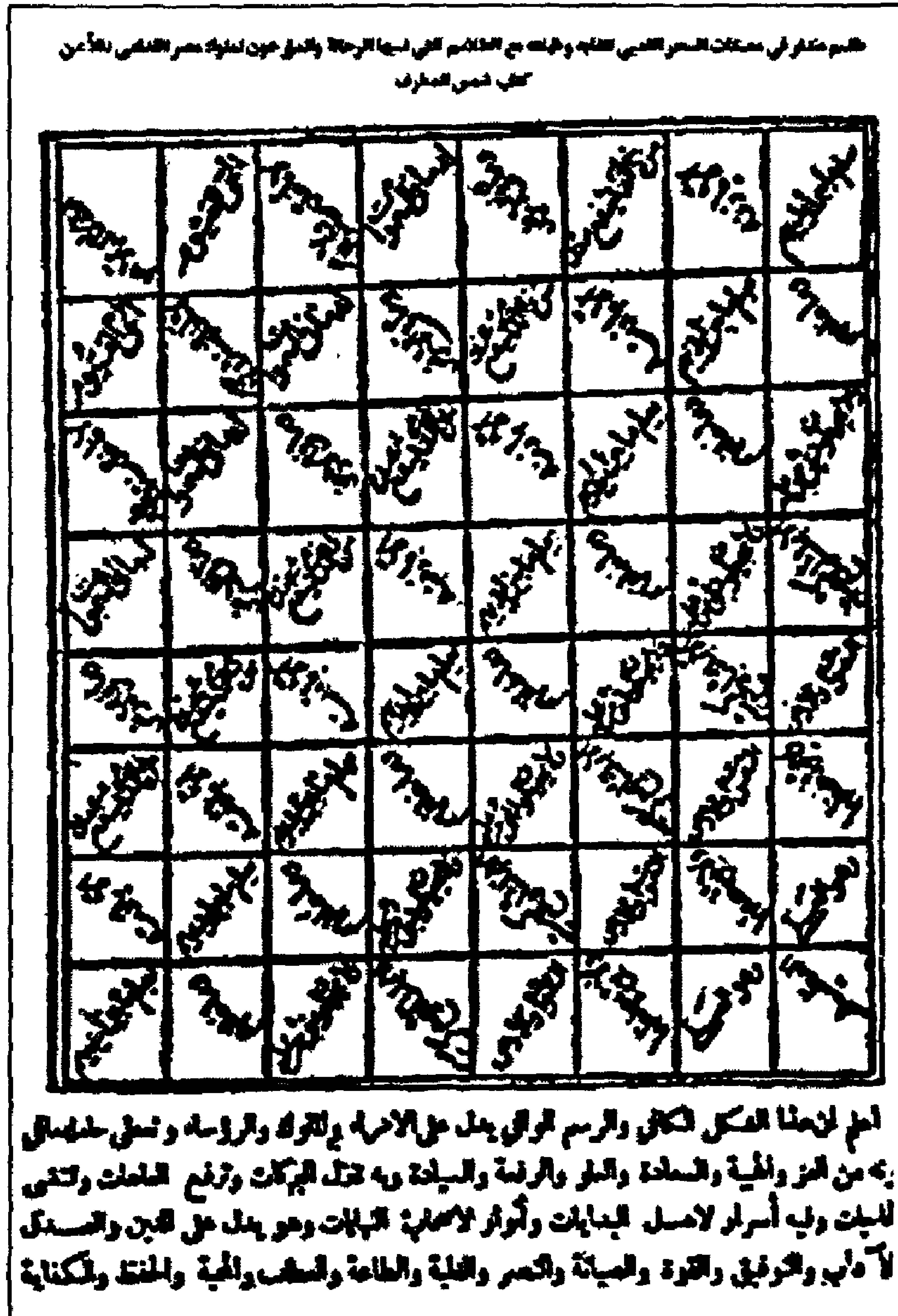
بها منذ عصور الدولة القديمة إلى قصور فراعنتهم ، ثم صار يطلق على الملوك أنفسهم ، غير أن لقب "فرعون" لم يستعمل في أي وقت من التاريخ كلقب حقيقي رسمي للملك: جورج بوزنر وآخرون : **معجم الحضارة المصرية القديمة** ، ص 254، 255؛ألن رونر : **مصر الفراعنة** (ترجمة :نجيب ميخائيل ، الطبعة الأولى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة 1987م) ،ص71.

1 -ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ج2، ص 74.

2 -ورد لفظ "فرعون" في القرآن الكريم بصيغة المفرد في أربعة وسبعين موضعا: انظر. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص 626، ص 727.وجاء لفظ فرعون عند المفسرين يشوبه الضبابية وعدم الوضوح فنجد في كتب التفسير كجامع البيان في تأويل القرآن 213/1، النيسابوري غرائب القرآن 281/1، النسفي في مدارك التنزيل 47/1وغيرهم أن لفظ فرعون اسم كانت ملوك العمالقة تسمى به ، كما كانت ملوك الروم يسمى بعضهم قيصر ، وبعضهم هرقل . ويقول الفخر الرازي في التفسير الكبير 71/2:" أن لفظ فرعون علم لمن ملك مصر من العمالقة ،أما ابن كثير في تفسير القرآن العظيم 91/1:أنه علم على من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم . وأشار رشيد رضا في تفسير المنار إلى : أنه لقب لمن تولى مصر قبل البطالسة .للمزيد انظر :مصطفى عبد الحليم متولي :قصة موسى في أعمال المفسرين دراسة مقارنة ،(رسالة ماجستير -غير منشورة -، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق 1984م)، ص17.

3 -أولياچلبي: **سياحتنامه مصر**، ص 41.

فهلك الملك فرعان وهو سكران وهو أول من سمى باسم فرعان.."[1]. وقيل: سمي فرعون لأنه أكثر القتل حتى قتل قرابته وأهل بيته، وخدمه ونساءه وكثيراً من الكهنة والحكماء".[2] أما التلمساني فقال: "فرعون؛ لقب الوليد بن مصعب ملك مصر وهو عات، وكل عات فرعون والعتاة الفراعنة".[3]



1 -المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص6.
2 -ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 71.
3 -التلمساني: سكردان السلطان، ص 424.

يلفت النظر هنا تأثير فكرة الأنساب العربية في نسبة كل شئ إلى جد أسطوري أعلى يفسرون به معنى الاسم الذي ارتبط بالتكبر، والتجبر، والظلم، ومما يسترعي الانتباه أن الروايات جعلت ممن تلقب به رجلاً عربيا كان يعرف بـ "الوليد بن مصعب" كما خلعت أسماء عربية على معظم فراعنة مصر، وهو ما يكشف لنا عن أن الوجدان الشعبي العربي قد شغل بقصص فرعون حيث كان معروفا لدى العرب قبل الإسلام، حين كان القصص أحد مكونات التاريخ الشفاهي العربي، وكانت قصص فرعون وعاد وثمود تنتقل بينهم بالتواتر، وعندما لم تشبع روايات الإخباريين حاجات وجدانهم، راحوا يضيفون من تصوراتهم وموروثاتهم إلى هذه الأخبار متأثرين بالروح العربية ونزوعها لتعريب الكلمات والأسماء والأحداث.

أشار ابن زولاق إلى الارتباط فيما يتعلق باللقب فقال: "واختلف فيه، فقيل: كان من العماليق، وقيل: كان من القبط ويكني أبا مرة، وهو الوليد بن مصعب، وهو أول من خضب بالسواد لما شاب، دله علية إبليس، ولعظم شأنه وعتوه ذكره الله في خمس وعشرين سورة من القرآن...".[1] هذا التشويش والارتباك فيما يتعلق بلقب فرعون شمل أيضا الحديث عن أصول هؤلاء الفراعنة وعددهم وكان ذلك مرتعاً لخيالات الرحالة والمؤرخين وتخميناتهم كقول المسعودي: " والذي اتفقت عليه التواريخ ـ مع تباين ما فيها ـ أن عدة ملوك مصر من الفراعنة، وغيرها؛ اثنان وثلاثون فرعوناً...".[2] أما صاحب الاستبصار فيشير إلى أن : "الفراعنة سبعة وهو كان أولهم ـ يقصد فرعون إبراهيم عليه السلام ـ وقيل أنما سمي فرعون لأنه أكثر القتل".[3] واتفق معه الإسحاقي بقوله :"وقد ملك مصر سبعة من الكهنة ولهم الأعمال العجيبة والأمور الغريبة".[4] وأورد ابن إياس نقلاً عن وهب بن منبه: "أن الفراعنة الذين ملكوا مصر كانوا ستة؛ فأولهم فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام، كان اسمه طوطيس".[5]

أما التلمساني فقد اختص الفراعنة من الملوك بالأنبياء فقط. وجعل الفراعنة وقفاً

1 – ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص 22.
2 –المسعودي :مروج الذهب، ص 365.
3 –ابن محشرة: المصدر السابق، ص 71.
4 – الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول،ص6
5 –ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص 15.

عليهم بقوله: "الفراعنة ثلاثة؛ أولهم: سنان الأشل صاحب سارة، كان في زمن الخليل بمصر. الثاني: الريان بن الوليد، وهو فرعون يوسف ﷺ، الثالث: الوليد بن مصعب، وهو فرعون موسى ﷺ...".[1]

حاول المؤرخون والرحالة الإيغال في زمن فراعنة الأنبياء، والاعتماد على حقائق ملموسة بشأن تلك الفترة، ولكن كانت تعوزهم الأدلة والحجج، فاعتمد فكرهم على النقل من الأقدمين، ثم على الأخبار المتواترة في المجتمع، فإذا بالأسطورة فتتسرب فتزيد وتبالغ، وتصور ما تعرض له الأنبياء، وتاريخ نضالهم مع قوى الشر والإنكار فجاءت صياغة هذا الموروث؛ صياغة قصصية في زمن لم يكن القصص فيه قد انفصل عن التاريخ، فامتزجت الأسطورة بالتاريخ وتوارى فراعنة مصر بين ركام الخرافة.

من هؤلاء الفراعنة الذين شغلوا فكر المؤرخين في سياق حديثهم عن مصر "فرعون إبراهيم" حيث نسج الخيال الشعبي حوله أساطير جمة تصوره في الطور الأول من حياته بالملك العاتي والظالم، ثم تحوله في الطور الثاني من حياته؛ ملكاً صالحاً عادلاً وواصلاً لرحمه، تقول الروايات: "حكى أن إبراهيم ﷺ؛ كان قادماً مع (سارة) إلى مصر، حدثت النفس الأمارة بالسوء، الملك الجبار (طوطيس)، بأن يمد يده إلى (سارة)، ويراودها عن نفسها، فشل الله سبحانه وتعالى يده في الحال. ودعا إبراهيم ﷺ أخيراً أن يعيد الحياة إلى يده، فاستجاب الرب دعاءه، ولكن نفسه الأمارة بالسوء، حملته مرة أخرى على اغتصاب (سارة) ومحاولة التعدي عليها، فشلت يداه مرة أخرى، وقد عفا عنه إبراهيم ﷺ هذه المرة، ودعا له بالشفاء، فبرئت يداه، وهنا اعترف الملك طوطيس بنبوة إبراهيم الخليل ناطقا بالشهادة (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فصار مسلماً".[2]

وتمضي الرواية التاريخية لتقول أن فرعون إبراهيم قد وهب إبراهيم ﷺ السيدة هاجر، التي ولد له إسماعيل ﷺ، وحباً في لقاء إبراهيم وسارة: "عمد إلى فتح الجبال

---

1 –التلمساني: مصدر سابق، ص 424.

2 – الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج1، ص 244؛ ابن كثير: قصص الأنبياء (ج1، المكتبة التوفيقية، القاهر 2000م)، ص 77؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 31؛ أولياچلبي: سياحتنامه مصر، ص 39

تجاه بني سويف، وتمهيد الطريق إلى مسافة ثلاثة أيام، حتى بحر السويس، حيث أجرى النيل إليه، وتمكن من إرسال مئات من السفن ،والمراكب بالمؤن والذخائر، إلى أهل مكة...".[1]

وذهب ابن كثير في نسب هذا الفرعون إلى أحد العمالقة من نسل سام بن نوح، أو الحميريين من عرب الجنوب ،وتخلع عليه اسماً عربياً في قوله: "وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخا الضحَّاك الملك المشهور بالظلم، وكان عاملاً لأخيه على مصر، ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عويج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، وذكر ابن هشام في التيجان: أن الذي أرادها عمرو بن أمرئ القيس بن بابليون بن سبأ وكان على مصر...".[2]، ويلاحظ أن هذا الاتجاه الأخير يعتمد أسلوب النسابة في نسبة كل قبيلة أو مدينة إلى جد أعلى، ويلفت النظر هنا استخدام الرواية لاسم **بابليون** (وهو اسم الحصن الذي كانت تقيم به الحامية البيزنطية التي حاصرها جيش عمرو بن العاص في خضم أحداث فتح مصر).[3] باعتباره اسماً لواحد من حكام مصر من نسل سبأ الأكبر ومن الواضح أن الروايات حاولت أرضاء حاجات ثقافية / اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك.

الأمر ذاته تكرر مع (**فرعون موسى**) حيث : "تنازع الناس في أمر فرعون موسى؛ فمنهم من رأى أنه من العماليق، ومنهم من قال :هو من لخم من الشام، ومنهم من رآه أنه من الفرس من مدينة اصطخر، ومنهم من رأى أنه من القبط من ولد مصرام، والقبط

---

1 - ؛ أولياچلبي: **سياحتنامه مصر**، ص 39؛ الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج1، ص 244.
2 -ابن كثير: **قصص الأنبياء**، ج1، ص 77.
3 -دارت أساطير عدة حول (بابليون) فهو اسم استخدمه حجاج العصور الوسطى إلى الأرض المقدسة، وفكرة وجود (بابليون) في مصر حيث قذف "نبوخذ نصر" شدرخ وميشخ وعبد نغو في الأتون الملتهب (دانيال: 3-20) كانت فكرة تتردد غالبا في كتابات الرحالة الأوائل من أوروبا، وهناك أسباب مختلفة لتفسير هذا الاعتقاد الطريف، وكان يبدو أنه منذ أيام نفي اليهود من بابل (597-538 ق.م) أنهم عاشوا على ضفاف النيل في موقع ما يسمى الآن مصر القديمة، وفضلا عن ذلك، فإن استرابون تحدث عن (بابليون) باعتبارها قلعة عسكرية، تأسست قبل الرومان على أيدي اللاجئين من بابل "بابليون" القديمة وهكذا استمر الربط بين المكانين، على أية حال، فقد كانت مصر في عقلية العصور الوسطى دائماً أرض العجائب ؛ إذ كانت تروي عنها حكايات غاية في الغرابة يصدقها السُذج ،يضخمها ما بقي من السحر والتخمين: آن وولف، **كم تبعد القاهرة؟**، ص 35.

تثبت ذلك، وزعم قوم أنه من الأعاجم من الأندلس من قرمونة، وذكروا: أن اسمه الوليد بن مصعب...".[1] وأشار ابن عبد الحكم إلى أن : "فرعون موسى ـ اسمه طلما ـ قبطي من قبط مصر، أو من فران بن بلي واسمه الوليد بن مصعب، وكان قصيراً أبرش يطأ في لحيته .. حدثنا عن هانئ بن المنذر : أنه ـ فرعون موسى ـ كان من العماليق وكان يكني بأبي مرة .. كان فرعون أثرم، ويقال: بل هو رجل من لخم والله أعلم...".[2]، وأمدنا الموروث الشعبي برواية منسوبة إلى عائشة ﵂: "قالت عائشة ﵂: أقام فرعون بمصر أربعمائة سنة .. ولم يكن من أولاد الملوك وإنما أخذ ملك مصر بحيلة".[3] وعلى لسان عمرو بن العاص أورد المؤرخون رواية تقول: "اختلف أولاد الملوك بمصر فيمن يكون الملك، فرضوا بمن يحكم بينهم، وأن يكون من يطلع من الفج، فطلع فرعون راكباً .. وسألوه الحكم بينهم .. فقال لهم: "قد اخترت نفسي أن أجلس وأوطئ لكم الأمر...".[4] وقيل أن ": فرعون كان عطاراً بإصبهان، فركبه الدَّينُ وأفلسَ، فخرج منها هاربا .. فأتى مصر .. ثم سار في الناس سيرة سنة، وكان عادلاً سخياً، يقضي بالحق ولو على نفسه، فأحبه الناس فتوفي الملك فولوه عليهم"[5].

ومن ناحية أخرى لعب الفراعنة دوراً لابأس به في كتابات الرحالة والمؤرخين التي تناولت فضائل إذ نجد أن الكلام عن فضائل البلدان كان نوعاً من التأليف جمع بين التاريخ والأساطير والموروث الشعبي، فضلا عن الأدب والدين، والذي كان إفرازاً للتفاعل القائم بين ما جاء به الإسلام واللغة العربية، والموروثات الثقافية المحلية. في كل مصر من أمصار دار الخلافة والذي كان قد نضج بالقدر الذي جعل لكل بلد شخصيتها الثقافية المتمايزة داخل الإطار العام للثقافة العربية الإسلامية كلها.[6]

وجرت العادة بين أغلب أصحاب ذلك النوع من التدوين التاريخي من المصريين

---

1 –الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 551؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 18؛ ابن محشرة: الاستبصار، ص 77؛ المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص 397.
2 –ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 44.
3 –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص 89؛ابن زولاق: فضائل مصر، ص 21؛ الحميري: الروض المعطار، ص 551.
4 – ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة: ص 89، الحميري: الروض المعطار، ص 552.
5 – ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ، ص 90.
6 –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص 56

في العصور المختلفة، أن يبدأ بعدة فصول تدور كلها حول فضائل مصر؛ كم مرة ذكرت في القرآن الكريم؟، وفي الأحاديث النبوية؟، مَنْ نزلها من الصحابة، والتابعين ؟، ثم ينتقل المؤرخ إلى سرد تاريخها منذ بدء الخليقة. وهنا تلعب الأساطير دوراً بارزاً وتفعل فعلها في الواقع والوقائع. وبرغم أن كثيرا من الرحالة و مؤرخي مصر قد دخلوا إلى صميم (فضائل مصر) من بوابات القرآن والحديث النبوي، فإن باب الأسطورة ظل مفتوحاً لم يغلقه أحد إلا القليل وخاصة حول تفسير الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها ذكر مصر.

فنجد قصصاً شعبية تتسم بالحبكة الكاملة في سياق تفسير الآيات القرآنية كالتي يحكيها ابن زولاق وغيره من المؤرخين عن السحرة الذين آمنوا بموسى في ساعة واحدة فيقول ابن زولاق: "وممن أخرجت مصر من الأفاضل؛ السحرة الذين أحضرهم فرعون لموسى، وكانت عدتهم اثني عشر ألفاً، تحت يد كل ساحرة عشرون عريفاً، تحت يد كل عريف ألف من السحرة، فكان جميع السحرة مائتي ألف واثنين وثلاثين ألف ساحر، آمنوا كلهم في ساعة واحدة، ولا يعلم من آمن في ساعة واحدة أكثر من هذا."[1]، لنجد خلافاً بين المؤرخين[2]، في تقدير عدد هؤلاء السحرة وقد حسبها هؤلاء المؤرخون من فضائل مصر.

وتتسع الرؤية والتفسير الأسطوري للحادثة عند (الإسحاقي المنوفي) لتلعب الكائنات الأسطورية دورها في المخيلة الشعبية بقوله: "... أن السحرة الذين حشرهم فرعون من سبع مدائن؛ شطى وبوصير وبنها وطنان وأرمنت وأسيوط وأنصنا، ومع ذلك لم يغن عنهم عددهم، ولا كثرة عددهم بل لما ألقى موسى عصاه بإذن الرب الإله خروا له ساجدين. وقالوا: آمنا برب العالمين، قيل: أنه لما ألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين أي حية صفراء فاتحة فاها.. ثمانون ذراعاً، وقيل: أنها ارتفعت من الأرض قدر ميل، وقامت على ذنبها، واضعة فكها الأسفل في الأرض والأعلى على سطح القصر الذي فيه فرعون، فوثب فرعون هارباً. أحدث. قيل: أخذته البطنة في ذلك اليوم أربعمائة مرة وحملت على الناس فانهزموا، ومات منهم خلق كثير ... مات

---

[1] -ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، صـــ 14

[2] -انظر ؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، صـــ 83؛ المقريزي:الخطط، ج1، ص23.

منهم خمسة وعشرون ألفاً وذكر أن فرعون صاح وقال: خذها يا موسى وأنا أؤمن بك .. فأخذها فعادت عصا فلم يؤمن فرعون بل كفر وعصى ...".[1]

ما يهمنا في الروايات السابقة؛ هو أن صعوبة الوصول والإحاطة بحقيقة فرعون مصر وأصله، جعلت المؤرخين والرواة والرحالة في حيرة دفعتهم إلى الهروب من المأزق، بمقولة "والله أعلم" واختلق الموروث الشعبي بعض الروايات ونسبوها إلى كبار الصحاب لإضفاء المصداقية على ما يقولونه، كما أوضحت لنا رؤية الناس لفراعنة مصر، وما يجول بخاطرهم فجاء فرعون في المخيلة الشعبية بصورة مغايرة عما جاء به في النصوص الدينية. حيث وجدناه ملكاً عادلا جاء بإرادة الناس ولم يكن جباراً شقياً، استعارت بعض الروايات ملامحها من نسيج السيرة النبوية في تلميح إلى قصة احتكام سادة العرب في أمر وضع الحجر الأسود عند بناء الكعبة فاحتكموا إلى الرسول الأكرم ﷺ، كذلك الأمر مع فرعون واحتكام الناس إليه، وكيف أن الخيال الشعبي قد استعار هيكل السيرة النبوية دون المضمون فيما يتعلق بتلك الحادثة. مما يدلنا إلى أي مدى تأثر الوجدان الجمعي بسيرة النبي ﷺ التي ظلت سيرته ﷺ أبرز شخصية أساسية في الآداب الشعبية العربية لكونه البؤرة النورانية المباركة، التي يلتقي عندها العديد من فنون الأدب الشعبي،والواضح أن الكثير من الروايات التي صاغها الوجدان الشعبي حول فرعون مصر، في بعضها صدي لسيرة وكرامات الأنبياء أو محملة بإشارات من قصصهم التي لم تزدهر وتنمو وتنضج إلا في ظلال القرآن الكريم.

أما فيما يتعلق برواية عصا موسى والأفعى العملاقة فالثابت تاريخياً أن كل مدرسة من مدارس السحر في مصر القديمة تخصص في نوع معين من السحر، وما يرتبط به من معجزات يحتفظ بسرها الساحر الأعظم أو رئيس الكهنة، فاشتهر معبد زايس (صالحجر) بسحر الأفاعي وفي مقدمته تحويل العصا أو حزام الوسط إلى أفعى بعد إلقائها على الأرض، وقراءة التعاويذ السحرية عليها . كما كانت لهم قوة السيطرة على الفاعي بالتعزيم عليها حتى تأتمر بأمرهم فيخرجونها من جحورها . ويبطلون من فاعلية سمومها أو يوجهونها إلى أي مكان يريدون لتنتقم من أعدائهم . وكانوا يعدون الأفاعي نوعاً من الجن الذي يتشكل بشكل الأفعى .

[1] -أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص6

ومعبد زايس المذكور هو الذي تعلم فيه موسى ﷺ، ودرس اللاهوت والحكمة وفاق بمعجزاته بقية السحرة أمام فرعون عندما ألقى بعصاه فتحولت إلى أفعى أكلت أفاعي بقية السحرة . كما اشتهر كهنة أهناسيا بمعجزات ما أطلق عليه سر الأحلام، وقراءة الغيب والوساطة والاتصال الروحي عن طريق الأحلام . وتحوي بردية (تورين) الكثير من صفحات كتب سحر الأحلام وكتاب مفتاح الأحلام وفي هذا المعبد درس يوسف عليه السلام الرياضيات والفلك وعينه فرعون كاتباً بالقصر وأميناً على المخازن، بعد نبوءته المشهورة في تفسير الأحلام.[1]

إضافة لذلك فقد كان هؤلاء الفراعنة في الأساطير العربية التي صاغها الوجدان الشعبي علي علم بالسحر والطلسمات التي تساعدهم على إعمار الأرض وتشييد العمائر الضخمة التي تركوها والتي استطاعوا بواسطتها إحداث ممارسات حضارية جديدة بل واستطاعوا بمساعدة علوم السحر أن يشقوا نهر النيل وإصلاحه فنجد ذلك في روايات عديدة حفظها لنا المؤرخون والرحالة بقولهم : " أن مصرام هو الذي بني مدينة مصر، وإليه تنسب، وكان عالماً بعلم الكهانة، والطلسمات، وكان قد كتب علي أبواب مصر، أنا مصرام بن تبليل قد بنيت هذه المدينة ،وأودعت بها الطلسمات الصادقة، والصور الناطقة، وهو الذي ساوي الأرض، حتى أتى منبع النيل، وبني به الجسور والقناطر، وأصلح مكان مجراه، قطع منها الجبال التي كانت تعوق جريان النيل.. واستمر سابحاً في الأرض نحواً من ثلاثين سنة، ثم هلك وتولي من بعده أخوه عيقام وقد توجه عيقام إلي خلف الاستواء وبني هناك قلعة من نحاس أصفر. في سفح جبل القمر، الذي ينحدر من أعلاه النيل وصنع هناك خمسة وثلاثين تمثالاً من النحاس، يخرج من حلولها ماء النيل، ويصب في بطائح هناك، ثم ينحدر إلي أرض مصر بقانون وتدبير بما يكون فيه لأهل مصر المنفعة دون الفساد. وقدر ذلك علي ستة عشر ذراعاً تروي أرض مصر جميعها من هذه الستة عشر واستمر عيقام ساكناً في القصر النحاس الذي بناه علي سطح جبل القمر حتى هلك ".[2]

---

[1] ـ سامية الساعاتي :السحر والسحرة ، ص40 ؛ سيد كريم : السحر والسحرة عند قدماء المصريين (الهلال ، العدد الأول ، يناير 1975م) ،ص54.

[2] – ابن إياس : بدائع الزهور ،ج1، ص10، ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص154- 155.

هكذا تصورت الأساطير أن نهر النيل تم حفره بأيدي البشر، وتمضي الأسطورة عند المقريزي لتضيف عن نهر النيل أنه :" لم يكن قبل ذلك معتدل الجري، بل كان ينبطح ويتفرق في الأرض حتى وجه إلي النوبة الملك نقراوس المهندسين فهندسوه، وساقوا منه أنهاراً إلي مواضع كثيرة من مدنهم، التي بنوها وساقوا منه نهراً إلي مدينة أمسوس. ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان، وكانت أيام (البودشير) بن فقط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح ﷺ، عدل جانبي النيل تعديلاً ثانياً بعدما أتلفه الطوفان".[1] كما يشير القلقشندي إلى أن :" نقراووس بن مصريم بن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم ﷺ نزلها في سبعين رجلاً من بني غرباب الجبابرة ، فعمروها، وهو الذي هندس نيلها وحفره حتى أجراه، ووجه إلى البرية جماعة هندسوه وأصلحوه، وبنى المدن وأثار المعادن وعمل الطلسمات "[2]

ولعلنا نلحظ ظهور المعادن - خاصة معدن النحاس - بكثرة في أعمال السحر التي قام بها فراعنة مصر الملمين بأعمال السحر والكهانة فوجود النحاس في القصور والمدن والتماثيل يتكرر كثيراً فيما يتعلق بمنابع النيل وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية في الآداب الشعبية- ولعل هذا صدي من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية، وهو كثير الظهور في وصف الأبواب السحرية عادة والقصور والتماثيل العجائبية. فالمعروف أن الطقوس السحرية والأساطير الشعبية قد تأثرت بالنحاس والبرونز فاتخذت منها هي الأخرى مادة لتعاويذ السحر استمرت رغم انقضاء ألوف السنين تشغل حيزاً كبيراً من فكر الوجدان الشعبي حتى يومنا هذا، حيث نرى ما تبقى منها قائماً في صورة أسحار أو تمائم أو فوازير متداولة عند الشعبيين .

ولقد استخدم جنود الفراعنة في الدولتين القديمة والوسطى النحاس في صناعة أسلحتهم، ويبدو أن المصريين اضطروا إلى استيراد النحاس من بلاد آسيا كجبال سوريا، وبعض الجزر مثل قبرص، ونجد أن الصناع الذين اختصوا بتشكيل هذه المعادن، سواء أكانت نحاساً أم حديداً أم برونزاً، قد أحيطوا منذ القدم بأساطير رفعتهم أحياناً إلى مرتبة الآلهة .فنجد مثلاً في المعتقدات الفينيقية القديمة إلهاً يدعى حداداً،

[1] – المقريزي: الخطط، ج1، ص 51– 52.
[2] ـــ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج3 ، ص313.

وهو إله الرعد . وكأنه بأصواته التي يصدرها يدق بمطرقته على السندان وهو السماء، ليصنع أدوات الحديد .[1] ويقول ابن شاهين في كتاب (الإشارات في علم العبارات) :" أن ابن سرين حين سئل عن النحاس فإنه يؤول على أوجه، فمن رأى أنه أصاب نحاساً فإنه يصيب خيراً أو رزقاً . وقيل عند النابلسي من رآه فإنه يصيب مال من قبل اليهود والنصارى [2] وسبك النحاس اصطناع معروف لما فعله الإسكندر من سبك النحاس على سد يأجوج ومأجوج . ومن رأى أنه أصاب نحاساً غير معمول فإنه دخان وهول، وإن كان معمولاً فهو من الخدم (وأما السندان) فإنه يؤول بالقوة وربما كان مالاً على قدر ثقله . وقال جعفر الصادق : السندان يؤول على خمسة أوجه : رجل جليل القدر، ومنفعة، وقوة، وولاية، وإقبال في الأشغال .

ومن بين العقائد المرتبطة بالحديد والنحاس أيضاً اقترانهما منذ القدم بعقائد كانت تتخذ منها وسيلة لطرد الشياطين، كدقات الأجراس والآلات الموسيقية المختلفة، مثل المثلث والجنك الذي نرى إيزيس الممثلة في كثير من تماثيل دولة البطالسة في مصر ممسكة به ومتخذة منه سلاحاً لطرد الأرواح والشياطين الضارة .

وفي فنوننا الشعبية نجد الأجراس النحاسية والحديدية مستخدمة كثيراً في لجام وسرج بعض الدواب ولا سيما ما يجر منها العربات، حيث يمكن أن نستشف منها الغرض السحري الذي يهدف إلى طرد الأرواح أو الشياطين التي قد تؤثر على الدابة فتجعلها تتعثر في سيرها . وكانت بمصر عادة شعبية حتى بداية القرن العشرين، ثم أخذت تتلاشى تدريجياً وهى استعمال طاسة الخضة ؛ وطاسة الخضة طاسة نحاسية كتب عليها بعض عبارات سحرية وتعاويذ بخط تتعذر قراءته في غالبية الأحيان، وفي وسط الطاسة شكل اسطواني يشبه النافورة، تتدلى منه سيقان نحاسية صغيرة تشبه السمك، وهى تحدث عند تحريك الطاسة صوتاً خافتاً . والمفروض أن يشرب المخضوض من طاسة الخضة إذا أصيب بذعر أو فزع، فطاسة الخضة ـــ أو طاسة التربة على حد قول الشعبيين ـــ تعتبر نوعاً آخر من الأجراس والصنوج التي من شأنها طرد الأرواح التي تصيب الإنسان أو الحيوان بالسوء، فمتى طردت هذه

---

[1] ـ سعد الخادم : الفن الشعبي ، ص77.

[2] ـ تفسير الأحلام وتعطيره وتعبيره، مصدر سابق ، ص613.

الأرواح زال الأثر السيئ المصاحب لها فيشفى الإنسان مما أصابه.[1]

ومن بين الوسائل المتبعة في الكونغو للتنبؤ، والتي تشبه إلى حد بعيد فتح المندل في عاداتنا الشعبية، تقليد يقوم على استعانة الساحر بمرآة، يشترط في صنعها أن تكون من النحاس المصقول ؛لتظهر عليها صور الأشخاص الذين يرغب في التعرف عليهم، كمعرفة السارق أو العدو أو ما شاكل ذلك. ويبدو في هذا التقليد أيضاً أنه يقرب من تقليد مماثل كان منتشراً في عهد الفراعنة حيث استخدمت المرآة النحاسية في أغراض سحرية. [2] فتستخدم الشخوص النحاسية في ممارسات السحر الشعبي للاعتقاد بأنها تعمل على تقوية الباه، وتذكر إحدى الوصفات السحرية أنه في وقت حلول الزهرة درجة شرفها، يكون القمر والمريخ ممازحين لها، وتؤخذ صفيحة نحاس معتدلة السبك، وينقش عليها تمثال رجل وامرأة، ويشترط أن يكون النقش في وجود سبعة أشخاص بها فيهم النقاش، وثلاثة ذكور وأربعة إناث [3]. ومن الشخوص النحاسية ما يعتقد أنها تقوي الباه وتصلح للعطف واستمالة النساء، نوع يصنع من النحاس الأصفر بوزن ثلاثة مثاقيل، ويصنع منه خاتم في وقت معين، ثم يركب عليه فص من حجر اللازورد الخالص، وينقش على الفص صورة امرأة جالسة مرخاة الشعر، وعن يمينها امرأة أخري تنظر إليها وفي ثيابها خضرة أو صفرة، وعليها طوق وأسورة وخلاخل. ومن عجيب ما يقال عن هذا الخاتم إن داود النبي قد صنعه، فكان عنده قوة شديدة على النساء حتى أنه تزوج مائة امرأة[4].

فعلاقة النحاس بعالم السحر قوية حتى أن مدينة بأسرها قد حشيت خوارق سميت مدينة النحاس في ليالي ألف ليلة وليلة وقد عرفت هذه المدينة العجيبة من قديم، بل عرفت بهذه الصورة نفسها التي نراها عليها في الليالي محاطة بالسور العجيب يذكر المسعودي في مروج الذهب فيقول: "وخبر مدينة الصفر(النحاس) وقبة الرصاص التي

[1] - سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص 80 — 81.
[2] - نفسه، ص82.
[3] - عبد الفتاح الطوخي : سحر الكهان في حضور الجان (مكتبة الجمهورية ، القاهرة د.ت)، ص130؛ سليمان حسن : الرموز التشكيلية ، ص127.
[4] - الطوخي : المصدر السابق ، ص131

بمفاوز الأندلس، ما كان من أنفسهم أنهم وصلوا إلى نعيم الدنيا والآخرة"1؛والملاحظ أن التأريخ ليس غاية ألف ليلة وليلة، ولا تقديم أنماط المجتمع وطبقاته ولا قص أخبار علومه وتطورها، ولا الحديث عن العمران والفتوحات، ولا عن الإصلاح وشؤونه، ولا بيان الظلم وألوانه، ولا التطلع إلى العدل والعلوم الجديدة، وإنما هي غاية محصورة في العبرة والاعتبار وأخذ العظة والإفادة من سلوكٍ أو تصرفٍ لشخصيةٍ[2].

كما نتلمس أخبار مدينة النحاس تلك في الأساطير العربية التي نقلها لنا الرحالة والمؤرخون في سياق حديثهم عن واحات مصر والواحات سواء أكانت هي التي تحدث عنها الجغرافيون والمؤرخون المسلمون تحتل موقعا على خريطة العالم الحقيقية، أو كان موقعها على خريطة من صنع الخيال الإنساني، فإنها ـ في الحالتين ـ تحتفظ بقدرتها العالية على الاستجابة للمستويات المختلفة للحلم والواقع، فهي في أحد وجوها تعبر عن حلم بمجتمع خيالي يطمح الإنسان لفك ألغازه التي تحول عوامل طبيعية دون معرفتها معرفة يقينية، فالواحات تمثل هامش عالم حضاري معروف لذلك تأخذ ملامحها الجغرافية والسيكولوجية من هذين العالمين. هذا هو بعينه ما نلمسه في رواية المؤرخين أثناء حديثهم عن رحلات الذين قصدوا[3] الواحات المصرية بقولهم: "بلاد الواحات كثيرة التمر والنخل وفيها مدن كثيرة مسورة وغير مسورة.

وكل مدينة منها لها اسم يعود إلى ألواح، أريس ألواح، وتنيس ألواح، وألواح الخارج، وألواح صبروا، ... وزعموا أن في أقصى بلاد الواحات بلد يقال له (واح صبروا)، لا يقع عليه إلا من ضل في الصحراء، وفي النادر من الزمان، وأنه بلد عظيم الخيرات من النخل والزرع،وجميع الفواكه ومعادن الذهب، وأنه أخصب بلاد الدنيا .. وقد وقع في هذا البلد رجل من عرب بني قرة.. وأخبر بما رأى فيه من الخيرات، وبما في أيدي أربابه من الأموال.. فأهاج ذلك أمير بن قرة وكان اسمه مقرب بن ماض، عزم

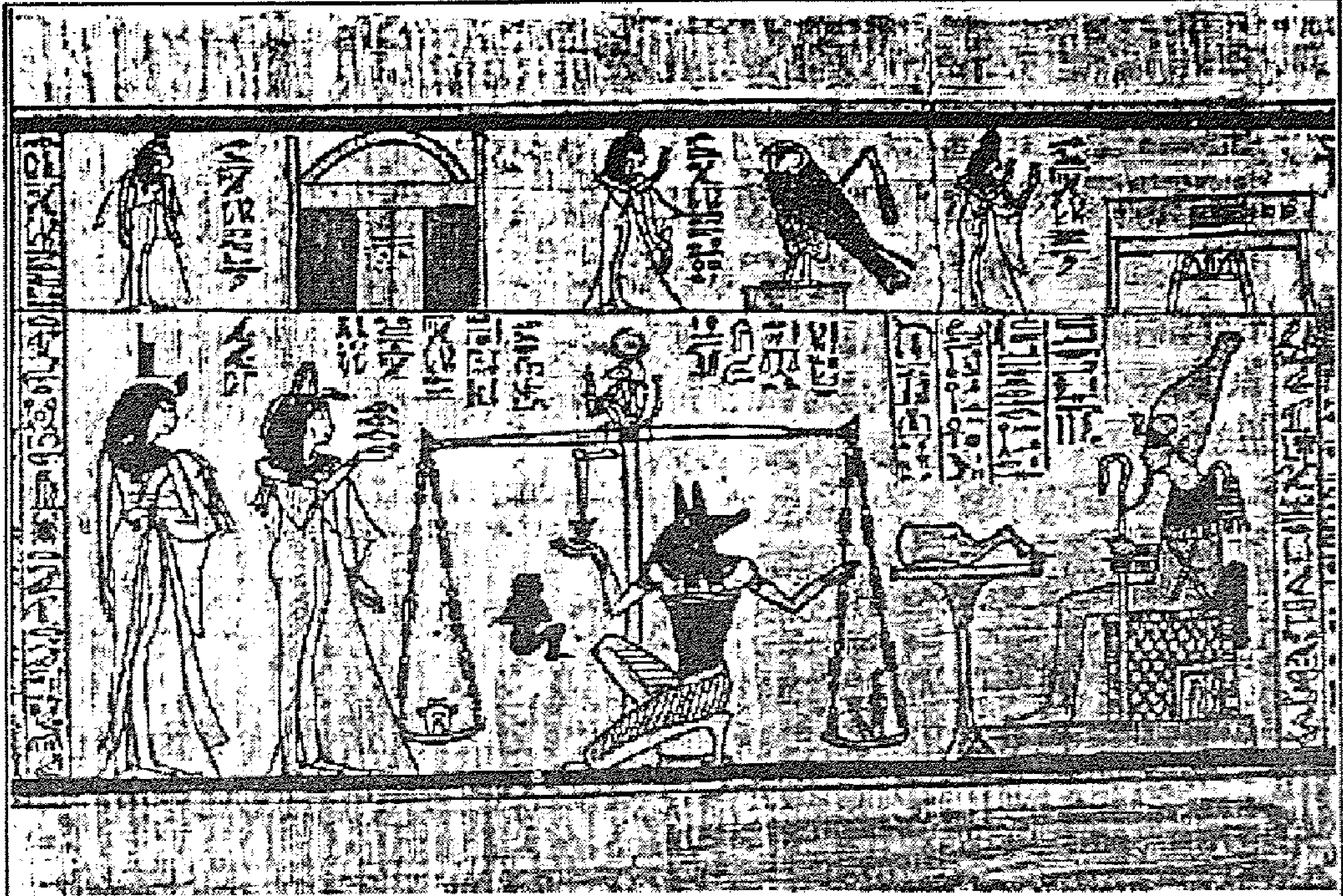
---

[1] ـ المسعودي : مروج الذهب ، ج4، ص 95

2 ـ انظر: سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، ص 160.

[3] – لقد تميّزت تلك الرحلات الخياليّة عموماً باختيارها الأماكن الغريبة والمسحورة التي تأوي إليها الشياطين والجنّ مراحاً ربما لتعرض من خلاله نظرتها إلى المجتمع الإنساني المعاصر فتعرّض بمفاسده وتفضح نقائصه، وتدعو من طرف خفي إلى الحياة الإنسانية الكريمة القائمة على الروحانيّة سمة رابطة بين بني البشر.

على النهوض إليهم .. فنزل في رجوعه ذات ليلة ربوة من الأرض في بهاء تلك الصحراء، فوجد بعض أصحابه في نواحي تلك الربوة بيتاً للأول فبحثوا عليه فإذا هو لبن من نحاس أحمر، فزادوا في البحث فوجدوا أساس سور من نحاس أحمر للأول، فأوقروا جميع ما عندهم من الظهر من تلك العين، وساروا حتى أتوا مدينة ألواح الخارج فباعوا ذلك النحاس بأموال كثيرة، ثم أرادوا أن يرجعوا إلى الربوة التي وجدوا فيها النحاس، فلم يقدروا عليها وضلوا طريقها..." [1]



ولكي ينعم المتوفي بهذه الحياة الأخرى كان لزاما عليه أن يمر بعدة تجارب صعبة ، أخطرها "المحاكمة" حيث تقوم هيئة المحكمة التي يرأسها أوزيريس بتقييم أعمال كل متوفي . ويمثل المتوفي أمام هذه المحكمة من أجل أن يثبت براءته . وعادة كانت مصداقية أقواله تُقيَّم من خلال عملية وزن قلبه منبع الأفكار الدفينة . وإذا تحققت "المحكمة" من براءته فسرعان ما يتم نقله إلى عالم السعداء الأبديين ، وأما إذا اثبتت إدانته فإنه يصبح فريسة سائغة تلتهمها "المفترسة الكبرى" التي تبدو هنا رابطة ومترقبة بجوار ميزان القلب والأعمال التي نجده متشابها بما ورد في مصنفات السحر الشعبي من ميزان الأعمال والحروف

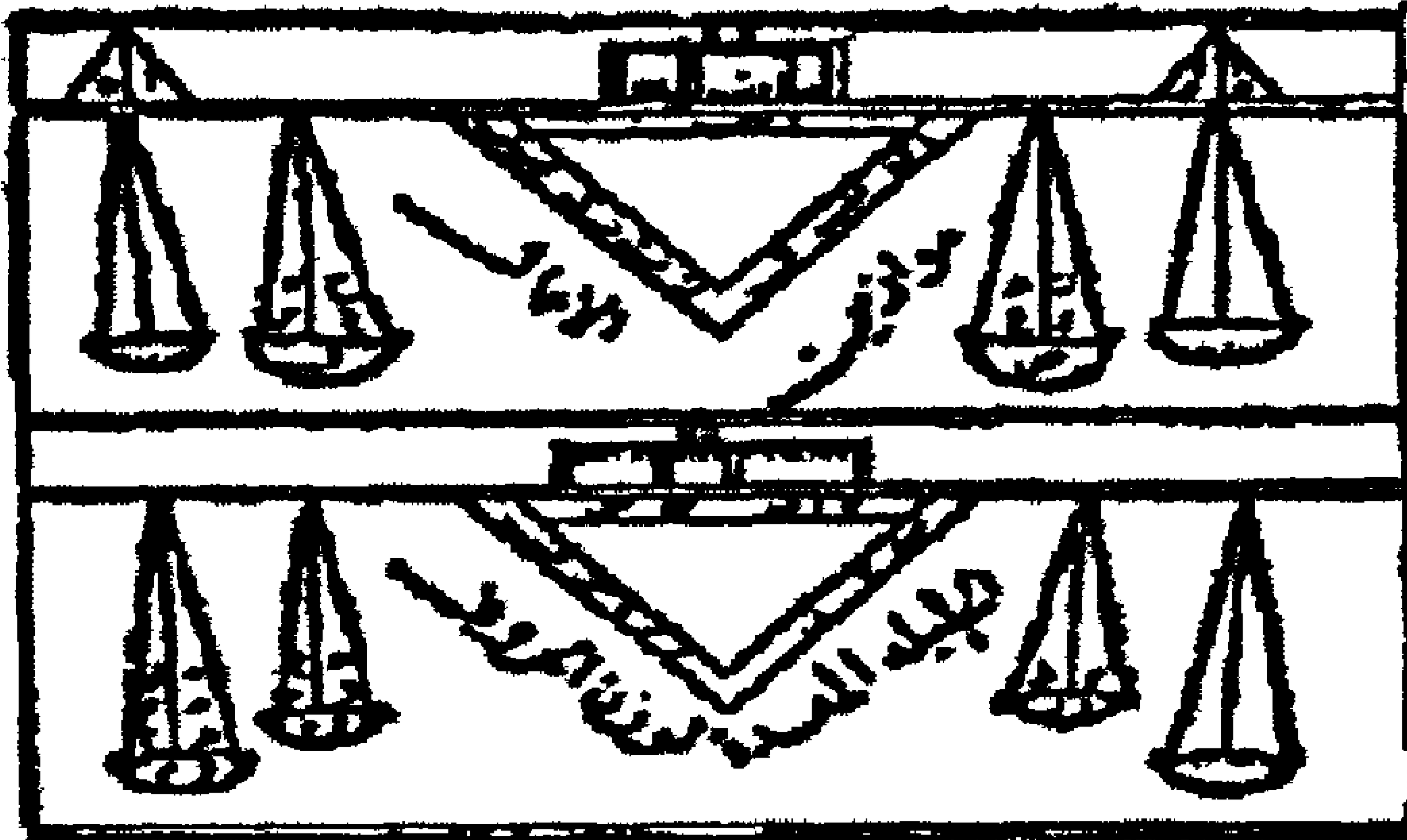
ويبدو أن النقوش والكتابات التي ابتكرها الفراعنة وسميت (بالهيروغليفية) والتي كانت تنطوي على رموز تمثيلية دالة على معناها فتتداخل اللغة اللفظية مع قرينتها

[1] –ابن محشرة: الاستبصار، ص 146، ص 147، ص 148؛ الحميري: الروض المعطار، ص 600؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص 390؛ البكري: المسالك والممالك، ص 15؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص 154.

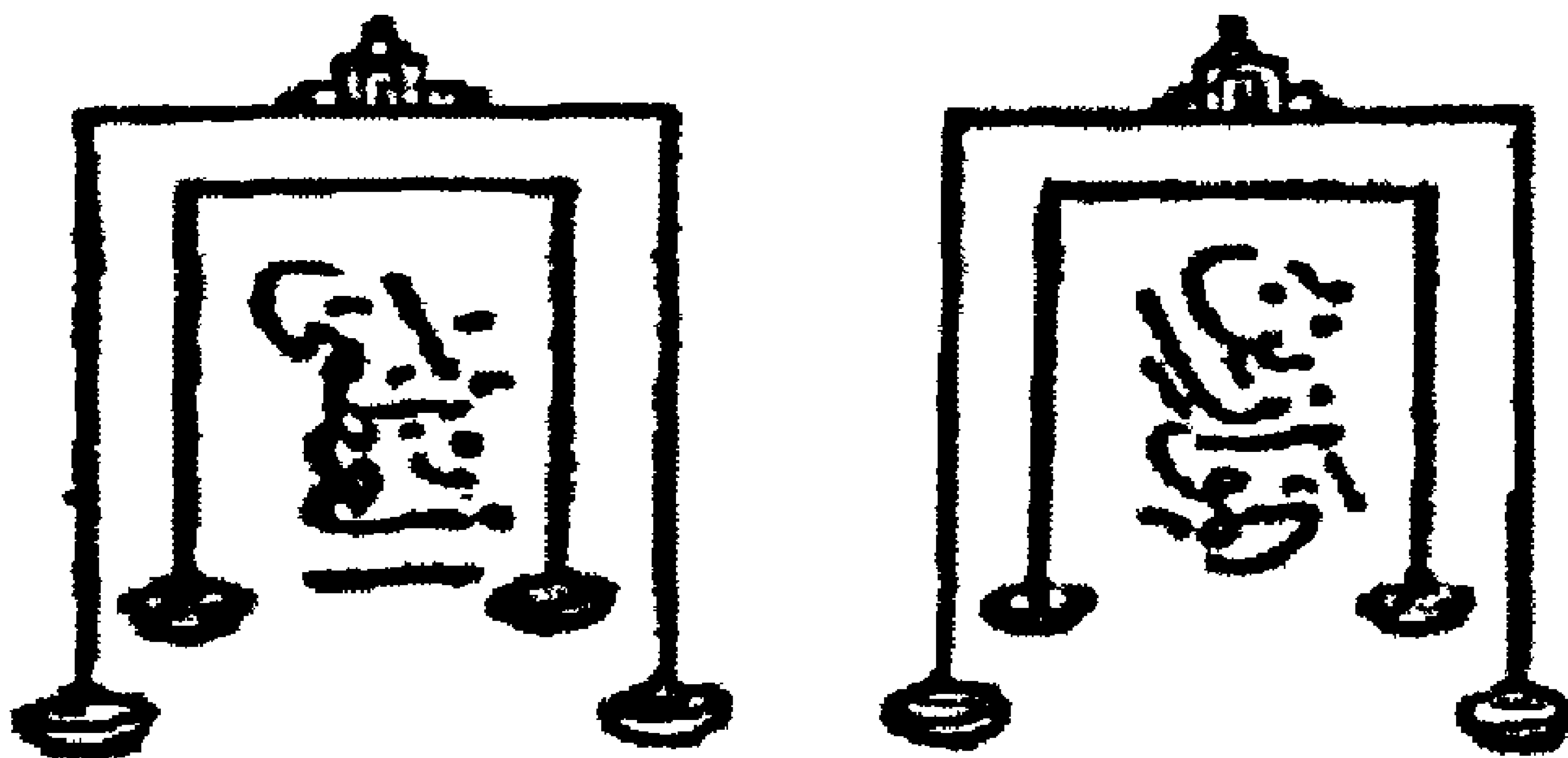
البصرية في تراكم تام والتي انتشرت على جدران المعابد المصرية والبرديات وآثار مصر القديمة قد وقف أمامها الوجدان الشعبي مشدوداً مشدوهاً محاولا تفسير تلك الرموز وتقديم صيغة علمية لتلك النقوش فوصلت إلينا عبر كتابات الرحالة والمؤرخين مصحوبة بنوع من المبالغات والتصورات السرابية والتأويلات، وكانت الشروح الجغرافية والتاريخية تستند في الكثير من جوانبها برواية الرواة وخيال الشعراء والحالمين والواهمين الذين حالوا التنقيب عن تاريخ الفراعنة القدامى المشبع بالروحانيات وبرموز الموت والقدر والسحر والتمائم والطلسمات فنجده يتحدث عن أعمال الفراعنة وينسب إليهم الخوارق ويحيطهم بهالة من القداسة التي كان السبب الأول فيها هو إلمام هؤلاء الملوك بالسحر والكهانة وعلوم الطلسمات فيقول ابن وصيف شاه عن أحد ملوك مصر بعد الطوفان :"وأما الفرعون الخامس وهو الذي يقال له ميلاطيس الفرعوني صاحب الصنائع العجيبة والأفعال الغريبة التي لم يعمل مثلها وهو ابن دريموس، كان عالماً فاضلاً وله أعمال غريبة منها أنه عمل ميزاناً بكفتين من ذهب معلقة في هيكل الشمس على أحدى كفتيه حق والأخرى باطل، وجعل تحتها فصوصاً ونقش عليها اسم الكواكب، فيدخل الظالم، والمظلوم، ويأخذ كل واحد منهما فصاً من جملة الفصوص ويسمى عليه ما يريده، ويجعل كلاً منهما في كفة فتثقل كفة الظالم وتخف كفة المظلوم .. فلما دخل بختنصر إلى مصر أخذ هذا الميزان وحمله إلى بابل مع جملة ما حمل معه من مصر".[1]

[1] - ابن وصيف شاه : جواهر البحور ووقائع الأمور ، ص24.

ميزان الأعمال في كتب السحر الشعبي والذي يشبه ميزان محاكمة الميت عند القدماء المصريين حيث يتم وزن قلب المتوفي في ميزان الأعمال الذي نجده في المتون الجنائزية(شكل رقم ١)



[illegible]



[illegible]

وربما تسنى لنا أن نجد ثمة علاقة بين الميزان الذي صنعه الملك (ميلاطيس) — والمحتمل أن يكون قد تسرب إلى الوجدان الشعبي عن طريق الرسوم الجدارية والنقوش على جدران الأهرامات والمعابد المصرية وتوابيت الفراعنة ـ وبين الميزان الذي كان يستخدم (مجازاً) في الطقوس الجنائزية عند المصريين القدماء في تلك التجربة المخيفة الخاصة بوزن القلب، مقر الأفكار الحميمة لدى المتوفي والمتضمن لأعماله الطيبة أو الشريرة ..وهناك ميزان أمام أوزيريس، فوق إحدى كفتيه يوضع القلب، الذي يجب أن يكون وزنه موازياً تماماً في خفته لوزن ريشة (الماعت)*[1] الموضوعة فوق الكفة الأخرى، ويقوم أنوبيس

---

[1] -* الإلهة ماعت هى ربة الحقيقة عند المصريين القدماء وكانت تصور وهى تحمل شارة على شكل ريشة عقاب ، ولا ندري السبب الذي جعلهم يختارون هذه الشارة بالذات ، ولم يصل تقديسها في العصور القديمة إلى درجة تشييد معبد لها تقام فيه الطقوس وتقدم القرابين ، ولكنها حظيت بتقدير كبير في أوساط المتعلمين ، ولا غرابة في ذلك (فالحقيقة) هي باستمرار أهم دعامة للكمال الخلقي في عالم تسوده الفضيلة . ولقد قال عنها أحد الملوك المصريين :"هى خبزي ، وإني أشرب من نداها " ولعل تلك الصورة للربة ماعت بريشتها تسربت إلى الوجدان الشعبي بهدوء وتيد وتحورت إلى تلك الصورة التي يطلقها العامة على من يحظى بتقدير استثنائي في المجتمع فيقولون :" هو يعني ابن مين ؟ هو على راسه ريشة!! " ؛ انظر /أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص68.

بعملية الوزن، في حين يقوم تحوت بتدوين النتيجة حتى لاتحدث أي مجادلة . وتبدا المحاكمة، التي يرأسها أوزيريس، في سماع قائمتين طويلتي المدي عن الخطايا التي يعلق الميت أنه لم يرتكبها.[1]

وصورة هذا الميزان (شكل رقم 1) وفكرته نجد لهما رديف في كتب السحر الشعبي وقد سمي الميزان الأول باسم ميزان المصادقة :طفهو ميزان يُعرف من طبائع الحروف المتصادقة التي تحتاجها وقت الأعمال ويلقى منه الأحرف وقت العمال وأما الموازين المتضادة التي تحتاجها وقت أعمال الشر وما أشبهها . والثاني تعرف منه نسبة الحروف المتقابلة عن الدرج والدقائق والثواني والثوالث . والميزان الثالث الكبير له خواص جليلة وهو معرفة ميزان الأعشاب والحيوان والمعادن والحروف وطرح الإكسير... ومن خواص هذا الميزان لجميع ما عمل له فإذا كتب على أي معدن كان له تأثير عظيم وهو نافع للصلاح والفساد والخير والشر وعند العلماء المحققين إذا أطلقوا في قولهم لما كتب له يكون ذلك والله الموفق "[2]

على جانب آخر لم ينس الموروث الشعبي المتعلق بفراعنة مصر القدامى أنه قد تربع على عرش مصر ملكات كانت لهن مواقف حاسمة في تاريخ مصر وهنا يأتي دور الجماعة الشعبية التي تختار (أحد أبطالها أو حكامها) فترفعه الذهنية الشعبية لقمة هرمها المقلوب والمتجه بعكس الهرم الرسمي وتوصله إلى حد (القداسة) .وهذا دائماً يكون لفترة زمنية محدودة، وهى فترة الأحداث الجسيمة والفارقة، ومع نهاية المناسبة يتحول هذا المقدس إلى شخص عادي وسط الجماعة الشعبية . وقد تقوم الذهنية الشعبية ـ بما تمتلكه من ملكات تصل بها إلى حد الموهبة ـ حسب الطلب فيثبتوه في موضعه لفترات ليقاوموا به، ويخلقون له بناية خاصة تتسق وفترة ولايته وقداسته، وهذا نفسه ما حدث للملكة دلوكة التي تولت الحكم في فترة فراغ سياسي وأمني شديد الخطورة فاستطاعت بدهائها وبما امتلكته من قدرات سحرية أن تحمى مصر من براثن العدو المتربص علي الحدود الشرقية بإقامة سور خرج من نسيج المخيلة الشعبية ليقدم لنا دلالات في غاية الخطورة. ولعل دور الملكة دلوكة يتشابه لحد كبير مع دور الملكة المصرية (شجر

[1] ـ ديمتري ميكس ، كريستين فافار ميكس: الحياة اليومية للآلهة الفرعونية (ترجمة :فاطمة محمود ، سلسلة الألف كتاب الثاني ، القاهرة 2000م)،ص263.
[2] ـ البوني : شمس المعارف الكبرى ،ج 3 ، ص370.

الدر) بعد وفاة زوجها السلطان الصالح نجم الدين أثناء صراعه مع الفرنج (الصليبيين) في غزوهم لمصر[1] .

وتقديراً لدور هذه الملكة صاغ الوجدان الشعبي لها صورة شعبية ضمنها سيرة الظاهر بيبرس متجاهلاً تفاصيل الحقائق التاريخية لصالح الصورة التي تعبر عن رؤية الناس للدور التاريخي لهذه السيدة ؛ وهو الدور الذي ارتبط بأعز مقدسات المصريين ـ أعني الدفاع عن بلادهم ضد الفرنج المعتدين ـ وابتكر الوجدان الشعبي حلاً يناسب الرؤية الشعبية لدور المرأة في المجتمع ومكانتها السياسية والاجتماعية . لقد رفض الخيال الذي أبدع السيرة الشعبية أن تقوم امرأة على كرسي الحكم وعرش السلطنة (وهذا ما حدث فعلاً في التاريخ كما تسجله روايات المؤرخين في الصورة التاريخية)، ولكنه حفظ لشجر الدر الجميل والمعروف بسبب دورها في الدفاع عن البلاد وجعل حكم مصر حقاً شرعياً لها (وهو ما رفض الخليفة العباسي الاعتراف به) لكنه جعلها تتزوج الصالح نجم الدين أيوب ـ بصفاته وأخلاقه المثالية من وجهة النظر الشعبية ـ بحيث يكون من حقه أن يحكم البلاد التي تملكها زوجته بدلاً منها من منطلق قوامة الرجال على النساء . الأمر الذي يمكننا من اعتبار (الصورة التاريخية) و (الصورة الشعبية) بمثابة قراءتين متوازيتين للتاريخ .

ولعل الوجدان الشعبي قد استعار ملامح هذا الدور العظيم ليضفيه على الملكة دلوكة

---

1 - **في سنة 647هـ / 1249م تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة صليبية جديدة تحت راية الصليب ضد مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا . وبسرعة عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من بلاد الشام لتنظيم وسائل الدفاع عن مصر وفي صفر 647هـ نزل لويس التاسع دمياط بقواته واستولى على المدينة ، وانسحبت القوات المصرية المدافعة عن دمياط بعد أن ظن القادة أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب المريض قد مات ، وفي أعقاب الفرسان والجنود فر السكان المذعورون ، وهكذا سقطت دمياط في وداعة مذهلة لقوات الحملة الصليبية السابعة ، وأخذ الصليبيون يدعمون وجودهم في المدينة الأسيرة . واستقبل السلطان أنباء سقوط المدينة ، التي بذل جهداً كبيراً في تحصينها بمزيج من الألم والمرارة والغضب ، وتم نقل معسكره إلى مدينة المنصورة ، وبدأت حرب العصابات برية ونهرية وفي تلك الأثناء توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب فتولت شجر الدر الحكم في تلك الظروف العصيبة واستطاعت كتمان خبر موت السلطان على الحاشية والرعية ، وبفضل شجاعتها وقوة بأسها بدأت (شجر الدر) في إدارة شئون الدولة ومسرح العمليات العسكرية وكأن السلطان الصالح نجم الدين أيوب ما يزال حياً ؛(قاسم عبده قاسم :**بين التاريخ والفولكلور**) ، ص135؛ ونفرد هولمز : **كانت ملكة على مصر** (ترجمة : سعد أحمد ، سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة 1998م) و 219.

التي حمت مصر بالعديد من الوسائل التي تداخلت مع العديد من الوسائل التي غلفها الجو السحري كان من أبرزها ما يسمى(بسور الملكة) والسور كان أول مفردة في منظومة التراث العمراني المصري إذ كان معلماً قديماً قدَم مدن هذا الجزء من العالم، وما برح الرحالة والمؤرخون من الإشارة إلى وجود سور يحيط بمصر من العريش إلى أسوان. ولتتبلور لدينا الدلالة الحضارية للسور بما يعنيه من أمن وأمان من ناحية كما أنه في الوقت نفسه يعكس دلائل ضعف وخوف من الجماعات الخارجية التي تنظر بعين الحسد، وتتحين أي فرصة لضعف الدولة للانقضاض عليها، إضافة لشعور أهلها بأنهم لم يعودوا قادرين علي إيقاف الهجوم الذي يهدد بلادهم ، وهذا ما نلمسه في طيات الأسطورة التي روج لها المؤرخون في كتاباتهم في سياق حديثهم عن ما يسمي "بحائط العجوز" في قولهم :" من المباني العجيبة بمصر أيضا، حائط العجوز، وأسمها دلوكا، ملكت مصر، وهذا الحائط من العريش إلي أسوان، شامل بكور مصر من الجانب الشرقي، تزعم الضبط أن سبب بنائها له ؛ خوفها علي مصر وأهلها بعد غرق فرعون وقومه، وأن تطمع فيها الملوك فبنته لذلك".[1] وجعلت فيه محارس ومسالح علي كل ثلاثة أميال محرس[2] ومسلحة، وفيما بين ذلك محارس صغار علي كل ميل، وجعلت في كل محرس رجالاً، وأجرت عليهم الأرزاق، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس، فإذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم إلي بعض بأجراس، فأتاهم الخبر من كل وجه وكان في ساعة واحدة، فنظروا في ذلك، فمنعت مصر مَنْ أرادها، وفرغت من بنائة في ستة أشهر، وهو الجدار الذي يقال له جدار العجوز، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة".[3]

---

1 -الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص 34.

2 - المحارس : ذكرها الرحالة ابن جبير في رحلته في (القرن السادس الهجري) وهى جمع محرس ، وتعني عنده ؛ مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء . أو هي النقطة الحصينة في المدينة. انظر : رحلة ابن جبير ، ص 32.

3 -السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص 47؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 27، ص 28؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص 204؛ ابن زولاق: فضائل مصر، ص 70؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص 151؛ المقريزي: الخطط ج1، ص 199.


مومياء مصرية يعتقد أنها للملكة المصرية حتشبسوت

الموروث الشعبي الدائر حول سور الملكة دلوكة يكشف عن حقيقة تاريخية في غاية الأهمية، وهي أن الحدود الشرقية كانت وما زالت مصدر الخطر الدائم عبر التاريخ، ومن هنا كان اهتمام مصر الاستراتيجي الأول متعلقا بحدودها الشرقية علي مر العصور وقد تعين علي حكام مصر الفرعونية ابتداء من عصر بداية الأسرات (منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد) أن يتيقظوا للحدود الصحراوية الشرقية، وبدأت سياسة السلام المسلح في عهد امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة (1961-1778 ق. م) بإقامة المشاريع الدفاعية التي امتدت علي الحدود الشرقية والشمالية الشرقية وسميت في مجملها " **أسوار الوالي**".[1] فهده الروايات أيضا تحمل ظلا تاريخا يشير إلي ما أثبتته أحداث التاريخ أن حدود مصر الشرقية الطبيعية تبدأ من خارجها عند فلسطين[2] .

ولعلنا نتساءل من هي الملكة دلوكة التي تردد اسمها في مدونات المؤرخين أكثر من مرة؟. فليست هي حتشبسوت وليست هي أيضا كليوباترا، وليس لنا إلا أن نفترض

1 -عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول، الهيئة العامة، القاهرة، 1967م)، ص 3.

2 - وردَ في بردية (لينئجراد) التي يرجع عهدها إلي عصر تحتمس الثالث (1478-1447 ق.م) في التعاليم الموجهة للملك"مرى كارع" إشارة إلي أهمية الحدود الشرقية لمصر بقوله: " الحد الشرقي للمملكة قد أصبح أمنا الآن ضد البدو" الأسيويين" انظر: محرم كمال: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء(مكتبة الأسرة، القاهرة، 1998م)، ص78.

أن الضمير الشعبي المصري قد أخرج اسم هذه الملكة، ليلحق بها من الأعمال ما يعجز عنه الرجال ،استمراراً للحس المصري بتفوق المرأة في أعمال السحر ومكانتها في مجتمع الحكم والسلطة . كما أن المرأة العجوز قد اشتهرت في الأدب الشعبي بأنها رمز للدهاء والمكيدة، فقد عزا الراوي الشعبي حماية مصر – ولو جزئياً – إلي مكائد ودهاء المرأة العجوز، وصور هذه العجوز كثيرة متعددة في الأدب الشعبي كما هي كذلك في ألف ليلة وليلة.[1]

إضافة لذلك فالسحر في مصر القديمة لم يقتصر على السحرة من الرجال فقط، بل كان لبعض النساء دراية تامة بالسحر والاتصال بالأرواح، كما أن بعضهن حملن لقب (عرافة المعبد) وقد دخلت التاريخ أسماء الكثيرات منهن أمثال ميليت، وأنهاى، وروي . وبعضهن كن أميرات وملكات .

وقد ذكر(ديودور الصقلي) أن بعض الملكات تعلمن السحر من الكهنة وتخصصن فيه، وأن الملكة كانت تجلس بجانب الملك على العرش وتلازمه في زياراته للمعبد محافظة عليه من السحر المضاد وهو ما يظهر في بعض الرسوم والتماثيل عندما تظهر الملكة وهى تضع ذراعها على كتف الملك، أو خلف ظهره لتحميه من أعداء الخفاء، بينما تحميه الكوبرا أو الأفعى التي تتصدر تاجه وجبهته من العين الشريرة والأعداء المواجهين له.[2] وربما كان الرحالة والمؤرخون على إطلاع على تلك النقوش التي جمعت بين الملك وزوجته فكانت تكئة يستندون إليها في روايتهم عن الملكة دلوكة .

---

1 ـصورة العجوز (دلوكة) نجد لها رديفاً في حكايات ألف ليلة وليلة حيث تحتل شخصية العجوز المكانة الممتازة في الليالي والتي دارت بسببها، وبسبب حيّلها خاصة، حوادث احتلت نحو خمس الليالي، فهي شواهي بطلة قصة عمر النعمان وولديه، هذه العجوز استعملت دهاءها ومكرها في الكيد السياسي، فقادت جيوشاً هزت ممالك عصف بالملوك في سبيل الانتقام السياسي، وفي الحروب تكون العجوز حركة دائمة بين الجيوش؛ فهي عند المسلمين الناسك الذي يدبر لهم خطة السير، وهي عند النصارى العجوز التي توصلهم إلى عدوهم بما عندها من معلومات وبما دبرت من حيّل، وهي ربما كانت العجوز (دلوكة) في الكتابات التاريخية قد استمدها الراوي من خياله ولكنه صبغها بواقعة كثيرا. ارجع إليها فكرة بناء سور حول مصر للخلاص من الأعداء والمنافسين، انظر: سهير القلماوي: ألف ليلة وليلة، ص 314، ص 315؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص 167، ص 191.

2 ـ سامية حسن الساعاتي :السحر والسحرة بحث في علم الإجتماع الغيبي (الطبعة الثانية ، دار قباء للطباعة ، القاهرة 2002م)، ص39

ويمدنا ابن وصيف شاه بإشارات عن ملكة أخرى تملكت مصر كانت تسمى (نونية) فيقول :"وتولت من بعده ابنته نونية الكاهنة وكانت ساحرة ماهرة في علم السحر (لاحظ علاقة المرأة بعالم السحر) فأقامت مدة . ثم وثب عليها أخوها مرقونس، وكان عالماً فاضلاً بالسحر والكهانة .." [1] ولعلنا نلحظ التقارب بين تلك الملكة التي تحدث عنها ابن وصيف شاه وبين الملكة المصرية القديمة (حتشبسوت) التي شيدت واحداً من أعظم وأفخم الآثار المعمارية التي خلفتها الدولة الحديثة (حوالي 1580 ق.م - 1085 ق.م) وهو معبد فريد في بابه، وليس له مثيل في معابد العالم كله وقد وضع تصميمه وأشرف على بنائه المهندس الشاب (سننموت) الذي أصبح المستشار الأول للملكة في كل الأمور . وحكمت البلاد لمدة تبلغ سبعة عشر عاماً واستطاع تحتمس الثالث أن ينفرد بالحكم بعدها لمدة 48 سنة.[2] ولعل ذلك يدل على وصول إشارات مرتبكة من تاريخ الفراعنة القدامى إلى الضمير الشعبي الذي أخذ يتناقل تلك الإشارات الشعبية من جيل على جيل .


تمثال لوجه حتشبسوت سيدة النساء الشريفات

وحلق الخيال الشعبي بعيداً فيما يتعلق بحادثة غرق فرعون موسي والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم فيقول ابن عبد الحكم نقلاً عن عدة رواه:" أقبل فرعون حتى انتهي إلي

[1] - ابن وصيف شاه : جواهر البحور ووقائع الأمور، ص21.
[2] - انظر : ونفرد هولمز : كانت ملكة على مصر (ترجمة :سعد أحمد ، سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة 1998م) ، ص56- 57


القناع الذهبي للفرعون
المصري توت عنخ آمون

الموضع الذي عبر منه موسي عليه السلام وطرقه علي حالها.. وكان فرعون يومئذ علي حصان وأقبل جبريل عليه السلام علي فرس أنثي في ثلاثة وثلاثين من الملائكة، فتفرقوا في الناس، وتقدم جبريل عليه السلام فسار بين يدي فرعون وتبعه فرعون وصاحت الملائكة في الناس الحقوا الملك، حتى إذا دخل آخرهم ولم يخرج أولهم التقي البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو إسرائيل وجبة حين التقي. فقالوا: ما هذا ؟ قال موسي : غرق فرعون وأصحابه فرجعوا ينظرون فألقاهم البحر علي الساحل".[1] فحين أشار القرآن الكريم إلي فرعون موسي وقومه وما حاق بهم من عذاب بسبب عصيانهم وإنكارهم للحق أشار إلي ذلك بصفة إجمالية، دون اللجوء إلي تفاصيل حقيقة، كان الهدف من ذلك استخلاص الحكمة والموعظة لتقوية الإيمان وتعميقه في قلوب الناس.

ولكن الرواة تزيّدوا وأضافوا ولجأوا إلي تفاصيل لم يشر إليها القرآن ومثال ذلك حين:" ألجم فرعون الغرق، قال : أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فجعل جبريل عليه السلام يدس في فيه من طين البحر، ويقول: الآن وقد عصيت، وقبل وكتب من المفسدين ".[2]

وظلت الذهنية الشعبية تبحث عن السطور المفقودة في حياة فرعون موسي وتنقب عن الشخصيات الثانوية كي تكتمل الحبكة الفنية لديها مثال ذلك قولهم أن: " من حكمة الله وحسن تقديره، أن كان والد سيدنا موسي عليه السلام هذا بواب قصر فرعون كما أن والدته كانت من جملة نساء الحرم الخاص".[3]

وهكذا؛ فإن القراءة الشعبية لتاريخ فراعنة مصر، كانت تحتوي في عناصرها علي

1 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص44، ص45.
2 - التلمساني: سكردان السلطان، ص428.
3 - أوليا چلبي : سياحتنامه مصر، ص48.

مسائل أخرى شغلت الضمير الجمعي ووجدتها فرصة لأن تطرحها في إطار رؤيتها الشعبية للأحداث في سياق بحثها المستميت عن العناصر المنسية والناقصة في الحدث التاريخي.

على جانب آخر لعب الحلم دوراً بارزاً في التأريخ لحياة الفراعنة، وما يتعلق بأحداث حاسمة في تاريخ مصر، فالحلم كان ولم يزل منبعاً فياضاً للأسطورة طوال تاريخه، ومصدراً ثرياً لإلهاماته المتواترة على مستوى الشرق والغرب، رغم اختلاف منطق استخدامه من قبل كلٍّ منهما. فضلا عما كان للأحلام من دور - كقوالب فنية - في تشكيل القصص الشعبي المرتبط بفراعنة مصر القدامى مع تفاعل المؤثرات الدينية على الأخبار التاريخية التي وجدت طريقها إلى كتابات المؤرخين بعد تحويرها وإعادة صياغتها.

يقول ابن إياس وغيره من المؤرخين: "أن فرعون رأى ثلاثة أحلام في الليلة الأولى؛ سمع في الحلم هاتفاً يقول له: "ويلك يا فرعون، قد قرب زوال ملكك، ويكون على يد فتى من بني إسرائيل". وفي الليلة الثانية؛ رأي في منامه وكأن شابا دخل عليه وهو يركب أسداً عظيماً، وبيده عصا يضرب بها رأس فرعون، وفي الليلة الثالثة؛ رأى نفس حلم الليلة الثانية، ولما جمع الكهنة، أخبروه بولادة مولود لبني إسرائيل، يسلب ملكه، وأشار عليه وزراؤه بأن يحضر إلى قصره كل امرأة أوشكت على الولادة تلد هناك، فإن كان المولود أنثى استحياها، وإن كان ذكراً قتله..".[1] وقد ذكر الإخباريون المسلمون هذا الحديث على خلاف طفيف فيما بينهم والتي لم تكن تلك الأخبار سوى تنويعات على قصة التوراة إذ يعد العهد القديم المصدر المبكر الوحيد الذي ورد فيه ذكر موسى وفرعون، أما المأثورات المتأخرة حول شخصية فرعون موسى والتي وردت في أعمال المؤرخين والرحالة، فيبدو أنها لم تكن سوى مجموعة كبيرة من الأساطير التي أعادت كتابة التاريخ الذي قدمه العهد القديم والإشارات الواردة بالقصص الديني، فقد ورد في الأساطير اليهودية - خارج العهد القديم - وتسربت إلى كتب التاريخ: "رأى فرعون في منامه؛ أنه بينما كان جالساً على عرشه دخل عليه كهل، في يده ميزان، فعلقه أمام

1 - ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1، ص 118، ص 119؛ التلمساني: سكردان السلطان، ص 424.

فرعون، وأتى بكل شيوخ مصر، وأمرائها وكبرائها ووضعهم في كفة الميزان الأولى، ثم أخذ كبشاً أبيض اللون، ووضعه في الكفة الأخرى، فرجحهم الكبش، واندهش فرعون لهذا المشهد. وتساءل عن السبب وعندما استيقظ دعا جميع عبيده، وقص عليهم حلمه فخافوا، لكن أحد خصيانه أخبره بأن شراً عظيماً يتربص بمصر، حيث يولد في إسرائيل ولد يخرب جميع أرض مصر، وأشار على فرعون بأن يصدر أمراً بقتل كل مولود ذكر يولد في بني إسرائيل".[1]

وبالمقارنة بين ما كتبه الرحالة والمؤرخون فيما يخص فرعون موسى نجد أنه قد ورد عنصر النبوءة - كأحد سمات الأسطورة - في العديد من قصص الإخباريين المسلمين وفي بعض الأساطير الإسرائيلية، وقد اتخذت النبوءة في هذه القصص والأساطير شكلين: إما إخبار الكهنة والسحرة والعرافين فرعون بولادة مولود في بني إسرائيل، وإما الأحلام[2] فيذكر المسعودي: "أن أهل الكهانة والنجوم والسحر أخبروا فرعون أن مولودا سيولد في بني إسرائيل ويُزيل ملكه ويحدث ببلاد مصر أموراً عظيمة..".[3] ويذكر المقريزي : "أيضا، أنه عندما أخبر العرّافون فرعون بميلاد ذلك الطفل، منع بني إسرائيل من المناكحة لمدة ثلاث سنين...".[4] ويذكر ابن كثير : "أن فرعون رأى في منامه وكأن ناراً أقبلت من ناحية بيت المقدس فأحرقت دور مصر وأهلها ولم تضر بني إسرائيل .. فأمر فرعون بقتل الغلمان..".[5]

جدير بالذكر. أن الخيال الشعبي قد استعار هيكل تلك الروايات ووظفها في سيرة إبراهيم الخليل ﷺ، حيث كان مولد إبراهيم ﷺ في عصر الملك النمرود، الذي عُرف بكفره وعصيانه، وحذره المنجمون من أنه سيولد في بلده هذا العام؛ غلام يغير دين أهل الأرض وأن النمرود: "رأى في منامه كوكباً طلع فذهب منه نور الشمس والقمر حتى لم

1 - ي. ب. ليبنر: **كل أساطير إسرائيل**(معدة وفقا للمصادر الأولى، ومكتوبة بلغة المقرا وفق ترتيب زمني)،(القسم الأول، نشر دار أحيا ساف" و "عيفر" أورشليم 1950م)، عمود 279.
2 -كارم محمود عزيز: **النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم**، دراسة مقارنة،(رسالة دكتوراة (غير منشورة)، جامعة الزقازيق 1997م)، ص 187.
3 -المسعودي: **مروج الذهب**، ج1، ص 48: 49 ؛ التلمساني: **سكردان السلطان**، ص 424.
4 -المقريزي: **الخطط**، ج2، ص 466.
5 -ابن كثير (أبو الفداء الحافظ):**البداية والنهاية** (المجلد الأول، تحقيق: أحمد أبوملحم وآخرين،دار الكتب العلمية، بيروت 1985م)، ص 222 ص 223.

يبق لهما ضوء، فقال الكهنة: هو مولود يولد في هذه السنة يكون هلاك أهل بيتك على يديه..".[1] لتستعين الرواية في سرد سيرة إبراهيم عليه السلام بالأحداث التاريخية، التي يدعمها النص الديني، تملأ ما تجده من فراغ تاريخي بروايات خيالية أو قصص تعليلية تكشف عن رؤية الجماعة الإنسانية لتاريخها وذاتها، خاصة مع ميل الشعوب عامة إلى قصص حكايات المعجزات والاستماع إليها. فلا غرابة أن تنتزع من سيَر الأقدمين تلك الأخبار التي تشير إلى المعجزات والنبوءات فينميها القصاص الشعبي ويفرد لها قصصاً مستقلة.

المزج التاريخي المشوق، والتداخل بين التصور الديني والتصور الأسطوري لشخصية فرعون مصر. استمر في كتابات المؤرخين والرحالة المسلمين في إفلات مثير من قيود الزمان والمكان، حيث يبدو هذا واضحا فيما رواه المؤرخون عن فرعون مصر المدعو "كلكن الجبار" الذي كان يعقد التاج على رأسه، وكانت دار مملكته منف.. وكان نمرود جباراً شديد البأس، وكان ملكه بالعراق، وكان قد أوتي قوة وبطشاً، فغلب على أكثر الأرض فأراد أن يستوزر كلكن الملك، وبعث إليه في ذلك، فخافه كلكن وأجابه إلى ذلك، ووجه إليه أنه يريد أن يلقاه منفرداً من أهله وحشمه؛ ليريه من حكمته وسحره، فسار النمرود إلى موضع يلقاه فيه كلكن فأقبل كلكن، تحمله أربع أفراس ذوات أجنحة، وقد أحاط به نور كنار، وهو في صورة مهيبة، فدخل بها وهو متوشح تنيناً عظيماً والتنين فاغر فاه، ومعه قضيب آس، فكلما رفع التنين رأسه ضربه بالقضيب الذي بيده، فلما رأى النمرود هالة ما رآه، واعترف له بجليل حكمته، وسأله أن يكون له ظهيراً ففعل..".[2]

هذه القصة الخيالية تحمل ظلا من الفرضية القائلة: أن الحاكم الذي كان يجمع ما بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية في المجتمع يمارس السحر، يتراءى لعامة الناس كمتبحر في أسراره وطقوسه، ليخلق حول شخصه أسطورية سحرية تضفي عليها صفات بطولة أو - على الأقل - تجعله شخصية مبرزة مرغوبة ويخشى بأسها.[3] ونجد أن شخصية فرعون مصر ظلت تشغل

1 -انظر: نبيلة إبراهيم سالم: السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي(مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، الكويت 1982م)، ص 345 ص 349.

2 -المقريزي: الخطط ، ج1 ، ص35؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 70.

3 -شفيق مقار: السحر في التوراة والعهد القديم(ط.الأولى، دار رياض الريس، بيروت 1990م)، ص 312، 161.

حيزاً لا بأس به في الكتابات التاريخية التي تناولت فضائل وتاريخ مصر القديم. كما أن الرواية السابقة قدمت لنا الصورة التي شاعت في المجتمع المصري عن فكرة "المخلوقات العجيبة من طير السماء أو وحش الأرض أو الماء " والتي تكشف لنا كيف ربط الخيال الشعبي بين هذه المخلوقات وبين الحاكم الديني والسحر، فالحاكم الديني أو الساحر يستطيعان بحكم قواهما السحرية والدينية أن يستدعيا "التنين الوحش" لتدمير من يريدان، أو لإخافته شخصاً كان أو ربما مدينة .. وهذا يبدو طبيعياً طالما ربط الخيال الشعبي بين هذه المخلوقات وبين الحاكم الديني الذي يمتلك قوى سحرية ومعجزات أو كرامات يسخر بها قوى ما فوق الطبيعة أو يسخر بها المخلوقات الضارة المدمرة والتي ترعب الإنسان وتذهب بلبه وتنال منه ومن شجاعته ومن وجوده كله والتي تصبح خدماً لمن يملك الطلسم الذي يتحكم فيهم أو من يعرف الاسم الذي مكن لسيدنا سليمان عليه السلام أن يتحكم في قوى الطبيعة من رياح وأمطار، وعلى قوة المعرفة التي جعلته يعرف كل اللغات بما فيها لغات الطير والحيوان والهوام أيضاً .وحين سُرِقَ كتاب السحر من تحت إيوانه تعلم منه السحرة والكهنة الكثير من الأسرار وامتلكوا الكثير من القوى التي أعارتهم في كثير من الحكايات – القدرة على التحكم في الطبيعة والجان و الحيوان كـ (التنين) . هذا الحيوان الأسطوري بما مثلهُ من شخصية هامة في الحكايات الفولكلورية، والأساطير التي صاغت فيها الأجيال؛ معتقداتها وصنوف رعبها وتشوفها وتصوراتها عن الكائنات القوية والقوى الخفية الكامنة وراء ظواهر العالم المرئي وغير المرئي، ومن النسيج المتراكب والمتشابك المتداخل من الحكي الفولكلوري، والإبداع الأسطوري الذي ظل يتناقل شفاهاً من جيل إلى جيل.

الفصل السادس

أصول المدن المصرية القديمة بين الأسطورة والسحر

اختلفت آراء العلماء بشأن ظاهرة التعليل باعتبارها سمة للأسطورة، حيث ذهب فريق إلى أن التعليل ليس هو الخاصية المميزة للأسطورة، بينما ذهب فريق آخر - يتزعمه "كاسيرر" - إلى أن التفكير الأسطوري يتميز عن العالم النظري بفكرته عن السببية. وأياً ما كان الأمر، فإنه مما لا شك فيه أن هناك نوعاً من الأساطير يرتكز في أساسه على فكرة التعليل، وهو ما يتمثل في نوع أساطير الأصل، وإن كانت تنتمي إلى نوع آخر من القصص الشعبي يسمى بالحكايات التعليلية أكثر من انتمائها إلى نوع الأسطورة.[1]

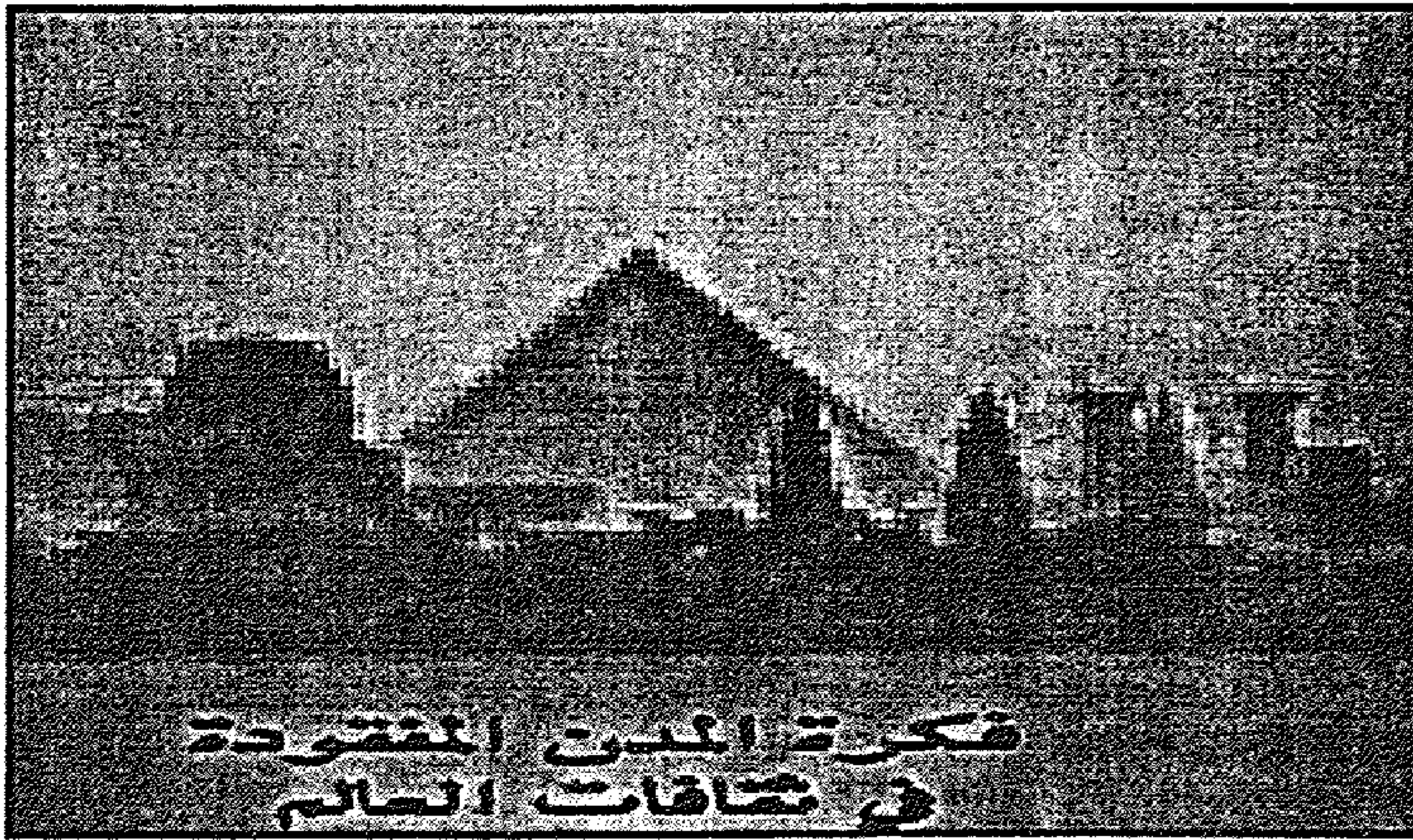
وتبرز فكرة التعليل في العديد من الحكايات التعليلية أو أساطير الأصل والتي تؤصل لمدن مصر القديمة التي شُيد بعضها زمن الفراعنة وشُيد بعضها الآخر على امتداد تاريخ مصر الطويل، وحول هذه المدن القديمة دارت موضوعات الموروث الشعبي في إطار خيالي يعكس مدى الانبهار والإعجاب بهذه المدن - وإن احتوت على أخطاء معرفية واضحة - وقد جمع الرحالة والمؤرخون المسلمون والعرب عدداً من الأساطير والروايات الخيالية حول هذه المدن في إطار يجمع بين الأسطورة والتاريخ، والاقتراب من الخيال الشعبي في وصفهم التفصيلي لمدن مصر؛ التي قد يكون لها وجود فعلي

---

[1] -أرنست كاسيرر: **الدولة والأسطورة** (ترجمة:أحمد محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م)، صفحات متنوعة ؛ كارم محمود: **الأسطورة فجر الإبداع**، ص 422.

ملموس أو مدن لا وجود لها في عالم الواقع مثل مدينة أمسوس المصرية ـ التي اعتقد الناس والمؤرخون بوجودها قبل الطوفان ـ وكان ذلك وحده كافياً لإطلاق خيال الرواة والقصاصين فنسجوا من وحي خيالهم أسطورة أمسوس المفقودة[1] بفعل الطوفان، مما يفصح لنا عن أفكار كثيرة تبادلت التأثير والتأثر مع حكايات ألف ليلة وليلة.

يقول ابن إياس: "مدينة أمسوس وهي مصر القديمة، وكانت من أعظم المدائن، وبها من العجائب ما لم يسمع بغيرها، ولكن محا الطوفان رسمها ونسى اسمها..".[2] فهي عند المقريزي : "أول مدينة عُرفَ اسمها في أرض مصر (مدينة أمسوس). وقد محا الطوفان رسمها ولها أخبار معروفة، وبها كان ملك مصر قبل الطوفان، ثم صارت مدينة مصر بعد الطوفان مدينة منف، وكان بها ملك القبط والفراعنة إلى أن خربها بخت نصر، فلما قدم الاسكندر بن(فيليبش) المقدوني من مملكة الروم، عمَّر مدينة الإسكندرية عمارة جديدة، وصارت دار المملكة بمصر. إلى أن



قدِمَ عمرو بن العاص بجيوش المسلمين، وفتح أرض مصر فاختط الفسطاط وصارت مدينة مصر إلى أن قدم جوهر القائد بعساكر المعز لدين الله أبي تميم معه وملك مصر واختط القاهرة .. وصارت القاهرة مدينة مصر إلى يومنا هذا.".[3]

وبعد أن يُورد المقريزي أسماء عدد من المدن المصرية يُورد حكاية خيالية عن أن "مصر بن بيصر" قسم الأرض بين أولاده، فأعطى ولده أشمون من حد بلده إلى رأس البحر إلى دمياط، وأعطى ولده أنصنا من حد أنصنا إلى الجنادل، وأعطى لولده صا من صا، أسفل الأرض إلى الإسكندرية، وأعطى لولده منوف وسط الأرض السفلى منف

---

[1] – فكرة المدينة المفقودة تعد من الأفكار الشائعة في ثقافات العديد من الشعوب.

[2] –ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1، ص 9

[3] –المقريزي: الخطط، ج1، ص 128؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج3 ص315.

و ما حولها، وأعطى لولده قفط غربي الصعيد إلى الجنادل، وأعطى بناته الثلاث شرقي الأرض إلى البرية (يقصد صحراء الشرق)، وأعطى بناته الثلاث وهن الفرما وسريام وبدورة. بقاعاً من أرض مصر محددة فيما بين أخوتهن ..".[1] وتكمل الروايات التاريخية المتأخرة شجرة النسب لباقي المدن المصرية فتقول: "قد خلفه ابنه مصرايم المولود بالعريش فصار ملكاً مستقلا عظيما ينفذ حكمه في إسنا "أسن"، وأسوان (إشوان) والسودان (سودان)، حتى بلاد الفونج (فوبحستار)، وعمد إلى أقاليم مصر، فوزعها على الأخوة الثلاثين (وهو منهم) ثم بنى كل واحد منهم في البلاد التي يحكمها مدينة عظيمة ،لا تزال تسمى بأسماء أولاد بيطر بفضل دعاء سيدنا نوح عليه السلام مثال ذلك أن احد أبناء بيطر كان يدعي (رشيد) فبنى المدينة التي هي الآن بهذا الاسم والآخر كان يدعى (دمياط) وثالث كان (اسكندر) وآخر تينبر (تينه)، وكذا (سيفه) الذي بنى مدينة بني سويف وآخر يدعي (مينه) وكذا أشمون وأسيوط وجرجه وتنا (قنا) وقوس (قوص) واسنه وأسوان (أثوان) وابريم وصياني وحلفا (حلفه) وسنارة وسودان وغيره من أمثال هذه الأسماء التي كان يتسمى بها الأمراء الذين بنى كل واحد منهم مدينة لا تزال باقية على الدهر عامرة آهلة بالسكان في شواطئ النيل حتى الآن..".[2] ،وعن نسب مدينة أتريب يقول القلقشندي : " بناها أتريب بن قبطيم بن مصــر ابن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام".[3]

يتضح من هذه الروايات الخيالية مدى تأثر الرواة بالأنساب العربية؛ ذلك أن عدم القدرة على معرفة أسباب تسميات المدن المصرية القديمة جعل الخيال يجنح إلى حد تصور أن هذه المدن قد اكتسبت أسماءها من أبناء "مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ـ الذي ينسب إليه اسم مصر ـ الذين قسمت بينهم أرض مصر، بل أنه ينسب بعض الأسماء إلى بنات تلك الشخصية مثل "الفرما" والتي تنازع في نسبها ـ الفرما ـ الاتجاه المصري القبطي مع الاتجاه الإغريقي في المجتمع المصري إذ تقول أحدى الروايات: "كان للإسكندر أخ يسمى الفرما، فلما بنى الاسكندر الإسكندرية، بنى الفرما، الفرما

---

[1] – المقريزي: الخطط، ج1، ص 129؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص29؛ السيوطي: حسـن المحاضرة، ج1، ص 14، ص 15.

[2] –أولياچلبي: سياحتنامه مصر، ص 36.

[3] – القلقشندي : صبــــــح الأعشى ، ج3 ، ص381.

على نعت الإسكندرية ولم تزل الفرما مُذ بنيت رثة..."[1]وفي هذا السياق يشير ابن إياس لنسب مدينة تنيس المندثرة بقوله :"قال المسعودي :إن الذي بنى مدينة تنيس كانت امرأة تسمى تنيس وهى بنت صا بن تدارس أحد ملوك القبط فسميت تلك المدينة بها".[2]

وتكشف الأساطير التي تدور حول المدن المصرية القديمة، بما تحويه من أخبار العجائب والغرائب، عن مدى إعجاب الرواة وانبهارهم بإنجازات الحضارة المصرية القديمة وهو الأمر الذي يبدو واضحاً من خلال تلك القصص الخيالية من الأعمال الإعجازية لملوك مصر القديمة، يقول المقريزي تحت عنوان "ذكر مدينة أمسوس وعجائبها وملوكها".

"... وأول من ملك مصر نقراوش الجبار بن مصرايم. ومعنى نقراوش ملك قومه ونقراوش هو الذي بنى مدينة أمسوس وعمل بها عجائب كثيرة؛ منها طائر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرتين، وعند غروبها مرتين، فيستدلون بصفيره على ما يكون من الحوادث حتى يتهيأون لها، ومنها صنم من حجر أسود في وسط المدينة تجاهه صنم مثله إذا دخل سارق المدينة لا يقدر أن يزول حتى يسلك بينهما؛ فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ .. وعمل صورة من نحاس على منار عال لا يزال عليها سحاب يطلع فكل من استمطرها أمطرت عليه ما شاء. وعمل على حد البلاد أصناماً من نحاس مجوفة وملأها كبريتاً، ووكل بها روحانية النار. فكانت إذا قصدهم قاصد أرسلت تلك الأصنام من أفواهها ناراً أحرقته، وعمل فوق جبل بطرس مناراً يفور بالماء ويسقى ما حوله من المزارع، ولم تزل هذه الآثار حتى أزالها الطوفان ...".[3]

رواية ابن إياس عن مدينة أمسوس "جاءت على نحو مشابه لرواية المقريزي مع بسط في التفاصيل عن دور ملوك مصر القديمة في تطوير "أمسوس" بقوله : "... مصرايم وهو الذي بنى مدينة مصر، وإليه تنسب وكان عالماً بعلم الكهانة والطلسمات .. كتب على أبواب مصر، أنا مصرام بن تبليل قد بنيت هذه المدينة، وأودعت بها الطلسمات الصادقة والصور الناطقة، أما ابنه عرياق كان عالماً بعلم الطلسمات وله

---

[1] –السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص 41.
[2] – ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج1 ،ص50.
[3] –الخطط، ج1، ص 129.

أعمال عجيبة، وكان قد عمل قبة عظيمة في وسط مدينة أمسوس وعمل فوقها كالسحابة تمطر مطراً خفيفاً شتاء وصيفاً، وعمل تحت تلك القبة مطهرة فيها ماء أخضر يتحصل من ذلك المطر، فإذا استعمله من به عاهة برئ من وقته ولما هلك تولى من بعده ابنه لوجيم، وكان عالما بعلوم الطلسمات والسحر وله أعمال عجيبة؛ منها كانت الغربان قد كثرت في أيامه، وصارت تفسد الزروع والغلال، فعمل أربع منارات في جوانب مدينة أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب[1]، وعليه صورة حيّة قد التوت، فلما عاين الغربان ذلك نفروا عن المدينة ولم يدخلوها بعد ذلك في مدة أيامه، ومنها أنه عمل طلسماً للريح، فكانت المراكب المقلعة إذا وصلت إليه تقف ولا تسير حتى يجعلوا له على كل مركب ضريبة معلومة، حتى يطلق لهم الريح من الجو، واستمر في الملك حتى هلك..."[2].

وعن ملوك أمسوس المزعومين يتحدث أولياچلبي عن أحدهم بقوله: "خلفه أخوه مصرايم بن نقراوش في الملك وكان هذا حاكماً ماهراً وكاهناً ساحراً، ؛ إذ سخر بقوة علمه جميع السباع والحيوانات المفترسة والمرعبة لأمره، بل أنه جعل الشياطين والعفاريت تخضع له وتحمل له عرشه".[3] ويقول ابن إياس عن إنجازات ملوك أمسوس المزعومة: "بنى أحدهم قلعة وكانت الجن والشياطين تحمل سريره على أعناقهم ويطوفون به في سائر أقاليم الدنيا، ثم يرجعون إلى قلعته التي بناها وسط البحر، فاستمر على ذلك حتى هلك".[4]

ويلاحظ في تلك الراويات الحضور الطاغي للأشكال الحيوانية المصاحبة لأعمال الملوك القدامى الذين كانوا جميعاً علي علم بالسحر والطلسمات . وظاهرة هذه الأشكال

---

[1] -العقرب :الصورة النموذجية لهذا الكائن العنكبوتي الخطر من أقدم النقوش الهيروغليفية المعروفة . وقد استعمل لكتابة اسم حاكم من عصر ما قبل الأسرات ،وهو الملك العقرب وكان العقرب إلهاً عبد بأسماء مختلفة كما كانت تعاويذ يستخدمها الناس ضد لدغة أي نوع من الزواحف ، ووردت في أساطير مصر القديمة حيث تجرأت العقارب التي هي أعداء البشر وخصوم الآلهة ذات مرة ، على أن تلدغ الألهة ولكن الآلهة كانوا أقوي من السم واستطاع البشر بواسطة السحر أن يجعلوا لحمهم كلحم الآلهة .جورج بوزنر وآخرون :معجم الحضارة المصرية القديمة ،ص234

[2] – ابن إياس :بدائع الزهور في وقائع الزهور،ج1، ص 10-11.ح وانظر ابن وصيف شاه : فضائل مصر وأخبارها ، ص20

[3] – المرجع السابق ، ص11؛ سياحتنا مه مصر، ص 30.

[4] – ابن إياس :المصدر السابق، ص 10.

الحيوانية تكاد تنتشر في روايات المؤرخين والرحالة في سياق حديثهم عن الأعمال الإعجازية لملوك مصر القدامى ـ كطلاسم سحرية ـ بزعم قدرتها على تحقيق أغراض متنوعة، ولعل من أكثر الجوانب سحراً في الثقافة المصرية القديمة، تعدد الحيوانات التي تعبر وتجسد ضمن مجموعة الآلهة . فكل حيوان معروف تقريباً نال قداسة، ورؤى أنه يحمل روح أحد الأسلاف، وخصائص الإله الذي يجسده . وكان كل إله تقريباً يمثله ويجسده حيوان معين .ومثلها مثل الفراعنة، اعتبرت حيوانات معينة وسيطة بين الإنسان والآلهة . وقدمت الهدايا للحيوانات باعتبارها تجسيداً للآلهة ،في مقابل الحصول على خدمة من الإله المطلوب . من هنا اكتسبت الأشكال الحيوانية قواها السحرية والعقائدية . وجمعت في خلقها بين الغرض الديني والغرض النفعي.

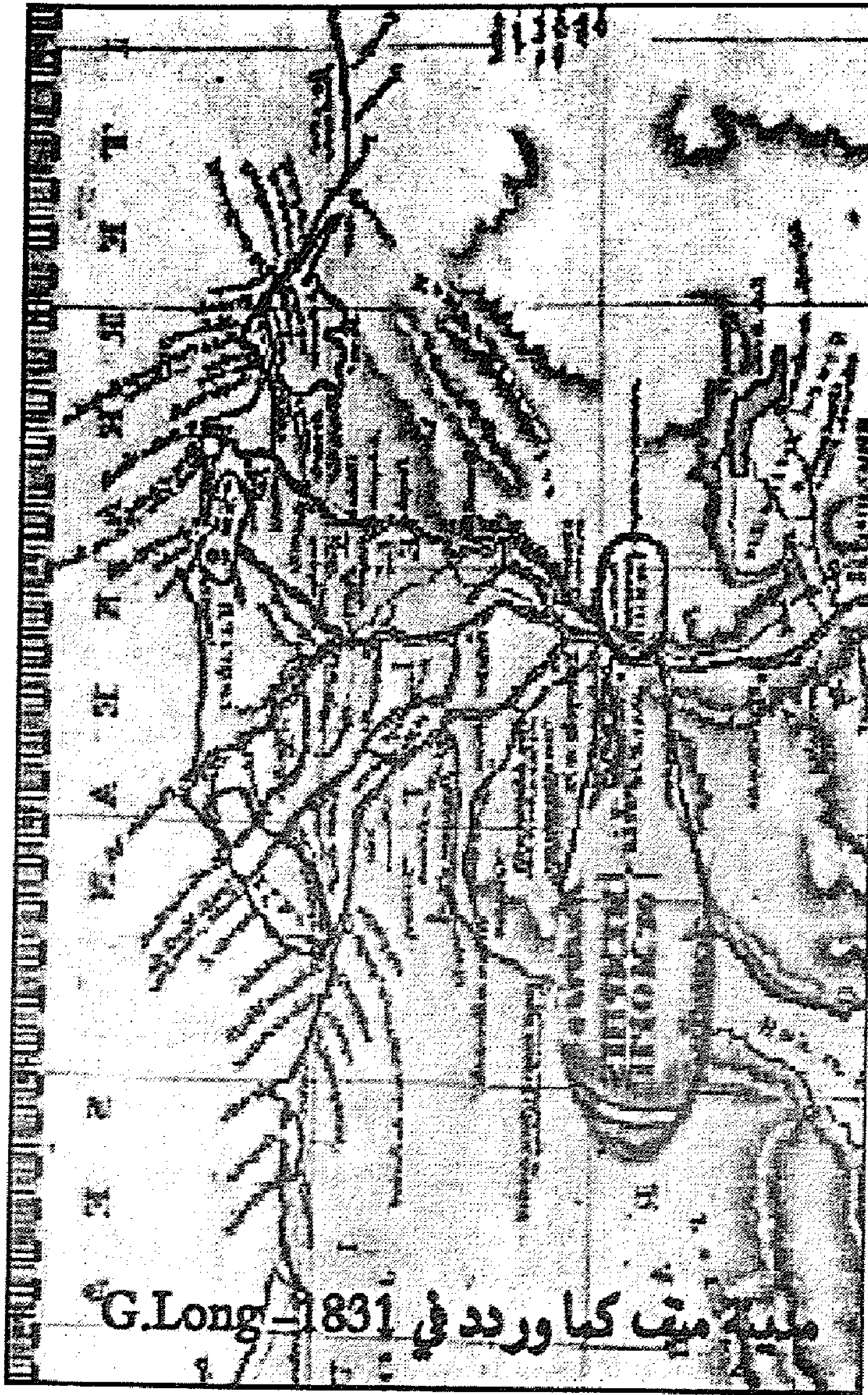
وقد أشار أحمد أمين إلى هذا المعتقد الذي يقوم على تلاوة عزائم سحرية خاصة على المادة المعدة لذلك لتحقيق المراد منها، ويذكر (الطلسم) الموجود في الأزهر الذي يقال أنه يمنع العصافير من الدخول إلى المسجد من أنه مكان مناسب لذلك، كما يشير إلى الاعتقاد بوجود (طلسم) بالإسكندرية لمنع الحدأة، ولهذا يزعمون أنه السبب في عدم وجود الحدأة في جو الإسكندرية، ومن طرائف الأمور أن الجاحظ في كتابه الحيوان ذكر عند زيارته حمص بسوريا، أنه لم يجد بها عقارب، فلما سال عن ذلك قالوا له :"إن بها طلسماً يمنعها من البقاء، فلم يرض عن ذلك وعلله بأنه ربما كان جو حمص لا يناسب العقارب، أو أن فيها من الحيوانات التي تهاجمها فهربت منها . [1]

وفي مصنفات السحر الشعبي نجد الكثير منها يورد وصفات مفصلة لأنواع من الطلاسم السحرية بزعم أنها تحقق أغراضاً معينة . والتي تقوم جميعها على الرسوم الحيوانية والرموز السحرية المرتبطة بها، منها ما يعتقد أنه لنفي العقرب، ويكون بصنع صورة عقرب من ذهب في ساعة معينة وطالع معين يفضل أن يكون الأسد لمخالفة طبعه لطبع العقرب، وتصنع الصورة مجزأة (الذنب، الرجلين، اليدين، والرأس) ويهدف هذا الوضع المعكوس إلى النفي.[2]

[1] ـ أحمد أمين :قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية (ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،القاهرة 1953م) ، ص278.

[2] ـ محمود نصار :غاية الحكيم للمجريطي (343هـ)(مكتبة الجمهورية ، القاهرة ،ب .ت)،ص16-23 ، وانظر أيضاً سليمان حسن :الرموز التشكيلية ، ص37

كما نجد تقليد مشابه يقوم به أصحاب الخيول العربية حيث يقومون بطقس مشابه لطرد الهوام والحشرات من مرابط الخيل فمنها:"العقارب : إذا أخذت عقرباً وقتلتها فاحرقها بالنار، فإن جميع العقارب التي في المكان إذا شمَّت ريح تلك العقربة هربت من المكان ... ومنها ما يعمل لطرد النمل عن مواضع الخيل ومرابطها والدواب ... وهو أن تحرق نملتين أو ثلاثاً أو أربعاً، وبَخِّرها في مواضع أحجار النمل واطْلِ رأس الجُحر بقطرات، أو قَطْرةُ فيه وليكن ذلك قبل خروج النمل من الجُحر .."[1]


مدينة ميف كما وردت في G.Long 1831

أما الثعبان أو الحيَّة التي طالما ظهرت مع طلسمات فراعنة مصر القديمة لحماية المدن المصرية فهي دون سائر الحيوانات الأخرى لها تاريخ طويل تحفه الأساطير من جوانبه كافة. وتكاد لا تخلوا أمة من أساطير دارت حولها وخلاصة ما قيل عنها ؛ أنها تمتلك العشب ذا القوة السحرية، كما نظر إليها كجن أو شيطان له قوة خارقة تلحق الأذى

---

[1] ـ بكوت الرماح الخازندار الظاهري :علم الفروسية وسياسة الخيل (تحقيق :محمود عبد الرحيم صالح، مطابع الحرس الوطني ، الرياض1986م)،ص124

أو الجنون في كل من يحاول إيذائها، وارتبطت حياة الناس بالحية ارتباطاً وثيقاً لانتمائها إلى عالم آخر، ويفوق طاقة الإنسان . أحمد النعيمي :الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام ،ص180؛كما أن الأفعى أو الحيَّة لعبت دوراً هاماً في الموروث الشعبي حيث قامت بدور الحارسة أو الحامية للإنسان كما تقوم بمطاردة من يمثلون الدنس في الجماعة، وتروي الحكايات الشعبية الحكايات عن الحية التي تحرس مسجد البيومي بالحسينية وأفعى الشيخ هريدي في صعيد مصر، وهو أحد الأولياء في أقاصي الصعيد ويستمد هذا الولي شهرته من امتلاكه أفعى عظيمة تقيم خلف مسجده، شاع عنه أنه يستطيع شفاء الناس من الأمراض والعلل عن طريق تسليط الأفعى على الجزء المريض في جسد الشخص، فتمتص الأفعى ذلك المرض ويبرأ المريض، ولعل أشهر الأولياء الذين ارتبط اسمهم بالحيات هو الشيخ أحمد الرفاعي الذي يقوم مسجده الكبير بمنطقة القلعة في القاهرة [1].

ولعل الخوف والرعب أيضاً هما اللذان دفعا المصريين إلى تقديس كائنات مرعبة أخرى مثل العقرب والحشرة السامة الكبيرة ذات الألف قدم، ثم أخطر الثعابين السامة المعروفة باسم (الناشر) فالعقرب هى الإلهة الكبيرة (سلكت) . أما الحشرة ذات الألف قدم فقد عبدت في هليوبوليس تحت اسم الإله (سبا) . أما الثعبان السام فقد عبد في شكلين مختلفين: أولهما هي الإلهة (بوتو) حامية ملك مصر، والثاني هو (الصل) حامي إله الشمس وزميله . وانتشرت الثعابين المقدسة في مصر إلى درجة أنه في العصور القديمة أصبح اسم كل إله يخص برسم ثعبان مثل الصقر الذي اعتبر مخصصاً لكلمة الإله (في الكتابة المصرية القديمة) بل أكثر من ذلك صورت الإلهة الصغيرة الطيبة (رنن أوتت) إلهة الحصاد على شكل ثعبان . [2]

ثم بعد ذلك أصبحت العادة تحتم أن يحوي كل معبد نموذجاً حياً من هذه الثعابين . وعلى كل حال فقد كانت كل مديرية تحتفظ بعدد كبير من الحيوانات والأشياء التي لم تعتبر آلهة، ولكنها كانت ذات صفة إلهية . ولعل صور هذه الآلهة التي ظهرت على جدران المعابد المصرية والآثار القديمة والتي قدسها الناس في شكل أسماك وطيور

---

[1] - ثناء أنس الوجود : رمز الأفعى في التراث العربي (سلسلة ذاكرة الكتابة ،القاهرة 1999م)، ص77- 78

[2] - أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص56

وفئران وأشجار وثعابين وعقارب وغير ذلك والتي لا نشك أن الجماعة الشعبية وقفت أمامها طويلاً تحاول إيجاد تفسيرات منطقية لوجودها تتفق مع قريحتها الشعبية المشبعة آنذاك بتأثيرات السحر الشعبي الذي كان متغلغلاً بين شرائح عديدة للناس في مصر آنذاك هي السبب في وصول تلك الحكايات التي تتحدث عن طلاسم الثعابين والغربان والصقور وغيرها والتي نقلها لنا الرحالة والمؤرخون نقلاً عن رواة التاريخ الشفاهي في عصرهم .

والمتتبع لتاريخ وسيرة "مدينة أمسوس" سيجد أنها كانت مرتعاً لخيالات الرواة وأخبارهم. إذ حملت تلك الأخبار ثمة رائحة من التاريخ في الوقت الذي يصطبغ فيه بصبغة أسطورية، فقد حرصت أخبار أمسوس على تضمين نصوصها بشراً من نوع الملوك المحيطين بعلوم الطلسمات والسحر والأعمال العجيبة والخارقة، التي ساعدت على عمران مدينة أمسوس بعجائب وغرائب تحَيّر في وصفها الإنسان إذا رآها بالعيان على حد قول المؤرخين رغم عدم رؤيتهم لها.

كما أن الزعم القائل بمحو الطوفان للمدينة شكّلَ خلفية تتحرك عليها (موتيفات) وأفكار أسطورية مثل؛ الطلسمات الصادقة، الصور الناطقة، والكنوز المرصودة، وانفتاح العوالم المرئية واللامرئية على بعضها، ومن ثم فلا بد من اصطباغ تاريخ وأخبار المدينة بنفس الصبغة الأسطورية بالتبعية، أضف لذلك؛ أن تلك الروايات والأخبار الخاصة بمدينة أمسوس وغيرها من مدن مصر، في جانب هام منها تؤصل لنشأة مصر أرضاً وشعباً وعمراناً، وذلك الحدث في ذاته إن شئنا التأريخ له فإنه ـ بلا أدنى شك ــ سيصبح خارج إطار العصور التاريخية وينتمي بشدة إلى عصور الأسطورة، مما يجعله يتخطى حدود الزمن الذي انتمت إليه بدايات نشأة وعمران مدن مصر، هذا علاوة على أن فكرة النشأة والتكوين تعد أحدى الموتيفات الأسطورية البارزة والتي يلزمها إطار زمني أسطوري خالص أوجده الرواة في زمن ما قبل الطوفان.

جدير بالذكر أن أخبار مدينة أمسوس وبعض المدن المصرية أضفت على جزء من تاريخها سمات خاصة بها ،عند ارتباطها بكائنات لعبت دوراً في حياتها ونشأتها مثل: الجن والعفاريت والشياطين الذين كانوا القاسم المشترك مع ملوك أمسوس في بناء

وتشييد المدينة.

ويسلك الرحالة والمؤرخون المسلك نفسه في سياق حديثهم عن مدينة "منف" وملوكها فيذكر الرحالة التركي أولياچلبي أحداث ما جرى في مصر بعد الطوفان فيقول: "لم يكن هناك شئ ظاهر سوى جبل الهرة الذي كان قد أقيم بإشارة من النبي إدريس ﷺ تجاه النيل ليأووا إليه، ومع ذلك فإن الذين لجأوا إليه عند الطوفان قد غرقوا بأموالهم وكنوزهم في مياه الطوفان، هذا وقد قام قليمون وصهره بيطر بن حام بجولة في أرض مصر للبحث عن موطن يقيمان به، فلما وصلا أرض (منف / منوف) وجداها طيبة الهواء لطيفة الجو والمناخ ويحيط بها النهر من كل الجوانب وكأنها جزيرة لطيفة ... ثم تراءى لهم أن يبنوا بها ويستقروا لما رأوا من كثرة خيرات الأرض وبركات تربتها، فبنوا بلدة مختصرة أطلقوا عليها اسم (منف / منوف) ومعناه باللسان العبري محل الصفاء والانتعاش، ولا يخفي أن أول مدينة بنيت على وجه الأرض بعد الطوفان هي قرية جودة (الجودي) التي استوت عليها سفينة نوح ﷺ وثاني المدن هي بلدة (منف / منوف) وقد أنشأ بها بيطر كثيراً من المدن والآثار وعمرها وحول مدينة (منف / منوف) إلى قصبة عظيمة .. واتخذها عاصمة لملكه...".[1]

يضيف المقريزي أن هذه المدينة ـ منف ـ كانت في غربي النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من مدينة الفسطاط ثم يقول : ".. وهي أول مدينة عمرت بمصر بعد الطوفان، وصارت دار المملكة بعد مدينة أمسوس التي تقدم ذكرها إلى أن أخربها بخت نصر".2 ويضيف (ابن محشرة) أنه كان بمنف: "فرعون موسى ﷺ وكان اتخذ لها سبعين باباً من حديد وفصل حيطان المدينة بالحديد والصفر، وفيها كانت الأنهار تجري من تحت سريره وكانت أربعة أنهار ... رأيت بمنف دار فرعون، وكنت أمشي في شوارعها ومجالسها وغرفها وجميع سقائفها وحجورها فإذا ذلك كله حجر واحد منقور، فإن كان بناء قد أحكم حتى صار في الاستواء كحجر واحد لا يستبان فيه جمع حجرين ولا ملتقى صخرتين فلذلك عجب، وإن كان جبلا واحدا فنقر الرجال فيه بالمناقير حتى خرقت فيه

[1] –أولياجلبي: سياحتنا مه مصر، ص 35 ص 36.
[2] –الخطط، ج1، ص 134؛ القلقشندي : **صبح الأعشى** ، ج3 ، ص315.

تلك المخارق فهو أعجب وأعجب".[1]

يصفها ابن زولاق بقوله: "أبنيتها - منف - وعجائبها وأصنامها، ودفائنها وكنوزها التي لا تحصى .. وفيها بيت فرعون قطعة واحدة، سقفة وفرشه وحيطانه حجراً أخضر .. وبها آثار الأنبياء والحكماء، وهي منزل يوسف ﷺ، ومن كان قبله، ومنزل فرعون موسى .. وكان بمنف قبة فيها صور ملوك الأرض متى تحرك منهم ملك يريد مصر بعج الموكل بالقبة بطنه بحربة فيتلف ذلك الملك في موضعه...".[2]

ويسرد (ابن زولاق) رواية تكشف عن ظلال حقيقية تاريخية عن وجود علاقات بين مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين[3] في سياق حديثة عن عجائب مدينة منف بقوله: " لما أراد بخت نصر، مصر أرسل رجلا يثق به، أعطاه مائة ألف درهم صلة فاحتال حتى صاهر امرأة من الموكلات بحفظ القبة .. داخل القبة وسأل عن الصور ورأى صورة بخت نصر، فقال للمرأة التي تزوجها: ما هذه الصورة؟ فعرّفته، فقال لها في خلوة: فمتى ينجو صاحب هذه الصورة؟ قالت: يُدهن صدره بدم خنزير، فأخذ دم خنزير وطلا صورة بخت نصر، وهرب وعاد إلى بخت نصر، فأخبره. فسار إلى مصر وكان من أمره ما كان...".[4]

ولعل فكرة النجاة بواسطة دم الخنزير ترجع إلى تقليد شعبي يقوم على عقيدة ذات طابع سحري وينبئنا هيرودوت أن بعض العرب القدامى في العصر الجاهلي اعتادوا

---

[1] -ابن محشرة: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 83؛ قارن. ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص 97؛ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص 116، الاصطخري: المسالك والممالك، ص 54؛ المقريزي: الخطط، ج1، ص 134.

[2] -ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص 67؛ القزويني: آثار البلاد، ص 274؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص 69؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 214.

[3] - الثابت تاريخياً أن مصر تعرضت للعديد من محاولات غزوها من الشرق فقد دخل الآشوريون عن طريق حدودها الشمالية الشرقية ووقعت مصر فريسة، في يد "آشور آخي الدين" 670ق.م ومن بعدهم الفرس سنة 525 ق.م،وقد قدم الآشوريين من شمال العراق إلى مصر غازين : وقد أوضح احتكاك هذا الجنس بالمصريين طبيعة الشخصية المصرية فقد قاومت هذا الغزو حتى طردته ، وباسم الدين راح كهان وادي النيل يبشرون ، ويشجعون الأمراء المصريين حتى تحقق لهم النصر . انظر :عبد العزيز صالح ، تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول ، مصر والعراق (القاهرة 1973م)، ص 272.

[4] - ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص 61.

سكب دمائهم على بعض الأحجار التي كانوا يقدسونها وتدعى الأنصاب، مبتهلين في الوقت نفسه إلى الآلهة التي كانوا يقدسونها وقتذاك . وكان من عادات العرب في الجاهلية أيضاً عندما يريد أحدهم الاحتماء في آخر أن يجرح يده، وعندما تغطيها دماؤه يختم بها علي باب من يريد الاحتماء به . وكان حلف الدماء عند بعض الشعوب الإفريقية يقتضي أن يشرب الفريقان المتحالفان من الدماء النازفة من صبي أو فتاة تختن في هذه المناسبة . وهناك نوع آخر من التحالف كان منتشراً أيضاً عند الشعوب الإفريقية، ولكنه كام مقصوراً على الملوك حيث يبصق كل من المتحالفين في فم الآخر وربما ذكرنا هذا التحالف بالمثل الشعبي الدارج الذي يقول :"تافين في بق بعض"، ويضرب هذا المثل لمن يردد نفس الكلام الذي يردده زميله.[1]

وعند المقريزي تستمر الحكايات لتستعرض ملوك منف حتى تصل إلى من تسميه الرواية "شدات بن عديم" فيقول: "وهو الذي تسميه العامة شداد بن عاد، وكان عالماً كاهناً ساحرا، يقال أنه هو الذي بنى الأهرام الدهشورية، وعمل أعمالاً عظيمة و طلسمات عجيبة، وبنى في الجانب الشرقي مدائن وفي أيامه بنيت قوص .. وغزا الحبشة وسباهم [2]، وأقام ملكاً تسعين سنة، وهو أول من اتخذ الجوارح، وصاد بها، وولد الكلاب السلوقية، وعمل في بركة أسيوط تماسيح منصوبة تنصب إليها التماسيح من النيل انصبابا فيقتلها، ويعلق جلودها في السفن...".[3]

بيد أن أهم ما يسترعي الانتباه في الروايات الخاصة بـ(منف) أنها أقل إغرابا وخيالاً من الحكايات الخاصة بـ "أمسوس"، كما أنها من ناحية أخرى تتحدث عن أولئك الملوك الذين استحدثوا ممارسات حضارية جديدة، فالملك شداد بن عديم "أول من اتخذ الجوارح في الصيد وصاد بها، وولد الكلاب السلوقية" والملك أشمون بن قبطيم أول من لعب بالكرة والصولجان، وأول من عمل النيروز في مصر "عيد شم النسيم ـ أو عيد

---

[1] ـ سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص35.

[2] – الثابت تاريخياً أن مصر تعرضت للعديد من محاولات غزوها من الجنوب أيضاً فقد دخل الأثيوبيون مصر من الجنوب وتولوا حكمها خلال الأسرة الخامسة والعشرين ما بين 730ـ665ق.م بعد أن طردوا الليبيين ، ولم يعتبر الأثيوبيون أنفسهم دخلاء على مصر، بل رددوا في متونهم أنهم أحلاف طيبة وأتباع الدين الصحيح لآلهة آمون . انظر: عبد العزيز صالح ، تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول ، مصر والعراق (القاهرة 1973م)، ص 272.

[3] –الخطط، ج1، ص 131،

الربيع.[1]، والملك "مرقورة أول من ذلل السباع وركبها".[2]وكذلك نجد أن الملك خصليم الذي كان عالماً فاضلاً في السحر والطلسمات هو :"أول من عمل مقياساً بمصر لزيادة النيل "[3]

كذلك نجد أن بعض الحكايات عن ملوك منف تحمل نواة من الحقيقة التاريخية؛ ففي أخبار من تسمية الروايات "الملك تدارس" وجدنا أنه حارب بعض عماليق الشام ودخل فلسطين، وغزا السودان من الزنج والحبش، ومن المعلوم تاريخياً أن حروبا قد نشأت بين مصر القديمة والحيثيين في بلاد الشام، كما كان يوجد حروب بين مصر ضد القادمين من الجنوب[4]، كما أشار المقريزي إلى أن الملك فاليقي بن تدراس: "كان موحداً خالف أهل مصر في عبادة الكواكب والبقر".[5] وهو ما قد يشير إلى أخناتون محاولات التوحيد في عبادة آتون، أو ربما كانت امتدادا لتوحيد إدريس ﷺ، وعلى أية حال فإن حجم الخيال في روايات منف التي بنيت بعد الطوفان على حد زعمهم، كان أقل كثيراً من حجم الخيال في الأساطير المتعلقة بمدينة أمسوس التي كانت قائمة حتى دمرها الطوفان، والتي تبدو أن وجودها نفسه كان ضرباً من الخيال.

والحكايات الخيالية حول مدينة منف كثيرة ومتنوعة ولكنها تدور حول سلسلة أخبار الملوك الذين تصورت هذه الحكايات أنهم حكموا مصر حتى الاسكندر.[6] ويعلق المقريزي على ذلك بعبارة تكشف عن مدى الارتباك الناجم عن وصول إشارات من

---

[1] -عيد النيروز: هو عيد رأس السنة القبطية في أول شهر توت ويغلب على الظن أن عادة الاحتفال بهذا العيد متوارثة من قدماء المصريين على الرغم من اسمه الفارسي (ومعناه اليوم الجديد) فقد كان المصريون في عصر الفراعنة يحتفلون بهذا اليوم أكراما لنهر النيل، وفي عصر سلاطين المماليك كان الاحتفال بعيد النيروز يأخذ شكل (احتفالات العامة)، إذ اعتبر ذلك اليوم بمثابة عطلة عامة، فكانت الأسواق تغلق في ذلك اليوم كما كانت المدارس تعطل، ويذكر السيوطي وابن تغري بردي: أن هذا العيد أبطل نهائياً منذ سنة 702 هـ، انظر: المقريزي: **السلوك**، ج2، ص 926؛ السيوطي: **حسن الحاضرة**، ج2، 2 269؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج8، ص 202؛ قاسم عبده قاسم: **دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي**(ط. الثانية، دار المعارف، القاهرة 1983م)، ص 110.

[2] -**الخطط**، ج1، ص139.

[3] - بن وصيف شاه : **جواهر البحور** ، ص17.

[4] -قاسم عبده قاسم: **بين التاريخ والفولكلور**، ص 75.

[5] -**الخطط**، ج1، ص 139

[6] -قاسم عبده قاسم: **بين التاريخ والفولكلور**، ص 70.

تاريخ البطالمة في ثنايا الروايات كالتي ذكرها المقريزي في ذكره اسم "نافاطانيوش" وهو اسم يبدو محرفا عن اسم بطليموس في لفظه اليوناني "بتوليمايوس" وقد عبّر المقريزي عن هذه الحيرة بعبارة نصها: "..وهذه أسماء رومية "أي يونانية" ولعل بعضها متداخل فيما تقدم ...".[1]

وقد يحسن بنا الوقوف مع الكم الهائل من الأساطير التي ساقها المؤرخون عن منف وأمسوس وغيرهما .. فنلاحظ أنها لم تتكون دفعة واحدة؛ إنما استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ما يوائم تصورات عهده، وما يزيد من تأثيرها في أذهان محبيها، لذلك فإن الروايات والأفكار التي راجت وتكونت عن منف والمدن المصرية، قد تباينت فيما بين الكتابات التاريخية، ووفقا للزمان ووفقا للمكان أحيانا، في تناول للأساطير جملة واحدة دون تفاصيل محددة متتابعة، فكأنهم بدأوا بالنهاية فاختلط الأول بالأخر دون اعتبار للمراحل التطورية ،التي يمكن أن تكون المدن المصرية قد مرت بها ودون حساب للعوامل والظروف الموضوعية التي كان محتملا وجودها وراء كل خطوة انتقالية.

أما الفيوم، فجاذبيتها بالنسبة للكثير من المؤرخين والرحالة كانت تنبع من ارتباطها بأشياء أخرى؛ فالخيال الشعبي يربط الفيوم بيوسف ﷺ، وبشخصيات من التوراة والإنجيل والقرآن، ونبض الحديث عنها بالحياة في كتابات المؤرخين المسلمين والتي كانت تلبي حاجة عند جمهرة القراء، الذين ظلوا على شغفهم بكشف مناطق الظل فيما يتعلق بتاريخ مصر القديم الذي ظل محل جدال فيما بينهم.

يقدم (أولياچلبي) صورة واضحة عما أورده الموروث الشعبي المتخم بالأساطير حول الفيوم فيقول: "لما كانت مصر أرض الجبارين، فقد غادرها إلى وادي الفيوم حيث الهواء المنعش والجو اللطيف ،فسر بها واعتزم الإقامة فيها ـ يقصد يوسف ﷺـ لذلك بنى مدينة الفيوم في ألف يوم "فسميت المدينة "الفيوم" تصحيفا من عبارة "ألف يوم" .. وبينما كان يوسف ﷺ ينقل التراب المتخلف من حفر الخليج بذيل ثوبه الشريف، أمر سبحانه وتعالى جبريل الأمين ﷺ أن ينزل ويقدم المساعدة والمدد لحبيبه يوسف، فنزل جبريل كالبرق الخاطف، وضرب بجناحيه بحيرة الفيوم ضربة قوية، فأطار ترابها،

---

[1] -الخطط، ج1، ص 144.

وأنقاضها إلى السماء وأنزلها إلى أسفل الغبراء، وضرب جناحاً آخر جهة الصعيد الأعلى، حيث فتح ترعة من النيل جرى فيها الماء حتى بحيرة الفيوم التي لا تزال بحيرة واسعة عميقة تعيش فيها مئات الألوف من الكائنات والخلائق العجيبة والحشرات البحرية .. في حين أن الترعة اليوسفية هذه نظراً لكونها من آثار جبريل الأمين لا يحدث بها جرف أو شق قط. إلى انقراض الدوران بل يجري فيها النيل دائماً .. والنيل إذا دخل البحيرة ينقلب ماؤها مراً أجاجاً وفي جوانب هذه البحيرة؛ تقوم ثلاثمائة وست وستون قرية كل واحدة منها تشبه إرم ذات العماد.".[1] ويذكر ابن إياس أن يوسف ﷺ قد بنى : "مدينة الفيوم وقيل أنها بنيت بالوحي إلى يوسف ﷺ على لسان جبريل ﷺ.. ثم عمَّرها في مدة يسيرة فلما فرغت وتم بناؤها، ركب ونظر إليها الملك الريان وصار يتعجب.. فقال ليوسف هذا كان يعمل في ألف يوم، فسميت من ذلك اليوم : الفيوم".[2]

أما (الصفدي) فيحسب له أنه ناقش المعتقدات الخرافية التي كانت مستقرة في عصره حول مدينة الفيوم، وانتهى إلى نقدها بقوله: "إن كثيراً من الناس سطروا في كتبهم أن فرعون الذي كان يوسف ﷺ وزيره لما كبر يوسف ... قال له أمض إلى هذه الجوبة (يعني الفيوم) فصل ماؤها وعمرها وكانت إذ ذاك بركة مملوءة ماء، وأن يوسف ﷺ وصل إليها وسأل الله عز وجل أن يعينه على تنصيل مائها وعمارتها، وأن الحق تعالى أعانه على ذلك بملائكته، وهداه على إجراء مائة وعمارته، والمسافة من عهد يوسف ﷺ إلى الآن بعيدة، وشروط الموثوق بروايته عزيزة شديدة، ولعمري لو كان هذا الأمر جرى لضرب قصصه الواردة في القرآن بحصة بل بحصص، فإن الله عز وجل قص في كتابه العزيز جملاً من أحواله، سماها أحسن القصص، ومع هذا فتصديق الكذب، وتكذيب الصدق كلٌ غيب والله سبحانه وتعالى أعلم بالغيب...".[3]

تكشف لنا الروايات السابقة إلى أي مدى شغل الوجدان الشعبي العربي بقصص الأنبياء، حيث لم تشبع روايات المؤرخين والإخباريين حاجات هذا الوجدان الروحية، فراح يضيف من تصوراته وموروثاته إلى هذه الروايات، يستهدف منها الاستمتاع

---

1 -أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، ص 42-43؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص44.

2 -ابن إياس: بدائع الزهور، ص 16؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 90 : ص 91.

3 -الصفدي: تاريخ الفيوم وبلاده، ص 4.

بسماعها أو قراءتها، وربما لتأكيد المعجزات النبوية، والاستجابة لدوافع أخلاقية واجتماعية من ناحية والترويج لفضائل المدن والبلدان والتعزيز من مكانتها ورفعتها على باقي المدن والأمصار من ناحية أخرى.

وقد كان حظ مدينة الإسكندرية من الموروث الشعبي كبيراً في كتابات المؤرخين،حيث كانت عاصمة لمصر حين فتحها العرب المسلمون، وكانت من الروعة والبهاء والفخامة بحيث أثارت دهشتهم وعجبهم، وأغرت الكتاب والمؤرخين بالبحث عن أصولها، وبالطبع عن نسبها وعن سحرها الخلاب، وغرائب وعجائب البنيان، وتزامن هذا مع حكايات إرم ذات العماد الخرافية والروايات الخيالية الرائجة على نطاق واسع عن الاسكندر، والتي تركت أصداءها في الكتابات التاريخية.

ابن الوردي يشير إليها بقوله: "بها من الآبار العجيبة، والرسوم الهائلة التي تشهد لبانيها بالملك والقدرة والحكمة، وهي حصينة الأسوار عامرة الديار..".[1] ورآها ابن بطوطة أنها : "الثغر المحروس والقطر المأنوس العجيبة الشأن الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين.. فكل بديعة بها اختلاؤها، وكل طرفه فإليها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا في عجائبها فأغربوا..".[2]

بدأ المقريزي حديثه عنها فقال: "... هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا، وأقدمها وضعا وقد بنيت غير مرة، فأول ما بُنيت بعد كون الطوفان في زمان مصرايم بن بيصر بن نوح عليه السلام، وكان يُقال لها إذ ذاك مدينة راقودة، ثم بُنيت بعد ذلك مرتين، فلما كان في أيام اليونانيين جددها الاسكندر بن فيلبش المقدوني الذي قهر داراً وملك ممالك الفرس بعد تخريب بخت نصر مدينة منف بمائة وعشرين سنة شمسية فعرفت به، ومنذ جددها الاسكندر المذكور انتقل تخت المملكة من مدينة منف إلى الإسكندرية فصارت دار المملكة بديار مصر ولم تزل حتى ظهر دين الإسلام".[3]

هنا نجد اختلاطا بين العناصر الأسطورية والعناصر التاريخية في مزيج حيوي، فقد بنى الاسكندر مدينة الإسكندرية فوق بقايا راقودة حقا.[4]، كما أنه قهر الفرس.[1]، ولكن

---

[1] –ابن الوردي: خريدة العجائب، ص 30.

[2] –ابن بطوطة: الرحلة، ص 17.

[3] –الخطط، ج2، ص 144؛ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص 492.

[4] –صمم الاسكندر على بناء مدينة مقدونية في الأراضي المصرية لتنتزع طرق التجارة من الفينيقيين حلفاء الفرس إلى أيدي المصريين الأصدقاء: ومن ثم جاء اختياره لقرية راقودة المجهولة

بقية القصة تحمل بصمات الخيال[2]، وأورد ابن محشرة عدداً من الروايات الخيالية حول بناء راقودة منها أنه :"قيل أنه كان سكان البحر يؤذون الناس ويختطفونهم بالليل فاتخذ الاسكندر الطلسمات مصورة على أعمدة رخام على هيئة شجرة السرو، طول العمود منها 80 ذراعاً وهي باقية إلى هذه الغاية، يقال أنها كانت على أعمدة نحاس قد خرقت الأرض فصورت فيها أشكال وصور تمنع وتدفع".[3] ويضيف العمري أن : "الاسكندر زاد في بنائها، وأطال في منارتها، وجعل فيها مرآة كان يرى منها مراكب العدو عن بعد، فإذا صارت بإزائها، وصدمت شعاعها أحرقها كما تحرق المهاة في الشمس ما قابلها من الخرق، وإن لم تتصل بها، فسميت الإسكندرية من حينئذ، وكان اسمها قبل ذلك (وقودة) وبذلك يعرفها القبط في كتبهم القديمة".[4]

ويعلق السيوطي على المنارة بقوله: "في أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك يدور منها حينما دارت، ومنها تمثال وجهه إلى البحر إذا صار العدو منهم على نحو من ليلة سمع له صوت هائل يعلم به أهل المدينة طروق العدو، ومنها تمثال كلما مضت من الليل ساعة صوت صوتا مطرباً، وكان بأعلاها مرآة ترى منها قسطنطينية، وبينهما عرض البحر، فكلما جهز الروم جيشاً رؤى في المرآة..".[5]، "وفي كتاب الطلسمات أنها بنيت طلسماً لئلا يغلب ماء

لكي تتحول إلى أعظم مدينة عرفها التاريخ ووجد في راقودة مكاناً جيرياً صلباً يرتفع عن سطح الدلتا وقريب من المياه العذبة. انظر: سيد أحمد الناصري: الإغريق تاريخهم وحضارتهم، ص 534.

[1] – قهر الإسكندر الفرس في معركة حاسمة كانت بداية النهاية للإمبراطورية الفارسية، وهي معركة (جاوجاميلا) في أول أكتوبر عام 331 ق.م. وقد وفدت العناصر الفارسية إلى مصر مرتين، كانت الأولى على يد قمبيز ، واستمر بقاؤهم أكثر من قرن خلال الأسرة السابعة والعشرين . والثانية على يد كسرى الثاني عام 616ق . م ، وقد صبغت مصر بعض الأسرات الفارسية بعاداتها فسموا أبناءهم بأسماء مصرية ، واتجهوا بدعوتهم إلى الأرباب المصرية وساهم بعض ملوكهم في إنجاز معابد مصرية في الدلتا والواحات. انظر: سيد أحمد الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، ص 536.

[2] –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص 70، ص 71.

[3] –ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 93؛ المقريزي: الخطط، ج1، ص 144.

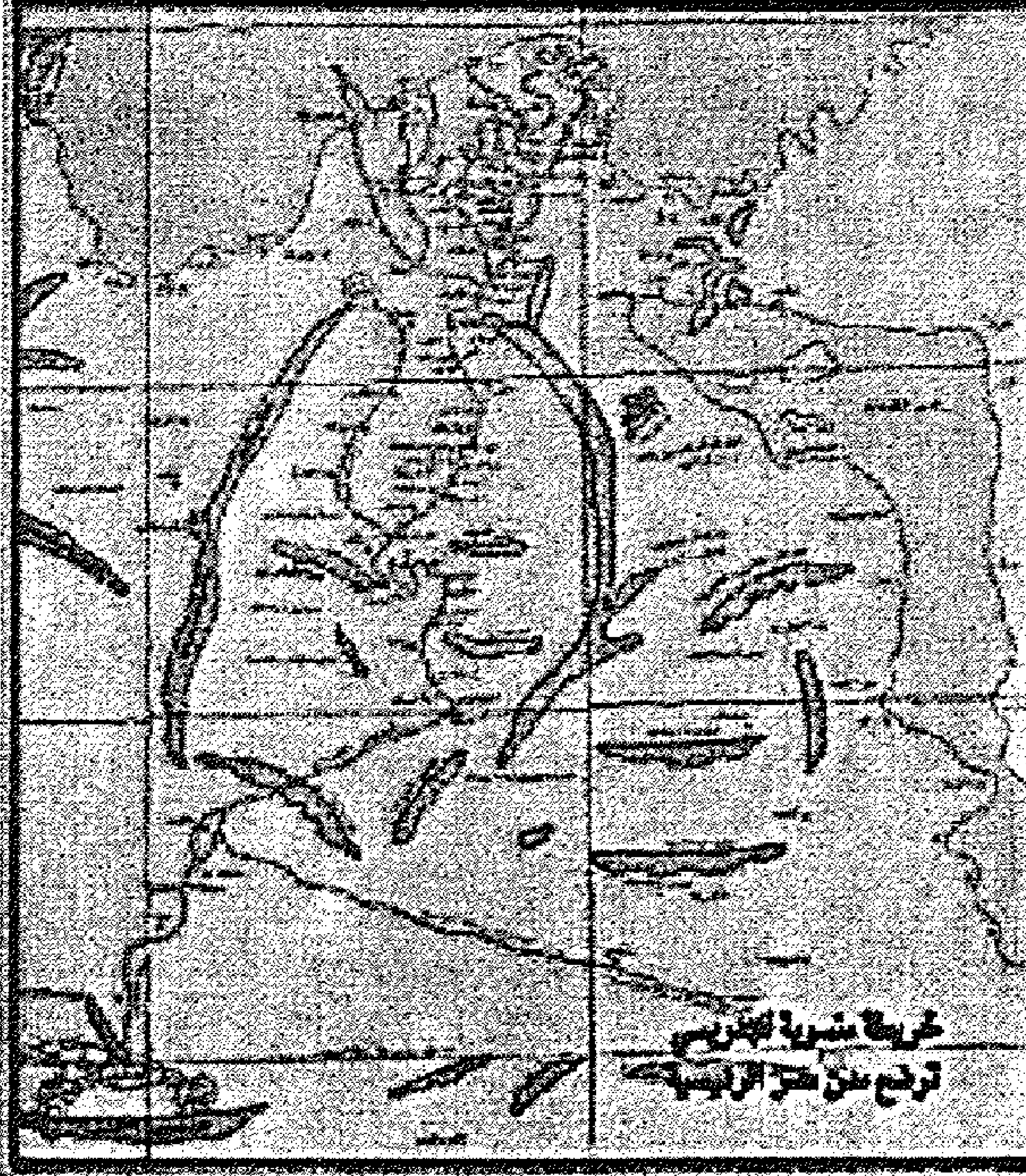
[4] –العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص 494؛الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص 47، 48.

[5] –السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص 39؛ الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص 57، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص 145.

البحر على أرض مصر".[1]، فهي "أول عجائب الدنيا الأربع" على حد قول الرازي.[2]

تلك الحكايات الخيالية مثال على القصص الدائر في التراث الشعبي حول مدينة الإسكندرية والقصص التي تدور حول هذه المدينة كثيرة ومتنوعة الاتجاهات والنزعات، سواء إغريقية أو مصرية أو عربية يحاول كل اتجاه منهم انتزاع تاريخ المدينة وربطه به.

على جانب آخر؛ نجد أن الإحساس الأسطوري بالزمن - في تلك الروايات التي قيلت في شأن الإسكندرية - يأتي في تناسق كامل مع بقية العناصر الأسطورية، كالشخصيات والأماكن الأسطورية، والمخلوقات حبيسة الفولكلور، إلى غير ذلك من عناصر أدت إلى طمس المعالم التاريخية للأحداث والشخصيات والأماكن. وكان من الضروري بعد أن تمت عملية تجريد الشخصيات والأماكن من شكلها التاريخي الواقعي أن يوضع هذا كله داخل إحساس أو إدراك خاص بالزمن يبتعد عن الإحساس التاريخي بالزمن وينقلنا إلى عالم لا مكان فيه للزمن المحدود، ولا اعتراف فيه بالتطور الزمني ولا بالتقسيمات الزمنية الإنسانية، ويعطينا وحدات زمنية مختلفة عما عهدناه من فهم وإدراك للزمن عند الإنسان.[3]، من تلك الأماكن والمدن التي ألهبت خيالات الناس وأقلام المؤرخين "إرم



---

[1] -المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 211.

[2] -الرازي (عمر بن محمد بن عبد الله) (ت 728 هـ): مسامرة الندمان ومؤانسة الإخوان (تحقيق: وليد مشوح، الطبعة الأولى، مركز زايد للتراث، الأمارات 2003م)، ص 177.

[3] -محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص 124؛ كارم عزيز: الأسطورة فجر الإبداع، ص 106.

ذات العماد[1]" وهي المدينة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.[2]، وقد كان ذلك كافيا لإطلاق عنان الخيال الذي ربط بين مدينة الإسكندرية وبين مدينة (إرم ذات العماد) إذ يقول المؤرخون: "إن إرم ذات العماد هي الإسكندرية، وقال الناظرون في الأعمار في جميع الأقاليم والأمصار: لم تطل أعمار الناس في بلد من البلدان كطولها بمريوط ووادي فرغانة، ومريوط قرية من قرى الإسكندرية بالقرب منها وهي كبيرة ولها بساتين كثيرة".[3] ويقول الرحالة البلوي: "ذكر المفسرون عن ابن كعب قوله: إرم ذات العماد: أنها الإسكندرية، فهي أعجب البلدان وفيها بنيان عجيب ذكر صاحب الجغرافيا أنها بنيت في ثلاثمائة سنة، وأن أهلها مكثوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار إلا معصبين".[4]

ثمة رواية أخرى تقول: "ذكر جماعة من أهل العلم أن الاسكندر المقدوني .. انتهى إلى موضع الإسكندرية، فأصاب في موضعها آثار بنيان عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند ـ وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد ـ: "أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد، شيدت بساعدي البلاد، وقطعت عظيم العماد من الجبال والأطواد، وأنا بنيت إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وأردت أن أبني هنا كإرم، وأنقل إليها كل ذي إقدام، وكرم مع جميع العشائر والأمم".[5]

وهكذا، لم تخل الروايات التي تناولت أصل الإسكندرية من تأثير الاتجاهات الثقافية السائدة ومحاولات نسبة أصلها إلى الإغريق أو العرب والمتعربين أو المصريين تماما

---

[1] – جاء في أساطير العرب أنّ (إرم ذات العماد) مدينة عجيبة بناها شدّاد بن عاد من حجارة الذهب واللؤلؤ والجواهر فكانت فتنة باهرة للعيون لا يقدر القادم إليها من بعيد أن ينظر إليها إذا واجهها في ضوء النهار، ثمّ أقفرت هذه المدينة العجيبة واختفت في الصحراء، فهي في مكان محجوب عامرة بقصورها السحريّة وكنوزها المباحة، ولكن لا وصول إليها، وقد طلبها كثيرون فهلكوا أو ضلّوا وعادوا قانعين من الغنيمة بالإياب*وتعد من المدن المسحورة* تلك المدن التي عرفت في زمن ما واختفت بصورة غامضة، وارتبطت بشكل ما بالغرابة والعجائبيّة نحو إرم ذات العماد.محمد الصالح :الرحلات الخيالية في الشعر العربي الحديث (منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2000م)،ص177.

[2] –"أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ(6)إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(7)الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ(8)" [الفجر]

[3] –ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 100

[4] – البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج1، ص 198؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص 44؛ اسحق بن المنجم: آكام المرجان، ص 22

[5] –المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 370.

مثلما حاولت تلك الاتجاهات نسبة مصر إلى أصولهم . كما تكشف لنا الروايات كيف أنها كانت تستمد نواتها من القصص الديني، ثم تأخذ في البناء عليها من الأحداث والشخصيات والأخبار والأزمان التي تلائمها، وتلائم رؤيتها للتاريخ، والأحداث وتحقق الغرض التي ترمي إليه. كما نلحظ في بعض الروايات تبادل التأثر والتأثير بين كتب التراث القديم وألف ليلة.



كما لم تخل سيرة مدينة الإسكندرية وأخبارها وبعض المدن الأخرى من فكرة الشخصيات الحارسة والطلسمات التي كانت تلازم بناء المدن المصرية القديمة سواء قبل الطوفان أو بعده . فنجد الروحانيات والجن والشياطين وحكاياتهم المستمدة من الأساطير لها دور في الروايات الخاصة ببناء المدن المصرية القديمة تخلق نوعاً من الغموض على المستوى الزمني والمكاني للمدن المصرية، تحاول فيه مثل تلك الأخبار خلق صيغة زمنية ومكانية قد يكون لأحداث الرواية فيها نوع من المعقولية بالمعنى العادي، مثال ذلك ما أورده الغرناطي بقوله: "الجن قد عملت لسليمان عليه السلام في الإسكندرية مجلساً من أعمدة الرخام الأحمر الملون، بأنواع الألوان الصافي، كالجزع اليماني المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان فيها يرى من يمشي خلفه لصفائها. وعدد الأعمدة ثلاثمائة أو نحوها، كل عمود ثلاثون ذراعاً على قاعدة من رخام، وعلى رأسه قاعدة أخرى من رخام في غاية الأحكام .... وكان قد قطعت الجن سقف ذلك البيت الذي

هو مجلس سليمان ﷺ من حجر واحد أخضر مربعا".[1]



الإسكندرية إذن، أضفت على تاريخها خصوصية شديدة عند ارتباط نشأتها بكائنات غيبية وظروف غامضة، فالجن يبني ويعمر، والسحر والطلسم يحمي ويقهر وبنيان الأعمدة يبهر: "ومن عجائبها أن بالإسكندرية أسطوانة متحركة والناس يقولون أنها تتحرك بحركة الشمس، وإنما قالوا ذلك؛ لأنها إذا مالت يوضع تحتها شئ، فإذا استوت لا يمكن أخذها، وإن كان خزفا أو زجاجا يسمع تقريعه".[2]، فهذه "الاسطوانة من أحدى أعاجيب الدنيا ويقال أن الجن صنعتها لسليمان بن داود".[3]

والراجح أن حكايات السحر والطلسمات والكائنات الغيبية هذه شأنها شأن أخبار الخوارق والمعجزات تعكس قدراً كبيراً من الانبهار والإعجاب الممزوجين بالنقص الحاد في المعلومات التاريخية، ولا غرابة في أن تحظى مدينة الإسكندرية بهذا القدر الكبير من اهتمام الموروث الشعبي فقد كانت عاصمة مصر منذ أسسها الاسكندر الأكبر وطوال عصر البطالمة، وظلت هي العاصمة حتى بعد ولاية رومانية في النصف

[1] -الغرناطي: تحفة الألباب، ص 57؛ الأبشهي: المستظرف في كل فن مستظرف، ج1، ص 546.

[2] -القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج1، ص 145.

[3] -ابن محشرة: الاستبصار، ص 99.

الأخير من القرن الأول ق.م. وبقيت الإسكندرية عاصمة لمصر طوال ما يقرب من سبعة قرون عندما فتح عمرو بن العاص مصر تحت راية الإسلام في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، ولذلك انعكست أهمية العاصمة المصرية في الحكايات الدائرة حول مدينة الإسكندرية، وهي لا تختلف كثيراً سواء من حيث بنائها الفني، أو من حيث هدفها، من الحكايات الخيالية حول المدن المصرية الأخرى.[1]

أما القاهرة فقد كانت في زمن سلاطين المماليك بمثابة ستارة المسرح الخلفية التي جرت عليها حكايات ألف ليلة وليلة الخيالية[2]، هذه الخيالات الرومانسية التي كانت تمسك بأيدي السامعين، وتجوب بهم الأسواق والمنازل، ليشاهدوا الحياة المتواضعة والراقية في الشوارع والميادين وساحات الإنشاد الديني، وكل ما يمس نسيج الحياة بين الناس.[3] كما كان للقاهرة ظلالها الواضحة في سيرة بني هلال . وهي ظلال لا تقل عن مثيلاتها في قصص ألف ليلة وليلة . فالقاهرة تبدو في السيرة الهلالية واضحة كل الوضوح بخططها وأسواقها وحماماتها ودكاكينها ومساكنها ونحو ذلك.

وكان خط السماء اللامتناهي في تنوعه ما بين المآذن والقباب التي نراها في العاصمة يستلفت نظر جميع الزوار الذين كانوا يسارعون إلى المقارنة بين القاهرة

---

[1] -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور ص 72.

[2] – اكتسبت القاهرة ومدن المشرق العربي في مخيلة الناس أبعادا ودلالات اقتربت من الأسطورة والخرافة، وأخذ هذا الشرق يتمتع في تلك المخيلة بصفة تكاد تكون «نمطية» تنطوي على الصدق حينا، وعلى الكثير من التصورات والأوهام الغامضة في أحيان أخرى، ولعل هذه التصورات، التي راحت تتضخم عبر العصور، جاءت من القصص والروايات التي تروى عن الشرق، ولا شك أن أهم عمل ساهم في صياغة هذه التصورات، وأطلق العنان للمخيلة، هو كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي يقدم وبشكل مدهش قصصا خرافية تتحدث عن الأسفار في الصحراء والبحار، وعن الجن، والأقزام، واللصوص، وعن الليالي الملاح، وعن جمال النساء الشرقيات، وعن الوقائع والحوادث الخارقة...وذلك في سرد يومي متلاحق ترويه شهرزاد لزوجها شهريار تجنبا لعقوبة الموت التي تنتظرها إن هي أخفقت في خلق التشويق لدى شهريار، فالخدعة قائمة على أن ينتظر بشغف الليلة التالية ليسمع بقية القصة، وبهذا المعنى فإن شهرزاد حافظت على حياتها عبر فضيلة القص المباركة على عكس سابقاتها اللواتي قتلن .فالشرق في هذا العمل وفي غيره من الأعمال هو متحف للأعراق، والاثنيات، والثقافات المختلفة، وهو فضاء تتعدد فيه الآلهة والقديسون، الأشرار والأتقياء، وهو موطن حافل بالخرافة والأساطير القادمة من تاريخ غابر قديم قدم مدن هذا الجزء من العالم.

[3] -آن وولف: كم تبعد القاهرة؟ ص 171، ص 172.

وبقية المدن المصرية القديمة، برغم حداثة وجودها نسبيا إلا أنها سرعان ما سادت الحياة المصرية بصورة طاغية غير عادية، وحازت شهرة واسعة جعلت منها: "مدينة عظيمة، آهلة يحبى إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال، ما لا يحيط بجملته وتفصيله إلا خالق الكل جل وعلا".[1] فأضحت "حضرة الدنيا، وبستان العالم، محشر الأمم، مدرج الكثير من البشر".[2]

وكان من الضرورة بمكان؛ أن تحظى القاهرة بقدر أوفر من الأساطير والحكايات الشعبية خاصة فيما يتعلق بنشأتها وتأسيسها، الأمر الذي جعل من أساطير تأسيس القاهرة تطغى على أسطورة تأسيس الإسكندرية ذات القدم في الزمان والمكان، وتتشابه معها في المضمون، الأمر الذي يفسر أن هذه القصص بأبعادها الأسطورية لم تبد ناتئة أو شاذة عن نسيج ورو القصص الوارد عن تأسيس المدن وفكرة الطالع السعيد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد يرجع تقارب روايات تأسيس القاهرة مع روايات تأسيس الإسكندرية إلى تشابه ولزوجة تركيب الوجدان الشعبي نفسه، أو ربما كان تلك الاستعارة من باب خلع صفات على القاهرة شبيهة بصفات عراقة تاريخ الإسكندرية، ورغبة الوجدان الشعبي في أن يجعل القاهرة مؤثرة لا متأثرة، معيرة لا مستعيرة، ناحلة لا منتحلة.

يقول ابن ظهيرة(في محاسنه) : "لما قصد (جوهر الصقلي) في بناء السور، جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس، وطالعا لرمي حجارته، فجعلوا خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس، وأعلموا البنائين أن ساعة تحريك هذه الأجراس ترمون ما بأيديكم من الطين والحجارة في الأساس فوقف المنجمون لتحرير هذه الساعة، فاتفق من مشيئة الله سبحانه وتعالى أن وقع غراب على خشبة من تلك الأخشاب، فتحركت الأجراس، فظن الموكلون بالبناء أن المنجمين قد حركوها، فألقوا ما بأيديهم من الطين و الحجارة في الأساس".[3]، "لذلك السبب لا تنقطع الدماء والقتال والنزاع والفتن

[1] –ابن سعيد الأندلسي: **النجوم الزاهرة في حضرة القاهرة**(القسم الخاص بالقاهرة، تحقيق : حسين نصار مطبعة دار الكتب، القاهرة 1970م)، ص 29.

[2] –عبد الرحمن بن خلدون: **التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً** (تحقيق: محمد الطنجي، سلسلة الذخائر، العدد 100، القاهرة 2003م)، ص 246.

[3] –ابن ظهيرة: **الفضائل الباهرة**، ص 181؛ الإسحاقي: **أخبار الأول**، ص116؛ السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج1، ص 24.

والفساد عن القاهرة المعزية التي سميت بهذا الاسم لوضع أساسها في طالع المريخ...".[1]

(فصل في كيفية استنطاقات الكواكب والساعات)

[illegible]

صورة لفصل بكتاب شمس المعارف الكبرى للبوني
يتحدث فيه عن الساعات المعينة
وهي الفكرة التي افترضت ما صنعت السحر الشعبي

ومع اتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ يحكي الرحالة المؤرخون عن بناء وتأسيس الإسكندرية :" حكى المسعودي أن الإسكندر وقع له مثل ذلك في بناء الإسكندرية، أنه أحب أن يرمي أساسها دفعة واحدة في سائر أقطارها، في وقت محمود يختاره، وطالع سعيد، فخفق رأس الاسكندر، وكان قد احترز في نفسه في حال ارتقابه الوقت المحمود، فنام فجلس على حبل الجرس الكبير غراب، فحركه فصوت وتحركت الحبال، وخفقا ما عليها من الأجراس الصغار .. فلما سمع الصناع تلك الأصوات وضعوا الأساس دفعة واحدة، وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس، فاستيقظ الاسكندر من رقدته، وسأل عن الخبر، فأخبر، فتعجب وقال: "أردت أمراً وأراد الله غيره، ويأبى الله إلا ما يريد، أردت طول بقائها، وأراد الله سرعة فنائها وخرابها..".[2]، وبهذا تلعب

[1] -أولياجلبي: سياحتنا مه مصر، ص 393.
[2] -ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص 182؛ المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص 424؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 92، ص 93؛ أولياجلبي: سياحتنا مه مصر، ص 394.

خرافة "الطالع"[1]، دورها في بقاء أو بناء المدن ولعل للسبب نفسه أرجع السيوطي سبب بقاء الأهرام إلى "الطالع السعيد" حيث: "كان ابتداء بنائها في طالع سعيد".[2] ونتبين من هذه القصة أنها لا تخلو هى الأخرى من زجر الطير والتنجيم عند بناء المدن، على الرغم من أن الرواية ترجع استقرار الغراب على الحبال إلى محض المصادفة، ولكن يحتمل أن يكون المغزى الحقيقي للقصة نوعاً من الزجر للتنبؤ بالفأل الحسن عند إقامة المدينة.

وإذا كان لم يذكر هنا شئ عن إقامة محراب للتنجيم على النحو الذي كان شائعاً قبل الإسلام أو في الحضارات القديمة، فإننا لاشك ندرك صلته بتلك التقاليد الوثنية التي اختفت في صدر الإسلام، ولاسيما في العصر الفاطمي، فلم يبق منها سوى المظهر ابعيد عن الجانب الديني . ويبدو أن هذا التقليد المتبع عند بناء المدن كان شائعاً أيضاً عند الفراعنة حيث كانت تقتضي بعض الطقوس الدينية عند إقامة نوع من المعابد أن يقوم فرعون بتثبيت أوتاد أربعة في الاتجاهات التي تحدد موضع إقامة المعبد ثم تشد أحبال بين هذه الأوتاد، ولذلك سميت تلك الطقوس بمراسم (شد الحبل)، ثم يبدأ بعد ذلك حرث أرض المكان الذي حدده بنفسه أربع مرات تشكل بعدها قوالب اللبن الأربعة التي

---

[1] -يعتقد العامة في مصر أن هناك ساعات في النهار بل أياماً مخصوصة لا يحسن بالمرء أن يأتي فيها عملا لأنها منحوسة، وهذا الاعتقاد في الأيام سعدها ونحسها قديم إذ كان المصريون يعتقدون أن الأيام تكون سعيدة أو منحوسة طبقا لما وقع فيها من حوادث سعيدة أو كريهة في أساطيرهم الدينية، فاليوم الأول من أمشير الذي رفعت فيه السماء وكذا اليوم السابع والعشرون من هاتور الذي عقد فيه صلح بين الإلهين حورس وسيت وتراضيا فيه على اقتسام العالم كانا يومين كلهما سعد وبركة، كما كانوا يعتبرون شهر توت أقدس شهور السنة لأنه يرمز إلى "تحوت" إله الحكمة أما اليوم الرابع عشر من طوبة الذي بكت فيه ايزيس ونفتيس على أوزوريس، فقد كان يوماً منحوسا، وكان هذا الاعتقاد من القوة في العصر الفرعوني حيث أن كثيراً من الأعمال كالبدء في سفر بعيد أو عقد صفقة تجارية أو ما إليها كان يؤجل لهذه الأسباب، ويشير أدولف إرمان في كتابه ديانة مصر القديمة : أن لدينا من الدولة الوسطى تقويم عن شهر يعين ثمانية عشر يوماً طيبة ، وتسعة أيام سيئة ، وثلاثة أيام بين بين . ومن الدولة الحديثة لدينا كتاب كبير يزودنا ببيانات مماثلة عن جزء كبير من السنة ، فاليوم قد يكون سعداً أو نحساً تبعاً لهذا الحادث أو ذلك مما جرى فيه من قصص الآلهة وما زال المصريون يعتقدون في ذلك ويؤجلون أعمالا لهذا السبب عينه. أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة (ترجمة :عبد المنعم أبو بكر ، سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة 1997م) ، ص351. محرم كمال: آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية،(مكتبة الأسرة، القاهرة 1997م)، ص 25؛ وليم نظير: العادات المصرية بين الأمس واليوم (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1967م)، ص 22.

[2] -السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص 71.

ستوضع في زوايا المعبد المزمع إقامته، ولهذا يخلط التراب بالماء ويضرب أربع مرات قبل صب الطين في قوالب الطوب لتشكيله ويقوم بعد ذلك بنثر حبات البخور على الأوتاد التي عينها للمعبد .[1] وهو الطقس الذي نقلته لنا الكتابات التاريخية عن بناء معبد (الملكة حتشبسوت أو معبد الدير البحري) على الشاطئ الغربي للنيل في مواجهة طيبة (الأقصر) .

"إذ كان اليوم الذي حددوه للطقس المعروف باسم (شد الحبل) ووضع حجر الأساس فرصة لعمل احتفال كبير وقد سارت حتشبسوت في المقدمة ووراءها وزير الجنوب وجميع مديري الإدارات وكهنة آمون، وحفروا حفرة في كل ركن من الأركان الأربعة في الأساسات المحفورة وذبحوا ثوراً وقطعوه إلى أجزاء ثم سار الكهنة إلى تلك الحفرة وملئوها باللحم وغير ذلك من المأكولات ودعوا الآلهة ألا يتعرض فرعون لأي ألم من آلام الجوع في العالم الآخر .. ولقد عثر رجال الآثار على ودائع الأساس في معبد حتشبسوت بالدير البحري، كما عثروا على أرجل وأضلاع من لحم الثيران وعثروا أيضاً على أرغفة من الخبز المخروطية الشكل وعلى كعكات مستديرة وعثروا أيضاً على شعير وتين وعنب وعناب وبلح وبعض الخضروات والسمان ونماذج صغيرة لأواني النبيذ ..كما عثرروا أيضاً على شئ فريد وهو مجموعة من نماذج أدوات البناء التي ينتظر أن يستخدمها العمال ومن بينها قدوم النجار وفأسه ومطرقته وأزميله وبوتقة صاهر المعادن، كما عثروا على قالب صانع الطوب وفأسه الخشبي وغرباله الذي يغربل به الرمال .."[2]

وربما انتقلت هذه التقاليد القديمة إلى اليونان والرومان فتشير الأساطير الرومانية القديمة إلى أن رومولوس زجر الطير عندما أراد إرساء الحجر الأساسي لمدينة روما وتقول بعض الروايات أنه استخدم في تحديده المدينة عصاه السحرية للإشارة بها ويصف سيسيرو هذه الأسطورة على نحو آخر فيقول :"إن رومولوس ـ عندما قام بتشييد مدينة روما ـ حفر حفرة دائرية على النحو الذي كان متبعاً منذ القدم لجلب الفأل الحسن، وكانت تقذف في تلك الحفرة حفنة من تراب أرض وطن كل واحد من الذين يشهدون هذا

---

[1] ـ سعد الخادم :الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص136.

[2] ـ ونفرد هولمز : كانت ملكة علي مصر (ترجمة سعد أحمد ، سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة 1998م) ، ص58.

الحفل، وكانت هذه الحفرة بمثابة الطريق إلى العالم الآخر الذي يوصل الأحياء بالأموات. وفي أثناء حفر هذه الحفرة كانت تستحضر أرواح الأسلاف لتقطن هذا المكان وتخالط بعدئذ الأهالي، وبهذه الطريقة يدخل الأحياء والأموات المدينة في الوقت نفسه ،ثم أقام على هذه الحفرة محرابا لذكرى الأسلاف، وارتدى بعد ذلك رداء خاصاً بالطقوس الدينية وحجب رأسه وأخذ يخطط حدود المدينة الحديثة معتمداً على محراث ذي سلاح برونزي يجره ثور وبقرة، وقد حمل رومولوس المحراث عن الأرض في موضع أبواب المدينة الأربعة التي تنفتح نحو الاتجاهات الرئيسية الأربعة .[1]

ولقد تبقى من هذا التقليد عادة دفن بعض المستندات والنقود في أساسات المباني التي تقام، ونجد بقايا لهذا التقليد في الهند حيث تسكب في حفرات على مقربة من المعابد دماء الفديات المقدمة كم يدفن فيها بعض المعادن النفيسة، ويقال إن رومولوس دعا أرواح الأسلاف إلى السكنى تحت أرض مدينته الجديدة ليضمن إقامة الأحياء والأموات فيها، ومن اليسير أن تتضح لنا أهمية زجر الطير في هذه الأسطورة التي قيل إنها حدثت سنة 753ق م . وفيها ترتبط عادة زجر الطير بطقوس دينية أخرى، فعلى الرغم من أن الأسطورة لم تفسر الغرض المقصود من إقامة محراب فوق الحفرة الدائرية، فهناك احتمال بأن يكون هذا المحراب قد أقيم لغرض التنجيم أو زجر الطير والمعابد القديمة أيا كانت حضارتها .

وعلى حد قول سيسرو : كان عند الرومان أيضاً عادة نصب خيمة أو فساطيط خاصة بالتنجيم، حيث كانت طقوس التنجيم تؤدي بطرق منصوص عليها لا تحتمل التعديل أو التغيير خشية جلب الفأل السيء أو النحس وربما ذكرنا هذا بتقليد مماثل كان منتشراً عند عرب الجاهلية حيث كان لهم خيام حمراء من الجلد تعلوها قباب تستخدم لغرض التنجيم، وكان يتحتم أن يتم هذا التنجيم على مقربة من الكعبة حيث كانت تقام حولها تلك الخيام المسماة بالقباب . وجرت عادة عرب الجاهلية عند تعبدهم بجوار القبة أن يصفقوا ويصدروا أنواعاً من الصفير، ولا ريب أن في هذا التقليد تشابهاً بين هذا النوع من التعبد الذي يأتي على صورة صفير أو تصفيق مع قصة بناء القاهرة على يد جوهر الصقلي واستخدامه الأجراس لبدء العمل في البناء.[2]

---

[1] ـ نفسه ، ص137

[2] ـ نفسه ، ص138وما بعدها.

ولعل الربط بين خراب كلٍ من القاهرة والإسكندرية وبين ظهور الغراب يرجع لبقايا الاعتقاد الشعبي في أسطورية الغراب بما يحمله من دلالات وارتباطه بأحداث تاريخية ذات طابع (مأساوي)، فهو طائر تشاءمت به العرب كلها، بل "أن كثيرا من الشعوب منذ العصور القديمة كانت تحس إزاء هذا الطائر إحساسا يشوبه التقديس أو الأسطورة".[1]، دون أن يفكر الناس بصيده، ولعل وروده في قصة نوح ﷺ وأسطورة الطوفان البابلية أثر في ذلك، كما أنه هو الذي دل قابيل كيف يدفن أخاه هابيل، وهو دليل عبد المطلب على موضع "زمزم"، وهذا يعني أنه أشبه بالكاهن والدليل فهو يحمل رسالة من وراء حجب الغيب، وقد غذى هذا الشعور الموروث الشعبي بقوله : "أشأم من غراب البين" وقولهم:" ما هو إلا غراب نوح. ﷺ"[2]، ويبدو أن أحاديث الناس عن الغراب أخذت تترى لتزيد التطيُّر منه رسوخا لا سيما تلك الأحاديث (المنمقة المزخرفة) التي ابتدعها الخيال الشعبي لتدخل في مجال الأساطير من أوسع الأبواب فيما يتعلق بالتأصيل لنشأة وعمران القاهرة والإسكندرية على حد سواء، ولعل الخيال الشعبي قد استصفى من الأساطير القديمة رمزيتها التي تعززها الخبرة الاجتماعية من أن الغراب قد جلب الخراب والشؤم على الإسكندرية والقاهرة بعدما كانتا في أوج ازدهارهما وانحصار ما كانتا عليه من مظاهر الحضارة والفخامة، مثلما كان الحال مع مدينة "أمسوس" المندثرة حيث كانت "الغربان قد كثرت في أيام الملك لوجيم، وصارت تفسد الزروع والغلال، فعمل أربع منارات في جوانب مدينة أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب، وعليه صورة الحية قد التوت، فلما عاين الغربان ذلك، نفروا عن المدينة".[3]

وعموماً سوف نجد أنه قد ارتبط بالحيوان - الطيور خاصة - نوع من السحر عرف بالزجر والطيرة، والزجر هو التفاؤل أو التشاؤم من آخر، وهو يعني التنبؤ بالمستقبل

---

[1] -جيمس فريزر: **الفولكلور في العهد القديم**(الجزء الثاني: ترجمة نبيلة إبراهيم،ط الثانيـــة، دار المعارف، القاهرة 1982م)، ص 133.

[2] -انظر البغدادي (عبد القادر بن عمر): **خــــزانـــة الأدب** (الجزء الرابع، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، مكتبة الخانكي، القاهرة 1986م)، ص 762؛ الحافظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): **الحـــيـــوان**، ج2، (تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة البابلي، القـــاهرة 1940م)، ص 321.

[3] -ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج2، ص 10.

من خلال حركة الحيوان . وكان هذا النوع من التنبؤ معروفاً عند الكثير من الشعوب القديمة، عرفه الكلدانيون والسومريون والحيثيون واليونانيون والرومان، كما كان معروفاً عند العرب وغيرهم من الشعوب . وقد تحدث عنه ابن الأثير وذكره ابن خلدون في مقدمته، وقال هو "ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان " فربطه بالكهانة الناشئة عن صفاء الروح ربطاً كاملاً . والطيور والثعالب والأرانب من الحيوانات التي استعان بها الزاجر، فكان الرجل يعمد إلى واحد منها فيرميه بحصاه أو يصيح فيه ،فأن ولاه في طيرانه ميامنه تفاءل، وإن ولاه مياسره تشاءم منه وتطير به . وربما لاحظ الزاجر حركة الحيوان أثناء ذبحه وهو يرتجف رجفة الموت .[1] وقد توسع أهل الزجر فيه حتى شمل كل المخلوقات، فحركات الإبل والخيل وسكناتها كلها ذات دلالة تنبؤية . وتشير الأساطير القديمة إلى أن (روملوس) زجر الطير عندما أراد إرساء حجر الأساس لمدينة روما، فنبأته الطير بأن الفأل حسن[2] . ويذكر البعض أن الأصل في الطيرة هو زجر الطير ثم صار للوحش . وقال أحد شعراء الجاهلية[3] :

(عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ**عوى وصوتَ إنسانُ فكدتُ أطيرُ)

وإنا لنجد لزجر الطير بقايا في معتقدات العرب في العصر الجاهلي تذكرنا بها هذه ألبيات التي قيلت في صدر الإسلام رغم تلاشي هذا التقليد في هذه الأثناء، فجاء التنويه بالزجر كتقليد ومظهر من الماضي :

(ولا السانحات البارحات عشية** أمر سليم القرن، أم مر أغبر) [4]

كما كانت الآثار المصرية محل اهتمام الكثيرين من مؤرخي العرب والمسلمين، ولكنهم للأسف كانوا قد فقدوا المفتاح الذي يمكن أن يفتح أمامهم أسرار تلك الحضارة العظيمة المغلقة، ولذلك فقد جاءت تفسيراتهم وشروحهم التاريخية مجردة تماما من

---

[1] ـ سليمان محمود حسن :الرموز التشكيلية في السحر الشعبي (الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة 1999م) ،ص70.

[2] ـ سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ، ص139.

[3] ـ جواد علي :**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** (دار العلم للملايين ، بيروت 1978م) ، ج2 ،ص86، ج6، ص787,786

[4] ـ انظر سعد الخادم : **الفن الشعبي** ، ص140

النظرة العلمية؛ لذلك ادعوا أن آثار مصر العظيمة من عمل المردة والشياطين في الماضي السحيق وشطح الخيال بالبعض فظنها تحوي كنوز الفراعين القدامى، ثم استخدموا المعابد كمحاجر باعتبارها مورداً سهلاً للحجارة المطلوبة البناء، وحطموا بعض المعابد والمدن الأثرية للبحث عن كنوز مزعومة، من تلك المدن التي كانت حقلاً خصباً لهذا المجال مدينة "عين شمس" إذ كان من عجائبها: "أن يحمل منذ أول الإسلام حجارتها إلى غيرها من البلاد وما تفنى".[1]

واحتفى الخيال الشعبي بتلك المدينة فجاءت رؤيتها لها مثقلة بالعناصر الأسطورية والخيالية التي لا نجدها أحيانا إلا في قصص وحكايات ألف ليلة وليلة حيث يصفها المؤرخون بقولهم:"مدينة قديمة أزلية، هي كانت مدينة فرعون وفيها آثار كثيرة .. وفيها بركة عظيمة، وقد نقرت في حجر صلد، وحواليها كراسي من رخام، فكان يجلس فرعون عليها، وتملأ بالخمر، وحواليها أنهار العسل، وأنواع المشروبات، وبالقرب منها صورة من رخام، يخيّل للناظر أنها تتكلم، ذكر أنها كانت ماشطة فرعون، وبالقرب منها صنمان من حجارة .. أحدهما يبكي والآخر يضحك...".[2]

حاول المقريزي التأريخ للمدينة فقال: "كان يقال لها في القديم "رعمساس" كانت عين شمس هيكلاً يحج الناس إليه، ويقصدونه من أقطار الأرض في جملة ما كان يحج إليه من الهياكل...".[3]، و "بها أحدى نزه الدنيا، يسار فيه يومين بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفة، وفواكه فاخرة، ورياض ناضرة،وهي حفير هامان وزير فرعون..".[4]

مدينة كهذه كان لا بد للعناصر الأسطورية أن تجد محلاً بها في أخبار تلك المدينة وأن تمتلئ سيرتها بالعديد من سمات الأسطورة الموزّعة في شتى كتب المؤرخين الذين كتبوا عنها متأثرين، بروح الموروث الشعبي المثقل بحكايات الجن والعفاريت المساعدة في عمران مدن مصر، فقال القزويني: "... قال أبو حامد الأندلسي: بعين شمس تماثيل

[1] -ابن زولاق: **فضائل مصر وأخبارها**، ص 70.

[2] -ابن محشرة: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص 34؛ اسحق المنجم: **آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة**، ص 25، ص 26؛ الحميري: **الروض المعطار**، ص 422؛ اليعقوبي، **البلدان**، ص 337؛ **الخطط**، ج1، ص 228؛ ابن الوردي: **فريدة العجائب**، ص 22، الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص 145.

[3] -**الخطط**، ج1، ص 228.

[4] -ابن الوردي: **خريدة العجائب**، ص 34.

عملتها الجن لسليمان عليه السلام.."[1]، ويضيف الغرناطي: "كان بها هيكل الشمس فخرب.. وكان قد بقي منها عمودان على رأس كل واحد منهما صورة إنسان على دابة وعلى رأسيهما شبه الصومعتين من نحاس، فإذا جرى النيل، قطر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز نصف العمود الذي هو مركب عليه والموضوع الذي يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطبا".[2]

ويمكن القول أنه لو كان المؤرخون قادرين على قراءة الكتابة المصرية القديمة، ليغيروا تماما جميع أقوالهم التي ذكرها عن تاريخ مصر، والتي كادت أن تكون بأجمعها تأكيداً للخرافات والمعلومات الموغلة في الغرابة، والتي تثير خيال كل من يسمعها، وهو ما كان يستهوي الناس ومحبي الاستطلاع والمعرفة عن العالم القديم، ويحسب للمقدسي أنه رفض الكثير من الخرافات التي شاعت في عصره حول آثار مدينة عين شمس فقال: "وبعين شمس شبه منارتين طويلتين قطعة واحدة، على رأسهما شبه حربة تسميان المسلتين، وثمَّ أيضا على هذا العمل دونهما، وسمعت فيهما أشياء لا يقبلها العقل وقرأت في كتاب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح ويجوز هذا ...".[3]

أضفى الموروث الشعبي على مدينة عين شمس أبعاداً أسطورية حين تخطي حدود العالم المحسوس ليصل إلى تماثيلها العجائبية التي تتداخل مع العالم اللامرئي والتي يحتمل اقتباس بنيتها من تراث أقدم. من أمثلة ذلك ما تناقله المؤرخون حول حادثة موت أحمد بن طولون: "قال جامع السيرة الطولونية: كان بعين شمس صنم بمقدار الرجل المعتدل الخلق من كدان أبيض محكم الصنعة يتخيل من استعراضه أنه ناطق، فوصف لأحمد بن طولون، فاشتقاق إلى تأمله فنهاه ندوسه عنه، وقال ما رآه وال قط إلا عزل، فركب إليه هذا في سنة ثمان وخمسين ومائتين وتأمله، ثم دعا بالقطاعين، وأمرهم باجتثاثه من الأرض، ولم يترك منه شيئا".[4] " فلما رجع حُمَّ من يومه ولزم الفراش فسلسل في المرض نحو عشرة أشهر.. فاستمر الأمير أحمد بعد ذلك في المرض حتى

---

[1] -القزويني: آثار البلاد، ص 225.
[2] -الغرناطي: تحفة الألباب، ص 52.
[3] -المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 211.
[4] -المقريزي: الخطط، ج1، ص 230؛ابن عبد الظاهر:الروضة البهية الزاهرة ،ص121.

مات به".[1]

برغم الحقيقة التاريخية التي حملتها الرواية وهي ثبوت اهتمام أحمد بن طولون بالبحث عن كنوز ودفائن المصريين القدماء، فإن الرواية نفسها تحمل ظلاً يتصل بعقيدة قديمة كانت تعد عنصراً بارزاً في الحكايات الخرافية؛ آلا وهي العقيدة "الفيتشية" التي يعرفها "تايلور" بأنها: "الاعتقاد في كائنات روحية متجسدة في الأشياء المادية أو متصلة بها أو تعمل من خلالها...".[2]وقد ألمح اليعقوبي إلى شئ كهذا في سياق حديثه عن آثار الحضارة المصرية القديمة بقوله :"وكان من قولهم :أن الأرواح قديمة كانت في الفردوس الأعلى .. وكانت عندهم من هذه الأرواح آلهة تنزل ،فتصير في الأصنام، فتتكلم الأصنام لذلك "[3] . ويمكن رصد أفكار متشابهة حول الفكرة "الفيتشية " تنتشر في ربوع إفريقيا السوداء حيث تتجلى هناك فكرة وجود أشياء مادية تتمتع بقوى سحرية، وقد كتب هملهيبر يقول :"إذا كان لدى فرد أية متاعب فهو يتجه إلى ساحر القرية طالباً النصيحة وهذا الأخير ..قد ينصحه بالذهاب إلى أحد الفنانين ليحصل منه على شئ سحري AFETISH، والفيتيش هو دمية أو تمثال . والملاحظ أن عملية التعيين هى التي تجعل من التمثال شيئاً له فعالية أو قوة سحرية . وتبعاً للفلسفة الإفريقية فإن الكلمة أو (النومو NOMMO) بما لها من قوة وتركيبة سحرية هى التي تخلق الصورة أو التمثال، وتسمى هذه العملية DESIGNATION OF THE IMAGE أي تعيين الصورة . فشكل التمثال ليس هو الأساس في التعيين، وإنما الكلمة بما لها من قوى سحرية . وعملية التعيين التي يقوم بها النحات الأفريقي تتم بأن يقول للتماثيل واحداً بعد الآخر، أنت كذا (ملك أوجد ..) وكما منحها القوة السحرية عن طريق الكلمة، فهو يستطيع أن يجردها من هذه القوة حين يقول لها إنك لا تعنين شيئاً، وتقول حكمة كهنة اليوروبا أن التسمية عملية خلق، وليس من الضروري أن تكون الشخوص المُعدة للسحر ـ من أي خامة كانت ـ مطابقة في شكلها لأصحابها الحقيقيين، فبمجرد أن ينويها الساحر أو الفنان لشخص ما فإنها تكون بديلاً كاملاً لهذا الشخص . فإذا كان الموضوع المطلوب له التمثال أو

[1] -ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص 39؛ابن عبد الظاهر:الروضة البهية الزاهرة ص121.

[2] -كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص 366.

[3] – اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، المجلد الأول ، ص188.

الصورة هو مرض، فإن ساحر القرية يتحدث بقوة (النومو) ـ أي الكلمة الخاصة به ـ إلى المريض من خلال الصورة، وهكذا يكون قريباً منه، والصورة تكون هى الدواء الفعال بعد خلق فعاليتها عن طريق الكلمة، والشئ السحري THE FETISH يُطلب عادة لمناسبة خاصة، فإذا ما ثبت فعاليته في إحدى الحالات فإن المرء يستعين به في مناسبات أخرى مثل شفاء الأمراض .[1]

وفي مدينة "أنصنا"[2] يتحالف السحر مع الأسطورة فيحيها، ولا تعود نتاجاً ميتاً لعصور فائتة، أو سروداً لا طائل فيه إلا الإغراب أو الإمتاع، بل تظل طاقة حية لا تكف عن توليد الاعتقاد بما تحيط سحر من شيد تلك المدن، فتعد شهادة متجددة للمصريين القدماء، يقول اليعقوبي عنها: "وأنصنا وهي مدينة قديمة، يقال أن سحرة فرعون كانوا منها، وأن بها بقية من السحر وهي في الجانب الشرقي من النيل...".[3]، آثار هذا السحر يشير إليه (ابن رستة) في قوله: "أنصنا لا يقربها تمساح بته، والناس منه آمنون، فإن وقع منها إلى ذلك الموضع أيام المد تمساح، بقي منقلباً على ظهره حتى أن الصبيان يجتمعون عليه، يغطونه في الماء، ويلعبون به، فإذا جاوز هذه القرية عاد ضارياً على ما لم يزل عليه..".[4]ويوضح ابن وصيف شاه سبب وجود التماسيح في مصر ويرجعه إلى أعمال السحر التي قام بها البربر تجاه مصر :"وقيل :إن الملك ماليق (أحد ملوك مصر القديمة في الأساطير العربية) لما غزا بلاد البربر، رأى بها مدينة وبها أقوام وجوههم كوجوه الآدميين وأرجلهم كأرجل البقر، وعلى أبدانهم شعر مثل شعر الماعز، ولهم أنياب بارزة مثل أنياب السباع، فلما حصرهم لم يقدر عليهم لشدة سحرهم، فتركهم ومضى، وقيل إنه رأي ببلاد البربر عجائب لم يسمع بمثلها في سائر البلاد .... وقيل لما رجع الملك ماليق إلى مصر فسحروا البربر مدينة مصر فكثير بها التماسيح والثعابين

---

1 ـ سليمان حسن :الرموز التشكيلية ، ص98.

2 – **أنصنا**: تسمى الآن قرية الشيخ عبادة، وتقع في مركز ملوي محافظة المنيا.

3 –اليعقوبي: **كتاب البلدان**، ص 331، ؛ الحميري: **الروض المعطار**، ص 40؛ الدمشقي: **نخبة الدهر**، ص 34.

4 –ابن رستة (أبي علي أحمد بن عمر): **الأعلاق النفيسة** (المجلد السابع، مطبعة بريل، ليدن 1891)، ص 81؛ قارن المسعودي: **مروج الذهب**، ج2، ص 404؛ ابن عبد الحكم: **فتوح مصر**، ص 44؛ ابن محشرة: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص 85؛ الحميري: **الروض المعطار**، ص 40.

والعقارب والضفادع، وقد فاض النيل حتى غرقت أراض كثيرة في غير أوانه، فلما عاين الملك ذلك لبسَ المسوح السود وافترش الرماد وسجد عليه، ودعا إلى الله تعالى بكشف النازلة بعد أن عجز عن تبطيل ذلك السحرة والكهنة، واستمر الملك ماليق في الملك حتى هلك " .[1]

ولعل الصورة التخيلية للبربر التي جمعت بين الصفات الإنسانية والحيوانية صدى للمعتقدات الشعبية التي كانت رائجة عند العرب حول الغيلان التي كانت نوعاً آخر من الجن يزعمون أن رجليها رجلا عنز [2] وكانوا إذا اعترضتهم الغول في الفيافي يرتجزون، وفي رواية أن الجن خشيت أن يتزوج سليمان بلقيس فتفشى إليه أخبار الجن لأن أمها كانت جنية، فزعمت أنها غير عاقلة ولا مميزة، وأن رجليها كحافر فرس، وقيل كحافر حمار، وأنها شعراء الساقين .[3] وقد توضح لنا تلك الروايات ان نظرة الناس إلى بعض الحيوانات أو الشعوب كانت تتعدى مظهرها الطبيعي .فكانوا يرون فيها قوة خارقة مما حملهم على الاعتقاد بأن الجن أو الأرواح تتقمص أحياناً أشكال الحيوان . فتظهر تارة في شكل حيوان، وتارة أخرى في شكل إنسان، بعض أجزاء جسمه حيوانية كحافر الحصان أو العنز وما شاكل ذلك . ولهذه الظاهرة امتداد في العقائد الشعبية المصرية حتى القرن التاسع عشر الميلادي، ولاسيما في الأحراز والأحجبة التي استخدمت في ذلك الوقت لأغراض متنوعة، وكانت تكتب إما على جلد غزال أو جلد ذئب أو خروف، ومنها أن التي يبغضها زوجها كانت تحمل على عضدها أو ساعدها حرزاً كتب على رق غزال .وقد ورد في قصة سيف بن ذي يزن "أن له بدلة من جلد الغزال ما يسلك فيها مارد ولا شيطان ومن تعرض له من الجان " [4]

وربما تشابه هؤلاء البربر النصف آدميين مع ما كُتبَ في المسخ والتناسخ عند عرب الجاهلية . وكان المسخ والتناسخ عندهم سبيل العقاب والثواب، ففي الأول تنتقل الروح إلى أجساد البهائم المسخرة للأعمال الشاقة أو المعدة للذبح أو المرتطمة في الأقذار، وفي الثاني تنتقل الروح لجسد يغاير نوع الجسد الذي فارقته، لأن النوع الذي أوجب لها

[1] - ابن وصيف شاه : جواهر البحور ووقائع الأمور ، ص22
[2] - المسعودي :مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج3، 209
[3] - سعد الخادم :الفن الشعبي ، ص22
[4] - سعد الخادم : الفن الشعبي ، ص24

طبعها الإشراف عليه والتعلق به لا يجوز أن تتعلق بغيره . والتناسخ مذهب قديم قال به أهل الهند والعرب في الجاهلية . فالمسخ تحويل الصورة إلى صورة دونها، وينكر المسخ أكثر الدهرية، وأهل الكتاب لم يقروا به، غير أنهم أجمعوا على أن الله جعل امرأة لوط حجراً، وكانت العرب في الجاهلية تعتقد وقوع المسخ فزعموا أن عشارين مسخ أحدهما ضبعاً والآخر ذئباً، وزعموا أن سهيلاً كان عشاراً وأن الزهرة كانت أمرأة اسمها زاهيد فمسخا نجمين.[1]

أما العريش فقد تأثر اسمها ببعض الأقوال التي تأخذ الألفاظ على ظواهرها، كقول الرحالة ابن حوقل: "إن الجفار بأجمعه كان أيام مصعب بن الوليد فرعون موسى، في غاية العمارة بالمياه والقرى والسكان، وأن قول الله تعالى: (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) عن هذه المواضع، وأن العمارة كانت متصلة منه إلى اليمن، قال: ولذلك سميت العريش عريشاً..".[2]

وقد جُبل الوجدان الشعبي على استعارة بعض التراكيب الفنية من القصص الديني الخاص بالأنبياء وتحميلها على بعض الأخبار الشعبية والتاريخية الخاصة بالمدن ؛ لما لسيَر الأنبياء من دور فاعل في التاريخ الإنساني، كتجسيد للضمير الجمعي للبشرية، وكسجل لمسيرة الأفعال الروحية الإيمانية فنجد الخيال الشعبي الذي نقله لنا الرحالة (أولياچلبي) يستعير هيكل قصة وضع مريم العذراء تحت الشجرة دون المضمون ويسقطها على ميلاد مصرايم في مدينة العريش فيقول: "بعد الطوفان .. أذن سيدنا نوح عليه السلام إلى الكاهن قليمون وصهره المدعو بيطر بالعودة إلى أمسوس التي بناها جده مصرايم، ووصلوا المدينة المسماه "العريش" ... وفي أثناء استراحتهم تحت شجرة سلمت من الطوفان، جاء المخاض لبنت الكاهن قليمون فولدت من زوجها بيصر بن حام ولداً ذكراً اسموه أيضا مصرايم، فكان أول ولد جاء إلى الدنيا بعد الطوفان، وهو "مصرايم بن بيطار، وقد أقاموا الاحتفالات والمهرجانات بالعريش مدة، وتبركوا بتلك الشجرة، التي كانوا يتفيأون ظلالها حيث أخذوا يعلقون بها خرقاً بالية وثياباً قديمة للذكرى .. وقد أقدم الملك مصرايم على زيارة المحل المسمى "بالعريش"، حيث ولدت

---

[1] - نفسه ، ص25

[2] -ابن حوقل: صورة الأرض، ص 144؛ النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز(تقديم : أحمد هريدي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1986م)، ص 171.

أمه تحت الشجرة، التي كانت تستظل بها أثناء الوضع، فجاء إلى هذه الشجرة وأخذ يزيّنها بأقمشة مزركشة وأحجار قيمة ثم عكف تحتها يعبد الله حق العبادة...".[1] **وعن تلك الشجرة يعلق القلقشندي : " وما أخال الآن بقاء الشجرتين التي تعلق فيها العوام الخِرقَ، ويقولون هذه مفاتيح الرمل عند الكُثب المجنبة عن البحر الرومي قريباً من الزّعقة"[2].

أما الواحات سواء أكانت هي التي تحدث عنها الجغرافيون والمؤرخون المسلمون تحتل موقعا على خريطة العالم الحقيقية، أو كان موقعها على خريطة من صنع الخيال الإنساني، فإنها - في الحالتين - تحتفظ بقدرتها العالية على الاستجابة للمستويات المختلفة للحلم والواقع، فهي في أحد وجوها تعبر عن حلم بمجتمع خيالي يطمح الإنسان لفك ألغازه التي تحول عوامل طبيعية دون معرفتها معرفة يقينية، فالواحات تمثل هامش عالم حضاري معروف لذلك تأخذ ملامحها الجغرافية والسيكولوجية من هذين العالمين. هذا هو بعينه ما نلمسه في رواية المؤرخين أثناء حديثهم عن رحلات الذين قصدوا[3] الواحات المصرية بقولهم: "بلاد الواحات كثيرة التمر والنخل وفيها مدن كثيرة مسورة وغير مسورة؛ وكل مدينة منها لها اسم يعود إلى ألواح، أريس ألواح، وتنيس ألواح، وألواح الخارج، وألواح صبروا، ... وزعموا أن في أقصى بلاد الواحات بلد يقال له (واح صبروا)، لا يقع عليه إلا من ضل في الصحراء، وفي النادر من الزمان، وأنه بلد عظيم الخيرات من النخل والزرع،وجميع الفواكه ومعادن الذهب، وأنه أخصب بلاد الدنيا ..

---

[1] - أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، ص 34، ص 37؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج3 ، ص312.

** الرواية قد تعكس بعض ملامح تضمنتها أفكار أقدم ترتبط بالعبادات الطوطمية والطقوس الخاصة بها، فلم يكن تقديس الأشجار بين العرب ــ قبل الإسلام ــ بأقل من تقديس الأصنام والجبال والآبار، ذلك لاعتقادهم أن هذه الأشجار فيها أيضا "قوى روحية" كامنة فيها وأن لهذه القوى أثراً خطيراً في حياتهم، ويبدو أن الاعتقاد بوجود الأرواح أو الحياة في الأشجار كان مقصوراً على أنواع بعينها مردها إلى ضخامة هذه الأشجار وقوتها وثمرها الكثير أو نفعها. نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي. (الطبعة الأولى، دار الإرشاد، بيروت 1970م)، ص69.

[2] - القلقشندى : صبح الأعشى ، ج3 ، ص312.

[3] - لقد تميّزت تلك الرحلات الخياليّة عموماً باختيارها الأماكن الغريبة والمسحورة التي تأوي إليها الشياطين والجنّ مراحاً ربما لتعرض من خلاله نظرتها إلى المجتمع الإنساني المعاصر فتعرّض بمفاسده وتفضح نقائصه، وتدعو من طرف خفي إلى الحياة الإنسانية الكريمة القائمة على الروحانيّة سمة رابطة بين بني البشر.

وقد وقع في هذا البلد رجل من عرب بني قرة.. وأخبر بما رأى فيه من الخيرات، وبما في أيدي أربابه من الأموال.. فأهاج ذلك أمير بن قرة وكان اسمه مقرب بن ماض، عزم على النهوض إليهم .. فنزل في رجوعه ذات ليلة ربوة من الأرض في بهاء تلك الصحراء، فوجد بعض أصحابه في نواحي تلك الربوة بيتاً للأول فبحثوا عليه فإذا هو لبن من نحاس أحمر، فزادوا في البحث فوجدوا أساس سور من نحاس أحمر للأول، فأوقروا جميع ما عندهم من الظهر من تلك العين، وساروا حتى أتوا مدينة ألواح الخارج فباعوا ذلك النحاس بأموال كثرة، ثم أرادوا أن يرجعوا إلى الربوة التي وجدوا فيها النحاس، فلم يقدروا عليها وضلوا طريقها ...".[1]

وتستمر الرواية في سرد أحداثها فتحكي عن مخلوق يرتاد (الواحات الخارجة) فتم القبض عليه:" فإذا بامرأة سوداء عظيمة الخلقة مفرطة الطول والعرض ،لا يفقه منها كلمة، فرآها مقرب بن ماض فهاله أمرها، فكلموها بكل لغة علموها من لغات السودان فلم تجاوب بواحدة منها وتكلمت بكلام لا يفهم، وبقيت عندهم أياما يأتمرون في أمرها، فقال لهم مقرب: نرى أن ترسل وتركب الخيل العتاق السوابق والنجب العشار في إثرها إلى أن يوقف على موضعها، ويعلم حقيقة أمرها، فلما أرسلت، فأتت الخيل والنجب وبارت الرياح فلم يقفوا على حقيقة خبرها ويذكر أن بين بلاد ألواح وبلاد الجريد .. جزائر وهي كثيرة النخل والعيون، لا عمران فيها، ولا أنيس بها، ويقال أنه يسمع فيها أبداً عزف الجن".[2]

جدير بالذكر أن الأساطير والخرافات التي صاغها الوجدان الشعبي حول أصول

---

[1] – لعل مدينة النحاس هذه صدى من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية، وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية حتى أن مدينة بأسرها قد حشيت خوارق سميت مدينة النحاس في ليالي ألف ليلة وليلة وقد عرفت هذه المدينة العجيبة من قديم، بل عرفت بهذه الصورة نفسها التي نراها عليها في الليالي محاطة بالسور العجيب يذكر المسعودي في مروج الذهب فيقول: "وخبر مدينة الصفر وقبة الرصاص التي بمفاوز الأندلس، ما كان من أنفسهم أنهم وصلوا إلى نعيم الدنيا والآخرة"، ج4، ص 95؛ والملاحظ أن التأريخ ليس غاية ألف ليلة وليلة، ولا تقديم أنماط المجتمع وطبقاته ولا قص أخبار علومه وتطورها، ولا الحديث عن العمران والفتوحات، ولا عن الإصلاح وشؤونه، ولا بيان الظلم وألوانه، ولا التطلع إلى العدل والعلوم الجديدة، وإنما هي غاية محصورة في العبرة والاعتبار وأخذ العظة والإفادة من سلوكٍ أو تصرفٍ لشخصيةٍ انظر: سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، ص 160.

[2] –ابن محشرة: الاستبصار، ص 146، ص 147، ص 148؛ الحميري: الروض المعطار، ص 600؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص 390؛ البكري: المسالك والممالك، ص 15؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص 154.

المدن المصرية القديمة لم تتسرب إلى كتابات الرحالة والمؤرخين فحسب، بل نجد صداها في السِيَر العربية والشعبية التي إن دلت فإنما تدل على أن وجدان الشعب قادر على طي الزمان والمكان، وفتح المغاليق الموصدة، وحل الطلسمات المجهولة في إطار من الخرافة والخوارق، التي لا تخضع لأبعاد الزمان ومقاييس المكان وطاقة البشر، ومعنى ذلك أن السِيَر العربية والشعبية أصبحت مادة خصبة لدراسة العديد من العناصر الثقافية ذات الجذور الضاربة في القدم سواء على المستوى المعتقدي أو على مستوى الممارسة الفعلية، أو حتى على مستوى تطور "الحكاية" من ناحية الشكل الأدبي بدءا بالأسطورة ومرورا بالملحمة والحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ووصولا إلى الصياغات النهائية التي اتخذتها السِيَر الشعبية، والتي تعد الأسطورة من أبرز الأصول الثقافية القديمة التي تمثل مرجعية هامة للسِيَر الشعبية.

ومن السِيَر الشعبية التي مثلت الأساطير المرتبطة بالمدن المصرية أحدى المرجعيات الثقافية لها: سيرة **"سيف بن ذي يزن"**؛ والتي تمتلئ بالعديد من عناصر وسمات الأسطورة موزعة في شتى مواضع السيرة، من تلك السمات البارزة في السيرة؛ هي سمة أسطورية المكان.

والمكان في سيرة (سيف بن ذي يزن) يتسم ببعد أسطوري واضح يقدمه لنا الخيال الشعبي مزجا بين القياس على الأماكن المحسوسة المألوفة وبين التصوير الذي اصطنعه ذلك الخيال الأسطوري، ومن هنا تأتي "عجائبيتها وغرابتها ومطلقيتها" وذلك حتى لو تضمن تقديم هذه العوالم ذكر بعض المعارف الجغرافية اليسيرة؛ كأسماء البلدان والأنهار والجبال وغيرها، وعلى الرغم من أن السيرة ذكرت أسماء: الحبشة، اليمن، المغرب، مصر والشام، والقدس، واليونان، النيل، الفرات. إلا أن هذه الأسماء لم تدل على مواقع جغرافية واقعية، وإنما كانت دلالات الأسماء مجرد خلفية لعالم أسطوري بالفعل، ومن ذلك مصر التي وردت في السيرة في طور النشأة والتكوين في زمن يستحيل أن يكون هو زمن النشأة الفعلية لمصر أرضا وشعبا، كما أن أسماء البلدان والمدن المصرية (الجيزة - الروضة، الحسينية، بولاق الدكرور، دمنهور، إسنا، إخميم، ملوي، أسوان، غيرها .. وردت كأسماء أشخاص مصاحبين للبطل وكنوع من التأصيل لأسماء هذه البلدان.[1] لهذا رأى البعض أن سيرة سيف بن ذي يزن سيرة مصرية، خلقا

---

[1] -كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص 369، ص 395.

وإبداعاً على الرغم من نواتها التاريخية اليمنية المتمثلة في شخصية بطلها سيف، وهو أساساً بطل من أبطال التحرير في العصر الجاهلي، وتتجلى مصريتها في محاورها وقضاياها الأساسية: نهر النيل، إنشاء المدن المصرية على ضفتي النهر، تعمير مصر، تعريب مصر ... الخ.[1]

ولعل عودة عُجلي إلى كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين ورواياتهم السابقة عن أصول ونشأة المدن المصرية القديمة تؤكد حقيقة مؤداها أن المخيلة الشعبية - في العصور الإسلامية - لم تكن تختلف كثيراً عن مخيلة المؤرخين والرحالة والمتعلمين أو المخيلة العلمية آنذاك .. حيث تتداخل الأساطير التعليلية والشعبية والدينية وتلتقي عند الخطوط العريضة لنشأة مصر، ومدنها. مما يعني أن القاص الشعبي كان على معرفة وثيقة بهذا الموروث الفولكلوري التاريخي، الجغرافي المتعلق بمصر، ومدنها ،ونيلها، على نحو يسمح له بإعادة إنتاج هذا الموروث (العلمي بمفهوم ذلك الزمان). وصياغته صياغة أدبية تحكي لنا قصة الصراع الملحمي بين النيل والمصريين أو بين المصريين ومدنهم.

هكذا إذن؛ كان احتفاء الموروث الشعبي الذي حفظته لنا الكتابات التاريخية عظيما بالمدن المصرية التي كان تاريخ بعضها يرجع إلى عصور تاريخية سحيقة، كما أن معظمها يحمل من الآثار المادية ما يدل على أن ثمة حضارة تليدة هي التي أفرزت مثل هذه الآثار العظيمة، بيد أن انقطاع أخبار هذه الحضارة القديمة؛ نتيجة للفشل في حل رموز اللغة المصرية القديمة أفسح المجال أمام الخيال لسد الثغرة الناجمة عن نقص المعلومات من ناحية، والتعبير عن الرؤية الشعبية للتاريخ الذي أنتج هذه الحضارة من ناحية أخرى.[2]

---

[1] - محمد رجب النجار: **الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي** (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 110، القاهرة، 2007م)، ص 107.

[2] - قاسم عبده قاسم: **بين التاريخ والفولكلور**، ص 72.

الخاتمة

لقد آن لنا أن نضع رحلنا، ونشرع بكتابة تصوراتنا، واستنتاجاتنا بعد تلك السفرة المضنية التي قمنا بها إلى عالم الأسطورة في الكتابات التاريخية. مع الأخذ بأن الدراسة لا تدعي أنها قد وصلت إلى نتائج هامة، أو أحكام مقررة في الموضوع. فقد شغلت الدراسة بالبحث نفسه في أكثر الأحيان عن النظر إلى غاية أخرى غير الاستمرار فيه، على أمل أن تصل الدراسة إلى غايتين: الأولى؛ أن نقف على بعض سمات الكتابة التاريخية، وروحها لدى الرحالة والمؤرخين المسلمين، وأنماط التفكير السائد آنذاك. وأما الغاية الثانية ؛فهي محاولة الوصول إلى تفهم نفسية هذا الشعب؛ لأنها أصدق مما قد توصلنا إليه دراسات أخرى، أدق وأعمق، ومرجع ذلك ما حمله الموروث الشعبي لرؤية الشعب لتاريخه ،وتفسيره لمسيرته الحضارية ،كما تشي بكل ما كان يحركه من قيم، أو مثل عليا، في إطار من النظام الأخلاقي الذي حكم حركته في الزمان والمكان. ومما يعبر به الناس عن أنفسهم بشكل تلقائي.

ودراسة الآثار التي بقيت لنا من الحضارة المصرية القديمة تشير إلى الاعتقاد في السحر، أي الاعتقاد في استخدام أسماء، ورقى، وتعاويذ، وصيغ، وصور، وأعداد، وتمائم، وطقوس بعينها جنباً إلى جنب مع النطق بكلمات قدرة معيّنة، يترتب عليه إحداث نتائج فوق طبيعية، وإلى أن ذلك الاعتقاد شكل وجهاً هاماً من أوجه الحضارة المصرية القديمة على الرغم من تقدم المصريين الحضاري وما وصلوا إليه من تطور فكري رفيع . واستمر تغلل هذا المعتقد وتأثيره على الوجدان الشعبي ظهر أثره على بعض المفاهيم و"الخوارق" السحرية التي استلهمها من التراث المصري القديم واستخدمها في الحكي الفولكلوري الذي تألف منه ميثيولوجية سحرية جارية تحالف فيها السحر مع الأسطورة فظل يطلق على حاضر كل جيل من أجيال البشر الذين أطلى ذلك

التحالف عليهم قوى ماض سحيق غائم ،افترشت به كتابات الرحالة والمؤرخين ولم يعد هناك من سبيل للتحقق مما وقع فيه إلا ما أترعَت به تلك الأسطورية من صياغات استُلهمت استلهاماً عديم التورع من الديانة المصرية.

وفي هذا المدار، يتحالف السحر مع الأسطورة، فيحييها ولا تعود نتاجاً ميتاً لعصور فائتة أو سرداً لا طائل فيه إلا الإغراب أو الإمتاع، بل تظل طاقة حية لا تكف عن توليد الاعتقاد بما تحيط سحر الساحر به من شهادة متجددة .فالسحر، إذ يتحرك محوطاً بهالة من أمجاد الماضي يظل يولد حوله أسطورية كالعنقاء لا تندثر ؛ لأن الحكي المتوارث عن المنجزات والخوارق السحرية التي لم يشهدها من يسمعون عنها أو من يحكونها لكنها وصلهم خبرها مجللاً بسلطة أجيال متعاقبة من "الشهادات " المتمثلة في الحكي الشفاهي، يشكل في النهاية ـ خاصة متى أعطى السلطة الإضافية المتمثلة في تسجيله كتابة ـ كلا من خرافات قد رسخت ونمّطت فباتت فولكلوراً لا سبيل إلى سلخه عن الوجود الثقافي للجماعة، ويخلق ـ بذلك ـ جسراً بين عصر ذهبي تقول الحكايات أن تلك الخوارق كانت ممكنة فيه لأسباب غيبية خاصة لم تعد الآن ممكنة ولتوافر قدرات خاصة بها ما نسج من صياغات حول تلك الخوارق تطلق عليه قوى ماض سحيق غائم لم يعد هناك من سبيل للتحقيقي مما وقع فيه، فتمطره بشكل متجدد دؤوب .

وفي هذا السياق سنجد أن التاريخ كثيراً ما يمحو فواصله بين الحقيقة الموضوعية والحقيقة المتخيلة، وقد يحتاج في بحثه عن الحقيقة إلى ترميمات. لا يقربها منه إلا الأسطورة، التي ترتكز على القرابة مع التاريخ. بل إن التاريخ – عبر مراحله المختلفة – قد رافق الأسطورة طوال حقب زمنية عدة ولا عجب – بعدئذ – أن أصبح التاريخ والأسطورة شيئاً واحداً خلال أحد أطوار حياتهما، قبل أن يحدث ذلك الانفصال غير التام بينهما – فيما بعد – إذ تبين لنا من خلال كتابات المؤرخين أن التاريخ بعد دخول أجواء المرحلة الواقعية بنضجه المنهجي أيضاً يرقد إلى أجواء الأساطير، والحكايات الشعبية في رحلة البحث المستميتة، والصعبة في العناصر المنسية، والقلقة لمسيرته، التي تفصح عنها الإشارات ،والإيحاءات، والرموز، والعلامات التي كان قد اختزنها "اللاشعور الجمعي" لدى الجماعات بعامة، والمؤرخين بخاصة، ملتمسين انعكاساتها على كتاباتهم ،ولتقيم القناعة بوجود "اللحمة" بين التاريخ والأسطورة. وإن بدت – تلك

الرموز – مستغلقة، أحياناً لطول العهد، وانقطاع بعض الخيوط، وإعادة صياغتها على يد المؤرخين والرواة.

ولكن دخول هذه الصياغات – في كتب التاريخ التي كتبها المسلمون، لا ينفي أن علم التاريخ عندهم ولد علماً أصيلاً، قائماً على نفس الأصول التي قام عليها علم الحديث وهي؛ الضبط، والدقة والأمانة، وتحري الصدق. لأن هذه التفاصيل الأسطورية لا تدخل إلا فيما يتعلق بأخبار الأمم الغابرة، أو الأمم البعيدة في العصور الماضية – كمصر القديمة – أما صلب تاريخ الإسلام نفسه فقد ظل – إلى حد ما – سليماً في جملته.

كما اتضح أن الأساطير في الدرْس العربي نالت الكثير من أصناف التجني؛ فلتلك الأساطير خصوصية، ينبغي أن تبحث وتدرس بمعزل عن أساطير الشعوب الأخرى. لكي لا تختلط علينا الأمور فنستطيع التعرف على سبب نشأتها، ونتمكن من الوصول إلى مراميها لأنها تنطوي على حقائق دينية، وعلوم سماوية، لا على إكثار خيالي خرافي. مما أضحى الأمر في حاجة ماسة إلى إعادة قراءة الكتابات التاريخية مع ضرورة أن ندقق في روايات كتابنا القدامى. وأن نكون حذرين في قراءة أصولنا وهذه قاعدة أساسية ينبغي أن نسير عليها، حتى نطمئن على صحة نصوصنا ،ولا أقصد بذلك أن نتدخل في النصوص فإن النصوص تراث والتراث لا يمس . ولكن يكفي أن ننبه إلى مواضع الخرافة والأسطورة وتحليل فحواها، والبحث في أصولها ومدلولاتها، مع الحفاظ على خصوصيتها العربية. وضرورة عدم تبني المنظور الغربي لها – بشكل مطلق – حيث أن تبني هذا المنظور عادة ما ينتهي بالباحث إلى حالة من التشكك في بعض الأحيان، أو التشويش في أحيان أخرى.أما مجرد ترديد هذا الاصطلاح والترويج لمفاهيمه في تراثنا العربي والإسلامي، فإنه يفضي إلى حالة من التشتت التي تفتقد إلى أي مدلول.

كما لا يمكن القول: إن مفهوم الأسطورة اصطلاحاً ينتمي إلى الغرب أو الشرق على حد سواء؛ لاختلاف مفهومها في تراث كل منهما .غير أن القرينة التي تجمع بينهما هي مفردة "الأباطيل". بوصفها معنى الأسطورة في جانبها اللغوي، الذي يمكن إسقاطه على الرؤية غير العربية للأسطورة. فحواها أن الأسطورة حكاية مقدسة حول الآلهة وأشباه الآلهة، والقوى الخفية والبشر المتفوقين، لأن هذه الحكاية تغدو محض "أباطيل" أيضاً.

من وجهة نظر دينية سماوية حقه وعلمية صرف.

واتخذت الدراسة من النصوص التاريخية المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين موضع اختبار حقيقي للنهج الذي رسمناه، في استقصاء ملامح الأسطورة من خلال المحاور داخل إطار النص التاريخي ليغدو وسيلتنا، وغايتنا، في آن واحد.لأن ما شجعنا على السير في هذا الاتجاه ؛هو أن الخط الفارق بين التاريخ والقصص ظل غير واضح طوال العصور القديمة والوسطى، فظل المؤرخون – حتى كبارهم – رواة أساطير في نفس الوقت.

تلك الأساطير والخرافات التي تسربت إلى علم التاريخ عند المسلمين قد أتى معظمها من مصدر آخر غير الحديث وهو التفسير. ذلك أن أوائل من تعرضوا لتفسير القرآن الكريم لم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد في النص القرآني من أخبار الأمم الماضية فالتمسوا المادة فيما وصل إليهم من تفاصيل ما روي من هذه الأحداث في الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى وغيرهم. كما أن الأسطورة لم تكن مجرد موروث ثقافي أودع في نص تاريخي، يؤشر سعة اطلاع المؤرخ، ومقدار ثقافته، بل غدت وسيلة لدى المؤرخ لمعالجة النقص الحاد في العناصر المنسية من الماضي، بما يحويه من أصول الكون ،والظواهر والأشياء، الماثلة أمام ناظريه في الطبيعة، أو لتفسير العقائد، والعادات ،والتقاليد، والممارسات الاجتماعية. ولم يكن ثمة بديل عن الأسطورة، التي قامت بتلك الوظيفة الاجتماعية / الثقافية الضرورية.

فضلاً عن تلقي المؤرخ الاستجابة من جمهوره، الذي كان تواقاً إلى معرفة الجديد، ويسره جداً أن يسمع عن الأعاجيب، وهو يميل إلى تصديق كل ما يمكن أن يحسن المؤرخ تصويره له ،ولقد اشبع المؤرخون في الناس هذه الرغبة، بما يمكن أن يتقبلوه، فأتوا بقصص وحكايات، كالقصص المرتبطة بأصل اسم مصر، وأصول المصريين أنفسهم، في مزيج من الخيال، وبين المعلومات الصحيحة المشوهة. بما حملته من دلالات عن اعتزاز المصريين ببلادهم، وعن تنازع نسبة أصولهم إلى الحاميين، تأكيداً لتميزهم عن غيرهم من أهل البلاد المجاورة، أو اليونانيين تحت تأثير التراث الثقافي السائد، بتأثيراته المختلفة أو العرب. بفعل الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر. مما يشير إلى أن تلك الاتجاهات كانت ترضي حاجة ثقافية \ اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع

المصري آنذاك واستطاع المؤرخ – من خلال الموروث الشعبي – أن يحل أكثر المشاكل تعقيداً لاسيما هاجس الأصل والنشأة والجذور.

ورغم تغير الأديان، والمعتقدات ،إلا أننا نجد أثراً للمعتقدات التي حامت حول طوفان نوح، وعلاقته بتاريخ مصر، وما اكتنفه من الغموض، والأساطير، في آراء الرحالة المؤرخين الذين قالوا بعالميته . رغم عدم تصريح النصوص الدينية بذلك، فلم يكن الطوفان عالمياً ،ولم يكن الناجون هم نوحاً وأبناءه وزوجاتهم فقط ،ولم يكن المغرقون كل من على وجه الأرض ،بما في ذلك مصر، بيد أن طوفان نوح كان الباب الذي دخل منه المؤرخون إلى الأساطير، والخرافات التي شاعت عن تاريخ مصر القديمة . والتي تكشف عن مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية القديمة ،كما تكشف عن عجزهم في الوقوف على إجابات تاريخية حقيقة ليبدأ ترقيع هذا النقص عن طريق الخيال المشبع بالمعتقدات الدينية المشوشة. بيد أن بعض تلك الحكايات عن آثار مصر ما برحت تحمل ظلاً أو نواة من الحقيقة التاريخية في غالب الأحوال، خاصة فيما يتعلق بالقصص والحكايات التي دارت في المجتمع المصري ،عن كنوز قدماء المصريين ،التي كانت مخبأة في مقابرهم ومعابدهم والتي ما تزال تكتشف كل حين إلى الآن، فقد كان بعضها حقيقياً على حين حمل الآخر رائحة المبالغة والشطط.

ولكون الخيال ميدانه طلق تختلط فيه الصور وتتوالد كما تشاء دون قيد حتى ليصعب إيجاد الفواصل أحياناً عندما نؤصل لنشأة مصر أرضاً وشعباً وعمراناً فذلك الحدث في ذاته إن شئنا التأريخ له فإنه بلا أدنى شك سيصبح خارج إطار العصور التاريخية وينتمي بشدة إلى عصور الأسطورة مما يجعله يتخطى حدود الزمن وهو ما نتلمسه في كتابات الرحالة والمؤرخين في سياق محاولاتهم للتأصيل لنشأة المدن المصرية وتسجيلهم لتجاربهم ومشاهداتهم الواقعية متعدين منطق العقل أحياناً ومقتربين من الخيال الشعبي والانغماس في عالم الأساطير في وصفهم التفصيلي لمدن مصر التي قد يكون لها وجود فعلي ملموس أو مدن لا وجود لها في عالم الواقع التي كثيراً ما كانت مرتعاً خصباً للخيال تلعب فيه الملائكة وبعض المخلوقات الأسطورية دوراً لا بأس به .

وتنوع المكان عندهم تنوعاً كبيراً؛ فمن المدن والآثار والأصنام التي تسكنها الروحانيات، والكنوز المرصودة، والجبال الشاهقة، والمقدسة والأحجار السحرية.إلى

العيون والآبار، والبرك الغامضة، والقصور المطلسمة، ومن عالم الجن والشياطين والسحرة إلي الحيوانات والطيور، والنباتات العجيبة. في إطار غرائبي أبدعه المعتقد الشعبي المصري، ونقله لنا المؤرخون في كتاباتهم، مستعيرين هيكل الأساطير والحكايات الشعبية، دون المضمون.

فلم يستعينوا بشكل الأساطير ،والحكايات الشعبية الرائجة، آنذاك. بل اكتفوا فقط بروحها، وصبوه في شكل جيد ممزوج بالحقائق التاريخية. الممزوجة بالمعتقدات الشعبية التي تستند على قسط كبير من السحر والخيال الأمر الذي يمكننا من أن نُظهر صلتها بالعقائد والطقوس التي سبقتها في الأزمنة الغابرة فنبين بهذه الكيفية تشكل الطقوس القديمة بعقلية العصر الذي انتهت إليه مما يساعدنا في تقديم قراءة مفتوحة لتلك الممارسات الشعبية في نطاق السحر الشعبي، لاعتقادنا بأهمية الوعي بالموقف الراهن للثقافة الشعبية، وإدراك مكوناتها وعناصرها، وطرحها كوثيقة علمية تاريخية أكثر صدقا واحتراما - أحياناً - من الحولية والوثيقة أو البردية التاريخية التقليدية ؛ إذ إنها - الوثيقة الرسمية - لم تعد تكفي لتوضح لنا وضع المجتمع، والكيفية التي رأى أصحاب ذلك المجتمع أنفسهم، والصورة التي يرسمونها لأنفسهم أو يضعون ذاتهم داخل إطارها .

فلا يزال هذا الموروث يحتل مكانة هامة في حياتنا الشعبية، ويشكل جزءاً لا يستهان به من إطارنا الثقافي، ويرتبط بوشائج خاصة بكل من العالم الفيزيقي والعالم الغيبي، وأضحى جزءاً لا يتجزأ عن تاريخ الوطن والمجتمع والذي هو الشوق حقاً إلى الحياة . وهو يحتاج إلى دراسات تجلو غوامضه وتزيل الصدأ، وترفع منه العوالق وتقدح فيه شرارة الوعي (بتجنب سلبياته التي فرضت علينا قيوداً من السلوك والفكر) - خاصة في ظل اغتراب العلم التاريخي وتجاهله وتهميشه لبعض ممارسات الجماعات الشعبية - لتعطي صوراً أكثر مصداقية عما حوته الكتابات التاريخية ذات الصبغة الرسمية، فالفهم الدقيق للموروث الشعبي هو عصب السياق الحقيقي للتعامل معه، ومن ثم يجب أن ننظر إليه من داخل أنفسنا، ومن خلال أيديولوجية الجماعة الشعبية، بحثاً عن مصادر الإلهام فيه باعتباره إنتاجاً ثقافياً ينطوي على الذات الحضارية .

وقد لا يعتبر هذا البحث متكاملاً في فكرته، فربما ظهرت فيه بعض ثغرات يتعذر

معها تفسير بعض الممارسات والطقوس التي وردت في كتابات الرحالة والمؤرخين ،ولكنه يعتبر في مجموعه محاولة لربط مظاهر تلك الممارسات وتفسير أسباب تنوعها بالرجوع إلى أصولها وتفهمها . إذ إن الفنون الشعبية والعادات التي رصدها لنا المؤرخون والرحالة في سياق كتاباتهم والتي يتحمس لها الكثيرون في الوقت الحاضر نخشى أن نتحمس لها بالكيفية نفسها، فنتحدث عن لسانها، أو نحاول شرحها وفقاً لأمزجتنا، فنرى أنفسنا نبتعد تدريجياً عنها، فهذا النوع من المأثورات الشعبية لا يحتاج إلى عطف أو إنقاذ بقدر حاجته إلى تفهم . وخير ما يحميه من الاندثار هو المعرفة الحقيقة بأصوله التاريخية .

وختاماً... فما من خاتمة فنحن لم نبدأ بعد. في دراسة وتحليل المصادر التاريخية المتعلقة بالحضارة المصرية القديمة ،على الوجه الأمثل. ولم نبرز دلالات ما حملته من أخبار وحكايات شعبية لا نزال نرفضها في البحث، ولا نعتمد عليها بالرغم أنها كانت هي التاريخ الذي يصدقه آلاف وآلاف من الناس – عامة وخاصة – والتي كانت هي التاريخ الذي عاش ولا يزال يعيش عليه الكثير ممن يفوقون قراء الكتب العلمية عدداً وإيماناً بصدق التاريخ... فلنبدأ.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصـادر :

1- الأبشيهي: (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتحي الأبشيهي المحلي) (790-850هـ): **المستطرف في كل فن مستظرف**، جزآن، الطبعة لأخيرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1952م.

2- ابن الأخوة: (محمد بن محمد بن أحمد القرشي) (ت729هـ): **معالم القربة في أحكام الحسبة**، طبعة كمبردج 1937م.

3- الإدريسي: (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبدالله الشريف الحمودي) (ت560هـ:1165م) : **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مجلدان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1994م.

4- الأدفوي : (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن على) (ت748هـ: 1347م) **الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد**، نشر عبد الرحمن على قريط طبع مطبعة الجمالية بمصر، القاهرة 1914م.

5- الأزهري: (أبو منصور محمد بن أحمد) (ت370هـ): **تهذيب اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، الدار القومية للطباعة، القاهرة 1384هـ.

6- الإسحاقي :(محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد الغني بن علي المنوفي): **أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول**، سلسلة الذخائر، العدد 35، القاهرة 1998م.

7- اسحق بن حسين المنجم(أحد علماء القرن الخامس الهجري): **آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان**، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م.

8- الإصطخري: (أبي اسحق إبراهيم محمد الفارسي) : **المسالك والممالك**، تحقيق: محمد عبد العال، سلسلة الذخائر، العدد 119، القاهرة 2004م.

9- أولياچلبي : سياحتنا مه مصر، ترجمة محمد على عونه، تحقيق: عبد الوهاب عزام، وأحمد السعيد سليمان، مراجعة: أحمد فؤاد متولي، الطبعة الأولى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2005م.

10- ــــــ: الرحلة الحجازية، ترجمة : الصفصافي أحمد المرسي، الطبعة الأولى ،دار الآفاق العربية ،القاهرة 1999م.

11- ابن إياس: (أبو البركات محمد بن أحمد) (ت 930هـ): كتاب تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق، مصر المحمية، القاهرة 1311هـ.

12- ابن إياس : كتاب تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985م.

13- ــــــ: بدائع الزهور في وقائع الدهور (مختصر)، طبعة مكتبة الفجر الجديد، القاهرة 2005م.

14- ابن بسام: (محمد بن أحمد بن بسام التنيسي) (عاش أواخر القرن السادس الهجري): أنيس الجليس في أخبار تنيس، تحقيق : جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2000م.

15- ابن بطوطة : (عبد الله بن محمد اللواتي): (732-808هـ): رحلة ابن بطوطة، تقديم: كرم البستاني، دار بيروت للطبعة والنشر، بيروت 1960م.

16- ــــــ: رحلة ابن بطوطة، تحقيق محمد السعيد محمد الزيني، طبعة المكتبة التوفيقية بالحسين، القاهرة، بدون تاريخ.

17- بطرس البستاني: كتاب قطر المحيط، القاهرة، بدون تاريخ.

18- البغدادي: (عبد القادر بن عمر)(ت 1093هـ): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967م

19- البغدادي :(موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على بن أبي سعد ابن اللباد البغدادي) (القرن السادس الهجري): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر: ضمن كتاب عبد اللطيف البغدادي طبيب القرن السادس الهجري، بول غليونجي، سلسلة أعلام العرب، العدد 114، القاهرة 1985م.

20- ـــــ:رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 314، تقديم: عبد الرحمن الشيخ، الطبعة الثانية، القاهرة 1998م.

21- البكري: (محمد بن أبي السرور البكري) (ت1087هـ): الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة، تحقيق وتعليق: عبد الرازق عيسى، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1997م.

22- البلوي : (خالد بن عيسى) (ت765هـ): تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، الجزء الأول، تحقيق: الحسن السائح، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الإمارات، بدون تاريخ.

23- البلوي (أبي محمد عبدالله بن محمد المديني البلوي) :سيرة أحمد بن طولون (تحقيق:محمد كرد علي)، سلسلة الذخائر، العدد 55 القاهرة 1999م

24- البوني(أحمد بن علي بن يوسف البوني) (ت622هـ): شمس المعارف الكبرى المسمى شمس المعارف ولطائف العوارف (مكتبة جمهورية مصر العربية، القاهرة، دون تاريخ)

25- ـــــ: منبع أصول الحكمة (مكتبة عباس شقرون، القاهرة 1956)

26- بنيامين :(ابن يونه التطيلي النباري الأندلسي)(561-569هـ): رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حداد، دراسة: عبد الرحمن الشيخ، الطبعة الأولي، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002م.

27- البيروني: (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني)(ت442:1050م): الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق: إدوارد ساخو (ليبزج 1923).

28- التجيبي: (أبو القاسم بن يوسف السبتي) (ت730هـ): مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس: ليبيا، 1975م.

29- ابن تغري بردي: (جمال الدين يوسف أبو المحاسن) (ت874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى، القاهرة 1942م.

30- الجبرتي : (عبد الرحمن بن حسن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مجموعة أجزاء، تحقيق: عبدالرحيم عبدالرحمن، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة2003م.

31- ابن جبير: (أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني)(1145م:539هـ-1217م:614هـ): رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، مكتبة مصر، القاهرة 1992م.

32- الجزيري: (عبد القادر بن محمد الأنصاري)(ت977هـ): درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السلفية، القاهرة 1384هـ.

33- جوزيف بتس : (رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة والمدينة)، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 189، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1995م.

34- ابن الحاج: (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي)(ت737هـ): **المدخل إلى الشرع الشريف**، أربعة أجزاء، ط1، دار التراث، القاهرة، بدون تاريخ.

35- ابن الحاج التلمساني المغربي : شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى (ط1، مكتبة صبيح، القاهرة و دون تاريخ).

36- أبي حامد :(أبي حامد محمد بن عبد الرحمن الغرناطي الأندلسي)(ت565هـ): **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تحقيق: على عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2003م.

37- الحميري :(محمد بن عبد المنعم)(ت900هـ): **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1979م.

38- ابن حوقل : (أبو القاسم النصيبي): **صورة الأرض**، مكتبة الحياة، بيروت، 1979م

39- الخزرجي :(ابن أبي أصبية موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن يونس): **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، الجزء الثاني، ط1، المطبعة الوهابية، القاهرة 1299هـ.

40- ابن خرداذبة: (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله)(ت300هـ): **كتاب المسالك والممالك**، طبعة بريل 1889م، وطبعة ليدن 1883م.

41- ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي)(ت808هـ): **مقدمة ابن خلدون**، دار الأمين للنشر، القاهرة 1996م.

42- ابن خلدون:**التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً**، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، تقديم: عبادة كحيلة، سلسلة الذخائر، العدد 100، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2003م.

43- ـــــ: **مقدمة ابن خلدون**، ثلاثة أجزاء، تحقيق: على عبد الواحد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م.

44- ـــــ: **تاريخ ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، سبعة أجزاء، تقديم: عبادة كحيلة، سلسلة الذخائر، الأعداد153-159، القاهرة 2007م.

45- ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد)(ت681هـ): **وفيات الأعيان وأنباء**

أبناء الزمان، الجزء3، تحقيق: محمد محيي الدين، ط1،القاهرة 1948م.

46- ـــــ: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: يوسف علي الطويل، مريم قاسم، المجلد الأول، الجزء3، دار الكتب العلمية، بيروت 1998م.

47- ابن دقماق: (إبراهيم بن محمد بن أيدمر)(ت 809هـ): الانتصار بواسطة عقد الأمصار، منشورات المكتب التجاري، بيروت، بدون تاريخ.

48- ابن دريد :(أبو بكر محمد بن الحسين)(ت321هـ): جمهرة اللغة، نسخة مصورة عن طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن 1345هـ دار صادر، بيروت، د.ت.

49- الدمشقي :(شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري الصوفي)(ت727هـ): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة بطربورغ المحروسة، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، 1865م.

50- الرازي :(أبو بكر عبد الله بن شاهاور)(ت654هـ): منارات السائرين ومقامات الطائرين، تحقيق: سعيد عبد الفتاح، القاهرة 1999م.

51- الرازي :(محمد بن أبي بكر بن عبد القادر): مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، الطبعة العاشرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة 1964م.

52- ابن رستة : (أبي علي أحمد بن عمر بن رستة): الأعلاق النفسية، المجلد السابع، طبعة ليدن، 1891م.

53- الزبيدي : (محمد مرتضى الحسيني)(ت1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات دار الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

54- الزمخشري: (جار الله أبي القاسم محمود بن عمر): أساس البلاغة، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، القاهرة 1985م.

55- الزهري: (عبد الله محمد بن أبي بكر) (ت أواسط القرن السادس الهجري): كتاب الجعرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2000م.

56- ابن زولاق : (الحسن إبراهيم بن الحسين الليثي) (306:387هـ): فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق: علي عمر،س.مكتبة الأسرة، القاهرة 1999م.

57- ابن الزيات: (شمس الدين محمد ابن الزيات): الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في

القرافتين الكبرى والصغرى، المطبعة الأميرية بمصر، القاهرة 1907م.

58- السبكي : (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب)(ت771هـ): **معيد النعم ومبيد النقم**، تحقيق:محمد علي النجار وآخرون ،الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، القاهرة 1367هـ/1948م.

59- السخاوي: (شمس الدين محمد عبد الرحمن) (ت902هـ): **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، تحقيق: محمد الخشت، الطبعة1، دار ابن سينا، القاهرة 1989م.

60- ابن سعيد الأندلسي : (أبي الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي)(ت562هـ): **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، الطبعة الأولى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1970م.

61- ـــــ: **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة 1978م.

62- ـــــ: **المغرب في حلى المغرب**، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، تحقيق: زكي حسن وآخرون، سلسلة الذخائر، العدد 89، القاهرة 2003م.

63- السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر الشافعي)(ت911هـ): **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، جزآن، المكتبة التجارية بمصر، القاهرة 1908م.

64- ـــــ: **الرحمة في الطب والحكمة**، مطبعة صبيح، القاهرة، بدون تاريخ .

65- ـــــ: **لقط المرجان في أحكام الجان**، تحقيق مصطفى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة 1988م.

66- ـــــ: **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، الجزء الأول، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار عيسى البابي الحلبي، القاهرة 1967م.

67- ـــــ: **كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة**، تحقيق: محمد الششتاوي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة 1997م.

68- ـــــ: **كتاب التحدث بنعمة الله**، تحقيق: اليزابث ماري سارتين، تقديم: عوض الغباري، سلسلة الذخائر،العدد 106، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2003م.

69- ـــــ: **مقامات جلال الدين السيوطي** "مقامة في وصف روضة مصر تسمى بلبل الروضة " (الجزء الأول، تحقيق/سمير الدروبي، سلسلة الذخائر، العدد163)، القاهرة 2007 م.

70- الشافعي: (محمد بن أبي السرور الصديق) (ت 1087هـ): **القول المقتضب فيما وافق لغة**

أهل مصر من لغات العرب، تحقيق: السيد إبراهيم سالم، مراجعة : إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة 1962.

71- الشرقاوي: (عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الفاقوسي): **تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين**، الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة 1311هـ.

72- الشوكاني : (محمد بن علي)(ت1250هـ): **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**، تحقيق: عبد الرحمن اليماني، تصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الأولى، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة 1960م.

73- أبو الصلت: (أمية بن عبد العزيز الأندلسي)(ت528هـ): **الرسالة المصرية**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ضمن نوادر المخطوطات، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة 1982م.

74- طافور : (بيرو طافور): **رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي**، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، 1968م، وطبعة مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003م.

75- الطاهر: (أحمد الزاوي): **ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة**، الجزء الرابع، الطبعة الثانية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

76- الطبري: (أبو جعفر محمد بن جرير)(ت310هـ): **تاريخ الأمم والملوك**، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية بمصر، القاهرة 1939م.

77- الظاهري: (غرس الدين خليل بن شاهين): **كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تصحيح: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس 1895م.

78- ابن ظهيرة: **الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة**، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، مركز تحقيق التراث، دار الكتب، القاهرة 1969م.

79- ابن عبد الحكم: (عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عثمان عبد الحكم بن أعين بن الليث بن رافع)(ت257هـ): **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2004م.

80- ابن عبد الظاهر: (محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري)(ت692هـ): **الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة**، تحقيق: أيمن سيد، الطبعة الأولى، الدار العربية للكتاب، القاهرة 1996م.

81- عبد الفتاح الطوخي : **النور الرباني في العلم الروحاني** (مكتبة القاهرة، دون تاريخ).

82- ـــــ: سحر الكهان في حضور الجان، مكتبة الجمهورية، القاهرة دون تاريخ.

83- ـــــ: تسخير الشياطين في وصال العاشقين، مكتبة الجمهورية، بدون تاريخ .

84- ـــــ: البداية والنهاية في علوم الحرف والأوفاق والرصاد والروحاني، مكتبة الجمهورية، القاهرة، دون تاريخ.

85- ـــــ: الكباريت في إخراج العفاريت، الطبعة الثانية، مكتبة صبيح و القاهرة 1959م.

86- ـــــ: إغاثة المظلوم في كشف أسرار العلوم (مكتبة صبيح، القاهرة 1926م.

87- العبدري : (أبي عبد الله محمد بن سعود العبدري) (ت700هـ): رحلة العبدري، تحقيق: على إبراهيم كردي، تقديم شاكر الفحام، الطبعة الأولى، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق 1999م.

88- العسقلاني: (أحمد بن على بن حجر): فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبدالله بن محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، الطبعة الثالثة، الجزء السابع، القاهرة 1987م.

89- العمري: (شهاب الدين أحمد بن فضل)(ت742هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الأول، تحقيق: أحمد زكي، القاهرة 1942م.

90- ـــــ: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث، تحقيق: أحمد الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2003م.

91- ابن فارس: (أبو الحسين أحمد بن زكريا)(ت395هـ): مجمل اللغة، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984م.

92- أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، الجزء3، المطبعة الحسينية بمصر، القاهرة، د.ت.

93- الفراهيدي: (الخيل بن أحمد)(ت175هـ): العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الحرية للطباعة، بغداد 1984م.

94- الفيروز آبادي: (أبو طاهر محمد الدين بن يعقوب)(ت817هـ):القاموس المحيط مطبعة السعادة بمصر، د.ت.

95- القزويني: (زكريا بن محمد بن محمود)(ت682هـ): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، الطبعة الخامسة، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1980م

96- ـــــ: آثار البلاد وأخبار العباد، جزآن، الطبعة الأولى، سلسلة الدراسات الشعبية، العددان

77، 78، القاهرة 2003م.

97- ــــ: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تقديم وتحقيق: محمد بن يوسف القاضي، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م.

98- القلصادي: (أبي الحسن على القلصادي الأندلسي)(ت 891هـ): رحلة القلصادي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1978م.

99- القلقشندى: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على)(ت821هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، 14 جزء، القاهرة 1913م.

100- الكتبي: (محمد بن شاكر بن أحمد)(ت764هـ): فوات الوفيات، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية،مطبعة السعادة، القاهرة 1951م.

101- ابن كثير: (الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي)(ت774هـ): البداية والنهاية، الطبعة السادسة، دار المعرفة، بيروت، 2001م.

102- الكندي (أبوعمر محمد بن يوسف التجيبي)(ت350هـ):ولاة مصر (تحقيق:حسين نصار، سلسلة الذخائر، العدد 66)، القاهرة 2001م.

103- الكندي: (عمر بن محمد بن يوسف): فضائل مصر، تحقيق: إبراهيم العدوي، على عمر، مكتبة وهبة، القاهرة 1971م.

104- ــــ: فضائل مصر المحروسة، تحقيق : على محمد عمر، مكتبة الأسرة، القاهرة 1997م.

105- المجريطي(محمود نصار) (ت343هـ): غاية الحكيم (مكتبة الجمهورية، القاهرة)، دون تاريخ.

106- أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف ابن تغري بردي)(ت 874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الخامس، القاهرة 1935م.

107- ــــ: منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، الجزء الثالث، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة 1990م.

108- ابن محشرة: (كاتب مراكشي مجهول)(ت598هـ تقريبا): الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتحقيق: سعد زغلول عبدالحميد، الإسكندرية 1958م.

109- المرزوقي (الشيخ على أبو حي الله المرزوقي):الجواهر اللماعة في استحضار ملوك الجن

في الوقت والساعة، مكتبة القاهرة، 1959م.

110- المسعودي: (أبو الحسن على بن الحسين)(ت346هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض 1973م.

111- ـــــ: أخبار الزمان ومن إبادة الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة، الطبعة الأولى، الرياض، 1415هـ.

112- ابن معصوم : (على صدر الدين أحمد نظام الدين بن محمد)(ت1120هـ): رحلة ابن معصوم المدني سلوة الغريب وأسوة الأريب، تحقيق: شاكر هادي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت 1988م.

113- المقدسي: (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، مطبعة ليدن 1909م.

114- المقريزي: (تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد)(ت845هـ): ضوء الساري لمعرفة خبر تميم الداري،(مخطوط مطبوع غير محقق)، تقديم : ناصر السكران، الطبعة1 ،الرياض، 1423هـ.

115- ـــــ: الخطط المقريزية المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أربعة أجزاء، مطبعة النيل، القاهرة 1325هـ.

116- ـــــ: الخطط المقريزية المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،أربعة أجزاء، طبعة سلسلة الذخائر من طبعة بولاق ،الأعداد51-54، القاهرة 1999م.

117- ـــــ: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، نشر: محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة 1936م.

118- المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: ياسر سيد، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة 1999م.

119- ابن مماتي : (الأسعد بن مماتي الوزير الأيوبي)(ت606هـ): قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة 1943م.

120- موفق الدين: (موفق الدين بن عثمان)(ت615): مرشد الزوار إلى قبور الأبرار المسمى

الدر المنظم في زيارة الجبل المقطم، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1995م.

121- ابن منظور: (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري)(ت771هـ): لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، 1891م.

122- النابلسي: (عبد الغني بن إسماعيل النابلسي النقشبندي)(ت1143هـ): الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر الحجاز، تقديم وإعداد: أحمد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1986م.

123- النابلسي: (أبو عثمان النابلسي الصفدي الشافعي)(ت660هـ): تاريخ الفيوم وبلاده، دار الجيل، بيروت 1974م.

124- ناصر خسرو علوي: سفرنامة، ترجمة: يحيي الخشاب، تقديم: عبد الوهاب عزام، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1993م.

125- ابن النديم: (محمد بن إسحاق الوراق)(ت380هـ): الفهرست، جزآن، تحقيق: محمد عوني وإيمان السعيد، سلسلة الذخائر، العددان 149، 150، القاهرة 2006م.

126- النواجي(شمس الدين محمد بن الحسن)(ت859هـ):حلبة الكميت في الأدب والنوادر والفكاهات المتعلقة بالخمريات ،سلسلة الذخائر، العدد27، القاهرة 1998م.

127- النويري: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري)(ت677هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر الأول، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة،، القاهرة 1979م.

128- الهروي: (أبي الحسن على بن أبي بكر الهروي)(ت611هـ): الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2002م.

129- هيردوت: هيردوت يتحدث عن مصر، ترجمة: محمد خفاقة، دار القلم، القاهرة 1966م.

130- بن وصيف شاه: جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور في أخبار الديار المصرية (تحقيق :محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة 2004م)

131- ابن الوزان: (الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بجان ليون الإفريقي)(ت957هـ): وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، مراجعة: على عبد الواحد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2005م.

132- ابن الوردي: (سراج الدين أبي حفص عمر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، الطبعة الأخيرة، مكتبة عبد السلام شقرون، بدون تاريخ.

133- ابن الوكيل: (أبو الحجاج يوسف بن محمد الملواني)(ت1131هـ): تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق: محمد الششتاوي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة 1999م.

134- ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي)(ت626هـ): معجم البلدان، خمسة مجلدات، طبعة بيروت، 1955م.

135- اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح)(ت284هـ): كتاب البلدان، ليدن 1792م.

136- ـــــ: تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت 1960م.

ثانيا: المراجع العربية:

1- إبراهيم أحمد شعلان: موسوعة الأمثال الشعبية، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1992م.

2- ـــــ: الشعب المصري في أمثاله العامية،الدراسات الشعبية، العدد 87 - 88،القاهرة 2004م.

3- إبراهيم حلمي: كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجاج، سلسلة كتابك اليوم، العدد 320، القاهرة 1991م.

4- إبراهيم خليفة شعلان: النحو بين العرب واليونان، ط1،الدار الأندلسية، الإسكندرية 1991م.

5- ـــــ:ثنائية الألفاظ في العربية أسبابها وأصولها،ط الأولى، الزقازيق 1998م.

6- إبراهيم العدوي:ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب، الأنجلو المصرية، القاهرة 1963م.

7- إبراهيم كامل أحمد: النبش في ركام الخرافة ،مجلة الفنون الشعبية، عدد63/62، القاهرة 2002م.

8- أبو اليسر فرج: **النيل في المصادر الإغريقية**، عين للدراسات والبحوث، القاهرة 2004م.

9- أبو عبد الفتاح علي بن حاج: **فصل الكلام في مواجهة ظلم الحكام**، الطبعة الأولى، دار العقاب، بيروت 1994م.

10- أحمد أحمد بدوي: **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة، بدون تاريخ.

11- أحمد أبو زيد: **الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي**، مجلة عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، الكويت 1985م.

12- ـــــــ: **فريزر والغصن الذهبي**، مقدمة كتاب الغصن الذهبي، الجزء الأول، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 1998م.

13- أحمد إسماعيل النعيمي: **الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام**، الطبعة الأولى، دار سيناء للنشر، القاهرة 1995م.

14- أحمد عبد الرازق: **الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**،مكتبة وهبة، القاهرة 1983م.

15- أحمد عبد الغفور عطار: **الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم**، بيروت 1977م.

16- أحمد شمس الدين الحجاجي: **مولد البطل في السيرة الشعبية**، دار الهلال، القاهرة 1991م.

17- أحمد صبحي منصور: **العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف**، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 186، القاهرة 2000م.

18- أحمد عثمان: **تاريخ اليهود**، الجزء الثالث، مكتبة الشروق، القاهرة 1994م.

19- أحمد علي مرسي: **الثقافة الشعبية والحداثة**، مجلة فصول، العدد 60، القاهرة 2002م.

20- أحمد فؤاد متولي : **مقدمة رحلة أولياچلبي** ،تحقيق عبد الوهاب عزام وآخرون، الطبعة الأولى، دار الكتب، القاهرة 2005م

21- أحمد كمال ذكي: **الأساطير دراسة حضارية مقارنة**،الطبعة الثانية، قصور الثقافة، القاهرة 2000م.

22- أدولف إرمان : **ديانة مصر القديمة**، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، محمد شكري، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1997م.

23- آدم متز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، الجزء الثاني، الألف كتاب الثاني، الطبعة الثالثة، القاهرة 2003م.

24- أرنست كاسيرر: **الدولة والأسطورة**، ترجمة: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1975م.

25- إسماعيل عبدالمنعم قاسم: **الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية**، رسالة ماجستير – غير منشورة – كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1988م.

26- ألفرد . ج . بتلر: **فتح العرب لمصر**، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1946م.

27- الكسندر أغناتنكو :**بحثاً عن السعادة** ،دار التقدم، موسكو 1990م

28- أليكسي لوسيف: **فلسفة الأسطورة**، ترجمة: منذر حلوم، الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر، دمشق 2000م.

29- إميل لودفيغ:**النيل حياة نهر**، ترجمة: عادل زعيتر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2000م.

30- آن وولف: **كم تبعد القاهرة؟**، ترجمة: قاسم عبده قاسم، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 1053، القاهرة 2006م.

31- آنار رويز: **روح مصر القديمة**، ترجمة: إكرام يوسف، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 965، الطبعة الأولى، القاهرة 2005.

32- أنطوان ثورلبي: **اللغة والأسطورة**، ترجمة: منيرة كروان، سلسلة دار عين للدراسات، العدد 8، الطبعة الأولى، دار عين، القاهرة 1997م.

33- بريان . م . فاجان: **نهب آثار وادي النيل ودور لصوص المقابر**، ترجمة: أحمد زهير أمين، مكتبة الأسرة 2003م.

34- بيريل سمالي: **المؤرخون في العصور الوسطى**، ترجمة: قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1984م.

35- توفيق الطويل: **التصوف في مصر إبان العصر العثماني**، الجزء الثاني، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 23، القاهرة 1988م.

36- ثناء أنس الوجود:رمز الماء في الأدب الجاهلي،ط الأولى، مكتبة الشباب، القاهرة 1986م.

37- ـــــ: تجليات الطبيعة والحيوان في الشعر الأموي، طبعة الشركة المصرية العالمية للنشر، ، القاهرة 1998م .

38- ـــــ: رمز الأفعى في التراث العربي، سلسلة ذاكرة الكتابة، العدد11، القاهرة1999م.

39- جمال عبد الهادي، وآخرون: تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام وإيران وتركيا منذ أقدم العصور، دار الشروق، جدة، د. ت.

40- چورج بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة: أمين سلامة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2001م.

41- چون أنتيس :مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر(1770-1782)،(ترجمة سيد الناصري ،سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد22، القاهرة 1997م

42- جيمس فريزر: الغصن الذهبي-دراسة في السحر والدين، ترجمة: أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف، القاهرة 1971م.

43- ـــــ: الفولكلور في العهد القديم (التوراة)، جزءان، ترجمة: نبيلة إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1982م.

44- جيمس هنري برستد:فجر الضمير،ترجمة: سليم حسن، س مكتبة الأسرة، القاهرة 2000م.

45- حسن إبراهيم حسن:الأزهر تاريخه وتطوره، ط وزارة الأوقاف، القاهرة 1964م.

46- حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب. الهيئة المصرية العامة، القاهرة 1976م .

47- حسين مؤنس: نشأة التدوين التاريخي عند العرب، النهضة المصرية، القاهرة،د.ت.

48- ـــــ: ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل،دار المعارف،القاهرة1980م

49- ـــــ: التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ، دار المعارف، القاهرة 1984م.

50- ـــــ: الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها،الطبعة الثانية، سلسلة عالم لمعرفه، العدد 237، الكويت 1998م.

51- ـــــ: تنقية أصول التاريخ الإسلامي، القاهرة 2005م.

52- حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، العدد 138، الكويت 1989م.

53- درويش الأسيوطي : أشكال العديد في صعيد مصر،سلسلة الدراسات الشعبية، العدد105، القاهرة 2006م

54- دونالد مالكولم ريد: فراعنة من؟، ترجمة: رؤف عباس، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 708، القاهرة 2005م.

55- رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الطبعة الثانية، مكتبة الخانكي، القاهرة 1985م.

56- سامي عبدالوهاب بطة: الحكاية الشعبية دراسة في الأصول والقوانين الشكلية، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 86، القاهرة 2004م.

57- سامية حسن الساعاتي : السحر والسحرة بحث في علم الإجتماع الغيبي، الطبعة الثانية ،دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة 2002م

58- ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم وآخرون، مكتبة الأسرة، 1977م.

59- سعد الخادم : الفن الشعبي والمعتقدات السحرية (سلسلة الألف كتاب، العدد 488،القاهرة)

60- سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، جزءان، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1963م.

61- ـــــ:المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، النهضة العربية،القاهرة 1992م.

62- ـــــ: السيد البدوي شيخ وطريقة، سلسلة تاريخ المصريين،ع 123، القاهرة 1998م.

63- ـــــ:الظاهر بيبرس، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 207، القاهرة 2001م.

64- سليمان محمود حسن :الرموز التشكيلية في السحر الشعبي (سلسلة آفاق الفن التشكيلي، هيئة قصور الثقافة، القاهرة 1999م.

65- سليم حسن: أبو الهول تاريخه في ضوء الكشوف الحديثة، ترجمة: جمال الدين سالم، مراجعة: أحمد بدوي، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1999م.

66- سليم عرفات المبيض: ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م.

67- سَهير القلماوي:القصص الشعبي،مجلة عالم الفكر، المجلد3، العدد الأول، الكويت 1972م.

68- ـــــ: ألف ليلة وليلة، تقديم: جابر عصفور، مكتبة الأسرة، القاهرة 1997م.

69- سيد أحمد الناصري:الإغريق تاريخهم وحضارتهم، الطبعة2،النهضة العربية، القاهرة 1977م

70- سيد خميس: القصص الديني بين التراث والتاريخ، مكتبة الأسرة2001م.

71- ـــــ: وصل ما انقطع قراءات في التراث العربي، مكتبة الأسرة،القاهرة 2002م

72- سيدة إسماعيل كاشف: دراسة نقدية لكتاب حسن المحاضرة للسيوطي، ضمن كتاب "جلال الدين السيوطي"،الأولى، الهيئة العامة، القاهرة197م.

73- سيمسون نايوفتس: مصر أصل الشجرة، السياقات، الجزء الأول، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 993، القاهرة 2006م.

74- شوقي عبد القوي حبيب : التاريخ الشفاهي لقريتي باريس والقصر، مجلة الفنون الشعبية، العدد53،القاهرة1996م.

75- شفيق مقار: السحر في التوراة والعهد القديم، الطبعة الأولى، دار رياض الريس، بيروت/ لندن 1990م.

76- شكري محمد عياد:البطل في الأدب والأساطير، الطبعة الثانية، دار المعرفة، القاهرة 1960م.

77- صلاح الراوي: الفلكلور في كتاب حياة الحيوان للدميري، الجزء الأول، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 73، القاهرة 2003.

78- صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ترجمة: أحمد عبد الحميد يوسف، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر،، القاهرة 1974م.

79- عبد الباسط سيدا: من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري بلاد ما بين النهرين تحديداً، ط.1، دار الحصاد، دمشق 1995م.

80- عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية،س المكتبة الثقافية، العدد 200، دار القلم، القاهرة 1968م.

81- عبد الحميد يونس: التراث الشعبي، سلسلة كتابك، العدد 91، دار المعارف،القاهرة 1979م.

82- ـــــ: الفولكلور والميثولوجيا،عالم الفكر،المجلد3، العدد1،الكويت 1972م.

83- ـــــ:الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي،الدراسات الشعبية، العدد81، 2003م.

84- ـــــ: مجتمعنا، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2004م.

85- عبد الحليم حفني: المراثي الشعبية العديد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1997م.

86- عبد الغني الشال : عروسة المولد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2003م.

87- عبد العزيز صالح: حضارة مصر القديمة وآثارها، جـ1، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة 1962م.

88- عبد العزيز غنيم: على هامش الفتح الإسلامي لمصر، ضمن كتاب مصر والإسلام، إعداد لجنة السيرة والتاريخ الإسلامي، القسم الأول، سلسلة دراسات إسلامية، العدد 96، القاهرة 2003م.

89- عبد الفتاح رواس قلعة جي: رموز وأساطير في الموروثات الشعبية، مجلة التراث العربي، العدد 68، دمشق 1997م.

90- عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي، الطبعة الأولى، مطبعة دار التأليف، القاهرة . د . ت.

91- عبده الراجحي: اللهجات العربية في القراءات القرآنية، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرياض 1999م .

92- علي عبد الحليم محمود: القصة العربية في العصر الجاهلي، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1979م.

93- عمرو عبد العزيز منير :العمران في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين دراسة مقارنة في كتابات الرحالة، رسالة ماجستير- غير منشورة ـ آداب الزقازيق 2004م.

94- ـــــ : الشرقية بين التاريخ والفولكلور، دار الإسلام للنشر، المنصورة 2004م.

95- فاروق أحمد مصطفى: الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 96، القاهرة 2004م.

96- فاروق خورشيد: الأسطورة عند العرب، مجلة الدوحة القطرية،قطر1976

97- ـــــ : جولة في التراث، معادن الجوهر، مكتبة الأسرة، القاهرة 1999 م.

98- فتحي الصنفاوي: مدخل إلى دراسة المأثورات الشعبية الغنائية الفلكلور الغنائي، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2001م.

99- فراس السواح: مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة السورية وبلاد الرافدين، الطبعة العاشرة، دار علاء الدين، دمشق 1993م.

100-ـــــ: الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، الطبعة الأولى، دار علاء الدين، دمشق 1997م.

101-فوزي العنتيل: عالم الحكايات الشعبية،س الدراسات الشعبية،ع 36، القاهرة 1999م

102-قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة 1978م.

103-ـــــ :الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة 1979م.

104-ـــــ: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1983م .

105-ـــــ:الرؤية الحضارية للتاريخ قراءةفي التراث التاريخي العربي، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1985م .

106-ـــــ: ماهية الحروب الصليبية، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة 1993م.

107-ـــــ:عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة 1993م.

108-ـــــ : بين التاريخ والفولكلور، الطبعة الثانية، دار عين للدراسات، القاهرة 1998م.

109-كارم محمود عزيز: دراسة لأهم العناصر الأسطورية في كتاب العهد القديم في ضوء أساطير الشرق الأدنى القديم، رسالة ماجستير – غير منشورة- المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق 1993م.

110-ـــــ :النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم دراسة مقارنة، رسالة دكتوراه – غير منشورة – المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق 1997م.

111-ـــــ: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 66، القاهرة 2002م.

112-ك . ج . يونج: علم النفس التحليلي، ترجمة: نهاد خياطة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة

2003م.

113-لطفي حسين سليم:الأسطورة والإسرائيليات، س الدراسات الشعبية ،ع 52،القاهرة 2000م.

114-لطفي حسين سليم: الأسطورة في الأدب العربي أولا في الأدب الجاهلي، مجلة الفنون الشعبية، العدد 60-61، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2001م.

115-ـــــ: الأسطورة في التراث الديني، مجلة الفنون الشعبية، عدد 64-65، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2003م.

116-مجدي محمد شمس الدين:القص بين الحقيقة والخيال، مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م.

117-مجموعة من الباحثين: الأسطورة توثيق حضاري، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين 2005م.

118-ـــــ: اللسان العربي بُعد فطري وارتباط كوني، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين 2005م).

119-مجموعة من الباحثين:طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين 2005م.

120-ـــــ :مسخ الصورة سرقة وتحريف تراث الأمة، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين 2005م.

121-محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 152، القاهرة 1999م.

122-مختار علي أبو غالي: الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر، مشروع نظري، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م.

123-محمد الجوهري :المشتغلون بالسحر في مجتمع اليوم، مجلة الفنون الشعبية، العدد19، 1987م.

124-محمد الحامدي: الطوفان بين الحقيقة والأسطورة،مجلة التراث العربي ،العدد 58،دمشق 1995م

125-محمد حرب: قاهرة القرن السابع عشر في رحلة أولياچلبي، دراسة بمجلة الهلال، عدد يناير، القاهرة 1986م

126-محمد حسن محمد: الأسرة المصرية في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير – غير منشورة – آداب الزقازيق 1989م.

127-ـــــ:الأبعاد الاجتماعية لظاهرة التصوف عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه – غير منشورة – آداب الزقازيق 1996م.

128-محمد خليفة حسن: آثار الفكر الإستشراقي في المجتمعات الإسلامية، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة 1997م.

129-ـــــ: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم دراسة في ملحمة جلجامش، دار عين للدراسات، القاهرة 1997م.

130-محمد خليفة حسن: رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة 1998م.

131-محمد رجب النجار: الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، الكويت 1982م.

132-ـــــ: الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي، سلسلة الدراسات الشعبية العدد 110، القاهرة 2007م.

133-محمد عبد السلام إبراهيم: مصر في التراث الإسلامي، طبعة جامعة الزقازيق 1998م.

134-محمد عبد الله عنان:مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مكتبة الأسرة، القاهرة 1998م.

135-ـــــ: مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1999م.

136-محمد عبد المعين خان: الأساطير والخرافات عند العرب، الطبعة الثالثة، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1981م.

137-محمد عمارة: عندما دخلت مصر في دين الله دراسة ضمن كتاب (أثر الإسلام في مصر) إشراف: قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، هيئة قصور الثقافة، القاهرة 1999م.

138-ـــــ ::أثر الإسلام في مصر وأثر مصر في الحضارة العربية الإسلامية، دراسة ضمن كتاب (أثر الإسلام في مصر) إشراف: قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، هيئة قصور الثقافة، القاهرة

1999م.

139-محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة 1996م.

140-محمد كمال الدين عز الدين محمد: الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة دراسة عن التاريخ والمؤرخون، المجلد الثالث، رسالة دكتوراه – غير منشورة – كلية البنات، جامعة عين شمس 1989م.

141-محمود رزق سليم: النيل في عصر المماليك، سلسلة المكتبة الثقافية، العدد 132، دار القلم، القاهرة 1965م.

142-مصطفى عبد الحليم متولي :قصة موسى في أعمال المفسرين دراسة مقارنة، رسالة ماجستير -غير منشورة -، كلية الآداب، جامعة الزقازيق 1984م

143-ميكل ونتر : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 2007م.

144-ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، الطبعة الأولى، دار النشر للجماعات، القاهرة 1995م.

145-نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني المصري، القاهرة 1962م .

146-هاري إلمر بارنر: تاريخ الكتابة التاريخية، الجزء الأول، ترجمة: محمد عبدالرحمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1984م.

147-وديع بشور: الميثولوجيا السورية أساطير آرام،ط1، دار الحوار للنشر، دمشق 2001م.

148-ويليام رو، وفيفيان شلنج: الذاكرة والحداثة الثقافية الشعبية، ترجمة: منى برنس، مراجعة : أحمد علي مرسي، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 701، القاهرة 2005م.

149-ي. ب. ليبنر: كل أساطير إسرائيل (معدة وفقا للمصادر الأولى ومكتوبة بلغة المقرا وفق ترتيب زمني)، القسم الأول، نشر، دار "أحيا ساف"، "وعيفر"، أورشليم 1950م.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

1. Cassirer, Ernest, Lang uoge and My th, translated from German by Susanne K. Langer. Bover publications, Inc., U.S.A 1946.

2. David, Adam Leeming, My theology the voyage of Hero. New York, 1973.

3. Malinowsk. Magic. Science, and Religion: Garden city. New York. 1954.

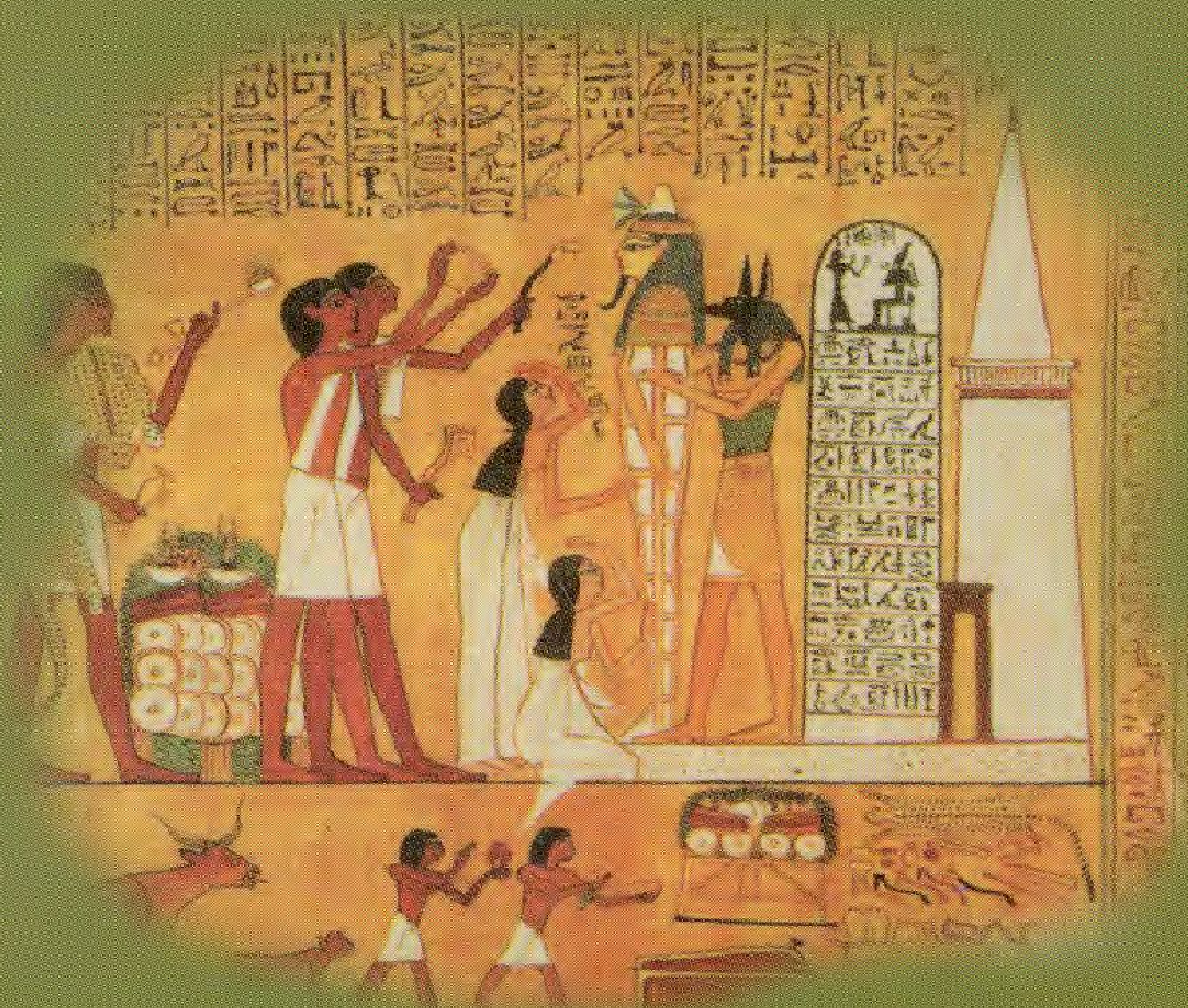
4. Malinowski, Bronislaw, Magic. Science and Religion, and other Essays, Doubleday, Company, Inc, New York, 1954,

5. Montague, Ashley, Man: his first million yers. The New American Library, New York, 1957 Money – Kyrle, Roger. Superstition and society Hogarth Press. London, 1939

6. Robertson smith, the Religion of thesemites. The meribian library published by Merid and Books .New York 1956. P.18.

Tiliyard, E.M.W, My the and the English Mind, Col-lier Books, New York, 1961.

المحتويات



الحضارة المصرية القديمة

بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية

مكتبة النافذة